

مدير أوس حزان مع أعضاء  
مجلس المجلس الوطني للشباب والشباب

# عالم الفكر

العدد 3 المجلد 30 يناير - مارس 2002

## رئيس التحرير

د. محمد الرميحي  
mremhi@hotmail.com

## مستشار التحرير

د. عبد الملك التميمي

## هيئة التحرير

د. خليل القسيبي  
د. رشا أحمد الصباح  
د. فلسطين صبري  
د. بدر مبال الله  
د. محمد القسيبي

## مديرية التحرير

لؤي التميمي

## سكرتير التحرير

عبد العزيز سمود الزواوي

تم الطبع والإخراج والتوزيع  
بوحدة الإنتاج على المجلس الوطني  
للثقافة والفنون والآداب

الكويت



مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب  
مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب  
مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب  
مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

## سعر النسخة

الكويت ودول الخليج 1000  
الدول العربية 1000  
خارج الوطن العربي 1000

## الاشتراكات

### دولة الكويت

للأفراد 1000  
للمؤسسات 1000

### دول الخليج

للأفراد 1000  
للمؤسسات 1000

### الدول العربية

للأفراد 1000  
للمؤسسات 1000

### خارج الوطن العربي

للأفراد 1000  
للمؤسسات 1000

أشكر القائمين على هذا المشروع المتميز  
الذي يهدف إلى نشر الثقافة والفنون والآداب  
في الوطن العربي والعالم العربي  
والتي هي من أهم أهداف المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب  
ص.ب. 51996 - الكويت - الكويت  
دولة الكويت

## شارك في هذا العدد

- د. خالد بن حسن العتيق
- د. النجدي الزبيدي
- د. محمد شكري سلام
- د. علي اسعد وثيقة
- د. عبد الرحمن الاحمد
- د. خالد سليمان
- د. سوسن مرقاة
- د. سيد أبو طيف اعيت
- د. أحمد يوسف
- د. عباد فوزي شعبي
- د. وليد الهادي الزهرى
- د. سلطان مصطفى
- د. عبد الرحمن الصليحان

## قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث الثمينة وفقا للقواعد التالية:

- 1 - أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.
- 2 - أن يتبع البحث الأصول العلمية للمعارف العلمية والمصادر الموثوقة والمصادر مع إلحاق كشف المصادر أو التراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.
- 3 - يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين 12 ألف كلمة و 16 ألف كلمة.
- 4 - تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة، ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 5 - نخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري.
- 6 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
- 7 - تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر. وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

■ المواد المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

■ ترسل البحوث والدراسات باسم: الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

من: ص.ب. 11996 - الضعفة - الزمر البريدي 11100 دولة الكويت

البريد الإلكتروني: [info@wacul.org.kw](mailto:info@wacul.org.kw)

## ■ في الفكر الاجتماعي

7 الأثر المستقبلي للفكر الاجتماعي العربي ..... د. عفيف عمن الشبيب

27 ملامح لسيولوجيا الشباب ..... د. الشهي الدين

33 سيولوجيا التمديد والتغير في المجتمع القروي ..... د. محمد شكري سلام

79 التصب مادية وانتشارا في الوطن العربي ..... أ. د. علي أحمد وطلة  
أ. د. عبدالرحمن الأحمد123 أعضاء على ظاهرة عمالة الأطفال ..... أ. هادي سليمان  
أ. مومن مرفعة

## ■ أطراف قضية

151 المشاركة السياسية في الفئة السبسي المأخوذ ..... د. سيد أبو زيد أحمد

173 الأبعاد السيولوجياية لطريقة القراءة ..... د. أحمد يوسف

197 نقد السلطة الديمقراطية ..... د. محمد فوزي شبيب

221 الزداج الإداري في ظل الديمقراطية ..... د. رندة الباهي الزهري

243 قوة العلم العربي: بعد الوجود العربي الضائع ..... د. عدنان مصطفى

271 الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية ..... أ. عبدالرحمن السليمان

## تقديم

## يلقى

محور هذا العدد من مجلة «عالم الفكر» بعض الضوء على الفكر الاجتماعي. وليس من اليسير بالطبع أن نطرح محوراً كهذا من دون نماذج تطبيقية. ومع أننا نعترف

بالتقص في جوانب من الفكر الاجتماعي لم يصب بها هذا المحور، إلا أن الموضوعات التي شملها العدد تنسم بأهمية كبيرة في هذا المجال. ففي البحث الأول الممنون بـ «الأفاق المستقبلية للفكر الاجتماعي العربي» يتناول الباحثة مفهوم الفكر الاجتماعي، مركزاً على حالة الفكر الاجتماعي العربي تحديداً، وهو يهدف إلى إظهار أهميتها في المجتمعات الناشئة على حساب الحاضر والمستقبل. معتمداً أن المواجهة بين التراث والمعاصرة هي قضية مفتعلة ومصطنعة. ويطرح الباحثة بعض الأفكار التي ربما لا تكون مألوفة في مجال النقد الاجتماعي، فيذهب - مثلاً - إلى أن السياسة أصبحت مشروعات الفوضى العربي بكل أبعادها، مما أدى إلى انتشار التعصب، كما يرى أن الدور الأساسي للفكر الاجتماعي لا يكون مستمراً إلا في ظل الديمقراطية. ويناقش البحث الثاني «مقدمات موسيولوجيا الشباب»، مستعرضاً مفاهيم أساسية هي الدراسات التي تتناول الشباب وقضاياهم. مركزاً على مختلف الشرائح العمرية وخصائص كل مرحلة، مع التأكيد على النموذج العربي في المشكلات الشبابية.

أما البحث الثالث فيتناول «التحديث والتغير في المجتمع القروي». المجتمع القروي نموذجاً، ويركز على مفهوم «التحديث والتغير» الذي هو مغاير ومتماثل مع مفهوم «التغيير». غير أن الباحثة تؤكد أن مناقشة عملية التحديث في القروب لا تعني نجاحها، ويرى أن التجربة في الريف المغربي قد انطلقت من قاعدة واقعية تمثلت في مشروع الدولة في تطبيق الإصلاح



الزراعي. أما البحث الرابع فيتمثل بظاهرة التعصب، وهو دراسة تطبيقية أجريت على عينات من طلبة جامعة الكويت، ويرى أن التعصب حالة من التعصب الفكري أو الجمود العقائدي، عازيا الظاهرة إلى الجهل وإلى النهج التربوي الذي فشل في الحد من هذه الظاهرة من خلال الأسرة والمدرسة. أما الدراسة الأخيرة في المحور فهي تتناول ظاهرة عمالة الأطفال، ويقر الباحث بأن مفهوم هذه الظاهرة يكلفه القموض والالتباس. محاولا استقصاء التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والتنسية لهذه الظاهرة، مع التركيز على التشريعات القانونية في هذا الموضوع.

ويحتوي العدد - إلى جانب محور الرئيسي - على دراسات أخرى متنوعة. ولعل مجلة «عالم الفكر» من خلال هذه المجموعة من الأبحاث، تكون قد ساهمت في هذا العدد - مساهمة مُرضية، تهدف إلى إغناء الفكر الاجتماعي وتطبيقاته. وهو أحد المجالات المهمة والمؤثرة التي تخص الفكر العربي والإنساني في مرحلة تشهد فيها مجتمعاتنا التهوؤ والتقدم.

رئيس التحرير

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

# الأفاق المستقبلية

## الفكر الاجتماعي العربي (١)

د. محمد بن حسن النقيب\*

### مقدمة

### الفكر الاجتماعي في سياق التسوية

يقول الفيلسوف الصيني تشينغ إن القضايا الكبرى مثل الجوع والمرض من الأفضل الخروج منها بأسرع من دخولها. وسوف أحاول أن أدخل في موضوع مثل الذي لم يصل بقضية كبرى لمعالجة، ولكنني لا أدري إن كنت سأوفق في الخروج منه بالسرعة نفسها.

وعليها الموضوع هي المعالجة هناني أقصد بالفكر هنا ذلك الجانب من الثقافة الذي يتعلق بما يطلق عليه مانهام الفلتشلاووتش، الإطار المرجعي من قيم ومعايير وأساليب في التفكير وهي إصدار أحكام تتجاوز الواقع العيش. ولتوسيم حدود الخيلة الاجتماعية. بما هي ذلك العلوم بفرعها الثلاثة: الطبيعية والاجتماعية والإنسانية. والفكر تحديدا يتجاوز شطخص الفكر إلى الحركات والمدارس الفكرية، التي تمثل عوالم الدين والسياسة والعلم والثقافة، ففكر الفكر لا يعود ملكا له بمجرد أن يخرج به إلى الناس.

إن أحد تجليات الإطار المرجعي هنا ما يطلق عليه تشومسكي: حدود الفكر الممكن التفكير فيه (The Boundaries of Thinkable Thought)، «المنح المنحني العام السلبي الآن. والأثر الطاقسي الوسائل الإسلام (والقيود التي تفرضها اللغة على التفكير). لا تحدد ما نستطيع أن نفكر فيه وتؤمن به». (الافتقار من جلال أمين في يومين بوزيد وآخرين. ١٩٩٩).

(\*) استاذ علم الاجتماع - جامعة الكويت.

ولذلك فإن للفكر سياقاً تاريخياً يحدد حدود الفكر الممكن التفكير فيه. ولا يمكن التفكير بالفكر خارج السياق التاريخي والمرحلة التي يمر بها. وإذا ما تأملت عوالم الفكر الثلاثة: الدين - السياسة - العلم والثقافة، نستطيع أن نكتشف القوى المحركة للفكر بإرجاعها إلى البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها الأفكار والتطلعات والنوازع والأيديولوجيات (المصالح)، التي وقفت وراءها، والتي دفعت إلى قيامها، سواء أكان ذلك بواسطة علم اجتماع المعرفة أم الأستيمولوجيا. وهي اللغة الاصطلاحية المتداولة هذه الأيام لنقول إننا نكتشف طوبولوجيا الأفكار وحفاتها (أركيولوجياتها). ولكن جزئياً العرف بين مورخي الفكر على التمييز بين سياق الاكتشاف والابتكار، وسياق التسويق والتبرير للأفكار؛ فسياق التسويق مستقل نسبياً عن السياسة والأيدولوجيا. ولكن إذا استطعنا من ماذا بعض الناس، دون غيرهم، يتبنون أفكاراً معينة، ولماذا هي هذه الأيام بالذات، فإنته الفكر في سياق الابتكار، وهنا يلعب العامل الشخصي - الذاتي دوراً مهماً، بغض النظر عن صدق الأفكار وصحتها (Steven J. Gould, in Bruckman, 1995:60).

وسوف أعنى في هذا البحث باستعراض واستجلاء بعض الأفكار في السياق الثاني: سياق التسويق، والتي تمثل تحديات صعبة للفكر الاجتماعي المعاصر، دون أن أدخل في نقاش تفصيلي معها في السياق الأول؛ لأن ذلك يمثل مهمة أخرى لها متطلباتها الخاصة.

### الاحتلال المستقل العربي

لقد اشغل الفكر - أو بعمق أدق، اشغلت التيارات الفكرية العربية المعاصرة بالأماني بدرجة لافتة، وبالتراتبية صياغة وتوصيفها وتعديلاتها. مما دفع السيد ياسين إلى اعتبار هذا النهج، الذي يتشغل بالأماني

عن المستقبل، أنه بمنزلة العضلة الحقيقية التي تكبل قدرات الباحث العربي، والتي بموجبها يُعْتَقل المستقبل العربي، الذي يُشار إليه فيه، الأنظمة السياسية العربية، والأحزاب والقوى الاجتماعية، والمثقفون العرب أنفسهم، (السيد ياسين، ١٩٩٨) <sup>١</sup>.

وباستعراض بسيط للمشاريع الفكرية لأهم الفكرين العرب المعاصرين، الذين يمثلون تيارات فكرية يوضح ما يرمي إليه السيد ياسين؛ فمعتهم من حاول إعادة تفسير التراث باستعمال أدوات معرفية حديثة، على سبيل المثال: محمد عابد الجابري، ومحمد أركون وحسن حنفي، وتيسر حامد أبو زيد وفهمي جدعان، ومنهم من حاول أو يطبق التفسير المادي للتاريخ أو يطبق أفكار النزعة التاريخية (التاريخانية)، مثل عبد الله العروي، وسعير أمين، والطبيب فيزيقي، وأحمد صادق سعد، وحسين مروة، ومنهم من استلهم للمناهج الحديثة في العلوم الاجتماعية في فهم التراث مثل علي الوردي وهشام شرابي وسعد الدين إبراهيم، ومحمد جابر الأنصاري (انظر مثلاً: علي العميم، ١٩٩٩).

هذا الانشغال بالناضي لا يدفعنا إلى القبول بالصورة الإيجابية لتعبير «اعتقال المستقبل العربي» على ظاهر اللفظ فقط، وإنما هو أسلوب للكشف عن زيف السياسة وإدعاء العلم بالوضعية، وعن التزعة الرجعية في التفسير الديني كما قدمنا. هذا الانشغال بالناضي مازال يقتصر إلى الأطروحة الأصلية (Original Thesis) التي يمكن أن تتمحور حولها حركة فكرية قادرة على تحويل الفكر من قهود الماضي، وتجعله قادراً على استشراف المستقبل (انظر مثلاً محاولة أحمد القادري، ١٩٩٩، من بين مجتهدين مجتهدين آخرين).

لنأخذ مثلاً الجابري واستعماله لفهوم الأستيمية بإرجاع العقل العربي إلى أصوله الثلاثة: العرفانية، والبيانية، والبرهانية، فهو يرمي إلى الكشف عن الوظيفة الأيديولوجية (السياسية والاجتماعية) للتفكير. أو محمد أركون في استعماله لفهوم الميثاق الاجتماعي في محاولة فهم تشكيل الوعي الإسلامي. أو لجوء نصر حامد أبو زيد إلى استعمال «علم العلامات» في التفتيش والكشف عن الجذور المعرفية الأساسية لأليات الفهم والتأويل في التراث (الاقتباس في برهان زريق، ١٩٩٧).

إن أخطأنا مجمل هذه الأفكار فإنها تمثل حركة فكرية في محاولة لإعادة كتابة التاريخ الفكري العربي، ولكنها لا تمتلك الأطروحة الأصلية التي تستطيع أن تحلّق القطيعة المعرفية، التي نطلق عليها التحول البراديمي (Paradigmatic Shift)، حسب تصور توماس كون، بالرغم من الخدمة التي تصديها لنا في الكشف عن المحتوى الأيديولوجي المتخفي في الفكر الديني، والتي نلجأ إليها ونطبق وربما بدرجة أكبر، على من يستعمل أسلوب المصيدة في الكشف عن هذا المحتوى الأيديولوجي، ولكن من وجهات نظر مختلفة، كما فعل صادق جلال العظم في نقده للفكر الديني، وكذلك فعل هشام شرابي في اعتقاده بأن النبوة، البعثة، الأبوّة العربية، هي مصدر التخلّف العربي، وهي التي تؤدي إلى «الإقصاء الفكري». وأيضا صادق النيهوم في اعتباره أن الثقافة العربية مزورة بسبب الأخطاء الفاحشة في التفسير الفقهّي للإسلام الرسمي. الأمر الذي يدفعه إلى اللجوء بالمعوية إلى «الفقه الجماهيري»، وإحياء روح الجامع من المسجد.

## الأصالة والمعاصرة وتحويل التراث

الاهتمام الثلاث بالناضي ولّد مواجهة مضطربة أصبحت تعرف بالتوجه بين الأصالة (التراث) والمعاصرة (العلم الحديث). وهي مواجهة مضطربة لأن التراث، «يختلج» اختراقاً حسب تعبير أريك هويسوم، وإن كل مرحلة تاريخية تخلق تصورها الخاص لتراثها، والتراث الذي نتحدث عنه الآن هو تراث لا يزيد عمره على عمر «عصر النهضة» في بداية القرن التاسع عشر، وهذا التراث «بالحق المعاصر». قد نشأ من خلال حوار طويل مع الأفكار والقيم الغربية أو الأجنبية الاستشرافية. وكذلك المعاصرة لا يمكن أن تستلهم من دون الانتماء إلى إرث حضاري وهوية ثقافية.

إن أحد مصادر هذه المواجهة المتفعلية بين الأصالة والمعاصرة تنصب مرة أخرى ليس على رفض العدائنة بعد ذاتها، وإنما على العنصر السياسي، هذه العلاقة القلقة بين النموذج التراثي للدولة والمناداة بالديموقراطية والتعددية وتداول السلطة، ولما كان الإسلام (التفكير الديني) لا يوفر غطاء أيديولوجيا للنموذج التراثي للدولة (ملف العدد، 2000): فإن نموذج نظام الحكم في الدول العربية يستند أساسا إلى العرف القبلي كلها (الأنصاري، 1998). ولكنه عرف تبلور في إطار المعاصرة، بحيث أصبح قادرا على التكيف مع بيئة القرن العشرين وما بعده. إن قابلية نظام الحكم للاستمرار تعود هي النهاية إلى أمرين أساسيين: أولا، تنمية العصبية القطرية، وثانيا، قدرة النظام على الضغط الاجتماعي بالقمع والإرهاب والانتخابات التسلطية، والانتخابات التسلطية تمثل آخر الابتكارات في نظام الحكم التسلطي، في محاولته التكيف مع البيئة السياسية المتغيرة.

هل تمثل الديمقراطية والليبرالية مطلبا جماعيا أو جماهيريا؟ وهل هنالك خصوصية عربية في ظاهرة أن تسلطية أنظمة الحكم تحبط وتجهض مشروعات النهوض العربي، كما يقول الأنصاري؟ وهل هناك بديل للبريالية واقتصاد السوق الذي يتجه بشكل متزايد نحو العولمة؟ أسئلة كثيرة تتطلب أجوبة ميدانية إمبريقية، سوف أجتهد في تقديم بعض الأفكار الأولية حولها وليس إجابات عنها.

ونشير أولا الميدانية إلى أن الديمقراطية ليست على قائمة أولويات الرأي العام هفائية الأصوات، أو نسبة كبيرة منها؛ فالتعب إلى حركات سياسية وشخصيات سياسية غير ديمقراطية وغير ليبرالية، وهذا ما حدث وحدث في الانتخابات في الجزائر وتونس ومصر ولبنان والأردن والكويت، ولا اعتقد أن الذين يعطون أصواتهم لهذه الحركات أو الشخصيات يفضلون الاستبداد على الحرية والكرامة الإنسانية، بل إن الأصوات الشعبية - كما يستدل من الكثير من الشواهد - هي أصوات احتجاجية إما موجهة ضد السلطة، وإما ضد نظرية التثاقيل وتعاليمهم وانعزالهم في أحزاب السلطة وخارجها عن الجماعات الشعبية ومطالبها وتطلعاتها، أي مفارقة محافظة (إسلامية) الجماهير مقابل ليبرالية النخبة (3).

أما إن هنالك خصوصية عربية في أن السياسة تجهض مشروعات النهوض العربي، فالجواب يبدو أنه بالإيجاب، فقد أجهض القوميون الثقلديون - من أمثال سامطع الحصري، وزكي الأرسوزي، وأنطون مسعادة - قوميو المشرق العربي في دراسة حازم صافية (صافية، 2000)، الإنجازات الفكرية للتسامحة التي توصل إليها الجيل الذي سبقهم من علمانيين ورجال دين مثوريين من أمثال لطفي المheid، وطه حسين، وأتباع الإمام محمد عبده؛ فدخلوا روح التمسك القومي، واستبدلوا بالرجعية الدينية الأصولية مرجعية قومية متمسكة، ليس في ميدان الصراع الأيديولوجي السياسي فقط،

وإنما هي المدارس والمعاهد والجامعات، وهي تصورات عن الوحدة الانتمائية الشاملة أسهمت في تزوير التاريخ العربي، لأن الوحدة الشاملة بالمفهوم المعاصر لم تحدث في أي وقت من الأوقات، ولا في أي مرحلة من مراحل التاريخ العربي. فكان هذا التزوير عن دراية وسابق تصميم. محاولة منهم لتحديث الفكر السياسي العربي. فقد كان نصب أعينهم مجازاة أوروبا والفكر الأوروبي في فترة مطاشيه الأيديولوجي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

## هل هناك بديل للبريالية؟

ولما جاء المنكر الذين كان يفترض أن يكونوا بناء دول. تصالون المثقفون العقلانيون معهم في القضاء على الحكم الديني. وتجربته البريالية في الشرق العربي. وعندما استحدثت أنظمة الانتخبات

الضلعية في الثمانينات، في قلب البلدان العربية، عرفت الجماهير كيف تعاقب المثقفين الذين تحولوا الآن إلى لبراليين أو إسلاميين. والاحتجاج على تجارب الهندسة الاجتماعية تحت شعارات التنمية السدامة والديمقراطية الاجتماعية. مثل تجارب التاميم والإصلاح الزراعي (انظر: Scott, 1998).

السؤال الذي يجب في تقديرنا، أن يقال هو: هل كانت العصبية القبلية مع التيار الديني الذي يحارب نظرية الاقتصادات أو الولايات القبلية، بينما تتركز هذه العصبية القبلية للتيار القومي. الذي هو بدوره دعوة إلى عصبية أوسع ولكنها مؤدلجة (السبقية الأمة على الجماعة القبلية أو العرق)؟ هذا يعود بنا إلى موضوع اختراع التقاليد: فالتيار الديني التقليدي ينعج غطاء شرعية للقبلية في الواقع. لأنه تيار لا يعتمد على الفقه والتفسير الفقهي. وإنما على العرف (ما تعارف عليه أبائنا وأجدادنا). وهذا دليل آخر على استعوار عصبية القبيلة بالرغم من اعتبارها من الكائنات. وإنما استخدمت واستثمرت بوصفها أداة في إخضاع الحضر. أي أداة في الضبط الاجتماعي.

وتواجه الآن أنظمة الحكم. ليس في البلاد العربية فقط. وإنما في عالم الجنوب (العالم الثالث سابقا). ضغوطا متزايدة نحو الانفتاح فيما يسمى بموجة الديمقراطية المرتبطة ارتباطا عضويا بالمولة والانفتاح الاقتصادي. وحسب الفرضية التي استند في إثبات صحتها إلى التجربة الإنسانية عبر التاريخ، ليس من المتوقع أن يتصغر التيار الديمقراطي التحرري على مستوى العالم؛ لأن المولة تؤدي بالضرورة إلى زيادة الفوارق الطبقيّة. وتهميش الفئات الشعبية، وتآكل المعايير الوطنية في توهين سلة الأمان الاجتماعي (Gray, 1998). ولذلك فإن البديل العملي للبريالية والديمقراطية الغربية سوف يأتي من

الحركات التي تتناغم العنوة، سواء تلك المتعلقة في البحث عن بدائل محلية (Localization)، أو تلك التي يمكن أن يطلق عليها ما بعد الاشتراكية (Post - Socialism) أسوة بما بعد الحداثة (Post - Modernism) (Hines, 2000).<sup>(4)</sup>

وهذا البديل، ما بعد الاشتراكي، لا يهدف إلى المحافظة على المسؤولية الاجتماعية لنظام الحكم فقط، وإنما إلى ترسيخها في اقتصاد حر وفي مجتمع الوفرة الذي جعله التقدم العلمي والتقني ممكنا. ولكن ليس معنى ذلك أن هذا التيار ذا النزعة الإنسانية، ما بعد الاشتراكية، سوف أن يواجه مقاومة ضارية من التيار الليبرالية الذي أصبح يجهز التدخل الإمبريالي في العالم بدوافع إنسانية. كما حدث في البوسنة وكوسوفو ووسط أفريقيا ... إلخ. بل إن التوجه العام في دول العالم الثالث هو التناغم مع هذه الإمبريالية المتجددة بتكليف أنظمة حكمها السلطانية لتستوعب أغلب العناصر المحلية تطلعا، وإصافها بالديموقراطية.

وهذا ميدان متعدد معاته تدرجها فيما يسمى بالسياسات الثقافية (Cultural Politics)، أي الصراع على المستوى الثقافي، الذي يفرقه تدرجها - فبقا للدولة القومية والمواطنة والمجتمع المدني (Nash, 2000).

وكهناش لما تقدم فبقا أصبحت الطائفة بالديموقراطية لأهوت الليبرالية الجديدة، يتبنها كهنوت السلطة وموقفها المعارضة على حد سواء - والشواهد تدل على أن أغلب الشجارب التهضوية - التنموية أصبحت في ظل التنموية والتدخل الواسع للدولة في الاقتصاد، في الغرب وفي الشرق على حد سواء أيضا - وهذا ما يتناقض مع ادعاءات الفكر الغربي وبخاصة كون الديمقراطية شرطا أساسيا من شروط التنمية، مما يضع التراث الفكري للتنمية موضع شك. وي طرح بدائل لا تلتزم بالضرورة بالنموذج الغربي المثالي المقترن بالتنمية.

### العلم والتنمية : موقف فكري

في هذه الفوضى وحالة عدم اليقين التي نلذها قوى الموقلة كل يوم ضاع النموذج التنموي، ونحن ننظر للنموذج التنموي على أنه موقف فكري، على سبيل المثال، يمكن أن يكون لهناش الذي

ذكرناه للتو دور في تبني الشيخ الإمام محمد عبيد نموذج المستبد العادل، بالرغم من التناقض في الألفاظ، لأنه نموذج مبني على مفارقة (Paradox)، المناهج التربوية التي تبناها المحافظون (نموذج دار العلوم) والقوميون (نموذج الكلية العربية والجامعة الأمريكية) ثم من موقف فكري أيضا.

التبعية والتخلف (والتبعية بمعنى اللحاق بالغرب) تعبير عن موقف فكري كذلك. وهي مواقف انحسرت جميعها، وحل محلها ليس نموذج الاعتماد المتبادل (فهذا النموذج هو التفسير الأيديولوجي للعولمة)، وإنما التنمية المدفوعة بالعلم وتدفق المعلومات والثقافة.

وهي الحقيقة فإن دور العلم والثقافة في التنمية قد انحسر الفترة طويلة في الفكر الاجتماعي العربي منذ أيام القلظم والمقتطف وكتابات سلامة موسى، فالعلم قليل يكرر الحلقة المفرغة التي تعمل على إعادة إنتاج ثقافة التخلف والتبعية، حسب توصيفات البنك الدولي والمنظمات الدولية للإمبريالية العاصرة، ولكن العلم انحصر في النول المتطفلة في الجامعات وهي الطنبرات، ولم يعد في عرف المثقفين على أنه فكر له وظيفة اجتماعية، بل إن التوجهات العلمية المعاصرة والكشوف الحديثة تميل إلى البحث عن تفسيرات شمولية تجمع بين كشوف وطروحات العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية. وفي محاولات البحث عن تفسير لكل شيء هناك محاولات لاستعمال أفكار من التمييز الكمية في تفسير السلوك الاجتماعي، كما في شاذية الموجة - الذرة (Wave - Particle)، وتقاليها في علم الاجتماع شاذية الجماعة - الفرد حسب أطروحة المجتمع الحكومي: (Zohar and Marshal, 1993) (Quantum Society).

وهناك محاولات لتفسير السلوك الإنساني ودوافعه بالجور، إلى أفكار من الفاروقية الجديدة السمة البيولوجية - الاجتماعية (Social - Biology)، ومن السبب أن فهم علم الأحياء التطور من دون الاستفادة من تفسيرات في علم النفس التطوري، ومن علوم الأعصاب (النيوروساينس) في فهم ظواهر مثل أساليب التعلم (Cognition) وتأثير الكائنات الالة في المعرفة والتفكير (انظر، على سبيل المثال، Horgan, 1999 وكذلك Rose, 1998)، الذي أريد أن أحمل إليه من هذه الإشارة السريعة إلى أن العلم أصبح متعسرا أساسيا في الطريقة التي تقدم بها التماذج التنموية، فالعلم والتعليم هما العاملان المحركان الدافعان للتشاعة، فكان هما - بالإضافة إلى تدفق المعلومات وتدفق الاستثمارات (الرسائل) عبر الحدود - جوهر نموذج التنمية في القرن الواحد والعشرين. وهي كما أسلفنا تمثل موقفا فكريا يطلق عليه البعض الثقافة الثالثة<sup>12</sup>.

### التجديد وشبكة العلاقات

لقد كانت الثقافة الإنسانية دائما ثقافة ثقافة (Techno Culture)، وللمنتجات الصناعية (Artifacts) كالألات والأدوات بما في ذلك اللغة، الذي دورا حاسما في الطريقة التي نفهم بها الأشياء، وتصدر فيها

الأحكام، وتكون فيها القيم<sup>13</sup>. وإذا صدقنا برونو لاتور، وليس هناك في الوقت الحاضر ما يدفعنا إلى الاختلاف معه، فإن الثقافة ما قبل الحديثة كانت تجمع الأشياء الطبيعية والاجتماعية في عالم واحد مكون من مفاهيم هجينة (Hybrids) (انظر: Latour, 1993).



فقد كان العرب في الجاهلية يصنعون أولادهم التي يعبدها من الثمر، وهم يأكلونها دون أن يحس ذلك من قنبرها. وهذا التهجين - الخلط بين ما هو طبيعي وما هو إنساني - قد توقف في الإسلام في عهد الولي، وتوقف في عصر التنوير في الغرب، عندما تكون القاسم الأعظم (The Great Divide) بين ما هو إنساني وما هو طبيعي.

في المجتمع الحديث أصبحت الثقافة مجرد أدوات نستعملها لأداء أغراض ووظائف معينة. وهذا القاسم الأعظم حرر الإنسان من الخرافات والأساطير (والسحر والغموض) والمعتقدات التي سيطرت على المجتمع التقليدي المحافظ، ورفض فكرة التهجين - نظريا - أصبحت المجتمعات الحديثة، صليبا، قادرة على صنع منتجات هجينة بسرعة هائلة: منظورات علمية وثقافية، تراثيات اجتماعية واقتصادية جديدة، وبشكل خاص وسائل إعلام ووسائل تواصل جمعي. وأغلب المجتمعات الحديثة الآن أصبحت بواسطة هذه المنتجات الصناعية الهجينة متصلة ببعضها في علاقات متقاطعة، دون أن تعترف بالحدود الثقافية التي يمكن أن تطلقها هذه العلاقات التقاطعية المتداخلة.

ويعتقد لانتور بأنه كلما زادت حالة تقاطع العلاقات وتداخلها بين البشر والأشياء (المنتجات الصناعية)، غدت المحافظة على القاسم الأعظم (بين ما هو إنساني وما هو طبيعي) صعبة للغاية. وتزداد حالة الاتصال والتشابه مع كل منتج هجين (نصف إنساني ونصف طبيعي) كإطفال الأنثروبوس (عند مارشال سالكورين)، فالطيامة والكلمة التي يجب خزانة (أو بديلا) للذاكرة، والسيفما والتفزيون والكمبيوتر بمنزلة توسيع لدائرة التطور وإظهار لأبعاد لا يمكن رؤيتها بالنظر المجرد.

وهذه المنتجات الصناعية وأمثالها تدخلنا إلى عالم أو حيز تختلط وتتشابك فيه العلوم باللغة وبالمخيلة الاجتماعية. وهكذا فنحن في عصر الثقافة العليا تعود (مع الفارق) إلى ما قبل الحداثة، عندما كانت الأشياء كلها تجتمع في ما نكرس مصصوفة أنثروبولوجية (Anthropological Matrix)، تقوم منتجات الثقافة الصناعية فيها بتوسيع مداركنا وتعميق فهمنا للأشياء. (Latour, 1993).

ونظرا إلى هذا هو المستوى الأول في التهجين الناتج عن أن الثقافة قد غيبت إلى حد كبير ودرجات متفاوتة من طبيعة العمل وعملية الإنتاج في مجتمع عصر العولة، بحيث طغلت مجالا جديدا يمكن أن نطلق عليه المجال السياسي الحيوي (Bio - Political)، أي التنظيم السياسي لإعادة إنتاج الحياة وقوة العمل. فلم تعد عملية التطور الإنساني تخضع لقوانين الطبيعة بشكل منفصل عن المجال السياسي الحيوي الذي يعتمد على القوة الحيوية (Bio - Power).

وهناك مستوى آخر للتهجين في عصر العولة وهو تداخل الثقافات للجماعات المتعددة، بحيث يصبح من المستحيل التفكير في المجتمع بناء على الثنائيات الحادة المناهضة، والتراثيات الاجتماعية القديمة: الحديث والتقليدي، المستعمر والمستعمر، الأبيض والأسود. وهذا المستوى

من التهجيز يفترض أن الثقافات المختلفة لا تخضع إلى تراتبية معينة (Hierarchy)، عدا تراتبية القوة على المستوى العالمي. ومن هذا المنظور تظهر القبائل والمطائف والأطياف والجماعات الإثنية (والثقافات الفرعية الأخرى)، على أنها تمثل حالة من التعدد الثقافي (Multi - Cultural)، ولكنها مهجنة<sup>(1)</sup>.

ويمكننا أن نراجع تفسير العلاقات التي نطلق عليها قبلية إلى العلاقات المتناخلة المتشابكة على أنها شبكة (Network)، وهي عبارة عن علاقات التضامن (أو تضامنية اختصاراً)، التي تتقاطع مع العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية والإثنية ... وغيرها من العلاقات. وهذا يمكن أن تظهر إشكالية جديدة، وهي أن ليس كل المجتمعات على المستوى نفسه من التطور الثقافي والتقني والسياسي. إنه ليست كل الأشكال التنظيمية والأفكار والفاهيم التقليدية للتضامنيات تعطيني بمجرد حصول تغير وتحول اجتماعي واسع النطاق.

وهذا، على ما يبدو، ما يقترحه مانويل كاستلز في فهمه لمجتمع الشبكة (Network Society)، عندما يفترض أن العلاقات الاجتماعية في مجتمع الشبكة ستتجاوز الأشكال والفاهيم التقليدية لتتجسد في علاقة ثنائية الأقطاب (Bis - Polar) بين الذات والشبكة، ويُقصد بالشبكة الشركات متعددة الجنسية والمؤسسات الدولية المولدة التي تعبرق اليأس المحلية (Castells 1993، 1-13 60-65).

ما دور الفكر الاجتماعي الموضوعي - البشري في تحليل العلاقة بين الثقافة والمجتمع وما الطرق التي تتكيف فيها الأشكال التنظيمية والأفكار والفاهيم التقليدية مع قوى المولدة؟ أسئلة من هذا النوع لا يمكن الإجابة عنها بهذه الروح الاحتفالية بالتقانة.

### تخلف العولمة

يبدو أننا حتى الآن لم نوقع احتمال أن تولّد العولمة (نموذج التنمية المدفوعة بالعلم والتقانة ونقل المعلومات ورؤوس الأموال عبر الحدود الجغرافية الضيقة) حالة جديدة من التخلف. لا نجد طريقة فعالة لتسريعها أو للتعامل معها.

هنا اعتقاد الشائع أن التنمية المدفوعة بالعلم تتطلب مستوى عالمياً من التعليم للتعامل مع أدائها ومتطلباتها الهائلة، ولتكتا جميعها تتعرض لوسائل الإعلام والتواصل الجمعي ولتدفق المعلومات، وهي بالضرورة تؤثر في الجميع وبخاصة في رسم حدود التفكير الممكن التفكير فيه المار الذكر. ولكن كيف نقيّم تعامل الفرد الأمي المهمش (أي الذي لا يملك المهارات الفكرية الضرورية) مع تدفق المعلومات في وسائل الإعلام؟ وكيف نقيّم تأثيرها في سلوكه ودراسته ونظماته إلى المستقبل؟

يشرح لنا أريك ديفس، في كتابه العنوان المتوسطية الثقافية (Technosis) كيف أن تحليل لا تور ليس بعيد عن الواقع قطعاً، بل يدفع التقدم التقني، بشكل متزايد، فئات واسعة من المتعلمين تعليمياً عالمياً في الغرب إلى تكوين ملل ونحل هرطقية، وإحادية أحياناً، تتمحور حول الثقافة العليا، وتدعو إلى المعرفة الروحية (العرفانية - أحد مكونات العقل العربي عند الجابري)، والقدرة على الاتصال بمخلوقات من الفضاء، وتعتقد بوجود قوى خارقة تمثل فضاء كونها متصلاً، على اعتبار أن الكون مليء بالكائنات الحية القادرة على تحمل العيشة في الفضاء الخارجي.

هذا بعيداً مرة أخرى إلى عقلية هرمسية (Hermetica) هي التعامل مع الثقافة بشيء كثير من الغموض والتوجس، عندما كان العرب والمسلمون يعتبرون الفيزياء والثقافة علم الحيل، وعندما كانوا يعتقدون بالسيمياء، وبالقدرة على تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، ويدعون المعرفة الروحية والشبث بالاستقلال من خلال تفسير الأحلام وبعض العلامات والأبراج الفلكية. هذه العقلية الهرمسية في عصر العلم والثقافة العليا تجد طريقها مجدداً وبشكل متنامٍ في الثقافة الشعبية<sup>(1)</sup>، مما يدفع الكثيرين منا إلى توديع فكرة التقدم التي سيطرت على مغيلة أجيال عصر التنوير عند الغرب وعصر النهضة عندما، فليس هناك والحيال هذه، خط مستقيم للتطور يمثل فكرة التقدم، والعلم والثقافة لا تقود بالضرورة إلى مزيد من العقلانية والواقعية.

وعلى صعيد آخر تعطي نظرية طرد هوبل عن (Panspermia) عندما علمنا لدى تأثير العوامل الكونية الكرومية في تطور الحفيمات الإجمالية، والتي تعتبر تحدياً جديداً للنظرية داروين في التطور، مما يحسم من ادعاءات الداروينيين في طريقة عمل منظمات التطور، مثل: الاختيار الطبيعي، والطفرة الوراثية، والتكيف التدريجي، والبقاء للأصلح، أي أننا مع تقدم العلم نضعف قدرتنا على تفسير التطور الإنساني المسابك واللاحق<sup>(2)</sup>.

وبالتخلي عن فكرة التقدم في فهم التطور الإنساني والتحولات الاجتماعية، فإننا أقرب إلى فهم التطور من خلال المورثات التاريخية وديناميكيتها الخاصة أو ديكاتيكها (خادون النقيب، ١٩٩٧). ولذلك، وبكس ما يدعيه الداروينيون الجدد من أن التطور الإنساني البيولوجي قد توقف، فإن التطور البيولوجي يخضع إلى أوضاع احتمالية في التاريخ الطبيعي (كتاثير الفيروسات من الفضاء الخارجي في نظرية Panspermia)، وكذلك في التاريخ الاجتماعي.

فقد ثبت تاريخياً أن ليس للتطور الإنساني هدف محدد، وأن نتائج التطور الإنساني تتأثر بدرجة كبيرة بالصناعة والأحداث العشوائية، كالمطس والكوارث الطبيعية، والتأثيرات البيئية التي تقوم بدور كبير في التركيب الهرموني، الذي يؤثر في السلوك الاجتماعي، والذي ينتج عنه حالات نفسية - بدنية (سايكو سوماتية) لا يُعرف تأثيرها على المدى الطويل (Wilkinson, 1997). بالإضافة إلى الأوضاع الأصلية (Initial Conditions) في مراحل التطور الأولى، وأسزجة الناس وطبائعهم والعلاقات الوشائج التي ربطت البشر ببعضهم في البداية، وجمعها أوضاع لا تخضع إلى أي حتمية تاريخية<sup>(3)</sup>.

## الأبعاد الاجتماعية للعولمة

وحسب فرضية أبادوري، فإن منظورات التنمية في عصر العولمة لم تعد تخضع إلى توصيفات المدرسة الوظيفية من أن الشرط الأساسي للتنمية هو الاندماج (Integration) في جسد الدولة

القومية. وإنما على العكس فإن الانقسامات والقواصل التي يخلقها الانسحاب أو التدفق الثقافي على مستوى العالم يعني أننا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نتعرف على منطق معين للتنمية الاجتماعية - الاقتصادية.

فبعد التحليل عن فكرة المركز - الأطراف، والتخلف - التقدم، والتنمية - الاعتماد على النمى (Delinking)، التحديث - العودة إلى التراث، أصبحت حالة التخلف حالة مستقرة ومستمرة في العالم الثالث. ليس معنى ذلك أن اقتصادات دول العالم الثالث غير قادرة على النمو، أو غير قادرة على تحقيق مستويات معيشية أفضل من السابق. التخلف يتحدد حسب موقع الدولة أو المجتمع في تراتبية القوة على المستوى العالمي، أو حسب موقع المجتمع في شبكة علاقات القوة على مستوى العالم: الشبكة التي تتكون بحسب المصالح التي تفرزها الإمبريالية في عصر العولمة، والتي تمثل حقبة تاريخية أخرى في تطور المجتمع الإنساني (Hard and Negri, 2000).

حقبة «الراسمالية المتأخرة» أو ما يبرر العبارة، والتي متوافقة مع المجتمع المعلوماتي، والتي يمكن أن نطلق عليها الحقبة المدفوعة بالمعلوماتية (Informationalization)، أي المدفوعة بالتقانة العليا، وبالبنى الثقافية الهجينة (المتحركة)، والعمل اللامادي (Labor Immaterial)، الذي ينتج قيمته، والذي يتعامل مع الرموز (الأوامر بواسطة اللغة، كما في استعمالات العنلوب) والترقيم (Digitization) الذي يولد أوهاما وقيمة (Virtualities) <sup>(3)</sup>.

ومع أن حقبة المعلوماتية شملت العالم كله من دون تمييز، فإن هناك إعادة للنظر في التصاير التنموية المعتادة تحت ضغوط العولمة، فهناك المعلوماتية المتطورة كما في حالة الولايات المتحدة، وهناك المعلوماتية التي تعمل بالتنسيق مع قطاع الصناعة كما في حالة اليابان وألمانيا. وهناك أيضا المعلوماتية التي تختلط بالاقتصاد الصناعي وقطاع واسع في الزراعة فيزر الصناعة في دول العالم الثالث. فالمعلوماتية تغترق تدريجيا جميع قطاعات العمل والعملية الإنتاجية، لتصبح القطاع المهيمن في الاقتصاد وهي الحياة الاجتماعية اليومية، وهي التفكير المستقبلي لتطور الإنساني الاجتماعي فإننا، كما يقترح أبادوري، يمكننا أن نتعرف على «مساكن» (أو Scapes) تشبه إلى حد كبير ما يطلق عليه بتدكت أندريسون «العوالم المتغيرة»، أي العوالم المتعددة التي تحددها مغيلة الأفراد والجماعات <sup>(4)</sup>

المنتشرة في العالم هي لحظة تاريخية معولة، ويمكننا أن نذكر خمسة من هذه المشاهد- التي هي أبنية ديناميكية متحركة (Mobile) وهجينة على المستويين الأول والثاني، وعلى مستوى العالم<sup>(12)</sup>.

الشاهد الأول هو المشهد الإنساني: مهاجرون، ولاجئون، ومغتربين، ومغتربين وغير محددتي الجنسية، وأقليات محلية داخلية، وهي التشتات (الدياسبورا)، وغيرهم من الذين يعبرون الأفاق الجغرافية الواسعة. والشاهد الثاني هو المشهد التقني، في مجالي المعلومات والسلع: الآلات والأدوات، والتي سرعها ما تجعل الاقتصاد السياسي متطلقاً ما لم يأخذ بنظر الاعتبار شبكية العلاقات العالمية. والشاهد الثالث هو المشهد الاقتصادي - المالي، وهو الذي يديم حالة الانفصام - الانفصال بين المشاهدين الإنساني والتقني، وهو الذي يستثمر حالة الانفصام بينهما لمصلحته، لأن حركة أي منهما لا يمكن التنبؤ بها.

أما الشاهدان الأخيران: مشهد وسائل الإعلام - الميديا، ومشهد الأيديولوجيا - الأفكار، فهما مبدئان على المشاهد الثلاثة الأولى: المشهد الإنساني، والمشاهد التقني والشاهد المالي. فمشهد الميديا وهو القدرة على توليد المعلومات وتوزيعها إلكترونياً، وبخاصة توليد الصور والحكايات من المشهد الإنساني لخلق هذه العوالم المتغيرة. أما المشهد الأيديولوجي فيتمثل بالأفكار المتعلقة بحقوق الإنسان والحرية والديمقراطية والوطنية والسيادة. وهذه الأفكار تجد أصلها في القرب، ولكنها تكيف حسب تصورات الجماعات والمجتمعات المختلفة في المشهد الإنساني، ولذلك فهي بطبيعتها منقسمة - منفصلة، فتجد تعبيرات وصور مختلفة متباينة ومتعددة عن هذه الأفكار في مشهد الميديا.

إن أي تفكير مستقبلي في التطور اللاحق للمجتمعات الإنسانية، ونحن معنيون هنا بالمجتمعات العربية، لا يأخذ في الاعتبارات لتقاطعات العولمة حسب مشاهد الاتساع أو التدفق الثقافي العولمي (Global Cultural Flow)، سوف يفشل في فهم كيف أن العولمة لا تؤدي - حسب التفكير الليبرالي السائد الآن - إلى خلق قرية كونية، وإنما إلى إيجاد عالم بالغ التعقيد، تربط أجزاءه تقاطعات من العلاقات الإنسانية والعقلانية والمادية والفكرية، وأن النتيجة النهائية - الرخوية يمكن أن تؤدي إلى نتائج غير متوقعة، وهذا دفع إضافي إلى تسلطية جديدة تحاول النظم الحاكمة عن طريقها أن تسيطر على قوى العولمة، وتحاول النظم الهيمنة فرض عقلانياتها (عقلانية السلطة السياسية الروحية والفكرية) على واقع مادي لم يعد يتناسب مع أشكال التحكم والسيطرة التقليدية، تلك المتصلة بالبنيت الاجتماعي.

## خاتمة:

### خلق القوة في عصر العولمة

عندما نتحدث عن الحقبة المعلوماتية التي تُعتبر العولمة مظهرها الخارجي، نقصد أن المجتمعات الإنسانية تمر بمرحلة تتطور فيها أساليب الضبط الاجتماعي من الأشكال التقليدية إلى مجتمعات التحكم والسيطرة، أي من مجتمع الضبط (Disciplinarian)، إلى مجتمع التحكم والسيطرة (Social Control) <sup>(10)</sup>، وأن هذا التحول يمر بعملية تطورية (تاريخية) طويلة يطلق عليها بنيجسر ثورة التحكم والسيطرة (James Beniger, 1986)، ويتميز أدق فئتها تمر بمرحلة تعتبر حلقة ضمن دورة تاريخية للتحكم في أرواح الأفراد وأبدانهم، سبق أن أشرنا إليها عندما تحدثنا عن المجال السياسي الحيوي. ولما كان التحكم (Control) يعتمد عامة على الخوف، إثارة الخوف، وتواصل الخوف، وإدارة الخوف، فإن المخاوف التي تثيرها العولمة هي أحد أهم المداخل للعضوض إلى السلطة في الدولة - القومية، وإلى السلطة الإمبريالية في شبكة علاقات القوة العولمة. وتتخذ الخوف أشكالاً عدة منها الخوف البشري الوشائجي المتمثل بالخوف من الانقراض (Predation)، الذي يساهم في تكوين الجماعات المتطرفة <sup>(11)</sup>، إلى حالة عدم اليقين الحاضرة، كالخوف مما يحتلّه المستقبل، والخوف من العنصرية، والخوف من «الإرهاب»، والخوف من احتمالات الفوضى على مستوى العالم، وبخاصة في احتمال أن تضعف القوة الإمبريالية التي تحفظ الأمن في نظام العالم الجديد، (Hard and Negri 2000:323,339)؛ (Chomsky 1994: 178 - 188).

وهذه الحالة من البلبلة وعدم اليقين تعكس في الفكر الاجتماعي في الغرب، مما يجعلها تخفي وتعود على العلم، فعلة عدم اليقين حسب مبدأ هايزنبرغ، والتي تجد ما يعاكسها في التطور المستقبلي للمجتمع الإنساني. لا تؤدي بالضرورة إلى تبني الادعاءات التهلئية، ما بعد البنائية، التي تنكر إمكان التوصل إلى حقيقة مستقلة عن الوعي، التي تشكل في الواقعية الخارجية (External Realism)، التي هي عماد الفكر العلمي الموضوعي <sup>(12)</sup>.

ولم يثبت حتى الآن، أن هناك بديلاً عملياً عن الواقعية الفلسفية (Philosophical Realism) التي تقول بأن الواقع مستقل عن حواسنا، قائم بذاته، ويمكن معرفته بالطرق الموضوعية <sup>(13)</sup>، وليس هناك بديل عن الكشف عن العناصر والكونات المتخلفة في الفكر والثقافة الغربيين، بالدعوة والعمل على تحرير المجتمع على أساس القيم الإنسانية والمسؤولية الاجتماعية للدولة المقيدة بدستور، واللتزمة بالدفاع عن الحرية والتعددية والديمقراطية، مهما كانت منقوصة وقاصرة.

والكن العقل العلمي (التفكير الموضوعي) يلق في مواجهة تحولات اجتماعية واقتصادية وإضافية كبرى. تمثل الثقافة العليا وتدفع المعلومات، وتشارك الاكتشافات العلمية ثلاثة من محركاتها الدافعة. ولم يعد من المجدي تفسير هذه التحولات حسب النظريات والأطروحات القديمة حول السلوك الاجتماعي، فالنظريات التي تفسر السلوك الاجتماعي على أساس الانتماء الطبيعي، أو النظريات التي تحصر دوافع السلوك بالانتماء إلى الأمة أو القبيلة أو الجماعة الإثنية، أصبحت أعادية الجانب.

إننا الآن ندخل في عصر السياسات الثقافية (Cultural Politics) التي تسعى إلى فهم السلوك الاجتماعي من منظور الثقافة التي تعترف بالاختلاف وتعدد الأبعاد والمستويات: الدولة الوطنية والوطنية، العولمة والديمقراطية، المجتمع المدني والحركات الاجتماعية، وأشكال جديدة من الهيمنة عبر العلم والثقافة. إننا الآن في مواجهة نموذج جديدة وتحول براديهي (الذي مر ذكره من قبل) لا تصطبغ معه التفسيرات القديمة. إن فهم المستقبل للسلوك الإنساني بحاجة إلى براديهي: نموذج للسلوك الإنساني يستوعب الأبعاد والمستويات المختلفة للإنتاج الثقافي (بأوسع معاني هذا المصطلح)، والصراع الاجتماعي بتجلياته الثقافية<sup>(18)</sup>.

الطبعة  
2007/1/5

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Bakhril.com>

- 1 البحث الحالي قدّم بشكل مختصر في ورقة لنسجل العنوان نفسه، إلى ندوة جامعة الخليج العربي بقطر، دأوة إلى تجديد الفكر العربي، والتي عقدت في الثامنة، البعدين بتاريخ ٢٠٠٦ نوفمبر، ٢٠٠٠.
- 2 هناك نزعة ماضوية واضحة في الفكر العربي خاصة في دليل الأتقال في الماضي دون التطرق إلى الاحتمالات المستقبلية لا تحويه الأفكار والقضايا، وحتى ابن خلدون، وهو أهم مفكر عربي، لا نجد في فكره أي محاولة للتنبؤ بالمستقبل. لمعالجة مرسدة لأشجار القيمة التوقعية الأفكار ابن خلدون كدراسة حالة، انظر: خلدون حسن الشبيب، ٢٠٠٠، ولراجعة نظرية لتعامل المثقفين العرب المعاصرين مع التراث، انظر: جورج طرابياشي، ١٩٩١.
- 3 إن الاستعمارية الإسرائيلية والبربرية المثقفين في الخمسينيات والستينيات جاءت في ظروف الكفاح ضد الاستعمار ومن أجل الاستقلال، ولكنها لمعتصمت عن مفاهيم سياسية واضطراب، مبادئ كبير نعتل في الانقلابات العسكرية القذافية، وهذا يفسر صعود أسهم التيار الديني للمحافظة الذي يوفق قدرًا كبير من الاستقرار والأطمئنان، ويعتمد التيار الديني المحافظ على فكرة الطوف من الفوضى، وإدارة الفوضى. حول مفاهيم الصراع الأيديولوجي بين المثقفين الليبرالي والمحافظة انظر: خلدون حسن الشبيب، الدولة السلطوية في الشرق العربي، ١٩٩١، أما موضوع إثارة الطوف، النضالي كإحدى أدوات الخطب الاجتماعية فيليبود ذكره فيما بعد، عند الحديث عن التحول من مجتمع الضيق إلى مجتمع التحكم والسيطرة في عصر العولمة.
- 4 يشرب جيمس سكوت الأمل في الدولة على إيمان، "الجملة لا جدوى"، لإثبات المدن السلطوية في حالات باريس وبرازيليا، ونجربة السوفياتية الاجتماعية في روسيا، والبريطانية في إسرائيل، وغيرها من تجارب النهضة الاجتماعية.
- 5 ومن الدراسات التي تتناول أمثلة على ذكر العولمة في المجتمعات المحلية، ما ورد في كتاب Barrow، 2000، لا، عن التوقعات العولمة، عن عمال بناء السفن في سان فرانسيسكو، إلى مصممي برامج الكمبيوتر الأيرلنديين، وإلى تجربة دولة الرعاية الاجتماعية في النيجر، ومحنة الفريسي في كيرالا في الهند... إلخ.
- 6 مصطلح الثقافة الثالثة يقره جون بروكمان (John Brockman, 1995) ويتضمن جمالات طويقة بين العلماء، المبرمجين الذين يتناولون إلى موضوعات فلسفية وفنانيا اجتماعية، وهو موضوع كتاب جورجيان النظري الأفكار الطوبى فلسفية وفنانيا اجتماعية، (Horgan, 1999). ويرد هذا المصطلح أيضا بمعنى الثقافة المستندة من العلوم الاجتماعية، التي تتوسط بين العلوم الإنسانية (الثقافة الأولى) والعلوم الطبيعية (الثقافة الثانية). انظر تقرير هيئة كوبليكان حول إعادة هيكلة العلوم الاجتماعية، دولة عالم الفكر، لندن الطوبى.
- 7 المنتج الصناعي (Artificial)، هو كل منتج يدخل عمل الإنسان في صنعه، وهو (إحدى البينات تكون الوهي الاجتماعية المنتج الفكر، ويمكن أن يكون آلات أو أدوات صانية أو أفكار ومفاهيم ومبرزة مثل النظم الاجتماعية، والمؤسسات، والأبنية القوية، حول دراسة لتصنيفية وصيغة لهذا الموضوع، انظر 1998 Cotic Cultural Psychology، وتأثير الثقافة في تطور المجتمعات الإنسانية موجود في مفهوم كلارك ماركس عن قوى الإنتاج. عندما اعتبر أن كل مرحلة تاريخية تتميز بابتكارات تقنية، ولكن ماركس لم يتعلق في مدى تفاعل الثقافة الجديد مع الحياة اليومية، ولم يدرس تأثيرها في أنماط السلوك وطرق التفكير.
- 8 حول استعمال مفهوم التحويل على هذا المستوى، انظر: Hoss K. Bhattacha, 1998, 4, 13 : 112 - 116.



9. وتجد في فكر كارل بولز معالجة لموضوع الكيمياء التقليدية والمعتقدات الروحانية الخفية (Esotericism) وعلاقتها بالعلم الحديث، انظر: (Van Praag, 1992: 145-168).
- والطيف الهيرمسي نسبة إلى هرمس الهولتي الرسول والوسيط، والماهي بين الآلهة والبشر، الذي يقابله عند الرومان الإله ميركوري. وفي الإسكندرية ذات الثقافة الهلينية يظهر هرمس تريسماجيستوس الهجين، أي نصف إله ونصف إنسان، وهو القنن والعلاج، والبشور، والخطار والمهندس والتاجر والقس، فهو ذو القوالب المتعددة، وكذلك ارتبط اسمه بالمعرفة العرفانية والمحررة والنتيجة. شريد من التعديل حول فكر الهرماتيك انظر: (Davi 13-38 1998).
10. حول الجمال المعقول بين فرد غوبل والداروينيين الجديد انظر: (P.Hoyte and Chandra Wickramasinghe, 1993: 660-70).
- ولكن المتضمن الاجتماعي لهذه النظرية والبدائل التي يقترحها غولد (Steven J.Gould 1989) في نظريته عن التوازن القطع، وتأثيرها في التفكير الاجتماعي، لم تقيم بشكل جيد حتى الآن.
11. هناك دراستان حديثتان مستعملتان منها للتخصصات المتداخلة (Interdisciplinary Studies) في دراسة التطور الإنساني، تجمع بين التاريخ والاجتماع والبيولوجيا والأركيولوجيا والبيولوجيا، وبمعيها دراسات تاريخية، وهي دراسة كل من دايهوند وكيفالي «سفرنا»، انظر: (Lalgi Lene 1997: Jared Diamond 2000: Corvelli - Sierra 2000).
- وهاتان الدراستان توضحان بجد، المعنى الوارد في النص، وتقدم بالوسائل الجيدة (Primordial) العلاقات السببية البسيطة، البسيطة من الوجدان، التي تمثل الناحية التي تبنى عليه العلاقات الأخرى.
12. هناك من يعتبر الانقسام بين المجتمعات التي طورها الثقافة الريفية وتلك التي نجدها أو نستلها فقط بأنه الحاجز الزمني (Digital Divide)، ويحول الوصف الأيديولوجية المختلفة من ثقافة الطرقات وتأثيرها في المجتمع انظر الدراسة التالية: <http://www.24media.com>.
- أما عن أهمية العمل الاجتماعي، انظر: (Hend and Negri, 2000: 289-300).
13. مقال أباتوري الذي نشر سنة (١٩٩٠)، أعاد طبعه في كتابه المكون العدالة العامة. (1996:21-47 A.Appachand).
- وحول تقييم هذا المقال وتكرره في المراجعة العامة لأطروحات علم اجتماع التنمية انظر: (Shah, 2000: 88-99).
14. هذه الفكرة، تتحول من مجتمع الضيق إلى مجتمع التحكم والسيطرة، يُفقد بها أن الحالة الأخيرة يكون فيها الضيق أكثر شمولية، بل أكثر شمولية من أساليب الضيق التقليدية. وذلك لوضوح طبيعة عدل شبكة العلاقات القوة المتحركة، التي تحاول الإمبريالية المعاصرة أن تتغلب من طرفها في «مستعمرات، الكائن الاجتماعية الحالية والإقليمية». ومع أن هذه الفكرة مستخلصة من آراء ميشيل فوكو، كما عرضها هاروت، وتيري، إلا أن هوسا لها اختلافات عنهما في أنه أكثر إمبريالية وأقل تجريدا. انظر (Hend and Negri, 1997: 22-63).
- ولنظر كذلك: (Pross, 1984: 121-170).
15. الخوف من الانقراض، هو بالاستناد إلى أطروحة هاروت إيمروناج (Ehrenreich, 1997) ومؤداه أن فكرة الإنسان، المتعددة، أو (Man - the Human) التي تجعل من البشر المتصور المهيمن في بدايات النظور الاجتماعي، التي تبرز هيمنة الرجل وتطور المجتمع الأيوي، البشري، ما هي إلا خرافة، فلم يكن الإنسان إلا قريصة - طريقة، مقبلة الخوف من الانقراض إلى تكوين التجمعات الإنسانية الأولى (Bards)، والتي تطورت فيما بعد إلى مجتمعات مستقرة أوسع، مثل القبائل والشعوب. ولكن هاروت دايهوند في كتابه الواناج، يناقش، وجرأتهم، وفروا (Diamond, 1997: 267-282)، عندما يورخ لجميع الشعوب في القارات الخمس،

- يوضح كذلك ظهور هذه التجمعات الأولية وتطورها التاريخي الطويل إلى فترات ودول. ولكنه مع الأسف لا يتناول إلى حد كبير هذه التجمعات الأولية.
- هو يقول إن هناك أربع طرق للحكم في التطور الإنساني، الحكومة والدين، والجبر، والقانون، والثقافة. عندما كان الخوف هو المحرك من الأفراس قد تحول إلى الخوف من حالة الحرب الجميع ضد الجميع عند توماس هوبز في فكرة القانون (Leviathan)، وأن الحكومات والأفراد قد اعتمدت على فكرة الخوف وإمراة السيطرة والتحكم في الأفراد والشموس. ومع أن الربط بين المراحل التاريخية في هذا السياق يتطلب قراءة نظرية واسعة (ولكن جريئة)، فإنه يحتاج إلى إعادة فحص الأدلة التاريخية الكامنة، سواء تلك الموجودة في المصادر أو في التراث الحضاري. ففي التراث العربي الإسلامي مثلاً هناك أقوال كثيرة منسوبة إلى ابن تيمية وغيره تفصل دور الحاكم وتقلبه على الفوضى وتقدان النظام في ظل غياب المستطغان. انظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية، 1996، طبعة بيروت، ص 174.
- لقد أصبحت الكليات والمصطلحات التداولية في العلوم الاجتماعية الغربية تحت تأثير مدارس ما بعد البنية. ما بعد البنية، أكثر إبهاماً وأشدّ عنفاً على الفهم من أي وقت مضى، مما حدا بأحد علماء الفيزياء، الذي نشر مقالاً بعنوان جذاب وجذبت، مستعصي لا معنى له، ولكنه يستعمل أغلب المصطلحات الفاصضة الثقافية الشائعة، والتي هي أكثره معاصرة التسمية، (Perverse-balance)، بعيداً لم تترك مجلة دورية مرموقة في مجال الدراسات الثقافية في شرب مما نسب في فضيحة عظيمة، نشرت حولها عدة مقالات على صفحات مجلة، (New York University).
- وعندما تأتي سوكال لعلنا حواراً مع هوبز في 2007، التي منكرة في ميدان التهجوير، رفض الأخير رفضاً قاطعاً أن يشارك في هذا الحوار. لعدم توافق لغة اصطلاحية مشتركة. تعرض ملخص لهذا التفصيل انظر: (Sokal, 1999, 134-136).
- أما هذا الميل إلى الطريقة التي يتناول فيها جون سيرل موضوع الواقعة الفلسفية، وخاصة تمييز الواقعة الخارجية (External Realities)، التي تؤكد وجود العالم الحقيقي عن الأشكال الأخرى من الواقعة، انظر: (Sokal, 1999, 12-37).
- يُعدّ بالسياسة الثقافية (Cultural Politics) الدراسات ذات الدلالة على الهوية، والعلاقات الاجتماعية، والتواعد الضابطة للسلوك الاجتماعي، والصراع على قيمها أو رفضها أو تعديلها، ويُقصد بالإنتاج الثقافي ما لتلبية الثقافة الشعبية وسائل الإعلام، والتدبير، وحصول الفكر في مرحلة تاريخية معينة.
- حول تعريفات مدينة لودين للهومون، انظر: (Sokal, 2000, 273-279).

- أحمد البغدادي، ١٩٩٩: تجديد الفكر العربي: دعوة لاستخدام العقل - فريسن ودمشق: دار الفكر.
- أسامة الخولي، ٢٠٠٠: تكنولوجيا المعلومات: ما بين التهورن، والتحويل، معاصرة غير منشورة، منتدى البحرين الفكري، أبوظي.
- بوهان زويل، ١٩٩٢: عصر حاتم أبو زيد، بين التفكير والتفكير، دمشق: دار معاد.
- بومدين بوزيد وأخرون، ١٩٩٠: قضايا التطور والتجديد في الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- جابر عصفور، ٢٠٠١: معقولات الثقافة العربية، معاصرة غير منشورة، القاهرة.
- جورج طرابياشي، ١٩٩١: الفلاسفة العرب والفكرات، التجميع الذاتي، الجمعية، لندن: دار رياض الريس.
- حاتم صالح، ٢٠٠٠: ظهور الشرق العربي، بيروت: دار رياض الريس.
- طه حسين الفقيه، ٢٠٠٠: الفقهية التنويرية كمنهجية الاجتماعية حسب أفكار ابن خلدون، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٣٢، يناير من ١٩٩٨، ١٩٩٨.
- ٢٠٠٠ [مادة شبكة العلوم الاجتماعية، عرض والتدريس لتدريس هوشة كوايكليفن وإشراف أميلبول ولانشتاين، مجلة عالم الفكر، تحت الطبع.
- ١٩٩٨ في الرد، كان الصراع، جدل الدين والإلحاد، الأمة والسياسة، بيروت: لندن: دار الساقي.
- ١٩٩٦: الدولة الإسلامية في المشرق العربي: دراسة مقارنة مقارنة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢.
- ١٩٩٤: الزمان العربي والمستقبل العالمي، القاهرة: دار المستقبل العربي.
- علي العميد، ١٩٩٩: العلمانية والسياسة الإسلامية، معاصرة غير منشورة، بيروت: لندن: دار الساقي.
- محمد جابر الأنصاري، ١٩٩٤: العرب والسياسة، ابن خلدون: جذور العقل المعيق، بيروت: لندن: دار الساقي.
- محمد عبد الجبار، ٢٠٠٠: ولاية الفقيه من المشروعية الدينية إلى المشروعية السياسية، مجلة شؤون إسلامية، مجلد ٢، عدد ٥.
- مكي المدد، ٢٠٠٠: نظام الحكم في الإسلام، مجلة شؤون إسلامية، مجلد ٢، عدد ٤.

1. Al - Napele, Khaldoun H.2000. «Debunking Cherished Concepts», paper presented to the Twenty Fifth Symposium of The Center For Contemporary Arab Studies, Georgetown University, Washington, D.C, March.
2. Appadurai Arjun 1986. *Modernity at Large* Minneapolis: University of Minnesota Press, pp. 27 - 43.
3. Beniger, James R. 1986. *The Control Revolution: Technological and Economic Origins of the Information Society*. Cambridge: Harvard University Press.
4. Bhabha, Homi K. 1990. *The Location of Culture*. London: Routledge.
5. Brockman, John. *The Third Culture: Beyond the Scientific Revolution*. New York: Simon & Schuster.
6. Bursaw, Michal, et al. 2000. *Global Ethnography: Forces, Connections, and Imaginations in Postmodern World*. Berkeley: University of California Press.
7. Castells, Manuel. 1996. *The Rise of the Network Society*. Oxford: Blackwell.
8. Cavalli, Simon, Luigi L. 2000. *Genes, Peoples, and Languages*.
9. Translated by Mark Szeistat. New York: North Point Press.
10. Chaomsky, Noam. 1994. *World Order: Old and New*. Cairo: The American University in Cairo Press.
11. Cole, Michael. 1998. *Cultural Psychology: A Cross and Future Discipline*. Cambridge: Harvard University Press.
12. Davies, Erik. 1998. *Technosac: Myth, Magic and Mysticism in the Age of Information*. London: Serpen's Tail.
13. Diamond, Jared. 1997. *Guns, Germs and Steel: The Facts of Human Societies*. London: Jonathan Cape.
14. Ehrenreich, Barbara. 1997. *Blood Rites: Origins and History of the Passions of War*. New York: Metropolitan Books.
15. Gould, Stephen. J. 1989. *Wonderful Life*. New York: W. W. Norton.
16. Gray, John. 1998. *False Dawn*. London: Granta Books.
17. Hardt Michael and Antonio Negri. 2000. *Empire* Cambridge: Harvard University Press.
18. Hines, Colin. 2000. *Localization: A Global Manifesto*. London: Earthscan.
19. Horgan, John. 1998. *The End of Science: Facing the Limits of Knowledge in the Twilight of the Scientific Age*. London: Abacus.
20. Hoyle, Fred and Chandra Wickrama Single. 1993. *Our Place in the Cosmos: The Unfinished Revolution*. London: Phoenix.
21. Latour, Bruno. 1993. *We Have Never Been Modern*. New York: Harvester Wheatsheaf.
22. Nash, Kate. 2000. *Contemporary Political Sociology: Globalization Politics, and Power*. Oxford: Black Well.

- Foster, Mark. 1984. *Postcards, Marxism & History: Mode of Production Versus Mode of Information*. Cambridge: Polity Press.
- Rose, Steven (ed). 1999. *From Brains to Consciousness: Essays on the New Science of the Mind*. Penguin Books.
- Scott, James C. 1998. *Seeing Like A State: How Certain Schemes to Improve Human Conditions Have Failed*. New Haven: Yale University Press.
- Searle, John B. 1995. *The Construction of Social Reality*. New York: The Free Press.
- 1999. *Mind, Language and Society: Doing Philosophy in the Real World*. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Von Franz, Marie Louise. 1992. *Psyche and Matter*. Boston and London: Shambhala.
- Wutcher, Wendy. 1998. *A New Modernity: Change in Science, Literature and Politics*. London: Lawrence & Wishart.
- Wilkinson, Richard. 1997. *Unhealthy Societies: The Affliction of Inequality*. London: Routledge.
- Zohar, D. and I. Marshal. 1993. *Quantum Society*. London: Bloomsbury.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

## مقدمات لسوسيولوجيا الشباب

د. المنجي الزبيدي\*

### مقدمة

تستعرض هذه الدراسة بعض المفاهيم الأساسية التي تستخدم غالباً في الدراسات والبحوث العلمية التي تتناول موضوع «الشباب» ومناسباتها، وهي تندرج في إطار **سوسيولوجي** يسعى إلى التخصص في دراسة هذه الفئة الاجتماعية الهامة، وتندرج من جهة بعض المقدمات لما يمكن تسميته **سوسيولوجيا الشباب**.

والواقع أن المجهود العلمي والمعرفي العربي في هذا المجال يمد محدوداً، فالتطرق إلى المسألة الشبابية لم يرق إلى درجة التخصص العلمي، وظل في غالب الأحيان استطلاعيًا وصفيًا متفرقاً ومناسباتياً، في حين فعلت المجتمعات المتقدمة إلى أهمية الشباب كعامل اجتماعي مؤثر في عمليات التغيير الاجتماعي؛ فأولته ما يستحقه من اهتمام وأنشأت له مراكز ومجموعات البحث المتخصصة نذكر منها على سبيل المثال مجموعة «الشباب والمجتمعات» التي تركز في فرنسا أواخر الثمانينيات، وهي تضم باحثين أغلبهم من علماء الاجتماع يتكيفون على دراسة الشباب من أوجه متنوعة ومقاربات متعددة الاختصاصات<sup>(1)</sup>.

ولا تدعي هذه الدراسة تقديم وصفات جاهزة لما يمكن أن يكون عليه علم اجتماع الشباب منهجياً ونظرياً وتطبيقياً، بقدر ما تسعى إلى مقارنة بعض الجوانب المفهومية من وجهة نظر سوسيولوجية، وبالتالي فهي تركز فقط على ثلاثة مفاهيم أساسية هي: **البؤى** والمراهقة والجيل، ويمود سير اختيار هذه المفاهيم الثلاثة إلى أن أول سؤال يطرحه عالم

(\*) مستشار وزير الثقافة في الجمهورية التونسية.

الاجتماع في هذا المجال هو ما هو الشباب؟ كيف نعرفه ونعطي له حدوداً متى يبدأ ومتى ينتهي، هل هو فئة عمرية أم شريحة اجتماعية، هل هو حالة نفسية أم طباع وطريقة في التفكير والسلوك؟

إن مجرد محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تشكل مجالاً بحثياً ثرياً ومتشعباً، ولكنه مفيد في توضيح وتوجيه للبيانات العلمية في دراسة قضايا الشباب، سواء أكانت ميدانية استطلاعية أم تحليلية نقدية، ومهما كانت مقاصدها وأهدافها.

### أولاً : الشباب : مفاهيم وكلمة

كلمة «الشباب» كلمة إشكالية ... يمكن اعتبارها مجرد كلمة <sup>(1)</sup>، كما يمكن نفي وجودها أصلاً <sup>(2)</sup>، كثر استعمالها في مجالات اهتمام متنوعة ومختلفة فوجدت في الدراسات والأعمال الاجتماعية والاقتصادية

والنفسية والتربوية ... كما ذاع صيتها في مجالات الخطاب السياسي ووسائل الإعلام الجماهيرية. ومع ذلك فمن لا تقف لها على مفهوم محدد، هي كلمة اكتسبت من وراء تعدد الاستخدامات أوضاعاً أفضت في أوقات كثيرة إلى لبس في المعنى، وغموض في المقصد،

ولئن لم ترد في القرآن الكريم فإن لها قيمًا مازالت تحدد لها - «فتى»، وجميعها «فتية» - ونحن نقص عليك نياهم بالحل، إنهم فتية أهلنا بربهم وروادهم هدى <sup>(3)</sup>، وقلام وصبي في إشارة إلى عيسى ويحيى عليهما السلام: «فأنت أنى يكون لى قلام ولم يعمسنى بشر ولم ألد فيها» <sup>(4)</sup>، و «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وأئتنا الحكيم صبياً» <sup>(5)</sup>.

أصل الكلمة «شبيب» وتعني الفناء والحدالة، والجمع «شباب» و «شبيبة» ومرادفاتها كثيرة منها، يافع ومرافل وصبي وفتى وقلام، وهي كلمات لا تدل على مراحل عمرية محددة ومفصلة بقدر ما تشير إلى خصائص جسدية وأخلاقية ونفسية ووجدانية لفترة من فترات الحياة هي إجمالاً خصائص القوة والنشاط والجمال والذكاء والشهامة.

وتتراوح المعاني والدلالات بين السلب والإيجاب إلى حد التناقض، فكلمة «الرهق» ومنها «الراهقة» تعني الرجل المتهم في دينه، والراهقة هي المرأة الفاجرة <sup>(6)</sup>، كما تدل كلمة «صبا» ومنها «صبي» على الخروج عن دين القبيلة، ويقال «لصبي المرأة أي طعنها وفتنها» <sup>(7)</sup>.

وبالمقابل تحمل كلمة «فتى» معنى الاكتمال، «ليس الفتى بمعنى الشاب الحدث، إنما بمعنى الكمال والجزل من الرجال» <sup>(8)</sup>، ومعنى الجد والامتناع عن اللعب: «إذا فتيت الجارية منعت من اللعب مع الصبيان والعند معهم، وطهرت وستررت في البيت» <sup>(9)</sup>، ومعنى القوة والبيان، الفتيا: تبين للمشكل من الأحكام ... فكانه يقوي ما أشكل ببيان ويصير فتياً قوياً وأصله من الفتى وهو الحديث السن <sup>(10)</sup>.

## ثانياً: البلوغ البيولوجي والبلوغ المعنويولوجي

إذا انتقلنا من سجل اللغة إلى سجل العلوم الإنسانية نستنتج صعوبة الوقوف على تحديد معين، كما أكد على ذلك «بيران برشولوت»<sup>(٢٢)</sup> القائل بأن المؤتمر العالمي حول الشباب ملاحظاً أن كل

التعريفات المقترحة تقضي إلى تأويلات مختلفة ومتغيرة باستمرار<sup>(٢٣)</sup> ولقد حصر بعض علماء الاجتماع في بداية السبعينيات فترة الشباب (خاصةً الجامعي منه) في الشريحة العمرية ١٥ - ٢٥ سنة، وتم تبني هذا التحديد كأطار مرجعي للسنة الدولية للشباب ١٩٨٥، إلا أن ذلك أدى إلى حرجان فئات وأصناف عديدة من هذه الظاهرة المعالية<sup>(٢٤)</sup>.

السؤال المطروح إذن هو: في أي سن يبدأ الشباب وفي أي سن ينتهي؟ وقد يبدو هذا السؤال بسيطاً وقد تبدو الإجابة منه بديهية، ولكن اختلاف الإجابات يجعل كل محاولة لتحديد عملاً غير مضمون نظرياً وتطبيقياً، ولا يعدو أن يكون (إلا اقتراحاً) إجرائياً يختلف حسب طبيعة البحث وسجل التخصص.

وكثيراً ما تلجئ بعض الدراسات إلى تحديد كلمة «شباب» فتختارها في سنة عمرية أو في فترة انتقال أو في طور طبيعي بين الطفولة والبلوغ، في حين أن الإشكال يكمن في توضيح حدود هذه الفترة وموقعها الاجتماعي، وكذلك ما تعيد إلى إثنى مفاهيم عمرية تختلف حسب الإشكاليات والتأهات (إلا أنها وإن كانت إجرائية قلنا) تفرض مفهوم الشباب من متواءم وإيماء الاجتماعية<sup>(٢٥)</sup>.

تحديد مفهوم الشباب وفق مفاهيم بيولوجية يبدو أمراً غير دقيق وقابل للخلط والاختلاف؛ فالتقسيمات العمرية عند العرب لا تنطلق على سن الشباب، فهذا «أبو منصور عبيد الله بن محمد الثعالبي» في كتابه «فقه اللغة ورسر العربية» يحدد في دورة النمو عند العرب بين الثلاثين والأربعين فيقول:

«ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد، وما دام لم يستلم سبعة أيام فهو صديق؛ لأنه يشتد صدقه إلى تمام السبعة، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع عنه اللبن فهو قطيع، ثم إذا غلط وتعبت عنه ثراوة الرضاع فهو جحرش، ثم هو إذا دب ونما فهو دارج، فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، وإذا سقطت راحته فهو مشقور، فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط فهو متقر، فإذا كان يجاوز عشر السنوات أو جاوزها فهو مشرعرع وناشئ، فإذا كان يبلغ الحلم فهو بالغ ومراهق، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو غلام، فإذا أخصر شاربه وأخذ عذاره يميل قبل ينقل وجهه، فإذا صار ذا فتاة فهو فتى وشارح، فإذا اجتمعت لميته وبلغ غاية شبابه فهو مجتنب، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ثم هو كهل إلى أن يستوفي الستين ...»<sup>(٢٦)</sup>.



أوردنا هذا النص كاملاً لتبين أن العرب ذكروا في تفصيل دورة النمو ورحلها، ومع ذلك فإن مصطلح شاب مقترَّب من مصطلحي «شارب» و«مستجمع» اللذين على فترات عمرية مختلفة. وتتضمن الفلسفة العربية محاولات لتحديد دورة الحياة للإنسان، ومنها مرحلة الشباب. نجد مثلاً عند «إخوان الصفا» التقسيم التالي.

- مرحلة الطفولة (لشراوحة من الولادة إلى سن الرابعة) وهي فترات النمو الأولى ويكون الطفل فيها مرتبطاً بوالديه، وهي مرحلة يديرها القمر وسائر الكواكب الأخرى.
- مرحلة الصبا: من ٥ سنوات إلى سن ١٥ سنة وتطور فيها القوة الناطقة، ويكون فيها السبي مرتبطاً بمعلميه وهرضة للتأثيرات الفاسدة، وهي مرحلة من تدبير عطارد.
- مرحلة الشباب: من سن ١٥ إلى سن ٢٠ سنة. وتطور فيها لدى الشباب القوة العاقلة. وهي من تدبير الزهرة والشمس.

- مرحلة الحكمة: من سن ٢٠ إلى ٥٠ سنة، وهي من تدبير المشتري مع الكواكب الأخرى.
- مرحلة الملكية: من سن ٥٠ إلى التوفيق. وهي من تدبير المشتري ثم زحل<sup>(١٧)</sup>. هذا التقسيم يبقى مفتوحاً وغير دقيق. وذلك لأن الحدود بين المراحل المذكورة يشوبها التداخل أحياناً: «فإخوان الصفا كانوا مدركين للتلاقي بين الجزء الأخير من كل مرحلة مع الجزء الأول من المرحلة التي تليها، فالشباب يبدأ وتظل تأثيرات الصبا موجودة فيه لمدة سنتين على الأقل. كما أن خصائص مرحلة الشباب تغد أقوى كلما تحسنت سنوات في مرحلة الحكمة».

ومع أن «إخوان الصفا» قدموا مرحلة الشباب وأصلها أفضل المراحل لأنها الفترة التي انعم الله تعالى فيها بالرسالات على الأنبياء، ومنعهم الحكمة، إلا أنهم خصصوا بها الذكور فقط واستبعدوا النساء من جميع مراحل التصنيف واعتبروا أن مرحلة الصبا وحدها ملائمة لهن<sup>(١٨)</sup>.

وكثيراً ما تعقد الدراسات القائمة على الفيلسوف البيولوجية إلى اعتبار الشباب أو المراهقة (هما مصطلحان يقع الطوط بينهما كثيراً) مرحلة انتقالية نحو الكهولة. لتعبر بين ١٥ و ١٨ سنة. وتجد من يشارها مرحلة نمو بيولوجي وعقلي وعصبي ويتجه إلى تحديدها في سن العشرين، في الوقت نفسه الذي يتحدث فيه آخرون عن مراهقة متأخرة أخذين بعين الاعتبار لطامة تخص الطلبة الذين يتجاوزون سنوات طويلة في الدراسة ويستمتعون بالتالي في العيش مع عائلاتهم حتى بلوغ سن الرشد<sup>(١٩)</sup>.

وتواصل هذه الاختلافات في التحديد البيولوجي والكرونولوجي عند الحديث عن فترة انتهاء المراهقة. فهي عند أطباء الأعصاب تنتهي مع سن العشرين حين يكتمل نمو الجهاز العصبي وتنتهي عند أخصائي النمو في سن ٢٥ عندما يكتمل نمو الجهاز العصبي. فكل مقاييسه حسب الاختصاصات فلكااضي مقياس السؤولية الجزئية، والمبرمي مقياس انتهاء مرحلة التعليم الإيجاري عند سن السادسة عشرة<sup>(٢٠)</sup>. فبحسب اختلاف التقاييس اختلاف التخصصات يتوخى ويختلف التحديد بيولوجيا.

في هذا الإطار يبدو مصطلح «البلوغ» أو «الحلم» (Puberté) مصطلحا أساسيا. فهو الحد الفاصل الذي تبدأ معه مرحلة الشباب، إلا أن اعتماده لا يعطي حولا مقبولة وموضوعية، فإذا كان «البلوغ» أو «الحلم» يعرف بأنه «المرحلة الانتقالية بين الطفولة والكهولة، التي يكتسب فيها الإنسان الخصائص الجنسية والقيسولوجية والنفسية والاجتماعية ووظيفة التماثل»<sup>(1)</sup>، فإنه يبقى غير قابل للتحديد الدقيق. وذلك لأن الأطباء اليوم يعتقدون أن «الحلم يبدأ» منذ لحظة انطلاق نشوء الجنين، ويبدأ في التطور قبل ظهور علامات الخارجة، فالحلم من هذا التطلق ليس لحظة محددة بقدر ما هو نسق تتخلله مراحل متعددة<sup>(2)</sup>، وهو فضلا عن ذلك غير ثابت ويختلف من شخص إلى آخر، فقد تدخل عوامل وراثية أو مرضية أو متعلقة بالتغذية ونمط العيش تؤثر في مراحل تكونه.

وتلقد لاحظ الأوربيون أن سن ظهور «دورة الطمث» الذي يحدد مرحلة «الحلم» عند الفتاة قد تتقدم خلال قرن كامل بمعدل 2 أشهر كل 10 سنوات، ففي مطلع القرن التاسع عشر كان هذا «الحديث» القيسولوجي يظهر في سن 17 سنة. وأصبح الآن في سن الثالثة عشرة<sup>(3)</sup>. ويقر «فان جناب» (VAN GENNEP) بأن تحديد تاريخ البلوغ القيسولوجي والنسبة للجنسين صعب جدا نظرا لقلة الدراسات الاستكشافية والأنثوغرافية حول هذا الموضوع. لذلك فإنه من غير القبول استعمال مصطلح «طفوس الحلم» للدلالة على مجموع الطفوس والاحتفالات التي تحدث الانتقال من الطفولة إلى المراهقة، وبالتالي فإنه يجب التفريق بين البلوغ القيسولوجي والبلوغ الاجتماعي، والنصح القيسولوجي والتفصيص الاجتماعي<sup>(4)</sup>. ويدلل (VAN GENNEP) على هذه الفجوة الفاصلة التالية: في روما تعد الفتيات بالغات (Nubiles) في سن 12 سنة، في حين أن أغلبهن يمتن أول دورة شهرية في سن 15 سنة. وفي باريس حدد السن القانوني للزواج بـ 16 سنة وستة أشهر. في حين أن سن الحلم في المعدل هو 15 سنة و 2 أشهر. مع ملاحظة أن التطبيقات الشريعة تصل إلى هذه المرحلة مبكرا مقارنة بالطبقة العاملة<sup>(5)</sup>.

أما في قبائل كوتانيا البروطانية فإن الفتاة تخطب في سن الطفولة إلى رجل أكبر منها سنا (يبلغ عمره عشرين عاما) ولا يتم الزواج إلا بعد المرور بطقوس عديدة تمهد للوصول إلى الرشد. أي تقريبا في سن 17 أو 18 سنة، وفي بعض الأحيان 22 سنة، وطول هذه المدة لو من مرتبطا بالبلوغ القيسولوجي إنما هو مرتبط، باعتبارات اجتماعية أخرى...<sup>(6)</sup>

وفي قبائل «تودا» (TODA)، المتميزة بنظام تعدد الزوجات، تخطب الفتاة في سن 2 أعوام وقبل «الحلم» بمدة يأتي رجل من قبيلة أخرى يقضي معها ليلة ليشفدها عذريتها، وهذه العملية السابقة للبلوغ هي التي توهم الفتاة للزواج...<sup>(7)</sup>

وإذا ما انتقلنا بهذا الموضوع إلى السجل الفقهي الإسلامي فإننا نجد أمر «الحلم» و«البلوغ» لا يستقر على حال ولا يجد إجماعا، فربط بلوغ الرشد القانوني فقهيا بالمظاهر البدنية للمراهقة ليس موضوعا متفقا عليه من حيث تحديد السن، «هناك» يقتصر على العلامات

اليدنية للمرافقة ومن بينها تبات، أي ظهور الشعر في العانة، أما «أبو خفيفة» فلا يذهب إلى حد حذف هذا القيد، ولكنه يتهدد ويرفض أن يضعه الإتيات ويقرر - على الأخص في حالة انعدام المظاهر الأكيدة كقذف اللبي والحيض أو الحمل - سنا قصوى هي 14 سنة بالنسبة للذكور و 17 سنة بالنسبة للإناث ويؤجل ابتداء هذه السن إلى 14 سنة، بينما تعترف مدرستهم بسن ثابتة كحد أقصى للبلوغ، فيما يختص بالتصرف في المال وهي 20 سنة كاملة. وهذا أمر ذو دلالة، فهي السن التشريعية في القانون الروماني (Legitima Aetas) وسوف يشيل الملكية بعد «مالك»، و«الشافعة» بدورهم أعمار محددة بعد أقصى، ولكن فيما يختص ببلوغ الشخص البدني فقط....<sup>(33)</sup>

«الحلم، إذن كحد بيولوجي فاصل بين الطفولة والشباب معطى غير دقيق ومثير ولا تعطيه صفتة الطبيعية والفسولوجية طابعاً ثابتاً، فهو لا يلقي أحياناً، مرحلة الطفولة فتراها تتواصل في سن يفترض أن تكون سن البلوغ، أي سن الشباب».

ففي دراسة حول منح العفو الملكي للمساكين في القرن الخامس عشر في فرنسا يلاحظ الباحث أنه لا يوجد في هذه الرسائل سوى استعمال لكلمتي طفل (Enfant) ورجل شاب (jeune homme). ومع ذلك لا توجد بينهما حدود فاصلة، بل إن هناك حديثاً عن أطفال في سن الثامنة عشرة وسن العشرين<sup>(34)</sup>.

كما بين «فيليب أرياس» (Philippe ARIES) في الطبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر كانوا يصنفون ضمن الأطفال، فلو كان بإمكان أن يظل المرء طفلاً حتى سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، ففي القصص يظل الأمراء أطفالاً حتى يعثلوا العرش، وفي الأرياف تتواصل الطفولة حتى سن الثامنة عشرة، أما في عصورنا الحاضر فبعض مستشفيات الأطفال تقلل من هم في سن الخامسة عشرة.

ويؤكد «أرياس» أن مرحلة الطفولة لم تكن تعدد «التعلم» وإنما هي مرتبطة بعيداً الطبيعية، فكلمات: (fils, garçon, valet) الفرنسية ذات صلة بالثقافات الإقطاعية، وتدل على الإنسان التابع الموجود في أسفل السلم الاجتماعي<sup>(35)</sup>.

إنه من الاعتراف أن نسعى إلى البحث عن مفهوم الشباب انطلاقاً من مقاييس بيولوجية تجعل منه فترة توجد بين البلوغ ونهاية النمو، وإضافة خصائص سيكولوجية على هذه الفترة تتطابق مع ما يطلق عليه أزمة المراهقة، فهذا التعريف البيولوجي: أن السيكلولوجي ينزع عن الشباب ابتداء الاجتماعية ويفقد الفروقات في الأصول الاجتماعية والوضعيات والمصادر<sup>(36)</sup>.

مفهوم الشباب بهذا المعنى ثابت وساكن وصالح لكل زمان ومكان، وبالتالي فإنه لا وجود له، وفي هذا الاتجاه نقرأ في تقديم لأحد الكتب التي تضم شهادات لمجموعة من الشباب في فرنسا المقولة التالية:

«الشباب لا يوجد ... الحديث عن شباب اليوم كوحدة مغلقة ليس فقط مخاطرة بل أكثر من ذلك هو تصور سلاح لتواقع الاجتماعي. وحتى إذا كان الأمر يبدو بأنها فإنه لا يجب الحديث عن «الشباب»، وإنما عن «شباب» متنوع ومختلف من حيث السن والجنس والأصل الاجتماعي والمزاج والتاريخ. إن التعميم المتسرع حول هذه الفئة يقود إلى عدم فهمها في حين أن الانشغال بخصوصياتها وتنوعاتها قد يوفر حظوظا أكثر لمرئيتها»<sup>(1)</sup>.

فعل على عكس التعميمات البيولوجية والسيكولوجية للمراحل العمرية والتي تقدم الشباب البيولوجي أو السيكولوجي كمرحلة طبيعية كونية وثابتة، لا يقدم التحليل السوسيولوجي تعريفه لمرحلة الشباب إلا حسب الطبقات الاجتماعية والجنس وهي مجتمعات محددة في فترة معينة<sup>(2)</sup>.

### ثالثا : المدخل الاجتماعي

من هذه الوجهة نجد المقاربة السوسيولوجية نفسها أمام مهمة صعبة تتمثل في التعديل على أن السن «إنتاج اجتماعي» يتطور عبر التاريخ ويتخذ أشكالاً متنوعة حسب الحالات الاجتماعية.

وهنا يقر عالم الاجتماع الفرنسي «بورديو» (BOURDIEU) بأن هناك اتجاهها عاما في علم الاجتماع يعتبر الحدود بين الأعمار أو الشرائح العمرية حدودا اجتماعية، فمعن لا تعرف أين ينتهي الشباب تبدأ المشيوخة، فكلما لا يمكننا أن نقول أين ينتهي إنفان ليهذا اقتراف<sup>(3)</sup>. ويذكر للتدليل على هذا أن الحدود بين الشباب والمشيوخة كانت دائما «رهان صراع» يتجلى مثلا في العلاقة التي كانت قائمة بين الوجهاء النبلاء والشباب في (فلورنسا) في القرن الرابع عشر، فهذه العلاقة كانت تحكمها ثقافة تربط الشباب بقيم الفحولة والرجولة والعنف والقوة، في حين تبني قيم الحكمة والرصانة من شيم المشيوخ؛ معا يؤهلهم بالتالي للأفراد باستلاك الثروة والنفوذ. وقد يحكم هذه العلاقة مبدأ التلاعب الذي يشير له «دوبي» (Georges DUBY) حين يبين أن أصحاب الثروات في القرون كانوا يحرسون على أن يظل من هم مؤهلون لخلافتهم في «حالة شباب» أي هي حالة لا مسؤولية، وبالتالي غير مؤهلين للجاه والسلطة، ويتعلق الأمر هنا بتصور إيديولوجي للحدود بين الشباب والمشيوخ يعطي أشياء من هم أصغر سنا، ويشرك أشياء للذين يكبرونهم، وبالتالي، فإن كل تقسيم مرتبط بمعايير، عامل النفوذ وعامل النظام<sup>(4)</sup>.

الشباب إذن مثل المشيوخة: فئة غير دقيقة وترتبط كل محاولات تعريفها بالأوضاع والظروف والأحداث والحسابات المختلفة، بعضها اقتصادي مرتبط، بسوق الشغل وطبيعته وانفتاحه ونساق الدخول إلى الحياة العملية، أما التعميمات السوسيولوجية فإنها تنجح إلى استخراج الخصائص المشتركة بين فئات الشباب. مؤكدة على الفوارق الاجتماعية بينها من

حيث الانتماء الطبقي والأسول الاجتماعية فهناك إذن «مجتمع شباب» ترتسم ملامحه داخل المجتمع الشامل (Société globale) على حد تعبير «بلاندييه» (Balandier)<sup>(٢٤)</sup>.

ولا يمكن الحديث عن هذا «المجتمع الشاب» كوحدة متجانسة لها التركيبة نفسها والصفات والمساير والمناخ، وتتخفي دراسته الانتماء إلى التنوع والاختلاف، إنه نوع من القو الذي يجعلنا نعيش داخل الصطلح نفسه عوالم اجتماعية (univers sociaux) مختلفة تماماً، وإن الحديث عن الشباب من الزجوة السوسولوجية كمعطى اجتماعي غير متجانس ومتغير حسب المجتمعات، يدرج في سياق عام يشير السن معطى بيولوجيا يمكن التصرف فيه اجتماعياً<sup>(٢٥)</sup>.

وهناك اتجاه عام في المقاربات الأنثروبولوجية التي تناولت مسألة الشرائح العمرية يؤكد أن البناء الاجتماعي يقوم - فيما يقوم عليه - على السن كمحدد اجتماعي للعلاقات المساندة، ويعبر بالتالي عن طبيعة الصراعات التي لا ترتبط فقط بمحددات اقتصادية وطبقية، فالعلاقات بين الأجيال هي معطى أساسي في النظام الاجتماعي يقوم على خاصيتين:

- خاصية التبعية وتكون بيولوجية خلال الفترة الأولى من الحياة وتتجلى في ارتباط الابن

بوالديه، وتتحول بعد ذلك إلى تبعية اجتماعية عبر طبقات التنشئة الاجتماعية والتلقين.

- خاصية الصراع بين الأجيال المتعاقبة، التي تتجاوز الصراع الطبقي داخل العائلة نفسها

لتتحول إلى صراع اجتماعي<sup>(٢٦)</sup>.

ومن بين المفكرين الذين أكدوا بقدرتهم على أن السني عامل محدد في التراتب الاجتماعي

الألماني هنريش شورتز - HEINRICH CHURTZ (١٩٠٢) - الذي افترض تصوراً ثلاثياً

للمجتمع يقوم على ٣ فئات هي: الأطفال، الشباب الذكور البالغون و الكهول المتزوجون. ويتم

المرور من فئة إلى أخرى عبر نمطين من القطيعة التي تكون إما بيولوجية وإما اجتماعية.

هالانتقال من طور الأطفال إلى طور الشباب الذكور البالغين<sup>(٢٧)</sup> يتم أولاً عبر قطيعة بيولوجية

(البلوخ)، ثم عبر قطيعة اجتماعية تتمثل في التنشئة والتعليم الذي يحدد ملامح الوجود

الاجتماعي، أما المرور من مرحلة الشباب البالغين إلى مرحلة الكهول المتزوجين فيتم عبر

قطيعة اجتماعية يتحول بمقتضاها الشاب إلى والد شرعي (Générateur légal) بواسطة

الزواج، فيحقق اكتماله الاجتماعي عبر الأبوة والمساهمة في إيجاد الجيل اللاحق<sup>(٢٨)</sup>.

ولقد وضع «ايزنشتاد» Eisenstadt نظرية تتضمن الخاصيات العامة لنظام الشرائح

العمرية، انطلاقاً من دراسته للمجتمعات الأفريقية، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

١ - السن وحدة متميزة: فالنظام الاجتماعي يقوم على طبقات مترابطة غير أنها متباعدة

عن بعضها وفق مقاييس عمرية.

٢ - التراتبية: يقوم نظام الطبقات العمرية على التراتبية: فالكبار في وضع متميز عن وضع

الصغار، ومن ثمة فإن العلاقات بين هذه الطبقات غير متكافئة ويحكمها مبدأ النفوذ.

٢ - الإلزامية، العلاقات داخل النظام الاجتماعي المؤسس على السن ليست تفاضلية أو اختيارية، إنما هي ذات طابع إلزامي ودائم، فليس بإمكان الفرد أن يخرج من تلقاء نفسه عن المجموعة الثقافية في السن، أو أن يتصل من واجباته تجاهها أو معا تفرضه من تضامن بين أفرادها.

٣ - التلقين، ترتبط كل طبقة عمرية جديدة بطقوس البلوغ، ولا يمكن لهذا الوصول إلى مرحلة الكهولة إلا بواسطة التلقين<sup>(١)</sup>.

ويمكن القول من هذه الملاحظات إن التراثية القائمة على السن، والتي تنظم إسماء الأدوار حسب المراحل العمرية لا تقوم على أسس طبيعية إلا بقدر ضئيل، وهي في الأساس مبنية على قواعد اجتماعية تحدد الانتقال عبر هذه المراحل.

وفي هذا السياق يرى «فان جناب» (VAN GENNEP) أن بناء المجتمعات القديمة يقوم على تقسيمات دقيقة وواضحة، ويخضع المرور من طور إلى آخر إلى مجموعة من الطقوس، ولا يشكل الطابع الطقوسي لهذه الطقوس أهمية خاصة بالفرد الذي تتطهّر دلالاتها الموسيولوجية؛ فالانتقال يتضمن معنى الضرورة الاجتماعية التي تدمج الفرد داخل شبكة من التبادلات المادية والرمزية، ففي قبائل «الناساي» MASSAI يفور الأولاد النكح بالمرحلة التالية:

- مرحلة الفتي (AUONI)، ثم مرحلة الترشح (SIBOLI) وتدمج سنين، ثم مرحلة التعلم (BARNOTI)، ثم يصبح معارفاً ويقال له (MORANI) ويحل مكانه في سن ٢٨ - ٣٠ سنة، ثم يتزوج ويصبح كهلاً (MORUO)، ويعبر على الزفاف فليس عبور إلى هذه المرحلة<sup>(٢)</sup>.

وهي قبائل أخرى بشكل كل الذين يتم طقوسهم في الوقت نفسه فئة عمرية يطلق عليها اسم معين يختاره رئيس القبيلة ... ولا يمكن للطفل أن يخطئ إلا إذا أخضع أبوه إلى طقوس يطلق عليه «إختيار الحاجز» يتل خلاله أن يصبح شيخاً، وأن يحمل اسم الأب<sup>(٣)</sup>.

إن أنطب المجتمعات القبلية تعيش طقوساً تنظم عملية الانتقال من عالم الطفولة إلى عالم الكهولة، وهي ليست مجرد طقوس للانتقال، بل طقوس لتعليم أو التلقين (initiation)، ولا تنهم فقط على أساس أنها تنظم سير المراحل العمرية ضمنياً للاستمرارية والتناغم الاجتماعي، وإنما هي أيضاً عملية إدماج للناشئة في إطار القيم القديمة التي أسست المجتمع، والتي يجعل فهمها وتعلمها من الشباب كهلاً - فالدلالة العميقة لطقوس البلوغ ليست فقط اجتماعية، وإنما أيضاً دينية<sup>(٤)</sup>.

ويوجه عام، يتضمن طقوس التلقين في هذه المجتمعات المراحل التالية:

١ - نهاية مكان مقدس يعزل فيه الرجال أثناء انتظام الطقوس أو التحلل.

٢ - فصل الناشئة عن أمهاتهم.

٣ - عزل الناشئة مطولاً - في بعض الأحيان - في مكان معزول، حيث يتم تعليمهم أو تلقينهم العادات الدينية للقبيلة.

٤ - تعرض الفئس إلى اختبارات جسدية صعبة ومؤلمة مثل: الختان والتوشم واقتلاع الشعر أو اقتلاع الضروس.

ويمكن انطلاقاً من هذه المراحل استنتاج ثلاثة أوجه وظيفية أساسية لعملية التفتين هذه:

- العزل عن العالم الأثني والطفولي، وهو يحمل معنى موت الطفولة.

- الإدماج داخل منظومة القدس.

- عملية بحث وتجديد جماعي للمجتمع الذي يؤسس له هذا التفتين<sup>(11)</sup>.

إن هذه الاحتفالات التعليمية الانتقالية القضي هي بعض الأحيان إلى احتفالات تجمع القبائل المتجاورة لإحياء الحياة الدينية الجماعية: فالرجال الملقطون والفتيان يتعمدون من مجالهم العادي الضيق ليعيشوا في المكان المقدس المعزول أو في الأدغال، الأحداث الأولى والأساطير المؤسسة: فالتعلم يختزل التاريخ المقدس للقبيلة أي، في نهاية الأمر، التاريخ المقدس للعالم، ومن خلال هذا الاختزال يقدس العالم بأسره<sup>(12)</sup>.

وتجدر الملاحظة إلى أنه حتى في المجتمعات التي درسها «لنلون» (Linton) في «مدغشقر» وجزر «الماركيز» و«البولينيز» التي بدت الحيولة فيها متقدمة بين الصغار والكبار، ولم تكن توجد فيها طقوس انتقال خاصة بالذكور عند بلوغ الحلم - ما عدا تعرضهم إلى نوع من الختان - فإن العلاقة بين الصغير والكبير لم تكن سهلة، فقد كان من الصعب أن يحجز أحدهما لغة الآخر، وهي صعوبة تعرض لها الباحث نفسه عندما حاول ملاحظة عالم الصغار<sup>(13)</sup>.

هذا إلى جانب أن الشباب بين من البلوغ والزواج كانوا يمثلون مجموعة خاصة يطلق عليها (KAKOI). وهي مرتبطة بعياة الثقيلة وتقوم على الشيط الحفلات والأفراح والانتقال إلى القبائل المتجاورة للرقص. وكان أعضاء هذه المجموعة يلبسون لباساً خاصاً مزركشاً، ويلبسون أجسامهم بالوان متعيرة<sup>(14)</sup>.

## ثانياً: في مفهوم المراهقة

### أ - المراهقة: «تومو» و«مال»

لمراهقة مصطلح شائع، كثيراً ما يستعمل كمترادف لمصطلح الشباب، وأحياناً كمرحلة من مراحله أو كخاصية من خاصياته

النفسية والبيولوجية والاجتماعية. و لكن أهمية هذا المصطلح هي كونه أكثر حضوراً في الإنتاج الفكري والعلمي حول الشباب قديماً وحديثاً<sup>(15)</sup>.

ولئن لم يتجاوز الاهتمام الفلسفي عند «أفلاطون» و«أرسطو» و«سقراط» بموضوع المراهقة حدود الإشارات السريعة، فإن الفن والنحت والأدب خصوصاً في القرن التاسع عشر تناول هذا الموضوع بكثير من المثالية والمثالية<sup>(16)</sup>.

ويبدو عموماً أن المجتمعات الغربية هي أول من اهتم بالمراهقة كمصطلح يدل على فئة شابة مخصصة، فقد تطرقت لها الدراسات الديموغرافية في إطار ما أطلق عليه الإنجليز «الأرتمطيقا السياسية»، هذا العلم الذي تطور في القرن السابع عشر ومنصف القرن الثامن عشر، ووضع فيه الديموغرافيون تقسيمات للمراحل العمرية، ونسبوا لكل مرحلة خصوصيات محددة واستعملوا مرحلة المراهقة<sup>(14)</sup>.

ويمور لـ «جان جاك روسو» السبق في التطرق إلى موضوع المراهقة في كتابه «إميل»، حيث خصص الباب الرابع من هذا الكتاب الحديث عن هذه المرحلة من عمر الشباب، واعتبرها «ولادة ثانية»، فالمرء يولد ولادة أولى من أجل العنصر البشري، ويولد ولادة ثانية عند بلوغ الحلم، وهي ولادة من أجل الجنس يصحبها إشعال الفرائز والأهواء.

ومع أن «روسو» يربط تحديد هذه الفترة بأساليب التربية التي تختلف من مكان إلى آخر، إلا أنه يرى فيها مرحلة تنسم بالتحولات الفسيولوجية والتفسيقية فيقول: «لم يعد «إميل» طفلاً ... والمراهقة تبدأ بتلو من التغيرات في المزاج وهي سحنة الوجه. فهذا هو الأوان الذي نولسك أن تظهر فيه الأهواء، ولا يأمن بالأهواء في أحد ذاتها، فهي من الوسائل الرئيسية لحفظ الذات وحفظ النوع، وهذان هما قوام غريزة الحياة الدنيا. وتختلف سن البلوغ على حسب الأجواء والأمزجة... والطريقة التنموية المثبتة مع الأطفال متلع كبير في تأخير البلوغ والتعجيل به ...»<sup>(15)</sup>.

وينطلق اهتمام «روسو» بهذه المرحلة من أهمية تربية المراهق والتمسك إلى تجنبه المخاطر لتجربة من الرغبات والفرائز الجنسية، يتشكته على أن يحب جميع الناس حتى أصداء الإنسانية، وألا ينتمي إلى طائفة دون أخرى ... وأن يخصص آراء الناس وأفكارهم وأن يحترهم جميعاً، وأن يتعرف عليهم بواسطة دراسة التاريخ وتعلم الديانات، وأن يطار دينه بنفسه ويكثر من المطالعة وقراءة كتب التاريخ والأساطير والأدب ومشاهدة المسرحيات.

المراهقة عند «روسو» مرحلة قصور وتدريب ووصاية، «فكما أن هنالك سنا مناسبة لدراسة العلوم، فهناك كذلك سن مناسبة لممارسة الدنيا واختبار الحياة .. ويجب أن تتأخر هذه السن إلى أن ينضج عقل الشاب فيملك في الحياة عن وعي وعلم ...»<sup>(16)</sup>.

وإذا كان «روسو» قد تطرق إلى المراهقة في إطار تربوي في القرن الثامن عشر فقد ازداد هذا الاهتمام في القرن التاسع عشر، فانكب الأطباء على المشاكل الفسيولوجية لهذه المرحلة ومعالجتها الطب النفسي منذ 1860 في إطار ما أطلق عليه الاختبار النفسي (Expertise psychiatrique)، وذلك إثر اكتشاف مرض أطلق عليه (Hebephrenie)، وهو مرض يصيب المراهقين الذين لا يستقرون في مكان واحد، ويرغبون دائماً في الهروب من منازلهم، هذا المرض فسره المختصون آنذاك بأنه ناتج عن عدم استقرار عقلي وجسدي<sup>(17)</sup>.



## مقدمة لدراسة علم الاجتماع

كما أقر أطباء القرن التاسع عشر بأن الكابة منتشرة جدا عند الشباب وذلك لارتباطها بالانفعالات البلوغ<sup>(1)</sup>. وأثبتت دراساتهم الوثائقية أن الاكتئاب أكثر استيعابا عند المراهقين منهم مقارنة ببقية الشرائح العمرية<sup>(2)</sup>.

ومن جهة أخرى، اعتمد المراهقون في تلك الفترة بمشكل كبير - في نظريهم - هو وضع المراهقين المذكور في الوثائق التي يفتشون فيها سني دراساتهم. فهذه الفئة كانت تبدو لهم مشغولة بالجنس، وهي بالتالي تواجه مضاطر صحية واجتماعية وأخلاقية تنتج عن ممارسة «العادة السرية» أو عن التشبذ الجنسي. وكان لهذا الاهتمام نتائج عملية في التربية، تمثلت في «منع الجولان القليل» وإشغال الشوموع والقيام بالزيارات الشجائية القليلة لرافقة مضاد المراهقين<sup>(3)</sup>.

القرن التاسع عشر كان قرنا يخلف المراهقة ويراقبها. وتواصل هذا الخوف إلى بدايات القرن العشرين، فإثر الحرب العالمية الأولى اعتمدت السلطات الأكاديمية بالصحة العقلية للطلبة، وساء الاهتمام بأن هنالك أضرارا خاصة بهذه الفترة من الحياة<sup>(4)</sup>. وفي نهاية القرن التاسع عشر تحولت المراهقة إلى موضوع اهتمام علمي، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث التفت علم النفس الذي استفاد كثيرا من الفسيولوجيا بوصفها علما يدرس الجوانب العضوية للحياة العقلية، وعلم الاجتماع الذي يتناول **الظروف الاجتماعية**، إلى جانب مساهمات علم الأحياء (Biology) ودراسات «المتغيرات» (LAMARCK) و«داروين» (DARWIN) و«سانت هيلر» (Geoffroy Saint-Hilaire) الذين وضعوا أسس نظرية التطور.

فيعد أن كتب «يورنهام» (Burnham) الأمريكي مقالا بعنوان دراسة المراهقة (the study of adolescence) سنة 1891 أصدر «لانكستر» (Lancaster) سنة 1898 كتابا جمع فيه 200 سيرة ذاتية لشخصيات مشهورة مثل «روسو» و«فولستوري» و«ألبرت» و«فاجنر» في محاولة لتوقوف على الخصائص السائدة في مرحلة المراهقة مثل الطموح والعلم وال عاطفة والول إلى الوحدة والرغبة في تغيير المجتمع، ولقد تبين له أن هذه الخاصية قد ميزت هذه الشخصيات، وأن جلهم حاولوا الانتحار في تلك الفترة وإن كانوا يفتون ذلك عند الكبر<sup>(5)</sup>.

وتجمع كل المراجع المتخصصة في موضوع الشباب والمراهقة أن أول وأبرز من تناول الموضوع هو عالم النفس الأمريكي «ستانلي هال» (STANLEY HALL) في كتابه المشهور الصادر سنة 1899-1901.

ولقد حاول «هال» (Hall) أن يدرس ويحلل أسباب الفشل الدراسي لشخصيات مشهورة مثل «هيكل» و«نابليون» الذي تطرح في المرتبة الثانية والأربعين من دفتته العسكرية، و«داروين» الذي لم يكن تلميذا نجيبا و«أنتواتين» الذي كان أساتذته يعتبرونه مجنوناً. وبين أن عبقورية هؤلاء المشاهير وغيرهم مثل «جاليلي» و«نيوتن» و«جون ستيوارت ميل» ظهرت قبل سن العشرين، أي في سن المراهقة، ولكنهم استطاعوا بمواثيق العائلة والكنيسة التي لم تكن تسمح

بأن تظهر علامات النبوذ ميكرًا ... واستنتج أن الفشل كامن في المدرسة وأساليبها، وليس في طبيعة تلك الأديمة المبررية المشحونة بالخيال<sup>(17)</sup>.

وتتعلق نظرية «هال» (Hall) من أن هنالك تطابقاً بين حياة الفرد وتجربة البشرية كلها في تطورها، فإذا كانت التجربة البشرية قد مرت من مرحلة البدائية إلى مرحلة المدنية الأوروبية الغربية بطور من العناية والألم والجهد، فإن الإنسان في سن الرابعة يعيش «مرحلة البدائية»، أما فترة مراهقته فهي مرحلة «التحول الصعب» إلى المدنية، أي فترة الكهولة والتضج. فالمرحلة هي فترة ميلاد جديد مصحوب بالثرات وصعوبات التكيف، يتحكم فيها الجنس تحكماً «مدمراً» لا يضطر الشاب إلى السقوط في الرذيلة السرية والمرض الذي يصف بئته ويشفي به إلى الانهيار. المراهقة عند «هال» هي ميلاد عجيب ومثير، تستيقظ فيه مشاعر الحب ويتقلب فيه المزاج ويتزايد الطموح ويسود رفض البيت والمدرسة وانتشار حالات الهروب، ولئن كان «هال» يرجع مظاهر التقلبات في المزاج عند المراهقين إلى طبيعة الحضارة الصناعية، وما أوجدته من حياة استقرار ودعة، وإلى نظام تقسيم العمل الجديد القرب على التقدم التكنولوجي الذي خلق مشكلات التدريب والتخصص وسوء التكيف، إلا أنه ظل منذاً يارت «روسو» حين يرى أن الهدف من دراسة المراهقة هو تأطير القرائل والدوافع، حتى لا تظهر في سن الكهولة في شكل عنيف، ويقترح لذلك فتح كتاب الطبيعة الجليل، والأخبار بالآلهة التاريخية العظيمة<sup>(18)</sup>. لقد ظلت المراهقة موضوعاً أساسياً في علم النفس، وكل ينظر إليها في العموم - على أنها مجموعة خصائص ثابتة صالحة لكل زمان ومكان، حتى إن حاول البعض إدخال شيء من النسبية على هذا التعميم.

## ب- المنهج التكنولوجي: «هاجين»

أحدثت الدراسات الأنثروبولوجية منعطفاً مهما بإعادة النظر في بعض القنولات والسمات السائدة بخصوص المراهقة، ولقد «مارجريت ميد» أبرز المساهمين في هذا المجال عبر دراسات عديدة، لعل أبرزها الثتان، الأولى عن مجتمعات الساموا SAKOA، وهي مجموعة جزر تقع بين «نيوزلندا» و «استراليا» و «هاواي» ويخضع بعضها للإدارة الأمريكية، وتتميز الحياة فيها بالبدائية وبسادة التنظيم الاجتماعي وتختلف الاقتصاد<sup>(19)</sup>.

والثانية عن قبائل مانوس MANUS في جزر «الأدمير» التابعة لجزر «غينيا الجديدة» التي في الشمال الشرقي من «استراليا» وهي قبائل بدائية من أصل بولينيزي تلعب فيها الروابط القرابية دوراً أساسياً، وتقوم حضارتها على السحر والطقوس<sup>(20)</sup>.

ولنطلق «ميد» في دراساتها في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من الإقرار بعدة ظاهرة المراهقة في المجتمعات المعاصرة، فهي السابق لم يكن يوجد مشكل شباب أو طفولة

## مدى انماث البيولوجيا للثقافة

بالنسبة للأولياء والمربين، على عكس ما حدث في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث زاد الانشغال بالثقافات الشابة التي أصبحت تبتعد يوماً بعد يوم عن النكاح والقيم التي سادت في الماضي، مما أحدث مواقف متعددة بين رافضين ونافقين ومتعطفين. وأصبح هناك اتجاه للملازمة التربوية مع حاجيات الأطفال وذلك من أجل تأقلم هؤلاء مع النظام التربوي. ولقد كان المجتمع الأمريكي أكثر المجتمعات التي ظهرت فيها مشاكل المراهقين، وذلك لطبيعة هذا المجتمع الذي يتميز بالهجرة وتعدد أنماط السلوك والمعارضة وكثرة الجماعات الدينية والوضع الاقتصادي المتقلب<sup>(٦٨)</sup>.

إن هذه الظاهرة التي أثارت الانشغال والاهتمام كانت موضوع بحث علم النفس على وجه الخصوص، أي إن مقارنتها كانت في الغالب ذات طابع وصفي. فالباحثون كما تقول «ميد» يقومون بملاحظة سلوكيات المراهقين في المجتمع، فيسجلون علامات عدم الاستقرار - البديهة والشائعة - ويستنتجون أنه من خاصيات تلك المرحلة العمرية، ويقومون بالتالي بتحذير الأمهات بأن بناتهن يتعرضن لمشاكل خصوصية، «إنها مرحلة صعبة كما يقول المنظرون، التغيرات الفسيولوجية التي تحدث لأبنائكم وبناتكم تصبحها تغيرات نفسية لا تتماشى معها ... إن جسم ابنك الذي كان في الماضي جسم طفلة أصبح اليوم جسم امرأة وبالتالي فلا مفر من أن تحدث تحولات في نفسيته وتفكرها، وهذا أمر لا يحدث من دون اضطرابات ...»<sup>(٦٩)</sup>.

هذه الدراسات الوصفية التي لم تكن إلا ملاحظة واقعها واليهن المرافقة، كانت محل نقد «ميد» بالدرجة الأولى، قبل أن تقدم نظريتها أو يبدلها الأنثروبولوجي. فهذه المقاربات التي اكتفت بملاحظة السلوكيات وأرجعت مشاكل المراهقة إلى أسباب فسيولوجية مرتبطة بخصوصية تلك المرحلة العمرية، لا تقدم حلاً للمرين، بل تتصحبهم بالصبر، لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال مؤاخذة الطفل بما يصدر عنه في تلك المرحلة<sup>(٧٠)</sup>.

المقاربة الأنثروبولوجية هي البديل الذي اقترحه «مارجريت ميد» فالأنثروبولوجيا هي المنهج الذي يتناول بالبحث التطور الإنساني، ويتطرق إلى الإنسان ضمن إطاره الاجتماعي الذي يختلف عن غيره ويدرسه بالاعتماد على المعلومات المتداولة عن سلوك وطبائع الشعوب البدائية. ويعتمد الدارس الأنثروبولوجي على الدور المهم الذي يلعبه المحيط الاجتماعي في حياة الفرد. وبالتالي فإن السلوكيات (التي كان الباحثون في الماضي يرجعونها إلى الطبيعة البشرية) تصبح نتيجة لهذا المحيط ... هالشاعر والطبايع كالحب والخوف والغضب ليست كونية ومشابهة، إنما هي تختلف من بيئة إلى أخرى.

وبما أنه من المستحيل توفير الظروف التجريبية لثلاث الموضوعي من الفرضيات ودراسة تأثير البيئة والمحيطة الاجتماعي في المجتمعات التي حصل فيها قدر بالغ من التعقيد، فإن المقاربة الأنثروبولوجية تلجأ إلى دراسة حضارات مختلفة تعيش في ظروف خاصة، وأحسن مثال على ذلك

الشعوب البدائية التي لم تبلغ درجة التعقيد التي بلغتها المجتمعات الغربية والأمريكية. لهذه الاعتبارات ذهبت «مارجريت ميد» إلى جزر «ساموا» تبحث عن إجابات عن أسئلة محيرة:

هل ترجع الاضطرابات التي يشكو منها مراقبو أمريكا إلى طبيعة المراهقة ذاتها، أم إلى طبيعة الحضارة الأمريكية؟

هل تتجلى المراهقة بصورة مفاجئة كلما تغيرت الظروف؟

هل المراهقة - بالضرورة أزمة لا مفر منها وهشرة اضطرابات لمصاحب التحولات الفسيولوجية عند البلوغ، تبرز معها ردود فعل انفعالية تتميز ببساطة الحس الديني والتطلعات المثالية ومعارضة السلطة؟

هل إن الأمر مماثل عند كل المجتمعات، خصوصاً تلك البدائية، كمجتمعات جزر «ساموا»؟ لماذا تبدو المراهقة في المجتمع الأمريكي فترة أزمة واضطرابات؟<sup>(١٨)</sup>

ولقد استطاعت «ميد» من خلال دراساتها الميدانية الخصائص التي تجعل من المجتمعات البدائية مجتمعات من دون مراهقة وهي كالآتي<sup>(١٩)</sup>:

١ - بساطة المجتمع: يتسم المجتمع في «ساموا» بالتحول والاطلاق والعدم الضيق العنيف، الشيء الذي يجعل النمو والتضخم يمان بسهولة وبساطة على عكس المجتمع الأمريكي، حيث يتسع مجال الضيق الاجتماعي ليشمل كل مجالات الحياة، فالتطفل في مجتمعات «ساموا» يعيش بحرية ودون ضوابط أو حرمات (في مجال الجنس مثلاً) ولا وجدت فإن وطوحها وطريقة تقليها يخففان من الممانعة التي يتعرض لها شباب المجتمع الأمريكي.

٢ - سهولة المرور إلى من الشباب: لا يشعر الفرد في «ساموا» بتهديد الفقر أو الكوارث الكبرى، ولا يجد نفسه مطالباً بأن يتألم من أجل الدفاع عن اقتناح أو الموت من أجل هدف ما؛ فلقد تعلم منذ الصغر ألا يعلق أهمية خاصة على أي شخص أو أن يضع آماله كلها فيه.

وبمثل هذا التحرر وهذه الطريقة في تلافي الصراعات والوضعية الصعبة يمكن للفرد أن يمر من مرحلة الطفولة إلى مرحلة التضخم ببساطة وسهولة فالشباب في «ساموا» يختلفون عن شباب القرون الوسطى الذين كانوا يجدون أنفسهم مضطربين للانقطاع عن العالم لخدمة الإله، وعن الهنود الذين ينشطرون إلى قطع أصابعهم كقرابين ديني - وبالتالي فإن هؤلاء الشباب يعيشون مشاعر عميقة، وهذا ما يميزهم عن غيرهم.

٣ - قلة البدائل: يتميز مجتمع «ساموا» بقلة الاختيارات والبدائل Options المتاحة لكل فرد عكس المجتمع الأمريكي الذي يجد أبناءه أنفسهم أمام العديد من الإمكانيات، فهي مجال الدين مثلاً بإمكانهم أن يكونوا (كاثوليك أو بروتستانت).

إن المجتمع الأمريكي يتميز بتعدد المواقف والقيم داخل المجموعة الواحدة، فطلاب معتقداته الخاصة التي تختلف عن معتقدات زوجته وأخته ... ويضاف إلى هذا التعدد والاختلاف ما

يحصل من تناقضات بين المعتقد والممارسة اليومية من ناحية، وتراجع التعاليم الدينية بين التحريم القطعي والتساهل من ناحية أخرى، وهذا مصدر من مصادر الصراع والاضطرابات التي تميز المراهقة.

٤ - المساواة: أي المساواة في معاملة الأطفال وعدم اعتماد مقاييس الجنس والسن وهو ما لا يحدث في المجتمع الأمريكي.

٥ - المعرفة: المعارف والحقائق التي تعني الوجود الإنساني كالتجنس والحياة والموت متاحة للجميع، بعكس المجتمع الأمريكي الذي يكتم هذه الحقائق عن الشباب ويضللهم إذا ما طلبوا معرفتها.

٦ - الاستقلالية: المتمثلة في عدم تبعية الأبناء للأباء هي «ساموا» وانصهارهم في الجماعة بعكس المجتمع الأمريكي الذي يتميز بعمومية العلاقة بين الأبناء وأبائهم.

هذه تؤدي إلى غياب ظاهرة العصب *typhoid* وبالتالي إلى غياب المشاكل النفسية في مجتمع «ساموا» فتأنيبه لا يعرفون الوضعيات الصعبة والاختيارات المتناقضة والظروف التي تثير الخوف والقلق والألم.

والفارق بين هذا المجتمع البدائي والمجتمع الأمريكي يكمن في أن الأول بسيط ومتجانس، يتطور ببطء ويبدو ثابتاً من جيل إلى جيل، في حين أن المجتمع الأمريكي حديث ومتنوع ومختلف وغير متجانس<sup>(٣٢)</sup>.

لقد أحدثت «مارجريت ميد» *Margaret Mead* من علماء الأنثروبولوجيا هؤلاء الدراسات التي تناولت مراحل العمر والشباب والمراهقة على وجه الخصوص، وهزت البنى المسكونة التي ترجع تفسير الظواهر المرتبطة بهذه المرحلة إلى أصول فيولوجية تصبغ عليها مسحات سيكولوجية كثيراً ما أغفلت الجوانب الاجتماعية، واعتبرت المراهقة مرحلة معزولة وحالة خاصة في الحياة النفسية، وتجربة يمكن رصد آثارها في مراحل متأخرة من الحياة (كان يبقى بعض التوضيحات مراهقين حتى إن تقدمت بهم السن)<sup>(٣٣)</sup>.

ولبقى مساهمة «ميد» بالغة الأهمية بالرغم من تحذير بعض الدارسين من الاندفاع في الثقة بروايات الأنثروبولوجيون الأوائل بسفاهة خاصة، وذلك لأن جزءاً غير ضئيل منها قد يكون صدر عن انهيار رومانسي أو سذاجة أو تزيف مقصود للعضادات البدائية ثم تساعد في تقويمها في كل أبعادها بصورة دقيقة<sup>(٣٤)</sup>.

### ٥ - تعبئة المفهوم عن الوحدة الميوسولوجية

ومهما يكن من أمر، فإن علماء الاجتماع الأمريكيين يعتبرون السابقين في نقد النظرة السيكولوجية الضيقة للمراهقة، وهي تطوير نظرية تعتبر التشكّل الاجتماعية مرحلة لخلق التلازم المنسرج مع القيم والأدوار الاجتماعية. ولقد أصدرت المجلة السوسيوولوجية

الأمريكية (American Sociological Review) سنة 1936 أجروا للبحوث الصادرة حول المراهقة وأوربت القول التالية:

«لا يمكن تحديد المراهقة - بما أنها تجربة اجتماعية - بمفاهيم العلم والتضيق المسبولوجي، بل يجب البحث عن بدايتها عندما لا ينظر المجتمع إلى الإنسان على أنه طفل بل عندما ينتظر منه أن يتحمل مسؤوليات راشدة...» وانطلقت بناء على هذه الرؤية لتعالج الصراعات والتناقضات بين المصوحات الشباب والمسلطة الأبوية مركزة على الدور الذي يلعبه المحيط الاجتماعي في تحديد ملامح المراهقة وخصائصها. ومن ثم نؤكد أنه لا يمكن اعتبار المراهقة واقعا ثابتا لتفاسمه البشرية لأنها وجدت في ظل أي ظروف اجتماعية كانت.

فـ «دوريس دبيس» (Debesse) مثلا يرى أنه كثيرا ما يتم الخلط بين مصطلح الشباب (jeunesse) و «المراهقة» (Adolescence)، في حين أنهما لا يحملان المعنى نفسه. فالمراهقة ذات مدلول عام والمعنى مجموع التحولات الجسدية والمسيكولوجية التي تحدث بين سني الطفولة والكهولة، وعندما نتحدث عن «العلم» فإننا نقصد الجانب العضوي للمراهقة وخاصة ظهور وبداية الوظائف الجنسية.

أما الشباب فيعني الجانب الاجتماعي للمراهقة، ويتجلى في الجيل الذي وصل إلى اكتمال التضيق، أي امتلاك كل القدرات التي تؤهله لإزاحة الجيل الذي سبقه. وذلك بما يتمتع به من حيوية وحماسة<sup>(37)</sup>.

المراهقة عند (Debesse) مرحلة محددة في حياة الإنسان وتنقسم إلى:

1 - فترة ما قبل العلم في سن 12 - 13 سنة، حيث تحدث في الجسم تغييرات بيولوجية تعطيه شكلا مغايرا أو قوة مثلية، فتصبح الطباع أقل استقرارا ويتم الاعتماد عن العادات الطفولية، ويولد التوق إلى أفق أرحب يتجاوز حدود العائلة والمدرسة. هذه الفترة التي يطفئ فيها الليل إلى الحلم والخيال هي فترة تمهد للبلوغ ووظيفة التماسك.

2 - فترة البلوغ وتتمد من 13 إلى 15 أو 16 سنة ويطلب عليها الطابع المتزامن أو ما يطلق عليه الأزمة الحلمية (trouble pubertaire) وأعراضها الاضطراب وتقلب المزاج وعدم الثقة في المستقبل. وتسمى هذه الفترة «المراهقة الحلمية».

3 - بعد أزمة البلوغ يستقر الجسم والحياة العقلية وتلح فترة المراهقة الشبابية (Adolescence Juvenile) وتتمد من 16 إلى 20 سنة، وتتميز بأنها فترة التائق الشبابي وهي تتزامن مع مرحلة التقنين وتتصدر فيها المسائل المتعلقة بالسياسية والاقتصاد والاجتماع مقدمة الاهتمامات، ويتأخر العمل الدراسي وتزهر الشاعر ويصبح هناك اندفاع ونشاط. فيعد «البائع، الفلق المضطرب يأتي الرجل الشاب والقناة الشابة الثنان ينظرون إلى المستقبل بشغف وأمل وكثير من الخيال»<sup>(38)</sup>.

المهم في استعراض التصور الذي اقترحه (Debessé) هو إقراره بأن هذه المراحل لا يمكن تسميتها. فهناك من الشباب وخاصة فتيات الطبقات الفقيرة من ينتقل بسرعة من طور الطفولة إلى طور الكهولة فيحصلوا جسديا وعظليا إلى الرشد في سن ١٧: في حين يتأخر أبناء الطبقات الميسورة فيظل بعضهم مراهقين في سن ٢٢ و ٢٣ سنة. يقول (Debessé) «عندما نتقدم بهذه الفكرة إلى أقصى الحدود يمكن أن نقول أنه لا يوجد مراهقة بل يوجد مراهقون...»<sup>(٣٦)</sup>.

إن تناول مرحلة المراهقة أو الشباب على أنها تعني مرحلة في سيرة ذاتية للفرد، يقتضي وضع حدود لنهايتها ونهايتها على خط الزمن... ولكن وفق أي مقياس تنبئ هذه الحدود؟ هناك بعض المحاولات السوسولوجية التي تضع نقاط استدلال ذات دلالات اجتماعية تمكن من استخراج خمس مراحل بين الولادة والوفاة:

١ - من الولادة إلى الدخول إلى المدرسة، ويتكون المحيط الاجتماعي في هذه المرحلة من العائلة الأصلية.

٢ - من الدخول إلى الخروج من النظام الدراسي، ويتكون المحيط الاجتماعي هنا من العائلة والمدرسة.

٣ - من انتهاء الدراسة إلى الزواج.

٤ - من الزواج إلى التقاعد، ويتكون المحيط الاجتماعي هنا من العائلة ومؤسسة العمل.

٥ - من التقاعد إلى الوفاة.

هذا التقسيم وإن اعتمد على مقاييس تنبؤ اجتماعية، إلا أنه يسهل الباحث في نوع من التعميط والتبوت والوصفة الجاهزة ويفضي إلى العديد من الانتقاسات، فليس من الأكيد أن يمر كل الناس بهذه المراحل (مثل الأشخاص الذين لا يتزوجون أو العاطلين عن العمل أو المرأة في المنزل... هذا إلى جانب أن هذا التقسيم تنقصه بعض المحطات المهمة وهو يغفل تدخل بعض المؤسسات الأخرى مثل الخدمة العسكرية، المسن، الطلاق، ولادة الطفل الأول، والمعايشة من دون عقد زواج.

وفضلا عن كل ما تقدم فإن محاولة القيام بتحديد مرحلة الشباب في سياق بيولوجرافي يقتضي وجود قسمة بين مختلف مراحل العمر، وحدود بينها مثل نهاية الدراسة، الخروج من العائلة الأصلية، والشغل... ولكن ما العمل عندما تغطط هذه الحدود بوجود وضعيات وسيطة مثل حالات التدريب أو المهينة (interim)<sup>(٣٧)</sup>.

من هذه الوجهة يندرج هذا التداخل في الوضعيات الاجتماعية في إطار تخطيط دورة الحياة الراجع إلى ارتفاع أمل العيش وطول وتعميم فترة التعليم، التي أصبحت محطلة توفت مطولة<sup>(٣٨)</sup>. إضافة إلى تخطيط فترة الدخول إلى عالم الشغل، حيث يتميز المرور من نظام التكوين إلى نظام العمل بالبطء وطول مدة الاستكشاف والانتظار والتردد وما ينجز عن ذلك من تأخر سن الزواج

والاستقرار العائلي وتأجيل للإنجابات الاجتماعية، ومن هنا يمكن القول بأن فترة المراهقة أو الشباب لم تتوقف عن التمدد بسبب البنى الاقتصادية والاجتماعية التي تترك أفراد ناشئين بيولوجيا هي وضع اجتماعي تابع<sup>(39)</sup>.

ولا يجد هذا التعميط تفسيراته فقط في العوامل الديموغرافية، فالقراءة الديموغرافية تقترح تفسيرات طبيعية لتطلق من أن نظاما ديموغرافيا ما ينتج عن تحولات في نسب الوفاة والخصوبة والتاسل، أي عن معدلات ميكانكية تعضي على الظاهرة مطابعا كونيا متشافا وثابتا.

بالتقابل يصبح دور القارة السوسيوالوجية هو نقد هذا التوجه الميكانيكي الوصفي لاقتراح قراءة جديدة لا تتعامل مع الشباب أو المراهقة كشيء قائم بذاته ومترايط الخاصيات. فالخصائص التي

تحدد الرشد تختلف باختلاف المحيط الاجتماعي، وتحققها لا يتم دائما في المواعيد نفسها (الحصول على عمل الزواج الحصول على مسكن مستقل...) و «الرشد المهني» ليس مرتبطا بالضرورة بـ «الرشد المهني» أو «الرشد القرامي»... فهناك عدم لرابط بين رؤايات الدخول إلى

الحياة، وهناك اختلاف في التكوين التاريخي والاجتماعي لسلسلة الخاصيات التي تعبر مراحل العمر والتي تتغير وتتوزع حسب المجتمعات وحسب الانتماء داخل المجتمع الواحد<sup>(40)</sup>. إن الطابع

المتغير للخاصيات الاجتماعية التي تستند على أساس الزمن-وارتباطها ببناء المجتمع وخصوصياته تجعل من الرشد - كمحدد اجتماعي - مجالاً للصراع بين الشرائح العمرية وذلك في اتجاهين.

- الاتجاه الأول نحو الأسفل: يتجلى ما يمكن تسميته إستراتيجية وضع في حالة لا مسؤولية، وتتجلى في عملية تأجيل بلوغ الرشد الكلي، وإبقاء جزء من المجتمع في حالة غير

راشدة، أي حالة شبابه. وهي إستراتيجية تشييب (Jevénisation) يعتمدها الكهول «الراشدون والناضجون» حتى يظلوا مالكين للحكمة والرصانة، خصوصا، ويظل الشباب خارج تلك الدائرة. أي في حالة تبعية وقصور وتحت وصاية.

- أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه نحو الأعلى، ويتضمن إستراتيجية إسقاط (Déclassement) يعتمدها الشباب، وتهدف إلى محاولة إزاحة من هم أكبر سنا بالحمت من

رئسهم وإخراجهم من دائرة الحياة الاجتماعية والحلول معلوم<sup>(41)</sup>.

### خلاصة: مركزية مفهوم الجيل

يعد مفهوم الجيل مفهوما أساسيا في دراسة الشباب كفتة اجتماعية مخصصة، وفي تفسير الظواهر المرتبطة بالتطور التاريخي وتحليل العوامل المتعددة للتغيير الاجتماعي، فكلمة

génération ذات أصل إغريقي وهي مصطلح أساسي في الفلسفة اليونانية، فالإغريق القداس كانوا والذين بأن العلاقة بين الأعمار ليست بالضرورة متشافعة، وبالتالي كانوا



منطلون للمناقشة الاجتماعية والسياسية للتعارض بين الأجيال، «هناك خلطون» كان يرى في الصراع الجيلي قوة محركة للتغيير الاجتماعي، «وأرسطو» كان يفسر الثورات بالصراع بين الأبناء والآباء، وليس فقط بالصراع بين الطبقات<sup>(141)</sup>.

كما اعتمدت الأجيال في الحضارات القديمة، خصوصاً في المجتمعات ذات التقاليد الشفهية، كأداة لقياس الزمن التاريخي وتفسير حركته، وكانت بالتالي محور التفكير في الحياة والموت والزمن<sup>(142)</sup>.

ولقد استعمل «ابن خلدون» هذا المفهوم في بناء نظرية نشأة وانحلال الدولة التي اعتبر أن لها أعماراً طبيعية كما الأشخاص، وقدر الجيل بأربعين عاماً، ومن ثمة فإن عصر الدولة لا يزيد، في الغالب، على مائة وعشرين عاماً، على اعتبار أنها تمر بثلاثة أجيال هي جيل البداوة وجيل التحول إلى الحضارة وجيل الترف والانحلال والمهرم<sup>(143)</sup>.

ويمكن القول إن فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في أوروبا هي الفترة الرئيسية التي تبلور فيها مفهوم الجيل بمعناه الغربي وذلك نتيجة التحولات التاريخية التي شهدتها المنطقة والتي أفرزتها حركات اجتماعية قائمة بالأساس على العصر الشبابي، إضافة إلى التيارات الثقافية التي بدأت تبحث عن نوح علمي لفهم التاريخ، وطرحت بالتالي مفهوم الجيل كأداة منهجية لقياس الزمن التاريخي.

وليس بغريب أن التفكير في قسمة الأجيال تنافس إلى عهد الحدود بأطروحات «أوجست كونت» Auguste Comte و«وليام ديلبي» William Dillmy في القرن التاسع عشر وأطروحات «مونتري» François Menré، و«جوزي أورتيغا» José Ortega في بداية القرن العشرين التي توجت جميعاً بنظرية الفكر الألماني «كارل مانيه»<sup>(144)</sup>. وتدرج مقاربة «أوجست كونت» لهذا الموضوع في إطار الأسس التي وضعها لعلمية التاريخ ونظرية العلوم، فتاريخ المجتمعات، «علم» قائم على قوانين مرتبطة أساساً بالطبيعة البشرية، وبشروط تطورها ويتوزل تعاقب الأجيال في إطار مشروع نظري يقيم علاقة تناغم بين التاريخ العلم للمجتمعات وتاريخ الأفكار، والعلوم. وعلى هذا الأساس تتطابق مراحل حياة جيل ما مع مراحل التطور الاجتماعي على النحو التالي: الطفولة = الإقطاع، المراهقة = الثورة، النضج = الوضعية<sup>(145)</sup>.

ويض النظر عن أهمية بنية النظريات التي أشرنا إلى أصحها فإن أبرزها تبقى في نظرتنا نظرية الفكر الألماني «كارل مانيه» التي تضمنها كتابه «مشكل الأجيال»<sup>(146)</sup>. فهو يرى أن مفهوم الجيل أساسي ويعتمد أهميته من الإمكانيات التي يتيحها لتحليل تشكل الحركات الاجتماعية والفكرية ولهم التحولات المتسارعة في المجتمع. ويؤكد أن علم الاجتماع مزهّل أكثر من غيره من الاختصاصات لتناول هذا المفهوم وتحليله وإثرائه واستخراج أشكال وعناصر وأسس «ظاهرة الأجيال» في إطار البحث عن القوى المحركة للمسير الاجتماعي<sup>(147)</sup>.

وتبنى نظرية «مانهايم» على مفهوم الوحدة الجيلية Ensemble générationnel التي تستمد عناصرها من مفهوم الوضع الطبقي الذي يقصد به بشكل عام، «وضعية متجانسة لمجموعة من الأفراد في إطار بنية اقتصادية ونظام سلطة تجتمع ما يتعدد وقتها مصيرهم الجماعي (البروليتاريا، الأعراف مثلاً...) ولا يمكن لهم الخروج من هذه الوضعية إلا عبر تحول اجتماعي قروي أو جماعي...»<sup>(١٤)</sup>.

ويستعير «مانهايم» من هذا المفهوم الاقتصادي عنصر الوضعية المتجانسة والفضاء الاجتماعي ليعيد مفهوم الوحدة الجيلية على النحو التالي:

«وحدة الجيل هي وضعية متجانسة في فضاء اجتماعي لأفراد ينتمون إلى الجيل نفسه»<sup>(١٥)</sup>. وبالتالي فإنه يمكن القول إن الجيل يعادل تقريباً الطبقة، فهو حدث موضوعي وموقع في المجتمع مؤسس على تعقل بيولوجي للوجود الإنساني. إلا أن العوامل البيولوجية عند «مانهايم» (على عكس الوضعيين) ليست محددة في تفسير الظاهرة الاجتماعية والتاريخية. وهي في أحسن الحالات أداة لرسم حدود الجيل<sup>(١٦)</sup>.

الجيل إذن عند «مانهايم» وضعية متجانسة للشرائح العمرية المتقاربة في فضاء اجتماعي تاريخي. وكما أنه بالإمكان تعريف خصوصية الوضعية الطبقة انطلاقاً من المحددات الاجتماعية والاقتصادية فإنه من الممكن أن نقف على العوامل الحيوية التي تشكل ظاهرة الجيل وهي كالآتي:

١ - الظهور المستمر لقاعلين ثقافيين جدد واختفاء القاعلين الثقافيين القدامى، فمع تجديد الناس تختفي مكتسبات تراكمت، وتتاح انتكافات جديدة لأزمة وإعادة نظر فيما هو موجود، وبالتالي نتعلم شيئاً ما لم يعد مستعملاً. وتحصل لنا الرغبة فيما هو غير مكتسب بعد. - إن الاختفاء المستمر للقاعلين الثقافيين السابقين والأجيال السابقة يضمن استمرارية المجتمع...»<sup>(١٧)</sup>.

٢ - المساهمة المحدودة في الزمن: يجسم اختفاء القاعلين القدامى وظهور القاعلين الثقافيين الجدد عملية التشبيب الاجتماعي للمجتمع، أي الانطلاق من جديد بطفافة حيوية جديدة لبناء مصير جديد مبني على تجارب جديدة في إطار اجتماعي وفكري معين يربط بين أفراد جيل واحد.

٣ - انتقال المستعمر الإرث الثقافي: يتشكل الوعي الإنساني من خلال تراكم التجارب بتعاقب الزمن والتقدم في العمر، وأهم هذه التجارب تلك التي تحدث في سن الشباب. وبعد تناقل الإرث الثقافي خاصة أساسية في العلاقة بين الأجيال. وهي بالأساس علاقة تفاعلية بين المعلم والتلميذ. يقول «مانهايم» ليس المعلم فقط هو الذي يعلم التلميذ... التلميذ أيضاً يعلم المعلم... إن الأجيال يتأثر بعضها ببعض باستمرار...»<sup>(١٨)</sup>.

١ - استمرارية تغير الأجيال: إن التجديد الثقافي والتطور الإنساني مرتبط أساساً باستمرارية تغير الأجيال. «لو لم تكن هناك أجيال جديدة في السياق الاجتماعي لاستحال التجديد، ولو لم يكن هناك تواصل لما أمكن تقاضي الصدام...»<sup>(٣٢)</sup>. ولقد ساهمت التحولات والأحداث التاريخية التي ميزت مشيرة التنشيطات وخصوصاً انتفاضات الطلبة، في تزايد الاهتمام بموضوع الأجيال، حيث انكب الأكاديميون على دراسة السلوك السياسي للشباب في محاولة لتفسير وتحليل هذه الانتفاضات التي أعقبت مشيرة الخمسينيات والسلبية الظاهرية التي ميزت الثلثات الشابة آنذاك، وركزت الدراسات على مضامين الحركات السياسية والاحتجاجية والمواضيع التي طرحتها، خصوصاً ما تعلق منها بالحقوق المدنية وحرب الفيتنام وإصلاح التعليم، وتوصلت إلى استنباط مفهوم «الجيل السياسي» المستعمل في علم الاجتماع السياسي والتاريخ<sup>(٣٣)</sup>. ولقد طورت بعض المقاربات السوسيولوجية هذا المفهوم بتوكيدها على أن ما يميز جيلاً ما ليس العوامل الداخلية التي تربط بين أفراد، وإنما هو وجود عامل خارجي يعطي للجيل هويته، وهو ما يطلق عليه «الحدث المولد» *Evénement Générateur*، أي الإشكالية التاريخية التي تولد جيلاً معيناً، ولعظمه وأثقله، وتحدد معاصره، وتشكل ذاكرته الجماعية<sup>(٣٤)</sup>.

### ملاحظات ختامية

إن القسم من هذه الدراسة هو التمهيد على أن الشباب موضوع بحث علمي يشكل عام، وهو بالأساس مبحث أساسي في علم الاجتماع يمكن أن يرقى إلى درجة التخصص، فليقلنا ساد في

البحث العلمي العربي تنطرق إلى قضايا الناشئة العربية من منطلقات عامة تتعلق إما بالتربية وإما بالخدمة والرعاية الاجتماعي وإما بمجالات الترفيه والرياضة، وكثيراً ما ألقى علم النفس وعلم النفس التربوي على أنفسهم مهمة دراسة الجوانب العقلية والسيكولوجية للشباب في مناطق من الوطن العربي. ولقد تبين من خلال تحليل وتصنيف أكثر من ٢٥٠ عملاً علمياً حول الشباب العربي حتى نهاية الثمانينيات أن علم النفس وعلم التربية استأثرا بأكثر من ٦١ ٪ من هذه الأعمال، في حين لم تتجاوز الدراسات السياسية ١,٨ ٪ والدراسات الأنثروبولوجية ٥,٠ ٪<sup>(٣٥)</sup>.

وعلى أهمية العديد من المبادرات التي كانت تلطم إلى الشمولية مثل دراسات مركز الإنماء العربي<sup>(٣٦)</sup>، أو بحوث جهاز الدراسات والبحوث الاستشارية في الكويت<sup>(٣٧)</sup>.

وعلى الرغم من جدية عدد من العمال كدراسات «ميرت حجيلي»<sup>(٣٨)</sup>، و«عبد عبد الله»<sup>(٣٩)</sup> في مصر، وعدد من البحوث والاستطلاعات الميدانية التي أجريت في دول

التحليل الغربي<sup>(1)</sup> مع كل هذا فنحن ما نزال في حاجة ماسة إلى تضافر الجهود والمنافع، والاستفادة من التجارب المختلفة للتأسيس إلى مقاربات سوسولوجية مستفيدة من كل الاختصاصات، وتتكامل فيها الاستطلاعات الميدانية ...

فالعودة إلى علم اجتماع الشباب لا تعني تطبيق منهج وتخصص وحيد في هذا المجال، بقدر ما تعني التفتح على كل المقاربات ووجهات النظر؛ فالدراسات السوسولوجية المعاصرة هي بالأساس دراسات منهجية ومتعددة الاختصاصات، تدرس المجتمع في حركته وتفاعلاته الداخلية والخارجية.

وإن في هذه المقدمات دعوة إلى التطرق إلى الشباب كواقع اجتماعي يحدده المجتمع لجيل يضم فئات مثقافية في السن، ومختلفة من حيث الجنس والانتماء الاجتماعي. تشارك في كونها ثمر مؤسسات التنشئة ويمرحة إهداء أو انتظار للدخول إلى الحياة الاجتماعية، أوفي كونها قد اعتلت حديثا موقعا فيها. فهذا التعريف يجنب دراساتنا التسقوط في تعميمات المقاربات الأخلاقية والكحولية التي لا تميز بين الوصاية والرعاية، ويجعل من البحث العلمي في هذا المجال عملا متواصلا يحاول مواكبة التحولات المتسارعة التي تهرز العالم

وإن معرفتنا بشبابنا لا لتعمل بواقعا المحلي في مجتمعاتنا فحسب، وإنما تمتد إلى علاقاتنا بعالم يمر بأعظم وأخطر التحولات التي تتعرضها ظاهرة العمولة، ولقد أجمعت التجمعات الثقافية الدولية على أن:

«انتهاء الحرب الباردة لم يحقق السلام العالمي، وقد شهدنا زيادة في جميع أنواع التطرف، وتصاعدا في الصراعات الداخلية، ونشأ ذلك أساسا عن قضية الذاتية. ولذا فإن مفهوم الأمن يجب أن يأخذ الثقافة في الحسبان، كما أن التسامح الثقافي يعد أمرا جوهريا لتحقيق السلام. إن الشباب هم دوما ضحايا الصراع، لكنهم نظرا لأنهم يتمتعون في أحيان كثيرة بالذهان أكثر انفتاحا ممن يكبرونهم». فاقرون على الأسهم اسهاما في حل هذه الصراعات<sup>(2)</sup>.

وختاما فإن سوسولوجيا الشباب ليست خطايا من هذه القنات بقدر ما هي مجال للإصغاء وهضاء لحدث الشباب عن أنفسهم وعن محيطهم والعالم الذي يعيشون فيه. هم أكثر على التعبير عن طموحاتهم ومشاكلهم وواقعهم، وتحفظ الذاكرة العربية أنه لما استطلعت «عمر بن عبد العزيز» قدمت له وطود البلاد وكان بينها وفد أهل الحجاز فاشرب منهم سلام للكلام فقال عمر «يا سلام ليتكلم من هو أسن منك» فقال الفلام «يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه. فإذا منح الله عبده لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد آجاء الاختيار. ولو أن الأمر باللسن لكان هنالك من هو أحق بمجلسك منك» فقال عمر «صدقت تكلم فهذا هو السحر الحلل ...».

- 1- MAUGER (GERARD): Préface de « Le problème des générations » de KARL MANNHEIM, ED. NATHAN, PARIS, P.15.
- 2- SOURDEL (PIERRE): « La jeunesse, n'est qu'un mot » In question de sociologie Ed. Minuit, PARIS, 1984.
- 3- Finis de la passion, les 20-30 ans se mettent « à table », les éditions carrelères, Paris 1986, p.2.
- 4- سوزة الكوكب، الآية 17.
- 5- سوزة مريم، الآية 20.
- 6- سوزة مريم، الآية 17.
- 7- انسان العرب لابن حنبل، دار بيروت، 1991، مادة رهل، ص 511 - 1137.
- 8- المصدر نفسه، مادة حيداء، ص 519 - 519.
- 9- المصدر نفسه، مادة فناء، ص 507.
- 10- المصدر نفسه، مادة فناء، ص 507.
- 11- المصدر نفسه، مادة فناء، ص 507.
- 12- Congrès Mondial sur la jeunesse (Rapport final) BARCELONE - ESPAGNE 8-15 juillet 1985 UNESCO - PARIS 1986, P.15.
- 13- SZPAKOWSKA (Jasina KARLA) jeunes gens, essai de systématisation des connaissances spécifiques à la classe d'âge 13-25, UNIVERSITE MOHACHE 1988, pp. 19-20.
- 14- ZOUHAL (ABDELKADER): « Noyau dur de la jeunesse arabe », IN « La jeunesse et Le changement social », CERES TUNIS, 1994, P.16.
- 15- إبراهيم الجبار والمشير الزبيدي: « الفكر التربوي عند العرب: الدار التونسية للنشر: تونس، 1988، ص 292.
- 16- نادية جمال الدين، « فلسفة التربية عند إخوان الصفا »، المركز العربي للبحوث، القاهرة 1987، ص 117.
- 17- فتلا بن أحمد، عود الله، « قضية الشباب: مصر، أفريقيا وإسلامها ودورها »، مركز الجيل للدراسات الشبابية والاحتشادية، القاهرة 1993.
- 17- المصدر نفسه، ص 299 - 299.
- 18- DOLTO (Francoise): La cause des adolescents , ed. LAFONT, PARIS 1988, P.14.
- 19- المصدر نفسه، ص 76.
- 20- TOUBLANC (Jean Edmond): « Le rituel du copon », dossier sur l'adolescence, in Sciences et vie N° 188 sep. 1994, p.5.
- 21- المصدر نفسه، ص 7.
- 22- المصدر نفسه، ص 8 - 9.
- 23- VAN GENNEP (Arnold): « Les rites de passage: étude systématique des rites », EPUICARD Paris., 1991, PP.97-98.
- 24- المصدر نفسه، ص 96 - 97.
- 25- المصدر نفسه، ص 98.
- 26- المصدر نفسه، ص 97 - 97.

- 97- روبرت برنشتاين: «نظرات اجتماعية على الفقه الإسلامي القديم»، ترجمة بطرس مرقس في مطابعات في العلوم الاجتماعية، دار المعارف، مصر، شباط ١٩٩٠ - ١٩٩١، ص ١٠.
- 98- CHARBONNIER (Pierre): «L'entrée dans la vie au XV siècle d'après les lettres de rémissions. Actes du XII congrès de la société des historiens médiévistes 1986 p.p 71 - 100.
- 99- ARBS (Philippe): «L'enfant et la vie familiale sous l'ancien régime», Ed. Le seuil, PARIS 1973 P.P. 44-45.
- 10- MAUGER (C): «La jeunesse n'est-elle qu'un mort», in «la jeunesse d'aujourd'hui regard sur les 13-25 ans en France: la documentation française», PARIS, 1987 P.20.
- 11- «Frais de la passion», Op.cit P.7.
- 12- MAUGER (C): Op.Cit p.24.
- 13- BOURDIEU (P) «La jeunesse n'est qu'un mort», Op.cit, p.143.
- 14- المصدر نفسه، ص ١١٢.
- 15- Balandier (Georges): «Anthropo - Logique», Librairie Générale Française PARIS 1983 P.87.
- 16- Bourdieu (P) Op.cit p.143.
- 17- BALANDIER (G) Op.cit P.41.
- 18- «مطلب: «شورقة» أن الأمر لا يهم (٢) الذكر، «ولذلك لأن النساء في العديد من مجالات المجتمعات الغربية، ومن على هامش الروابط الاجتماعية الأخوية، والمتميزين عن مجموعة من السمات الذكر وتابعة لها».
- 19- المصدر السابق، ص ٣٠، ٣١.
- 20- EISENSTADT: «From Generation to generation: age groups and social structures», Ed. FREE PRESS, New York, 1956/1971.
- 21- Vangenmg (A): Op.cit, P.124.
- 22- المصدر نفسه، ص ١٦٦.
- 23- ELIADE (MIRCEA): «Initiations, rites, sociétés secrètes», Ed. Folio/Totale Gallimard 1956 p.26.
- 24- المصدر نفسه، ص ٦٦ - ٥٧.
- 25- المصدر نفسه، ص ٤١ - ٤٧.
- 26- individu dans sa société: Essai «LINTON (RALPH): «La culture des îles marquaises», IN: L'ANTHROPOLOGIE Psychanalytique» par ABRAHAM KARDNER, Ed.GALLIMARD d' 1969 P.229.
- 27- المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
- 28- «الافتقار لالتقاء أن المؤتمر العالمي للسكان والتنمية الذي عُقد بالقاهرة سنة ١٩٩٤ لم يستعمل مصطلح الشباب أو JEUNESSE في تقريره النهائي، إنما استعمل المرافقة ADOLESCENCE التي
- Rapport de la Conférence Internationale sur la population et le développement O.N.U Le ١٣-15 Sep. 1994 56.
- 29- DERESSE (Maurice): «L'adolescence» série que sais-je? PUF 1979 P.12.
- 30- PIROT (Michelle): «Apaches ou héritiers: l'adolescence a une histoire», IN SCIENCES ET

VIE No 118 Op.cit p.108.

- 81- جان جاك روسو: «إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد» ترجمة نظمي أوفاء الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1988، ص: 174.  
المصدر نفسه، ص: 223.

PERROT (M): Op.Cit p.109.

- 82- Chabrol (le nr): «La dépression de l'adolescent» que s'ité-jrPUF 1988 P.5.  
المصدر نفسه، ص: 7.

PERROT (M): Op.cit pp 106-107.

Henry (RENE): «L'adolescent entre sa création et son inhibition» P99.

- 83- DERESSE (M): Op.cit p.13.

84- DOLOTO (P): Op.cit p.70.

- 85- HALL (STANLEY): «Adolescence, its psychology and its relations to physiology, ANTHROPOLOGY, SOCIOLOGY, Sex, crime religion and education» NEW YORK.App le son 1904.

- 86- DOLOTO (P) Op.Cit p.71.  
المصدر نفسه، ص: 77.

MEAD (MARGARET): «Mœurs et sexualité en Guinée» ed. PUF.

MEAD (M): «une éducation en Guinée» GUINET - EL FAYOT PARIS 1973.

- 87- MEAD: «Mœurs et sexualité ...» op.cit p.297.  
المصدر نفسه، ص: 293 - 294.

المصدر نفسه، ص: 294.

المصدر نفسه، ص: 294.

المصدر نفسه، ص: 294.

المصدر نفسه، ص: 294 - 295.

المصدر نفسه، ص: 294.

DIATKINER : «Devenir adolescent, rester adolescent» p.57.

- 88- عزت مجازي: «الشباب العربي ومشكلاته» عالم المعرفة، عدد 6، الكويت 1988، ص: 74.

89- DERESSE (M): Op.cit p.6.

المصدر نفسه، ص: 7 - 8.

المصدر نفسه، ص: 9.

MAUGER (G): «La jeunesse ...» op.cit p22.

- 90- CHAMBOREDON (Jean-claude): «Adolescent et post-adolescence: la juvénescence: remarques sur les transformations récentes des limites et de la définition sociale de la jeunesse» IN «L'adolescent termine adolescent interminable» (collectif) PUF, PARIS 1985 p5.

- 91- LEMOINE (Claude): «L'évolution perturbatrice du jeune en quête d'identité» IN «Adolescence et identité» (collectif) Ed.hommes et perspectives Marseille 1990 p.62.

CHAMBOREDON: Op.Cit. P28.

-79

المصدر نفسه، ص 71 - 72.

-80

BRAUNGART (RICHARD ET MARARET): Les générations politiques. IN :Génération et politiques: la presse de l'université L'VAL PAPRI 1989 Ed. Economica pp. 11-12.

-81

ATLAS - DONFUT (CLAUDE): «Sociologie des générations d'empire du temps». Ed. PUF PARIS 1988 P.P 17-18.

-82

عبد الرحمن بن مخلون: «المقدمة: إطار التوفيقية للشعر». تونس، 1968 ج 1، ص 221.

-83

MANHEIM (KARL): «Le problème des générations», Op.cit.A.

-84

ATLAS - DONFUT: Op.Cit. p.23.

-85

انظر عرضاً إضافياً لأهم الأطروحات حول مفهوم الجيل، خصوصاً نظرية «مانهايم» في السجى الزيدى: «أهمية مفهوم الجيل في دراسة القضايا الشباب العربي» في مجلة «إضافات» الجمعية العربية لعلوم الاجتماع، القاهرة، جاني 2001.

-86

MANHEIM (K) Op.Cit. p.40.

-87

المصدر نفسه، ص 17.

-88

المصدر نفسه، ص 17.

-89

المصدر نفسه، ص 11.

-90

المصدر نفسه، ص 19.

-91

المصدر نفسه، ص 19.

-92

المصدر نفسه، ص 19.

-93

<http://Archivebeta.Bakheit.com>

BRAUNGART: Op.Cit. pp6-28.

-94

PAVIER (Pierre): De la question sociologique des génération et de la difficulté à la résoudre Op.Cit. p.301. BEN TAHAR: dans le cas de la France. IN «Génération et politique», cit

-95

(MEKKI): La jeunesse arabe à la recherche de son identité. ALKALAM, RABAT 1989 PP. 12-13.

-96

علي سويل المثال دراسات زهير حطوب وعبداس مكي - الطفرة والشباب 1977 - المنظمة الأوربية والشباب 1992. - مازم الشباب العلاقات 1981.

-97

علي سويل المثال دراسات سالم مريزول الطحيري: الشباب والأسرة - الشباب ووقت الفراغ - الشباب والتجربة إلى المال ... وكلها تتناول بالبحث حالة الكويت.

-98

عزت مجازي: «الشباب العربي ومشكلاته»، مصدر سبق ذكره.

-99

أحمد عبد الله: «طفرة الشباب»، مصدر سبق ذكره.

-100

راجع مثلاً:

-101

- جلال إسماعيل طعي: «الانطراب الاجتماعي بين الشباب في مجتمع الإمارات - دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة الإمارات، شؤون اجتماعية، العدد 50 - 1997، ص 1 - 10.

- جبهة العرس: «الانطراب بين الطلبة الجامعيين القطريين واليهوديين والبنين حولة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدعوة 1988، ص 101، 97.



- عبد الحميد جابر، سليمان الخطوري، الشيخ، «الجماعات العرقية والمطالبات بجامعة قطر، نحو القضايا الاجتماعية»، ضمن دراسات نفسية في الشخصية العربية، عالم الكتب، القاهرة 1998، من 199 - 212.
- علي أحمد، وثقة، «الطموحات السياسية وأبعادها القومية والاجتماعية»، في عالم - الفكر، الكويت، جانفي 2006، من 206 - 216.
- التقرير النهائي المؤتمر الدولي الحكومي للسياسات الثقافية من أجل التنمية، اليونسكو - ستوكهولم - السويد، 30 مارس - 2 أبريل 1998، من 91 - 92.

-100



# سوسيولوجيا التحديث والتغير فج المجتمع الفروحي قراءة تركيبية ونقدية فج البالة المغربية

د. محمد شكري سلام\*

## تقديم

تميزت جل المجتمعات في مختلف العصور وحتى مرحلة متأخرة من الزمن الاستعماري الحديث، بكونها مجتمعات فلاحية، قروية ولا ريفية، الأمر الذي استوجب على مستوى النظرية كياناً على مستوى الممارسة.

بالنسبة لصناعي القرار التنمائي، كياناً بالنسبة للباحثين في مجالات السوسيولوجيا والاقتصاد والسياسة والأنثروبولوجيا صياغة إرث وتراكم، فيما يتعاضد بقوة مع ضرورة التنمية، إن الانتقال بهذه المجتمعات من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم هو الانتقال لا يتمثل في جوهره من مطارحة جذرية لضرورة تحديث البنيات الاجتماعية التقليدية، وإجترح مسار جديد يتمثل في التغير الاجتماعي. إن القول هنا يتصلص بالكتلة الغالبة من مجموع بلدان المعمور، أي بلدان العالم الثالث، كما يتصلص بصفة خاصة بالبلدان العربية، التي صاغت أيديولوجياً وعلمياً من خلال نخبها السياسية الثقافية العلم بضرورة تحديث مجتمعاتها، التي ظلت في جزء، مهم منها مجتمعات قروية أو ريفية يحكم ناطقتها الديموقراطية السائدة. بل إن المجال الحضري هو في عمقه مجال تسود استبدادات بيئية لما هو قروي، سواء من خلال أنماط العيش المادية أو التمثلات الرمزية والثقافية.

من هنا نشرح دراسة هذا السياق من التطور، الذي ميز المجال العربي نظرياً وممارسة، وذلك بتخصيص المقال حول حقل السوسيولوجيا، وتخصيص المقام أيضاً حول المجتمع المغربي، إن إشكاليته المركزية هي هذا البحث هي فحص النتائج التي انتهت إليها نظريات

(\*) كاتب وباحث من المغرب.

التحديث من جهة أولى، ونظريات التغير الاجتماعي من جهة ثانية، مع ارتباط منهجي بتفكير ضروري في العلاقة بين التحديث والتغير داخل المجتمع القروي بالتغريب، من هنا ركبنا مفصل هذا البحث وعناصره من النقاط الثلاث التالية،

1. مفهوم التحديث بين وهم التقدم وصفق الاستعمار.
2. التغير الاجتماعي: من التحليل الماكرو تاريخي إلى التحليل الميسولوجي.
3. التحديث والتغير في المجتمع القروي: حالة المغرب.

## أولاً: مفهوم التحديث بين وهم التقدم وصفق الاستعمار

يختلف مفهوم التحديث Modernisation عن مفهوم الحداثة Modernisme، فإذا كان جان بومريلا لا يعرف التحديث، بقدر ما يعرف مفهومي الحداثة والتزعة الحداثية، في «الوسوعة العالمية»<sup>(1)</sup>.

مؤكداً وجود تمايز واضح بين الحداثة والتزعة الحداثية المرتبطتين بالحقول الرمزي الخاص بالأفكار، سواء من خلال الأيديولوجيات أو الآداب فإنه لا يستحضر مفهوم التحديث لارتباطه بسياق خاص له علاقة بالحقول المادي وخاصة المجال الصناعي.

يبين هشام شرابي الأساس النظري المتميز بين المفاهيم الثلاثة، «إذا نظرنا إلى الحداثة من الناحية التاريخية، استناداً إلى إطار واضح هو إطار التجربة الأوروبية منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، نجد أنها تمثل كيانياً باماً متكاملًا ذا خصائص مميزة بوضوح، وتبرز من هذه الزاوية ثلاث خصائص: الأولى تلحح لنا فهم الحداثة بوصفها بذية كلية، والثانية بوصفها سياقاً شاملاً، والثالثة بوصفها وعياً نوعياً، ويمكن القول هنا إن مفهوم الحداثة Modernity يقابل الخاصية الأولى المتعلقة بالبنية، وإن مفهوم التحديث Modernization يقابل الخاصية الثانية المتعلقة بالسياق، وإن مفهوم التزعة الحداثية Modernism يقابل الخاصية الثالثة المتعلقة بالوعي»<sup>(2)</sup> [التشديد المؤلف].

يشير مفهوم التحديث إلى تجربة عيانية تحققت في الزمان والمكان، أي سياق من دونه لا يمكن تصور سيورته تحديثه لبنية كلية معينة، التحديث هو سياق التحول الاقتصادي والتكنولوجي كما جرى تاريخياً لأول مرة في أوروبا، وهو يمثل ظاهرة أوروبية<sup>(3)</sup> لذلك فقد أصبح التحديث مرادفاً للإتواء الاقتصادي ومحاكاة لأنماط اقتصادية مميزة للبلدان الغربية، يتمحور التحديث حول انشطار نموذج التصنيع الغربي المتطور بالراكز ليعتم بالبلدان المحيطية، وهذا ما يلاحظه سمير أيوب من أن «فكرة التحديث الحضاري ترتبط في نظر أغلب علماء الغرب بفكرة العياغة الغربية Westernization للمجتمعات التقليدية»<sup>(4)</sup>.

إن الدافع الأساسي لتداول هذه الدلالة الخاصة بمفهوم «التحديث»، التي تفيد التصنيع.

هو سيادة علاقات دولية جديدة بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة مع حصول بلدان بأسياء وأفريقيا على استقلالها السياسي، مما أدى إلى توظيف مفهوم «التحديث» في العلوم الاجتماعية، وخاصة من طرف علماء الاجتماع الأمريكيين. يشير أحد الباحثين المغاربة إلى أنه بعد تداول الفريديين لوصف الشعوب «المتوحشة» في القرنين السادس والسابع عشر، ثم الشعوب «البدائية» في بداية القرن التاسع عشر مع النظريات التطورية، وبعدما الشعوب «المتخلفة» أو «العالم الثالث» في نهاية الأربعينيات، ثم أخيرا الشعوب «الساخرة» في طريق النمو» أو «النامية» في السبعينيات من هذا القرن، فإن مفهوم «التحديث» لم يتطور إلا في هذا السياق الفكري الذي يركز على مبرورية المؤثرات الموسمية - ديموغرافية أو البنيوية مع تحطيم كلي للعناصر التقليدية<sup>(4)</sup>.

لم يكن ظهور مفهوم «التحديث» وتداوله في عقدي الخمسينيات والستينيات إلا تجاوزا لمفهوم «التخريب»، الذي بقي معارضة شديدة. لكن مفهوم «التحديث» وبعد بروز مضمونه الأيديولوجي، أصبح دالا على مبرورية لصناعية أحادية البعد، تتمثل في «نقل التكنولوجيا»<sup>(5)</sup>، وقد أدى هذا النقل إلى تبعية البلدان التي حاولت تحقيق «التحديث»، ولم يأت إلى طورها، مما شكل حافزا قويا لصياغة علماء الاجتماع لنظريات «موسيقولوجية» حول التحديث، تركز بين كل العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية، وتتجاوز البعد «التصنيعي» كبعد وحيد في عملية التنمية<sup>(6)</sup>. وقد ارتكزت تلك النظريات الموسيقولوجية الأمريكية على التحليلات الماكرو - موسيقولوجية الكبرى لكل من إميل دوركايم وبلاكس فيبر، التي تميز بين مجتمعات حديثة وأخرى تقليدية، إلا أن الأساس الفلسفي لهذه النظريات مستمد من نظرية التطور، لهذا فإن نقل نموذج التحديث إلى بلدان غير غربية، سواء على مستوى التحليل أو على مستوى التطبيق، ارتبط بالتفكير في مسألة التنمية التي تمت مقاربتها انطلاقا من مدخل إنساني. يعتبر سمير أيوب عن هذا المدخل الإنساني في دراسة التنمية في علاقتها بالتحديث «هذا المدخل الأكلي الإنساني لدراسة التنمية من منظور التطفل» قد عبر عن المزاج المحافظ لفترة الستينيات، وهو الذي يعتبر التطفل بعنزة موقف اجتماعي اقتصادي يفقد العناصر والخصائص الضرورية للموقف المتقدم، أو لموقف المجتمعات المتقدمة. تلك الخصائص التي تتمثل في التصنيع وتكوين رأس المال والتكنولوجيا المتقدمة والمهارات الفنية وما إلى ذلك. وقد كان طبيعيا أن ينبثق الحل المقترح لمشكلة التخلف من طريقة النظر إلى المشكلة ذاتها<sup>(7)</sup>. تمت مقاربة إمكان تنمية مجتمعات التخلف انطلاقا مما يقب فيها ويحضر في مجتمعات التقدم، أي أن طورها رهجن بتحديثها الذي يظل مشروطا بدوره في التصنيع وتكوين رأس المال ونقل التكنولوجيا. والبعد التطوري الثاني الكامن داخل هذه المغاربة هو الانتقال من مجتمع الإقطاع إلى مجتمع الرأسمالية في أوروبا، وهو بعد تتأكد

محدوديته في دراسة مجتمعات لا غربية وأفريقية وآسيوية وجنوب - أمريكية، نظرا لأن «التحديث» لا يتعارض مع «التقليد» في هذه المجتمعات، بل يتكاملان ضمن التشكيلات والبنى الاجتماعية نفسها.

بعد عرضه للتسليق النظري الذي تبلورت في إطاره نظرية التحديث [الحدثة في المجال الاقتصادي]، خاصة مع روستوف والنظرية الكركسية، مما أدى إلى ترسيخ خطاطات تطوير أحادية الاتجاه، يظهر جورج بلانديه أن التصور القائل بأن الحضارة الصناعية تنتهي بالانتشار في مجتمعات أخرى لاغربية هو مجرد تصور عام لا يعين الخصائص المميزة لهذه المجتمعات، التي يمكنها أن تقبل الحدثة في إطار مسبوقة واستمرار ما هو «تقليدي»؛ فالتغير لا يكون إلا باندماج الحديث في التقليدي، وقوة التقليدي على استبعاد الحديث. لأن «المجتمعات النامية هي المجتمعات التي تستوعب فيها بشكل جيد جدليات التقليد والحدثة، التقليد والثورة، والجدلتان معا تجمعتان في الحالات التي ينتج فيها النمو الاقتصادي عن سياسة غايتها التمييز الجذري للبنى»<sup>(١٩)</sup>. أظهر البحث الأنثروبولوجي أن التقليد لا يتعارض مع الحدثة في المجتمعات غير المتقدمة، وهذا يكشف عن واقع أساسي هو أن التحديث لا يعترض في التصنيع، كما أن تقدم هذه المجتمعات وتمييزها لا يمكن أن يكونا بالمسبوقية الأحادية الاتجاه والخطية التطور نفسها، التي عرفتها أوروبا وبعدها أمريكا الشمالية في تاريخ قريب، النقد لإنشادات (Bromstad) هذه المسبوقية الخطية للتحديث، وأسس لفكرة جديدة تقسم كل النظريات التي تناولت مسألة التحديث، فأعاد بناء مقاربة ترفض تعميق التعارض السطحي بين التقليد والحدثة، وتحلل خطاط التطور في مجتمعات أوروبية وأخرى شرقية [الهند، الصين]؛ تستنتج دور التقليد في التغير، لأنها قد تكون حافظا له لا عائقا أمامه، فالحضارات الحديثة ليست متطابقة بل هي متعددة ومتنوعة، وإن كانت كلها تخلص مجتمعات «ما بعد تقليدية»<sup>(٢٠)</sup>.

أما سمير Smelser فيركز على تعابر عناصر البنية الاجتماعية لدراسة ظاهرة التحديث، إذ يبرز في كتابه «سوسيولوجيا الحياة الاقتصادية» الصادر سنة ١٩٦٢ أن الانتقال من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث يشترط حصول تغيرات مختلفة في المجالات التقنية والزراعية والصناعية، وما ينتج عنها من ظواهر كزيادة التخصص في العمل، وتغيير أدوار الأسرة والدين<sup>(٢١)</sup>. إن نظرية سمير حول التحديث تشير إلى تعدد التغيرات في كل الأنساق الفرعية للنسق الاجتماعي الكلي كشرط للتحديث، كما تكشف عن واقع جديد يتجلى في شكل ظواهر اجتماعية جديدة، وفي عدم اشتراط درجة معينة من التطور - خاصة التصنيع - لحصول التغير والتحديث، بل يمكن لمعامل أخرى أن تكون ذات أهمية في التحديث ومن بينها عامل الاستعمار<sup>(٢٢)</sup>. هنا ينبغي الالتفات في دراسة التحديث، الذي قد تكون عرقته بعض المجتمعات اللاغربية، إلى دور عامل التدخل الاستعماري في حصول تحولات وتغيرات اجتماعية في هذه

الجمعات؛ لأن الظاهرة الاستعمارية هي التدخل الأساسي لفهم كل السيرورات التحديثية التي شملت بلدانا وأمكة خارج أوروبا وأمريكا الشمالية، لهذا فإن الباحث في التحديث الخاص بالجمتمع القروي القري لا يمكنه إغفال التأثير الذي مارسه الاستعمار في تفكيك بنيت اجتماعية تقليدية وتشكيل بنيت حديثة، أو في التركيب بين التقليدي والحديث حسب وهائاته [الاستعمار] الاقتصادية والسياسية والثقافية. لا تفعل دراسة مسألة التحديث في مجتمعات غير متقدمة من دراسة ظاهرة الاستعمار، والاستعمار الجديد كظاهرة اكتشحت حتى البلدان التي لم تخضع لتدخل عسكري مباشر، لكنها خضعت لهيمنة اقتصاد عالمي ابتاع الاقتصادية المحلية؛ لتلعب ضمن بنية اقتصادية عالمية محركها هو تراكم رأس المال. يظهر تحليل بعض الباحثين الموسيولوجيين أن التحديث في العالم القروي يمكن دراسته تاريخيا، في الحالة القرية ليس انطلاقا من حدث التدخل الاستعماري سنة 1912، بل قبل ذلك أي منذ اتفاقية مدريد في 2 ياءو 1880، والتي منحت في فصلها الثاني للأوروبيين حق الاستيلاء على أراضي قفريقية. كان هذا الحدث تهيؤا لترسيخ نظام قانوني يغطي الشرعية للمستعمر لتملك العقاري للأراضي الجماعية وأراضي الجبوس، وذلك يخلق نظام تشريعي يقدم مصالح المستعمرين بحماية للسلطات الكولونيالية، ويهدد لرسله القلاحة بالقري، بمن طرق للإرشاد القلاحي، وتأسيس تعاونيات قلاحية من أجل الانتقال بالفتوج القلاحي من مستوى الاكتفاء الذاتي إلى مستوى تداول في سوق قلاحية. ولم تجل ذلك في إحداث مجلس أعلى للأنظمة القلاحية، Payanmat، التي يرأسها القويم العام القريسي بالقري<sup>(1)</sup>. من نتائج التحديث الزراعي الناتج من التدخل الاستعماري الانتقال من الملكية الجماعية للأراضي إلى الاستغلالات العصرية، سواء لدى المعمرين أو لدى بعض الأعيان القلاوية، والتحول من حياة جماعية إلى حياة فردانية، والقير العائلة من بنية ممتدة إلى بنية نوية، مما أدى إلى تفكك النسق الاجتماعي التقليدي، وتيلتر شرعية كبيرة من القلاحين، مما أدى بهم إلى الهجرة. لكن أهم النتائج الملبية للتدخل الاستعماري تكمن، كما يؤكد عبد الجليل عليم، في مثل الرأسمالية الوطنية التي كانت في طريقها إلى التشكل، لترسيخ التبعية للنظام الرأسمالي المركزي<sup>(2)</sup>. لا تبرز قيمة دراسة التدخل الاستعماري كعامل «حديث» للمجتمع القري بشكل عام، والنسقة القلاحي بشكل خاص، باعتبارها قفص عند العنصر التاريخي المتصل في بدايات «حديث» البنيات القلاوية بالقري، بل هي تمكن الباحث من امتلاك أدوات تحليل الخاص الاستعماري في المرحلة الراهنة، لأن العديد من الظواهر الاجتماعية، التي ظهرت في مرحلة ما بعد الاستعمار، تجد تفسيرها في المرحلة الاستعمارية، كما أن الدولة الوطنية حاولت إثبات مشروعيتها من خلال ضمان استمرار الهياكل القانونية التي أنتجها الاستعمار بالرهان على تطوير بنيات رأسمالية<sup>(3)</sup>.

يوضح عبد الحليم حليم، في سياق تحليلي آخر يدعم نتائج أطروحته وخلاصاتها الأساسية، الدور الذي كان للسياسة الاستعمارية في تحديث البنيات القبلية والزراعية، «إن السياسة الاستعمارية، وهي سياسة لم تكن تعتمد على المصالح وحده، وإنما كذلك على المقاربة العلمية، استطاعت أن تحقق أهدافها بعد حصول المستعمرات على استقلالها أكثر مما حققتها، أحياناً إبان الاحتلال (...)». يتضح أن عملية التحديث التي بدأت مع الاحتكاك بالغرب، إن كانت لها جوانب إيجابية لا يمكن نكرانها، فإن جوانبها السلبية ينبغي ألا يستهان بها، لأن عواقبها قد تكون وخيمة مادام المجتمع لم يستطيع التحكم في هذا التحديث وتوجيهه وفق مشاريعه وجعله يخدم مطامحه.

وبالفعل حتى لا ينطى عملية التحديث مجرد استعراو للسياسة التي كان يتهجها الاستعمار وأداة للهيبة للمراكز الإمبريالية، بل لتكون وسيلة لتحقيق استقلال اقتصادي، ومن ثم استقلال سياسي حقيقي، ينبغي العمل من أجل أن تصبح الاقتصادات المجتمعات العربية غير مرتبطة باقتصاد البلدان الإمبريالية (...)»<sup>34</sup>. يشمل هذا التركيب السوسولوجي الذي صاغه الباحث الاجتماعي الغربي على إثبات نظري ثلاث وقائع أساسية ذات بعد ماركسي - تاريخي: 1- الواقعة الأولى هي أن التحديث عرف بدايته الحقيقية مع التدخل الاستعماري كاحتكاك بالغرب، وهي واقعة تحدث فيها ما هو إيجابي، من مثلاً في مسرنة قطاعات اقتصادية، وانتقال نحو منطلق العلاقات التجارية ودخول الآلة. وما هو سلبي، من مثلاً في تفكيك الأنساق والعلاقات الاجتماعية التقليدية، وتعرضها بأنساق جديدة، عجزت في سياقات تاريخية عن تأدية الوظائف نفسها التي كانت لأولى. وعن ضمان الارتباط العضوي للأفراد والجماعات. 2- الواقعة الثانية هي أن التحديث كان عملية أنتجت تبعية للمراكز التقدمية، ولم تحلق استقلالاً اقتصادياً. 3- أما الواقعة الثالثة - التي هي ذات بعد مستقبلي مقارنة بالواقعة الأولى ذات البعد الماضي المستمر في الحاضر - والواقعة الثانية ذات البعد الحاضر الذي قد يستمر في المستقبل - فتتمثل في ضرورة إنجاز استقلال سياسي حقيقي قاعدته الأساسية التحرر الاقتصادي للبلدان العربية. إن هذه الواقعة الثالثة تعكس في مدلولها انتقالاً من الخاص إلى العام، من الجزئي إلى الكلي، ومن الماضي/الحاضر إلى المستقبل/التقدم. الحكم في أن يتحول التحديث إلى وسيلة تحرر - لا أداة تبعية، ليس بالنسبة للمجتمع الغربي، بل بالنسبة لكل المجتمعات العربية.

يعتبر التحديث في مرجعيته النظرية، سواء مع الليبراليين أو الماركسيين، أو في مرجعيته التاريخية بأوروبا وأمريكا، أو بالغرب من خلال التدخل الاستعماري، مفهومًا حديث التداول، وهو إن كان يرتبط أكثر بمنظور اقتصادي [التحديث = التصنيع]، فإنه بالنسبة للباحثين السوسولوجيين يفرض فهمه في مختلف أبعاد الاقتصادية والسياسية والثقافية؛ لأن

التحديث عملية متكاملة تشير إلى مجموع التغييرات التي يعرفها المجتمع من بروز ظواهر أهمها التغير والتحديث والتبني والديمقراطية والتحول الديمقراطي والحركة الاجتماعية وتبني مواقف وقيم حديثة<sup>(19)</sup>. لهذا فإن التحديث - استنادا إلى التحليل السابق - يتموضع كمشروعة اجتماعية هي مرحلة تاريخية ترتبط بالنسبة للمراكز الاقتصادية في الانتقال من الانقطاع إلى الرأسمالية، لكنه بالنسبة للهوامش الاقتصادية فهو يرتبط بصورة أساسية بمعامل التدخل الاستعماري، وهذه هي حالة المجتمع المغربي. هذا المعنى تكون المرحلة الأساسية للتحديث الزراعي هي المرحلة الاستعمارية بمراقبة السلطات الكولونيالية. وتكون المرحلة الثانية المكتملة لها هي المرحلة بعد الاستعمارية، حين حاولت الدولة الوطنية بناء مشروعيها الخاص، الذي يهدف إلى تحديث أكثر للبنى الزراعية دون تحقيق قطعة كلية مع المرحلة الاستعمارية، كيف حققت الدولة الوطنية بعد الاستعمار مشروع «التحديث الزراعي» وهل تمكنت من تحويل التحديث الزراعي إلى عملية تحديث شاملة حققت التغير الاجتماعي في كل الأنساق القرية للمجتمع المغربي عامة، والمجتمع القروي خاصة؟

### تلخيصا: التغير الاجتماعي: هو التحول الذي نأخذ في التحليل الموسولوجي

هل حدث تغير اجتماعي؟ سؤال «نقل» ينتهي إلى المعرفة العامة ويختص الرأي العام في مقابل المعرفة العلمية التي تفصل مع الرأي العام (بأشبار).

التماثل حول حدوث تغير اجتماعي أو عكسه لا يتموضع ضمن حقل التفكير العلمي، لأنه يدفعنا إلى التفكير في إمكان عدم وجود تغير اجتماعي واستعانة تطور معين في مرحلة تاريخية وشروط محددة، لهذا فإن التفكير العلمي من زاوية التخصص الموسولوجي في موضوع التفكير الاجتماعي يتوجه نحو تعيين أشكال التغير ومستوياته ومراحله، وبهذا يتحقق الانفصال عن الإدراك الحسي لعامة الناس، الذين يصدرون حكما قيميا مطلقا بصف وسمية اجتماعية بأكثر الأوصاف إيجابية، «الأمور تغيرت كثيرا نحو الأفضل» أو سلبا «الشيء على الإطلاق». على البحث الموسولوجي أن يشتد عن الأحكام الجاهزة والآراء العامة دون أن يحمل إزائها نظرة «تحفظية»، لأن هذه الآراء والأحكام هي حقيقة اجتماعية، وعلى الباحث أن يحولها إلى موضوع موسولوجي. يظهر يوردو (متجاوزا التصور الدوركيهبي) أن الفوات ليست أشياء، فحتى «الوهم ليس له، بما هو كذلك. وجود وهمي (...) يجب أن نرفق إذن إلى موضوعية اسمي، نفصح مجالا لهذه الذاتية كبعد من أبعادها، فاعضاء المجتمع يعيشون وصيا لا يعكس الحقيقة الثابتة لما يترومون به، ولكن يشكل مع ذلك جزءا من حقيقة ممارستهم العملية<sup>(20)</sup>. أحكام وآراء وتمثلات الناس حول التغير قد تكون موضوعا موسولوجيا ضمن



التغير الاجتماعي، دون أن تكون هي مصدر المعرفة بالنسبة للباحث؛ لأن تطبيق المفاهيم - الحسي [المعرفة العامة] مع الجوهري - العقلاني (المعرفة العلمية) هو المدخل المحد للترجمة العلمية الراضية لعلم. كيف يمكن إذن تحويل التغير الاجتماعي كشأن من الشؤون العامة من الحكم المباشر إلى البناء النظري؟

تؤدي التابعة الرصينة لأصول تشكل مفهوم التغير إلى ضرورة العودة إلى الفلسفة اليونانية خاصة مع هرفليطس [ 510 - 470 قبل الميلاد ]، الذي دافع عن تغير الكائنات والموجودات ونفى ثباتها. فلاشي، يبقى على الحال نفسها. ونحن «لا يمكننا أن نستعمل في ماء النهر مرقين» لأن الماء يتغير. كانت فلسفة هرفليطس مدافعة عن مبدأ التغير في العالم على نفيع فلسفة بارمنيدس، التي أكدت على الثبات والسكون، وهي بذلك جسدت أهم معالجة فلسفية لسالة التغير بمعناه الأنطولوجي عبر قرون. فإذا عرفنا أن المنطق الأرسطي هو منطق مبررة دائمة، يكون ضروريا الانتقال إلى هيغل الذي يطور مفهوم التغير من خلال «الجدل» المحرك للتصيرورة المتحولة من العلاقات الصراعية بين الفكر والواقع. الظاهر والجوهري. الوجود والعدم، الذات والموضوع، المبدأ والسيد، الشيء لا يكون حيا في المظهر الهيغلي إلا إذا اشتمل على التناقض. صياغة هيغل لنسق نواته الأساسية «الجدل» أنتجت تأثيرا كبيرا في فلسفات أخرى خرجت من «تحت مظلة فيلسوف» هيغليولوجيا الروح. سواء كانت فلسفة ماركسية، وجودية أو ظاهيرية. لكن الفلسفة الفكرية التغير التي يطور هيغلها ضمن فكرة «الجدل» فهي لم تجد تطويرها إلا مع الماركسيين، خاصة ماركس وأنجلز ولينين. وهذا سيعتبر بعض الكتاب العرب - تحت تأثير أيديولوجي - أن الفكر الجدلي هو «أعظم انتصار لفلسفة «التغير» على فلسفة «الثبات» حيث شرعت فلسفة الثبات - اعتبارا من الآن - تخلي مكانها بصورة شبه دائمة لفلسفة «التغير»<sup>(1)</sup>. إن هذا الحكم يستمد أساسه من مرجعية أيديولوجية تهيمن على نمط الكتابة لدى المؤلف. كما تهيمن على عنوان الكتاب. لا يمكن إنكار التأثير العميق للفلسفة الهيغلية - الماركسية كفلسفة جدلية في الفلسفات الأخرى، وفي فلسفات التاريخ بالخصوص في إظهار مفهوم التغير إلى دائرة التداول النظري الواضح، وإن كان استعماله ظل مقترنا لفترة بمفاهيم «التطور» و«النمو» و«التقدم» كما يشير إلى ذلك بولومور<sup>(2)</sup>.

في الفلسفة الماركسية يحضر بشكل واضح مفهوم «التطور»، أكثر مما يحضر مفهوم «التغير»، ولعل السبب الفسر لدرجة حضور المصطلحين في هذه الفلسفة يتمثل في استعارة فلسفات التاريخ [ماركس]، والنظريات الاجتماعية [سينجر] لمفهوم التطور كما حددته البيولوجيا خاصة مع دارون، والذي يخص مجرم التغيرات والتبدلات العضوية التي تلحق بالكائن الحي، فتؤدي إلى تغيرات مورفولوجية عبر جيل أو مجموعة أجيال، هنا يتعين عدم الخلط بين التطور البيولوجي والتطور الاجتماعي، لأن زمن تطور الكائن الحي أطول من زمن

لتطور المجتمع، ولهذا فإن الماركسية، حسب الحكم الأيديولوجي السابق نفسه، رفضت استعمال مفهوم «التغير الاجتماعي» لأنه مفهوم برجوازي يتضمن التناقض على مفهوم التطور بنية إثبات استمرار المجتمع الرأسمالي<sup>(17)</sup>، لا نجد مفهوم «التغير الاجتماعي» [يتجاوز هذا الحكم في كتابته الأيديولوجية: الأيديولوجيا كوعي زائف في هذا السياق] حاضرا بشكل دقيق في الفلسفة، فأهم القواميس الفلسفية تحدد التغير انطلاقا من الذات، إنه: «الفعل الذي تحاول من خلاله الذات أن تتبدل في خاصية أو مجموعة من خصائصها»<sup>(18)</sup>، يحدد القاموس الفرنسي روبير مجموعة من المرافقات التي تتضمن أو تقترب من مفهوم التغير، وهذه المرافقات هي: الاضطراب والتجديد والتحويل والتعديل والتطور والتدرج والانتقال والتحسين<sup>(19)</sup>، إنها معاني تفيد التصور العام الذي يخص المعرفة المعاصرة حول التغير، فكل هذه الحالات التاريخية والسياسية والاجتماعية تدل على التغير، ولا نجد معنى، حسب القاموس نفسه، قريبا من مفهوم «التغير الاجتماعي» إلا في تحديد معنى التبدل Variation، الذي يدل على حالة ما يتغير عبر مدة زمنية، كما يدل على سلسلة التغيرات المؤثرة فيما يتبدل. أما هي هكذا لا يحدد القاموس المفرد الفرنسي معنى التغير<sup>(20)</sup> إلا في تعريفه للمصطلح التبدل، كما لا يحدد المعجم الفلسفي، لالاند المعنى نفسه إلا حين يعرف التحول كتغير يميز بشكل خاص التنظيم الاجتماعي<sup>(21)</sup>.

نستنتج أن التوظيف الفلسفي لمفهوم التغير إما أنه كان توظيفا احتيايا وغالبا ارتبط بضرورة تحقيق النموذج الاشتراكي، ومن هنا ندخله مع مفهوم التطور في الفلسفة الماركسية، وإما أنه توظيف عام لا يتميز جوهريا عن مضامين التمدد، التحوّل، التبدل، كما يحتل في الأحكام الجاهزة والشائعة بأحداث سياسية واجتماعية تتميز هي أيضا فيما بينها، من حيث مدة حدوثها، والعوامل المؤثرة فيها، وعلاقتها بالحالة السابقة والحالة اللاحقة، والأمر في هذا السبيل ينطبق على مضامين الاضطراب، الخلل، التحول، التجديد، الثورة، الإصلاح، التطور، التبدل، الانتقال، الطفرة... إلخ، فهل استطاعت السوسيولوجيا الانفصال في توظيفها لمفهوم «التغير الاجتماعي»، عن هذا الإرث المزدوج: إرث التوظيف الفلسفي<sup>(22)</sup>، وإرث التداول الشائع لمفهوم التغير؟

إذا كان التغير الاجتماعي يعتبر واقعا «محصلا» في كل بنية اجتماعية، فإن إنتاج معرفة خاصة بأشكاله، عوامله، مراحله، وسياقاته هو عمل نظري «غير محصل» بل هو يتطلب بحثا عميقا يتجزئه الباحثون في العلوم الاجتماعية لتحديد الخصائص الأساسية للتغير في البنية الاجتماعية وتحديد خصائصها الثابتة. لأن الثوابت لا تحدد إلا انطلاقا من التغيرات، كما أن التغيرات لا تعرف إلا بتحديد الثوابت، فكما لا وجود لاجتماع ثابت ثباتا مطلقا لأنه يعرف التغير، كذلك لا وجود لاجتماع يخضع لتغير مطلق، لأنه في هذه الحالة سيعرف الفوضى

المستمرة، بينما المجتمع يتعدد في العلاقات بين أفراده وجماعاته باشتغاله على «التنظيم» في سياق إثباته لأطروحاته حول الطابع المعقد جدا للنسق «hyper complexity» بين إدجار موران أنه «النسق الذي يقلص من إكراهاته بقدر ما يقوي من استعداده للتعقيدية وخاصة استعداده للتغير»<sup>(17)</sup>. ليست الأنساق الاجتماعية البسيطة هي وحدها القابلة للتغير بل الأنساق المعقدة أيضا [موران يستلهم الفكرة من النسق الرياضي]. وهذا لا يعني أنها تفقد خصائصها وهويتها، بل في التغير يعاد تنظيم الأنساق والهياكل الاجتماعية: لأن «التنظيم المعقد جدا موجه نحو الحفاظ على هويته الخاصة في إطار التغير الذي يمكنه امتلاك خصائص جديدة، لكن يدفعه إلى دخول مجال المقامرة في الوقت نفسه، فالتنظيم يحتاج دائما إلى القوى الجديدة لإعادة التنظيم. فهو في حاجة إذن إلى نوع من «اللاتنظيم»»<sup>(18)</sup>. هكذا يمكننا أن نؤكد أن التغير الاجتماعي هو «ماهية» محيطة لكل المجتمعات، لأن النسق الاجتماعي لا يعرف انطلاقا من ذاته - مادامت الثوابت مجرد معطيات وخصائص أنتجها التنظيم الاجتماعي - بل من تغيره، مما يعني أن التغير الاجتماعي ظاهرة مستمرة، لكن تحويلها إلى موضوع سوسيولوجي هو ما يعتبر مسألة أساسية في العلوم الاجتماعية.

يعتبر علم الاقتصاد وعلم التاريخ من أهم العلوم الاجتماعية التي سبقت السوسيولوجيا في تناول موضوع «التغير الاجتماعي»: فالعلم الأول منذ طرحه لمساءلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، يكون في نظرائه ليس تفكير عميق في التغير الاجتماعي، وتكون مدرسة «الفيزيوقراطيين» التي اعتبرت الأرض مصدرا أساسيا للثروة ورأس المال هي أول مدرسة قاربت موضوع التغير في المجتمعات القروية بشكل خاص. لتظهر بعدها «المدرسة الكلاسيكية»، ثم المدرسة الماركسية، اللتان موضعتا العالم القروي ضمن المجتمع الرأسمالي وحكمتا على تطوره في اتجاه حتمي هو التصنيع والتفكيك الطبقات الفلاحية إلى طبقتي البروليتاريا والبرجوازية (البروليتاريا الزراعية والرأسمالية الزراعية). أما علم التاريخ فقد درس التحول الذي عرفته المجتمع القروي من خلال التحليلات العميقة التي أنجزها مؤرخو مدرسة «الحواليات»، خاصة مع جورج دوبي، الذي حلل من خلال «المدّة الطويلة» التحول الذي عرفته أوروبا الغربية من الإقطاع إلى الرأسمالية، ومن القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر، حيث درس دوبي مراحل الانتقال من اقتصاد الأسياء إلى اقتصاد مرنكزا على وثائق تاريخية ومعطيات إحصائية، ليميز العلاقات القائمة في هذه الفترة بين البادية والمدينة، وما أهم الأزمات والثورات الاجتماعية، وكيف تشكل عالم قروي جديد في القرن الرابع عشر<sup>(19)</sup>. أما فرناند برودييل F. Braudel فقد أظهر من خلال دراساته لتاريخ الحضارة المتوسطية، خاصة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أهمية مفهوم «المدّة الطويلة» في فهم التحولات العميقة التي تلحق بالحضارات والأنساق الاجتماعية الكبرى، في مقدمة لأحد كتبه

يصير بروديل على أهمية «المدة الطويلة»، بالنسبة للتاريخ على الخصوص «إن العمل الضروري [أقوالها واكتريها والحاج] يجب أن ينجني على المدة الطويلة؛ هذا الطريق الأساسي بالنسبة لعلم التاريخ، إنه ليس الطريق الوحيد، لكنه يطرح على نفسه ولوحده كل المشكلات الكبرى للبنى الاجتماعية المعاصرة والماضية»<sup>(37)</sup>. إن المدة الطويلة هي «الخط الضروري جدا والوجه لكل ملاحظة وتفكير مشتركين بين العلوم الاجتماعية»<sup>(38)</sup>. أظهرت مدرسة الحوليات بنهولها من التحليلات الاقتصادية والماركسية أن فهم البنيات الاجتماعية من قبل العلوم الاجتماعية لا يكون إلا من خلال «المدة الطويلة»، لأن التاريخ التقليدي لا يتفطن سوى للأفراد، كما أن حيكتة السردية لا تتقيد سوى بالحدث التوجيز والدرامي، في حين أن البحث العلمي يقتضي جمع أكبر عدد ممكن من المعطيات الخاصة بفترة طويلة لمعرفة التغيرات والتحولات الطارئة في مجال حضاري أوسع [أوروبا الغربية وحضارة البحر الأبيض المتوسط].

هكذا تكون مدرسة الحوليات في تصورها سابقة للسوسيولوجيا في دراسة موضوع «التغير الاجتماعي»، كما سبقها علم الاقتصاد بمختلف مدارس التي ركزت على القيمة التراكمية الرأس المال في الرفع من إنتاجية الأرض وتفعيل التركيبة السوسيو - طبقية للعالم القروي. لهذا نجد علماء اجتماع يؤكدون بقوة على غياب تراكم في الإنتاج السوسيولوجي حول موضوع التغير الاجتماعي في مقابل التراكم في النظريات الاجتماعية حول تتبع التطور الاجتماعي عبر فترات تاريخية مطوّلة خاصة مع كورنثوسيليسو وماركس. يكشف جي روشيه (Georg Rocher) من مقارنة واضحة في تاريخ السوسيولوجيا، وتكمن في أن لعلماء الاجتماع تاريخاً طويلاً في دراسة تاريخية المجتمعات، إلا أنهم غير متسلحين بأدوات لتفسير وتأويل التغير الاجتماعي<sup>(39)</sup>. فالسوسيولوجيا تعاني من ضعف أول يتمثل في اختقادها الخطة عامة للتغير الاجتماعي، برغم تقديم ماركس وأنجلز - يقول روشيه - النموذج شامل للتغير والتنظيم الاجتماعيين، لكنه نموذج بقي في سياق «سبالي ونظائي». أما ضعفها الثاني فيتمثل في نظرتها للتغير الاجتماعي كجزء من المجتمع، وحتى في مؤلفات السوسيولوجيا يتم تناول موضوع التغير في فصل مستقل وكان التغير بعد قطاعاً من المجتمع وليس هو سيرة تطوره. أما الضعف الثالث للسوسيولوجيا، وهو الأخطر في نظره، فيكمن في عدم قدرة النظرية السوسيولوجية على التنبؤ بالتحولات المستقبلية؛ لأنها لا تدرس التغير حتى تستطيع تأسيس رؤية تنبؤية، ومن هنا يمتح روشيه مشروعية السؤال مهم في تصوره: هل هناك نظرية سوسيولوجية في التغير الاجتماعي<sup>(40)</sup>. يستنتج روشيه كواحد من أهم علماء الاجتماع الذين درسوا بشكل عميق موضوع التغير الاجتماعي غياب هذا الموضوع في النظريات السوسيولوجية، وحضور موضوع التطور الاجتماعي ميراثاً للفروق النوعية بين الموضوعين.

التطور الاجتماعي هو مجموع التحولات التي يعرفها مجتمع ما في فترة طويلة. أي في فترة تتجاوز حياة جيل واحد، بل وعدة أجيال. التطور الاجتماعي يرتبط بما يمكن أن نسميه الاتجاهات الترفيحية (Tendances claires...) التطور الاجتماعي لا يلاحظ إلا من طو مراقب حيث تكون التفاصيل المشهده في صورة أو حركة جامدة.

أما التغير الاجتماعي فيخص التحولات القابلة للملاحظة والفحص على مدى فترات زمنية قصيرة. فملاحظ، واحد يمكنه طيلة حياته أو أثناء فترة وجيزة من حياته أن يشيع التغير ويعرف اتجاهه. أكثر من ذلك فالتغير الاجتماعي متمركز جغرافياً وسوسيوولوجياً. ويمكننا ملاحظته في مساحة جغرافية وهي إطار سوسيو - ثقافي محددين جداً مقارنة بالتطور<sup>(37)</sup>.

يبرز هنري مندراس هو الآخر فيباب تراكم في دراسة الموسيقولوجيا موضوع «التغير الاجتماعي». لأن علماء الاجتماع يعدلون عن الثوابت في التنظيم الاجتماعي. ويتجنبون دراسة الثورات والتزاعات كمحرك لكل دينامية اجتماعية<sup>(38)</sup>.

ويشهد بعبارة ماركس «العنف كالثراء القابلة للوراثة للتاريخ». إنه تعبير جميل يقول مندراس<sup>(39)</sup>، الذي يؤكد على ندرة الدراسات حول العنف والصدمات والثورات لي طرح السؤال: هل نظرية التغير ممكنة؟ بعد تبينه القيمة التحليلية على مستوى ماكرو تاريخي للدراسة التي أجراها جورج دوبي على المجتمع الكارولنجي الذي انتقل من زراعة بدائية ومعيشية إلى زراعة وأسماقية في القرن الرابع عشر. وبعد إثبات أهمية النموذج الماركسي في التركيز على المبرم المادي مع بقائه نموذجاً يتصف بالعمومية ولا يحل المبرمات في سياقات تاريخية محددة<sup>(40)</sup>. ينهي مندراس إلى خلاصة تميزها الصرامة في الحكم في حق علماء الاجتماع. «إن عالم الاجتماع من دون سلاح، إنه بصريح العبارة، يتردد في إلتصاف المشكلة، التي تظهر لنا تحليل أنها ليست من اختصاصه، بل من اختصاص فلسفة التاريخ»<sup>(41)</sup>. المشكلة هنا هي «التغير الاجتماعي». لكن خلاصة عالم الاجتماع التي يقدمها كحكم خاص بعاصر - وربما - الموسيقولوجيا تحمل في طياتها نظماً لمشروعية رغبة عالم الاجتماع في دراسة التغير. وإمكان إنتاج أبحاث ترمد بمناهج كمية وكيفية أشكال التغير الاجتماعي ومستوياته. على الرغم من أن أبحاث مندراس نفسه، والخاصة بالاجتماعات الفلاحية، قد أغنت البحث الموسيقولوجي. وطورت النظرية الموسيقولوجية حول التغير في العالم القروي.

إن كان من رؤسبه وهنري مندراس قد أبرز محدودية الموسيقولوجيا في دراستها للتغير. «لماذا لا يصار عند هذا الاستنتاج من خارج الحقل النظري لهذا العلم، ولا من موقف الرضا لهذا الفرع من هذا العلم، بل هما كانا من أهم علماء الاجتماع الذين درسوا التغير الاجتماعي، كما كان مندراس من أهم الذين أنتجوا معرفة دقيقة بعناصر الدينامية المتحركة في تغير المجتمعات الفلاحية. بالنسبة لرؤسبه فهو يبين أن التغير الاجتماعي يتميز بشكل نوعي عن

الحدث، كاضراب أو اجتماع أو انتخاب أو حريق: الحدث يشكل جزءا من التغير الاجتماعي، وهو لا يؤدي بالضرورة إلى التغير، كما أن التغير الذي يخص فردا واحدا لا يعتبر تغيرا اجتماعيا، حتى إن تطبيق على مجموعة من الأشخاص<sup>(98)</sup>. من هذا وحتى يفصل التغير عن باقي التحولات والأحداث الأخرى التي تتمازج معه هي «الرأي العام» بل وحتى لدى بعض الباحثين في العلوم الاجتماعية، يحصر روشيه خصائص التغير الاجتماعي في أربع هي:

1. التغير الاجتماعي هو أولا وقبل كل شيء ظاهرة اجتماعية، أي أنه يخص الجماعة.
2. يجب أن يكون التغير تغيرا في البنية: يشمل التنظيم الاجتماعي في كليته أو في بعض مكوناته.

3. يفترض التغير في البنية ضرورة تحديده في إطار زمني، ووصف مجموع التحولات ونتاجها.

4. على التغير في البنية أن يتضمن استمرارية، فالتحولات يجب ألا تكون عابرة وسطحية<sup>(99)</sup> [التشديد لنا].

يقدم روشيه انطلاقا من تحديده لهذه الخصائص تعريفا للتغير الاجتماعي في صيغة موجزة «إنه يؤثر في تاريخ المجتمع»<sup>(100)</sup>. وهو بذلك يجرّد المفهوم أكثر لأنه يعرف أنه «في الممارسة يبدو بشكل بدهي أن النجاح في هذا الاختيار مسألة صعبة»<sup>(101)</sup>. يمي عالم الاجتماع إذن أن تحديد خصائص التغير لا يعرفها «بشكل لا يعرفها نظرية ومستوياته» لأن ذلك في نظرنا يتطلب إنجاز أبحاث تمكن من تحديد عوامل ومظاهر التغير، سواء في المستويات الميكرواجتماعية أو الماكرو - اجتماعية. ولذلك يصوغ روشيه تعريفا للتغير يربطه بالزمن وبالتنظيم الاجتماعي، ويعتبر مغنيا للتعريف السابق: «التغير الاجتماعي هو كل ملحوظ في الزمن، يؤثر بطريقة غير مؤقتة ولا عابرة في البنية أو الفعل الوظيفي في التنظيم الاجتماعي لجماعة معينة ويغير مجرى تاريخها»<sup>(102)</sup>. انطلاقا من التمييز الشار إلى أعلاه الفاصل بين التغير الاجتماعي والتطور الاجتماعي يكون التغير في زمن لا يتجاوز الجيل الواحد، وهو قابل للرصد والملاحظة. لأنه يخص عناصر وأجزاء في التنظيم الاجتماعي- إن مقياس الجيل الواحد كوحدة مناسبة لمعرفة أشكال التغير الاجتماعي مناسب جدا لخصوصية البحث السوسيولوجي الذي يهتم أكثر بال حاضر. ولهذا فإن ما يقترحه سوروكين من جدول تصنيفي لأهم النظريات التي طرحت مسألة التغير الدوري في سياقات تاريخية تبدأ بوحدة زمنية صفري هي 75 ساعة، وتنتهي بوحدة زمنية كبرى هي 123 سنة<sup>(103)</sup>، يعتبر طبقا للجماعة المنهجية والنظرية في معرفة الباحث الاجتماعي بموضوعه: لأن تحديد الفترة الزمنية التي قد تكون هي السياق التاريخي لدراسة التغير يدفع الباحث إلى أن يتزلق من البحث السوسيولوجي إلى التأمل المتعمق إلى فلسفة التاريخ.

لا تتوقف دراسة التغير الاجتماعي التميز لبنية اجتماعية في مدخلها المنهجي عند حدود حصر المبادئ التاريخية [الزمن] لكل الأحداث، والوقائع التي تشكل عناصر التغير، بل لثة مكونات وأجزاء من دونها لا يمكن التفكير في مسألة التغير الاجتماعي، ولا إنتاج معرفة موسمولوجية حولها، إذ لا بد من تحديد عناصر التغير وهي:

- 1- إبراز المستويات والمجالات [الأنساق الاجتماعية الفرعية] التي يتحلق فيها التغير. إذ قد تغير البنية الاقتصادية دون أن تتغير البنية الثقافية مثلاً.
- 2- تحديد عوامل التغير الاجتماعي. فثمة مؤثرات تكون فاعلة في تغيير بنية اجتماعية، كالآلة بالنسبة للمجتمع الصناعي والمجتمع الفلاحي أيضاً.
- 3- شروط التغير أو الفاعلون الأساسيون في التغير، لأن البنية الاجتماعية ليست تنظيمياً يشغل من تلقاء ذاته، بل هي تسبق من العلاقات الاجتماعية بين الناس، وضمن هذا التسبق توجد - حسب المكان والزمان - جماعات مهنية، عرقية، اقتصادية، سياسية أو ثقافية تشجع على التغير أو تكبحه، إنها «المحرك الأساسي» للتغير، أو «العائق الأساسي» الذي يحجز سيورة أحداثه وتحولاته.

إلا أن التغير الاجتماعي لا يكون بالتمتع التاريخي نفسه، سواء من حيث سياقه أو معنوياته أو شروطه أو العوامل المنعكسة فيه، فهو يختلف حسب شكل التنظيم الاجتماعي، كما يختلف حسب التاريخية Hobsbawm - المبررة لاجتماعات كون أخرى. فإذا كان التصنيع عاملاً أساسياً في سيورة التغيرات في المجتمعات الغربية، وبالتالي يعتبر عاملاً أساسياً في التغير الاجتماعي بها، فإنه لم يكن بالتمتع التاريخي نفسه في مجتمعات أفريقية أو آسيوية؛ لأنها مجتمعات لها تاريخها الاجتماعي الخاص، الذي تحكم فيه «التقليد» في المرحلة قبل الاستعمارية، ثم طضع لتحديث «إجباري» نتيجة التدخل الاستعماري أو احتواء الاقتصاد العالمي للبنيات الاجتماعية والاقتصادية المحلية في مرحلة ثانية، وهي المرحلة الثالثة. تلووت سيورة تركيب بين «الحداثة» و«التقليد»، يظهر ج. بلاتدييه «صعوبة» بناء تصور واضح لسيورة التغير الاجتماعي الخاص بالمجتمعات «التقليدية»<sup>(1)</sup>، وهي صعوبة لا ترجع إلى قلة المراسلات أو غياب نظريات تحليل أن تجدد في فهمها لنا طراً من تغير بهذه المجتمعات، بل هي ترجع بالدرجة الأولى إلى طسوح الشروع، لأن تطور العلوم الاجتماعية زاهنا ونموذج تشكلها لايسمحان بتأسيس نظرية عامة حول التغير الاجتماعي<sup>(2)</sup>، يشترك إذن بلاتدييه مع كل من روشيه ومندراس في إثبات المستوى التطري المحدود للعلوم الاجتماعية، وعدم قدرتها على صياغة نظرية عامة حول التغير الاجتماعي، لكنه من زاوية تخصصه يبرز أن الأنثروبولوجيا ساهمت في وضع أصص نظرية مستقبلية عامة حول التغير الاجتماعي بتوضيح أن المجتمعات تتغير أو لا تتغير

حسب سرعات، مختلفة<sup>(13)</sup>، لأن الاستمرارية والانتقطاع، التكرار والاختلاف هي مفاهيم متناقضة تظهر إلى مشكلات لا يمكن لعالم الاجتماع تفسيرها، فالقرن التاسع عشر تضمن استمرارية سميت «التقدم»، لكن القرن العشرين اتخذ شكل انقطاعات بطبوعه تحولات غير مرافقة، وفطاح بين أمم غير متكافئة<sup>(14)</sup>.

إذا كان المنصور الأنثروبولوجي لجورج بلانديه ينطلق من إعطاء الشروعية للأنثروبولوجيا، نظرا لعدم قدرة السوسيولوجيا على تفسير التغير في المجتمعات المتقدمة، وهو بذلك يجعل، ضمنا، الأنثروبولوجيا، كمعرفة خاصة بالمجتمعات اللأغربية، هي وضعية «أحسن» لدراسة التغير، مقارنة بالسوسيولوجيا، فإن لتصوره قيمة نظرية أساسية مضمونها ترجيح الباحثين صوب دراسة التغير الذي تعرفه المجتمعات بمفاهيم ومقاربات جديدة. وإن كان كتود لفي ستراس يعتبر أن عامل «السرعة» غير ذي أهمية في فهم المجتمعات، فقيمته في العلوم الإنسانية هي «قيمة استدلالية»<sup>(15)</sup>، السرعة مجرد «استعارة» لفهم المطلق الحقيقي لتغير المجتمعات، لكن قيمة تصور بلانديه تتجلى في منح الأنثروبولوجيا الأسس النظرية لتكون مرجعية، ليس فقط في فهم سيوررات التغير في المجتمعات «النامية»، بل أيضا فهم هذه السيوررات في المجتمعات المتقدمة عن طريق المقارنة بينها وبين المجتمعات الأولى. لأن المقارنة هي التي تمكن المجتمعات من معرفة ذاتها، والمقارنة كمفتاح في التحليل بالنسبة للعلوم، خاصة أن العلوم الاجتماعية هي التي تمكن العلماء من فهم عناصر وعناصرها ووظائف كل نسق سواء أكان عضوا أو اجتماعيا.

<http://Archivebeta.Bakhril.com>

فيما يتعلق بعوامل التغير الاجتماعي تنقسمها إلى عوامل داخلية وعوامل خارجية، فالعوامل الداخلية محصورة في عناصر التنظيم الاجتماعي التي تعمل وظيفيا من داخله، وهي أساس تغيره. أما العوامل الخارجية فهي تتجلى في وجود مؤثرات جديدة في التنظيم الاجتماعي، دخولها إليه يؤدي إلى تغييره. وهذه الحالة لتطبيق على مجموعة من المجتمعات الأفريقية والآسيوية، التي خضعت لتدخل استعماري كان مبيها ولهما في تطور سيوررات جديدة لتغير اجتماعي يضاف إلى السيوررات التقليدية للتغير، الذي كانت تعرفه تلك المجتمعات بـ «السرعة» نفسها، تقدم «الوسوعة» أمثلة، ففي البعد الداخلي للتغير لدرج نموذج التحليل الفيبري، الذي أبرز دور العوامل الدينية والثقافية في نشأة الرأسمالية [الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية]. أما بالنسبة للبعد الخارجي للتغير فلهذا عوامل تتدخل لتكسر «اللاتوازن» بالمجتمع، منها على سبيل المثال الثورة الزراعية القديمة التي غيرت التنظيم الاجتماعي في المجتمعات القديمة، والهجرة بعد تغيير مكان الاستقرار، مما يؤدي، بالنسبة للفرد أو الجماعة، إلى تحولات في الثقافة، ونمط المعيشة، والتمثلات الرمزية لإزاء جماعات أخرى<sup>(16)</sup>.



## ثالثاً: التحديث والتغير في المجتمع القروي [دالة القرى]

كيف استطاع المجتمع القروي أن يتغير؟ وهل خضع في تغييره لتأثير عوامل داخلية وأخرى خارجية؟ وكيف يمكن فهم سيورة التغير الاجتماعي في المجتمع القروي بتحديد مستويات وعوامل وتأثير التغير الاجتماعي؟

إن طرح مسألة التغير في المجتمع القروي القروي تجد عناصرها الأساسية - على المستوى الواقعي - في احتكاك هذا المجتمع بقوة جديدة تعكست في الوجود الاستعماري بتفوقه العسكري، الذي حاول فرض «التهنئة» على المناطق القروية المتخلفة ضد «التي اعتبرها مناطق «السيئة» كما نعت ذلك الطرح على المستوى النظري في طرح باحثين اقتصاديين واجتماعيين وجغرافيين فرنسيين لمسألة «عصرنة» الفلاحة القروية، من خلال تحويلها من النمط الاكتفائي إلى النمط التجاري، وذلك بإدخال تقنيات جديدة تعكست في بناء السدود<sup>١٢١</sup>، ونهضة البنيات الزراعية وإعادة تجزئة المجال الزراعي، وإدخال الجرار عوضاً عن اليد العاملة. كانت منطقة الغرب أولى المناطق القروية التي عرفت نموذجاً رسمياً للتحديث الزراعي، إذ أنجزت مجموعات مالية كبرى «مشروع سبو» منذ ١٩١٢<sup>١٢٢</sup>، «مشروع التهنئة» في بعدة العسكري على الرغم من أنه ركز على المناطق الجبلية، فقد كان هو المدخل السياسي الضروري لمشروع «تصديت» الفلاحة القروية، التي كانت في الواقع فلاحية طرنية، يحتكر مواردها الأساسية المعمرن الفرنسيون، «التهنئة» كما يقول خير عباس، كانت قابلة أكثر من النزاعات التقليدية بين القبائل، لأن استصلاح الأراضي كان لفائدة الاستثمار الفرنسي، فسياسة استعادة الفلاحين المغاربة من القطاع الفلاحي لم تتجاوز حدود ١٩٣٠<sup>١٢٣</sup>، تخص هذه النسبة مجموع القطاع الفلاحي، بمعنى أن استعادة الفلاحين المغاربة من تجربة «التحديث الزراعي» قلت بعيدة عن هذه النسبة، الأمر الذي يدل على أن فعالية التحديث في المجتمع القروي المغربي كانت ضعيفة، ولم تشمل إلا جزءاً من النخب القروية المتمثلة في الأعيان المغاربة.

كانت المرحلة الاستعمارية مرحلة مهددة لتجربة «التحديث الزراعي» و«عصرنة» الفلاحة بالمغرب، وتميزت بإنشاء غرفة خاصة بالفلاحين الأوروبيين، ولجنة لتشجيع التمركز العقاري وإخراج ظهور حول إلحاق المياه بـ «الدومين» سنة ١٩٢٥، وتأسيس المكتب الشريف للتصدير في أبريل ١٩٢٢، وتأسيس تعاونيات فلاحية وصناديق للتوفير والقروض سنة ١٩٢٧، والشركات التعاونية الفلاحية المغربية في أبريل ١٩٣٨، كشكل من أشكال التدخل المحدود السلطات الاستعمارية في توجيه الفلاحة «الأهلية» [بالنسبة للإجرامين الأخيرين] وإحداث المجلس الأعلى للفلاحين في عام ١٩٤٤<sup>١٢٤</sup>. أما المرحلة بعد الاستعمارية، التي تبدأ سنة ١٩٥٦، فقد تميزت بظهور مشروع الدولة الوطنية لتطبيق سياسة «الإصلاح الزراعي» التي عرفت ظهور

تصوّر تشريعية تنظم الملكية العقارية بالجمال القروي<sup>(121)</sup>، وترسيخ الاستثمارية فيها أسسته التجريبية الأولى للعمادة من إنشاء تجهيزات هندرو - فلاحية. تميزت هذه المرحلة بالخطاب الملكي أثناء افتتاح الاجتماعات حول قانون الاستثمارات الفلاحية بالأراضي السقيوية، حيث أُعلن في 1/8/1969، عن مشروع مدني مليون هكتار<sup>(122)</sup>، كما لجأت الدولة عبر سيادة زمنية استمرت ٢٠ سنة 196٠ - 1٩٨٠ إلى توزيع مكثف للأراضي على الفلاحين، مع محاولة التركيز على صغار الفلاحين، وهذه خاصية مغاربية تعكس تونس والجزائر أيضا، وإلهمت خاصية مغربية فحسب<sup>(123)</sup>.

نعتبر أن التفكير السوسيولوجي في التغير الاجتماعي الخاص بالمجتمع القروي قد انطلق من قاعدة واضحة تعكست في مشروع الدولة تطبيق «الإصلاح الزراعي». كان دور باحثين اجتماعيين كـ «باسكون، لازارييف، الخطيب، بن طاهر» أساسيا في رصد التحولات التي عرفها ذلك المجتمع، واستنتاج أشكال نشأة «الحديث» أو استمرار «التقليدي» وتفكيك مشروع الإصلاح الزراعي كحكون من مكونات المشروع الرأسمالي للبنى التقليدية، لا يمكن إغفال نتائج دراسات هؤلاء الباحثين، ولا نتائج باحثين بطرق أطروحات حول المجتمع القروي الفلاحي، خاصة حليم، جنوس، الهراس، بورقية... الخ، في مرحلة السبعينيات والثمانينيات، وهي أطروحات حلت أشكال التفكير الاجتماعي في المجتمع القروي، وشكلت السياسة التحديثية، للدولة للبنى الزراعية بعمقها التاريخية هذا المجتمع، ليس في بداية مشروع الإصلاح الزراعي مع عقد الستينيات فقط، بل امتدحت الكارثة الاقتصادية و السياسية والثقافية في سيادة تاريخية لاحقة، دون تعيب المعطى التاريخي المتمثل في التطور المعاصر منذ القرن التاسع عشر، الذي عرفته البنى الاجتماعية للقرية، خاصة في أساسها القبلي<sup>(124)</sup>. لهذا فإنه لا ينبغي إصدار حكم قبلي حول سياسة «الإصلاح الزراعي» كحكم يركز على آثارها الإيجابية، أو كحكم سلبي يركز على آثارها السلبية، بل المناسب في البحث السوسيولوجي هو بناء نموذج تحليلي يكون خاصا بمجتمعات الدراسة الميدانية، ولهذا فإن الاستناد على أبحاث تناولت «الإصلاح الزراعي» المطبق في المغرب في السبورة التاريخية لتشكّل الدولة الوطنية سيكون اجراء بعيدا يأتي في سياق استنتاج الخلاصات الأساسية للصلة بالشكل ومكونات وعوامل التغير الاجتماعي المميز للمجتمع القروي المغربي، وهي عوامل يحددها جروجوري لازارييف Glavacov في أربعة<sup>(125)</sup>:

- ١- الظواهر الأيديولوجية المرتبطة بالاستقلال، وخاصة بالتمثيلات الاجتماعية المتبادرة في أوساط الفلاحين فيما يخص الأحزاب السياسية واتجاهات القرية في المجال الوطني من خلال القاموس السياسي الجديد: الحزب والديموقراطية والانتخابات والاشتراكية والصراع الطبقي... الخ.

٢. تدخل الدولة في المجال القروي وإشطاء تنظيم إداري جديد ضمنه «القائد» على المستوى المحلي. وذلك بهدف إعادة هيكلة العلاقة بين التيارات القروية والتيارات السياسية على المستوى المركزي للدولة.

٣. مشاكل النمو الديموغرافي بالقرى كسبب مفسر لأهم التحولات الاجتماعية؛ لأن الضغط البشري في استغلال الأرض نتيجة التكاثر الديموغرافي يؤدي بفعل اختلاف التوازن بين الموارد المتوافرة والحاجيات البشرية إلى الهجرة نحو المدن. وهذا يطرح ضرورة التفكير في توزيع الأراضي على الفلاحين لضمان بقائهم بالقرى وإنجاز مشاريع استثمار فلاحية.

٤. تنفيذ «القرى» وذلك بسيادة العلاقات القروية بعد الانتقال من الاقتصاد المعاشي إلى الاقتصاد التبادلي، فمن طريق الوصل بين الأساليب بطرق صغيرة أصبحت القرية تعرف تنطق متنوعات صناعية من أسمدة ومبيدات للحشرات، وأجهزة راديو، لكن تبقى العلاقات الأجرية في العمل الفلاحي شكلا محدودا للعلاقات السائدة في المجتمع القروي التقليدي.

يتضمن تصنيف لازارييف لعوامل التغيير الاجتماعي بالقرى القروية في عقد الستينيات قيمة سوسيولوجية كبيرة؛ لأن العوامل المحددة بصيغ غرض الطرف عنها في أي تحليل يتناول ظاهرة التغيير في مجتمع محلي، وهي مرحلة تاريخية مغايرة، كما يحتوي قيمة منهجية لوجه الباحث نحو التمييز بين عوامل أساسية بالكلية متعددة أعلاه، أما دوالها فهي: العامل الأول هو عامل أيديولوجي، العامل الثاني هو عامل سياسي، Significance العامل الثالث، عامل ديموغرافي، أما العامل الرابع فهو عامل اقتصادي. إن هذه التركيبة الرباعية لأهم العوامل المحددة للتغيير في المجتمع القروي الغربي هي التوافر الفكرية لكل عمل منهجي يميز داخل هذا المجتمع بين أنماطه الفرعية لقياس مستوى التغيير ويبيان أثره في الفلاحين، مع إظهار امتدادات هذا الأثر داخل النسيج الاجتماعي في كنيته، ولهذا فإن تصنيف لازارييف يعد أساسيا في دراسة مجتمع قروي فلاحي محلي؛ لأن تحليل التراتب الاجتماعي بالغرب في مرحلة الاستقلال لا يمكن أن يهتم بإستراتيجية الدولة وحدها في تحكمها في الأدوار الوظيفية المسندة إلى الطبقات الاجتماعية، وإفضال المسألة الفلاحية<sup>(١٩)</sup>. يحكم أن المجتمع القروي كان ولا يزال نسقا أساسيا لفهم مجموعة من الظواهر الاجتماعية، النمو الديموغرافي والهجرة القروية والأمية والتوترات والصراعات الاجتماعية والمشاركة السياسية والحركة الاجتماعية تشكل النخب المحلية. وإذا كان المجتمع القروي قد شكل موضوعا خاصا للسوسيولوجيا الغربية منذ الستينيات التي حاولت التفكير في هذا المجتمع انطلاقا من النظرية الماركسية لأنماط الإنتاج واستبعاد

النظريات الأمريكية والتعاملات التحليلية لفيلبر وبارسونز، كما يلاحظ الخطيبي الذي يقترح نموذجاً لتحليل التغير الاجتماعي ينطلق من «القرية» التي تتطور داخل الفئات العصرية والاقتصادية»<sup>(٢)</sup>.

## خلاصة أساسية

١- ارتبط مفهوم التحديث بصفة عامة والتحديث الزراعي بصفة خاصة بسياق التنمية في صيغتها الغربية، التي ارتبطت أساساً بالتصنيع، من هنا رافد التحديث في

الإنتاج الخاص بالعلوم الاجتماعية وخاصة السوسيولوجية تتمثل الخاص بالتقريب Westernization، ليس غريباً إذن أن يعالّق التحديث فكرًا وواقعًا، نظرية وممارسة عملية نقل التكنولوجيا، وهي العملية التي حطت أوهاما الأيديولوجية والتكاسات تنموية واضحة بالنسبة لبلدان العالم الثالث.

٢- تبدو قيمة المقاربات الأنثروبولوجية المقارنة قيمة المركزية في تكثف من عناصر وأبعاد التكامل بين التقاليد والحداثة، المادي والروحي باعتبارها مقاربات مكنت الباحثين من استنلاك مناهج ورؤى جديدة وحفزتهم على استنتاج أن التحديث هو ضرورة مبركة لا يمكنها أن تلغى على ما هو قايدي أو محلي بل تمتد إلى البنيات الثقافية والرمزية.

٣- إن فهم التغير داخل المجتمع الغربي لن يكون إلا بالتحليل العلمي المستمر للمجتمع القروي من خلال مقاربات جغرافية وتاريخية واقتصادية وسوسيولوجية، لأن التراكم في البحث في حقل معرفي محدد لا يدل دائماً على تطور في النظرية بعضهايمها ومناهجها، بل قد يرجع إلى انتقال الأيديولوجي للتاريخ متمثلاً في الاستعمار والتخلف والأصولية... إلخ، وهذا ما يفسر تحول اهتمام الباحثين من موضوع لأخر، دون أن تتحول الظاهرة الاجتماعية إلى موضوع سوسيولوجي.

٤- إن دراسة التغير الاجتماعي بالمجتمع القروي الغربي - كحسيمة تركيبة لأبعاد شملت مجتمعات صغيرة - هي أساسية لفهم ظواهر اجتماعية هي في مرحلة «التنين». كظهور المدن الصغيرة والمدن الكوكبية المحيطة بالمدن الكبرى، التعليم بالعالم القروي، التحضر، الفئات الاجتماعية الوسطى ذات الأصول القروية، تعايش التقليدي والحديث في الطلب الاجتماعي على المؤسسة الطبية [اعشاب طبية، زيارة الأضرحة وزيارة المؤسسات الصحية].

٥. يعتبر التغير الاجتماعي ظاهرة معقدة، والتعمد لا يعجل على الفهم بل على الطابع التركيب لعناصر الظاهرة؛ لأن كل ظاهرة هي مركبة، وعلى العالم تحليلها لعرضها كبنية من العناصر البسيطة، وإذا كانت ظاهرة التغير مركبة بمستوياتها وأشكالها وعواملها وفاعليها، فإن مفهوم التغير الاجتماعي هو مفهوم مركب، إنه الاستنتاج الأساسي الذي تمت بلورته بعد عرضنا لمجموعة من التعريفات الموسولوجية لهذا المفهوم، وتأطيره ضمن السياقات التاريخية لموظفه في الدراسات الموسولوجية الغربية.

٦. لا يمكن للبحث الموسولوجي أن يظل في رحبته الكمي والكيفي حبيس ما هو مفروس ومعاني، وذلك بتفسير وفهم «الأشكال المادية للتغير الاجتماعي» بل عليه أيضا أن يتجزأ العمل النظري نفسه إزاء «الضامين الرمزية للتفسير الاجتماعي»: لأن التغير لا يطمس البنيات الاقتصادية وحدها، التي تتجلى في الدخل الاقتصادي، السكن، المعيش اليومية، بل هو يتسع ليشمل البنيات الرمزية من معتلات وفهم وأحكام وسلوكيات.

٧. يظل التحليل الموسولوجي لمجتمع قروي قلاحي محكوما في منطقته الداخلي، الذي هو نفسه منه منطق موسولوجي (الفكر / الواقع / المادي / الرمزي، المحسوس / المجرد) فليس كفي (مؤهل وأثر التغير في البنيات المادية، ودراسة كيفية تحدد مواقف وسلوكيات المزارعين إزاء التغير ومبشروع «التحديث الزراعي» من جهة أولى، ومواقف وسلوكيات مديري Agents التحديث، المتمثلين في الموظفين التقنيين والإداريين بمؤسسات لها علاقة وطيقة بالتحديث الزراعي وبالمجتمع القروي، سواء أكانت مؤسسات إدارية وسياسية أو مؤسسات فلاحية وتنظيمات جمعوية، تتعاضد بقوة مع نشأة وتشكل مجتمع مدني.

يحدد بونديار مفهوم الحداثة Modernité في ارتباطه بالأيديولوجيات والتيارات الفكرية، ثم يشير إلى دلالاته في العالم الثالث التي تقابل «التقليد» في المجال السياسي مع تركيزه على بلاغية، إيتش، أيتش، أما بالنسبة لمفهوم النزعة الحداثية Modernism فهو يربطه بالاتجاهات الأدبية التي تسبكت من الاتصال، من وصاية السلطة الكنسية.

J. Baubillard, Encyclopédie Universalis, 1988, Corpus 12, 421-426.

علاء شراي، «البنية البطركية، بحث في المجتمع العربي المعاصر»، دار الطليعة، بيروت 1987، ص 22-23. يظهر أن المؤلف المتعد في تمييزه على

Marshall Berman, All that is solid Melt into Air, New York, 1981, pp569-571.

للمرجع السابق، ص 27.

محمود أوب، تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1987، ص 22-23.

محمد شقرون، مفهوم التحديث واستعمالاته في سوسيولوجيا المجتمعات النامية، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، باريس، عدد 8، أكتوبر 1991، ص 9.

كامل عمران، نظريات التحديث (جزء ثانوي أم تضليل أيديولوجي)، مجلة الوحدة نفس العدد المذكور في المصدر السابق، ص 23.

ظهور في هذا المجال إلى بعض الدراسات المنهجية التي كان لها تأثير في الباحثين في دراسة «مرونة» «التحديث» وأهم تلك الدراسات ترجع لطيف «استشعار» منير التوت، كولمان، إيتش، بديكتي، إنشادات، ومطهر،

محمود أوب، مرجع سابق، ص 22.

Georges Balandier, Sociologie et Philosophie, 2nd PUF, Paris 1981, p. 105.

S.N Eisenstadt, Tradition change and modernity, Wiley, New York, 1953.

مصطفى نصر التير، نظريات التحديث والبحث عن النموذج المثالي، مجلة الوحدة، عدد 75، يونيو 1987، ص 58.

المصدر السابق، ص 48.

Abdeljalil Halim, La Capitalisme agraire au Maroc, Thèse d'Etat, Université de Lille, 1986.

Microfiche pp 416-431.

Ibid. pp445-526.

A. Halim, Le Capitalisme agraire au Maroc, Texte de soutenance d'Etat d'Etat, Revue Adonis N° 78.

Fes, Mars 1987 pp12-15.

عبدالجليل خليل، التدخل الاستعماري والحركة الاجتماعية، مجلة الوحدة، عدد 59، يونيو 1987، ص 18-19.

محمود أوب، مرجع سابق، ص 22، 23.

عبد التوت، عيون بونديار والموسولوجيا، العرب، محمد بونديار، مجلة القرية للاقتصاد والاجتماع، عدد 8، 1987، ص 1-10.

محمد أحمد الزعبي، التغيير الاجتماعي بين علم الاجتماع المزدوجي وعلم الاجتماع الاشتراكي، دار الطليعة، بيروت، 1988، ص 26.

للمرجع نفسه، ص 27.

- المراجع نفسه، ص 49. 81
- André Lalande, *Vocabulaire technique et critique de la philosophie*, 2<sup>e</sup> ed. P.U.F. Paris 1993 p.138. 82
- Dictionnaire Petit Robert, ed 1990 p.285. 83
- A Lalande, op.cit. P661. 84
- لا يمكن إغفال أهمية الفلسفات التاريخ التي تضمنت في تأملاتها معالجة مفهوم التغيير، وخاصة التاريخية مع كرونشيه وغرامشي وفوكياش، والتي أظهرت دور الإرادة في صنع التاريخ، لكن وفق قوانين كانت أقل اجتماعية، من رواد التاريخية طائفة ماركس وانظر، وايدين، في هذا الإطار يستلزم نقد كارل بوبر أهمية من معالجته لمفهوم التغيير من خلال نقده للمذهب التاريخي الذي يشكك في إمكانية K. Popper التغيير انطلاقاً من الإصلاح الديمقراطي. رفض بوبر الأساس الفلسفي لهذا المذهب معتبراً أنه مذهب يركز التطور البشري إلى الاستبداد والتكنوقراطية، لأن أي مجتمع إذا اكتشف قانون «التطور الطبيعي» فسيمنعه هذا الاكتشاف من التطور، كما ينقد الاجتماعيات المعنوية الجوزية في علم الاجتماع كهلنسية الاجتماعية جزئية في مقابل الهندسة البيئية التاريخية، فالأولى صادقة لكنها تؤدي إلى مشاكل، والثانية كاذبة لأنها تؤدي إلى أخطاء خطيرة انظر:
- كارل بوبر: «بؤس الأيديولوجيا» ترجمة عبد الحميد صبروت دار الساقي، بيروت، لندن، 1997. 85
- Edgar Morin, *Sociologie*, Pionard, Paris 1984, p.436. 86
- Ibid p.432. 87
- Georges Duby, *L'Economie médiévale de des campagnes dans l'occident médiéval*, Ed. Aubier, Moutaigne, Paris 1982. 88
- Fernand Braudel, *Essai sur l'Histoire*, Col. Champs, Ed. Flammarion, 1969 p.6. 89
- Ibid p.79. 90
- Guy Rocher, *Le changement social*, Ed.Snail, 1968, p.15. 91
- Ibid, pp.15-16. 92
- Ibid, p.17. 93
- Henri Mendès, *Elements de sociologie*, A. Colin, paris, 1979, p.213. 94
- Ibid, p.214. 95
- Ibid, p.223. 96
- Ibid, p.224. 97
- Guy Rocher, op.cit., pp.19-20. 98
- Ibid, p.20. 99
- Ibid, p.21. 100
- Ibid, p.21. 101
- Ibid, p.22. 102
- يقترح ماركس جدولاً للظرات الدورية التي يتخلل فيها التغيير في سياق اجتماعي معقد، وهي فترات تبدأ بمرور واحد كالرفاد أو الانتصار [مرور كاييم ميلاز]، أو اندلاع كالمعمل وتطبيق للنمذ، وبسنة [كيلي، فاجير، مورسيلي، كوتيجن... إلخ] وتطبع سنوات حيث تدرس أودان Chén عدد الولايات بين الشخصيات الأدبية.

أما بالنسبة لفترة ٦٠٠ سنة فهذه دراسة لأحداث ثورات وعروب عاتية [ليمور، بارلير، لورن]. و ٥٠٠ سنة  
لنفس الدراسة التاريخية لتتبع حضارات والتعطيلات أخرى [ميلار]. أما الفترة ما بين ٦٠٠ سنة و ١٤٠٠  
سنة فهي نفس السياقات التاريخية الأساسية [كورتز، شورير، جويل]. أما فترة ١٦٦٠ سنة فهي تعبر قيام  
ثورة في تطور الحضارة، كثورة كبيرة ونوعية [باري]. انظر:

Perrin, A. Sociétés. Les études sociologiques, trad René Verrier, Payot, Paris, 1938,  
pp.525-529

Georges Balandier, op.cit, p128.

Ibid, p.122.

Ibid, p.145.

Ibid, p.69.

Claude Lévi-Strauss, Race et Histoire, Ried, Folio Paris, 1987, p45.

Encyclopédia Universale, Paris 1988, Corpus 4, Le changement social, pp.632-634.

بالنسبة للتقوية الهيدرو - سلامة بدلالة، وثبات أول سد بها وهو سد دلموند، الذي وضع لاستغلال مياه  
تجزلات أولاد أفراج، مهدي بنور، سيد، استأصل وهو السد نفسه الذي يستفيد منه الزمامرة فيما بعد.  
وإن كانت المنطقة المستفيدة في المرحلة الاستعمارية هي أولاد أفراج فقط، انظر:

F.Bonier

Doukhal, B.E.S.M, N°63, 1964, Vol 18, pp.344-389.

قاعدة الفريسي، سد الفريسي، ترجمة فاطمة الزهراء، (رويل، الشركة الفرنسية للناشرين التجهيزيين، الرباط،  
١٩٤٥، ص ١٦،  
<http://Archivebooks.Bakht.com>

أبيس، عبدالحق، الشرب والاستعمارية، ترجمة عبدالحق الشاوي، نور الدين السمودي، دار الخطابي،  
١٩٤٥، ص ٢٢٦.

N. Boudkhal, M. Chérif, p. passim La question au Maroc, B.E.S.M, N°123-124-125, SMER  
Rabat, pp.10-14.

Ibid, p.47.

Ibid, p.31.

Shlekader Zghal, Pourquoi la réforme agraire ne mobilise-t-elle pas les paysans maghrébins? In  
Les Problèmes agraires au Maghreb, Annuaire de L' Afrique du Nord C.N.R.S.C.R.E.S.M 1975  
pp.304-302

I.A. Ballin, Le capitalisme agraire au Maroc.

١. معاشرات الملك الثالث أحمد، جوس حول طم الاجتماع القروي

٢. المختار الهراس، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب

٣. ربيعة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع.

تعتبر التحولات المتضمنة في الظروف هؤلاء الباحثين، وهي أطروحات مثبته ببياناتها في  
مداخلات أخرى من هذه الدراسة، من أهم التداخل للتأثير المؤسساتي في التغيير الطامس والمجتمع  
القروي المغربي.



- Gregory Lantier *changement social et développement dans les campagnes marocaines*, article publié in B.E.S.M N° 109, Avril - Juin 1978 Reéd in Etudes sociologiques sur le Maroc, B.E.S.M, 1978 pp.113-138. 38
- Abdelkader Khatibi, *Etat et classes sociales*. In sociologie des mutations, Ed Anthropos, paris, 1970 Rééd. in Etudes sociologiques sur le Maroc, B.E.S.M ed.1978, p.3-15 39
- يعتبر المؤلف إندونيسية الدولة الوطنية - التي ظهرت حسب تصنيفه بعد الدولة الكارزمية (قبل الاستعمار) والدولة الكولونيالية - كدولة مركزية خدمت لها غايات أهمها : ١- إضمار الطبقية الخاصة . ٢- تطوير الطبقة العمومية ومساندة الطبقات المتوسطة بالطبقة . ٣- تطوير نسبي البرجوازية المتوسطة . ٤- تعديل نهجها في النظام القبلي . وقد فسر الخطيبي عدم معالجة علاقة الدولة بالتأخرين بتأجيله لهذا العمل؛ لأنها في ما قبل التاريخ فبعدها والمثل بسوسيوولوجيا أنظمة الطبع . كما شغلها الجماهير (ص:٦٢).
- A.Khatibi: *changement social et individualité*, Alausa N°90 Juin- Juillet 1987, pp 6-8. 40



## التعصب ماهية وانتشارا في الوطن العربي

أ.د. علي أسعد وطيفة \*

أ.د. عبد الرحمن الأحمد \*\*

### مقدمة

يشكل منهج التعصب حقلًا معرفيًا يتوجسده الباحثون، وذلك ما ينطوي عليه هذا الموضوع من حساسية وموضوعية. القضية التعصب ما زالت تستجلب نفسها في عمق الحياة الفكرية العربية، كما هو متبعًا بكل أنواع القبح والقمع والخسوف، وهي في هذا الدار القسمة بالخطر القضية التي تشكل واحدة من أهم القضايا الاجتماعية التي يلقفها القموض والغيباء في المجتمعات العربية المعاصرة.

ونحن إذ نياشر هذه القضية بالتحليل العلمي، فإننا ندين بذلك للأجواء الديمقراطية وحرية الرأي التي تسود الحياة في الكويت، والتي توفر للباحثين جدارًا من الأمن الأكاديمي الكبير، الذي يتيح لهم مقاربة أخطر القضايا الفكرية المعاصرة وأعمها، ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة تجسد محاولة علمية للكشف عن خلفيات التعصب وتحليل مظاهره وذلك بحجة، سعيا إلى دراسة الواقع الاجتماعي العربي والكشف عن مكان الخطر فيه وحوله.

إن الكشف عن المخاطر الاجتماعية وفهم الواقع بكل ما ينطوي عليه من أمراض ونقائص وعيوب يشكلان اليوم متعلقات علمية وموضوعية يمكن أن يوظف في خدمة المجتمع في مختلف مستويات وجوده وفعالياته الثقافية والعلمية والاجتماعية، فالكشف العلمي عن مكان الخطر الفكري والاجتماعي بشكل منطقي فواجة التحديات التي نعتل في قلب

(\*) استاذ في كلية التربية بجامعة مثلث.

(\*\*) استاذ في كلية التربية بجامعة الكويت.

الحياة الاجتماعية، كما يمكنه أن يدخل في بنية إستراتيجية علمية تهدف إلى تشخيص الحياة الاجتماعية والكشف المبكر عن أمراضها ومعالجتها.

فالتعصب كان وما زال داء الشعوب ومرضها المفضل، إنه الخطر الداهم وسرطان الأمم، ومن هنا تأتي أهمية الكشف المبكر عن دواعي هذا الورم الطبيعي من أجل استئصاله وحماية جسد المجتمعات من آثاره المدمرة.

فمجمعاتنا العربية تعاني - كما هي الحال في كثير من المجتمعات الإنسانية المعاصرة - هذا الداء الصامت، الذي يفتك بكل المعاني الإنسانية عندما يستفعل ويأخذ مداه ومداه. ونأسس على هذا يمكن القول بأن دراسة هذه القضية والكشف عن مظاهرها بشكلان نوعيا من الاختيارات الوفاقية التي يمكنها أن تكشف عن بدايات هذه الظاهرة واستشراف ما تشكله من حضور وخطر.

### إشكالية الدراسة

أفرد الباحثون القضية التعصب مباحث عديدة، ولكن هذه المباحث تقع غالبا في مجال الدراسات النفسية والميكولوجية، وهو المدخل المشروع لهذه القضية الشائكة المعقدة، ويعود غياب الدراسات

الموسولوجية إلى جملة من الصعوبات المنهجية والحساسيات التي تفرضها قضية التعصب في المجتمعات العربية المعاصرة. ولئن قلنا أن أهمية الدراسات الميكولوجية التي أجريت في هذا المجال، والتي تختلف منهجية ومبادئها إلى حد كبير عن الدراسات الموسولوجية التي تقتضي مواجهة الواقع الاجتماعي والحضر في تضاريسه بجرأة أكبر وعلى صورة مواجهة لا ليس فيها أو غموض.

فهذه القضية أشبه بحقل من الألغام وعلى الباحث عندما يحفر حول هذه الألغام أن يتوخى الحذر؛ لأن هذه الألغام قابلة للانفجار في أي لحظة. وهذا يعني أن الباحث الاجتماعي أو التربوي عندما يبحث في هذه القضية، فإنه - ومن حيث لا يدري - قد يثير شجونها ويغذيها ويعرض نفسه للمصاطبة، ومن جهة ثانية فإن الدوائر العلمية والسياسية غالبا ما تعمل على وضع هذه القضية في دائرة اللغات الصعبة والحساسية، التي يجب أن تكون خارج دائرة المناقشة والدراسة لا عبارات شتى منها:

أولا، بعض هذه الدوائر تريد أن تقدم صورة مثالية لمجتمعاتها خالية من أي صيوب أو مظاهر غير حضارية لهذه المجتمعات، مثل التعصب والعنصرية والفساد والظلم الاجتماعي.

ثانيا، بعض هذه الدوائر تغطي إرادة هذه القطبها خوفا من التفرعات التعصبية، التي قد تعكس سلبا على طبيعة الحياة الاجتماعية بإثارة الحساسية بين فئات المجتمع الواحد.

ثالثاً، بعض هذه التوافر ليس سوى أن الحديث والحوار في مثل هذه القضايا يؤججها، ويحل الباحث فيها كحال الذي يحرك الجمار الهامدة فيؤججها ويهيئ من سميرها، ولذلك فإن هناك حالة من المنع البعظ والامتناع الكبير للأبحاث والباحثين في مثل هذه القضايا.

رابعاً، بعض المؤسسات توظف، وبدرجة عالية، هذه التناقضات الاجتماعية التي تتصل بالمعصب والتمنع، وذلك من أجل أن تلبس رصيدها ثقافياً وسياسياً بوظف هي خدمتها. ومثال ذلك: الأحزاب الطائفية والجماعات الدينية المتطرفة والمؤسسات التي تقوم على أساس عرقي وجغرافي.

ومع أهمية الأسباب التي يمكن أن توجد في هذا الخصوص، فإن الدراسات العلمية للواقع تجار بحقيقة في منتهى الأهمية، وهي أن الكشف العلمي عن الأمراض الاجتماعية هو السبيل الأهم والأكثر ضرورة في معارضة هذه الظاهر، وفي محاصرة آثارها السلبية في المجتمع والحياة.

لقد لاحظنا على مدار عدد كبير من البلدان العربية حضور بؤار تعصب تتجلى بصيغ مختلفة، خفية في أغلب الأحيان سرية أحياناً، ولاحظنا في سياق ذلك أن بعض المؤسسات الاجتماعية والثقافية<sup>(1)</sup> تعمل بشجوة وأعلى الجاهل والتمسك في أغلب الأحيان، على تعزيز المظاهر التعصبية وتأسيسها في النفوس حقيقة ملموسة.

ومن هنا يأتي حاجس البحث في هذه القضية وتنبش دوافع العمل على رصد مصادرها، لأن الملاحظات قد تكون خادعة أحياناً، ولأن الحقيقة يجب أن تخرج من دائرة الملاحظة لتأخذ مسارها العلمي في سياقات تحكمها مقادير إحصائية وكيفية علمية لتحدها وترسم أبعادها وتدل على وجودها بمقاييس الواقع وإسقاطاته.

والسؤال المركزي الذي يطرح تصاريف هذه الدراسة ومعالجتها هو: كيف ينظر الطلاب - أفراد الفئة - إلى ظاهرة التعصب في الكويت والوطن العربي؟ هل يعاني المجتمع العربي - وفي دائرته المجتمع الكويتي - مظاهر تعصبية؟ وهل يدرك الشباب الجامعي مدى حضور هذا الخطر في دائرة مجتمعاتهم العربية؟ وبالتالي ما موقف الطلاب الجامعيين من هذا الهم التاريخي الذي يقض مضاجع الوجود، ويؤرق النفوس في مستوياته الحضارية والاجتماعية والسياسية؟

وهي كل الأحوال، فإن جوهر الإشكالية يكمن في استقرار حجم هذه الظاهرة من خلال وعي الطلاب بحضورها، وهذا يعني أن آراء طلبة الجامعة في مدى حضور هذه الظاهرة بصيغها المختلفة هو الحكم، وبالتالي هو مبدأ وخير هذه الدراسة.

## أهمية الدراسة

بالاستناد إلى إشكالية البحث يمكن تطوير أسئلة الدراسة وفرضياتها بصورة إجرائية: حيث يمكن لأهمية البحث أن تطرح على الصورة الآتية:

1. ما آراء الطلبة، أفراد العينة، في مدى حضور التعصب بأشكاله المختلفة في المجتمع الكويتي؟
2. ما آراء الطلبة، أفراد العينة، في مدى حضور التعصب بأشكاله المختلفة في المجتمع العربي؟
3. ما سلم وأولويات حضور التعصب في الكويت والوطن العربي؟ وهل هناك من وجه المقارنة بين الكويت والوطن العربي في هذا المستوى؟
4. هل هناك من فروق دالة إحصائية بين اتجاهات الطلاب فيما يتعلق بالأسئلة السابقة، وفقاً لمتغيرات: الجنس، والجنسية، والاختصاص الجامعي، والسنة الجامعية، والمحافظة، والمستوى التعليمي للأوليين، وطبيعة عمل الأم، ومهنة الأب؟

## أهمية الدراسة

تستند أهمية هذه الدراسة إلى عدد من الاعتبارات:

أولاً، يبين واقع الحال أن الأبحاث التوسيعية التي تباشر قضية التعصب نادرة جداً، ولا سيما في مستوى الحياة الاجتماعية العربية. لا تملك هذه القضية - كما سبق أن أشرنا - من حساسية وخصوصية، ويتضح من واقع الحال أن أهمية الدراسة التي تجري في هذا المدى تأخذ طابعاً سيكولوجياً ونفسياً، حيث يمكن تناول هذه القضية بصورة مباشرة، ويمكن القول في هذا السياق إنه يمكن تصنيف هذه الدراسة الحالية في طليعة الأبحاث التي تواجه هذه المسألة في الوطن العربي، كما يمكن أن تكون الدراسة الأولى التي تدرس هذه الظاهرة بصورة مباشرة في المجتمع الكويتي المعاصر.

ثانياً، تتجلى أهمية هذه الدراسة في جرات الطرح، حيث تباشر الدراسة هذه القضية على الرغم من الحساسية التي تطلقها، وهي تباشر القضية في إحدى أهم المؤسسات التربوية والاجتماعية في المجتمع الكويتي المعاصر، وهي بذلك ربما تمهد الطريق لدراسة هذه القضية بجرات في بعض الدول العربية الأخرى، التي ما زالت تضع هذه القضية وغيرها في داخل القطيع الحمر. تؤكد الدراسة على أهمية تناول القضايا الاجتماعية مهما كانت درجة حساسيتها وخصوصيتها في سبيل تحليل المجتمع وفهمه وحمايته.

ثالثاً، تتزامن هذه الدراسة مع موجات المطالبة بحقوق الإنسان وتبذ التعصب والنزعات العرقية والشوفينية، والتأكيد على التربية من أجل السلام والتفاهم بين الأمم والجنسيات الإنسانية. وهذا يعطي الدراسة أهمية خاصة يمكن أن توصف في مجرى الدعوات التربوية إلى تأكيد المنهج التربوية الداعية إلى ترسيخ قيم السلام والتسامح وتبذ التعصب في المجتمع.

وأخيراً، تتبع أهمية هذه الدراسة من أهمية الموضوع وخطورته في المجتمعات العربية المعاصرة؛ حيث تستلضي هذه الظاهرة في مختلف شرائح المجتمع، ومن هنا فإن دراسة هذه القضية وتحديد معالمها ووضعها في مساراتها الإحصائية، كل هذا يصب في مسار العمل على بناء تصورات علمية وفكرية وثقافية يمكنها أن تعمل على محاصرة هذه الظاهرة، ومن ثم العمل على عزلها والتأثير في عوامل وجودها.

## دُلعان في مفهوم التعصب

يعد مفهوم التعصب من الضاهيم الإنسانية التي تسج حضورها الكبير في ادبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية، ويمكن لنا في هذا السياق أن نعيذ في التعصب أشكالاً مختلفة ومتباينة، فهناك التعصب

العرقي، والتعصب الثقافي، والتعصب الديني، والتعصب الطائفي، ومع ذلك كله فإن التعصب في مختلف صوره وتجلياته يؤكذ على جوهر واحد هوامه الانقياد العاطفي لأفكار وتصورات تتعارض مع الحقيقة الموضوعية.

فالتعصب (Paranoid بالفرنسية) (Paranoid باللغة الإنجليزية)<sup>١٢</sup>، قد يأخذ صورة عقيدة دينية أو سياسية متطرفة، تعزل مجموعة عالية من الانغلاق والتعصب، حيث تحث إرادة التغلب وإرادة الإقناع. ولقد ظهر هذا المفهوم مع مفاهيم التطهيرة السياسية، وترافق مع مفهوم التسامح الذي يتعارض مع مفهوم التعصب.

يُعرف التعصب بأنه تشكيل رأي ما دون أخذ وقت كافٍ أو عنابة للحكم عليه بإنصاف، وقد يكون هذا الرأي إيجابياً أو سلبياً، ويتم اعتناقه دون اعتبار للدلائل المتاحة. ويعني التعصب أيضاً: الرأي السلبى تجاه أفراد ينتمون إلى مجموعة اجتماعية معينة، حيث ينحو الأفراد التعصبون إلى تعريف وتشويه وإسقاط وتفسير، بل وتجاهل الوقائع التي تتعارض مع أرائهم المبنية سلفاً، فقد يعتقد الشخص للتعصب مثلاً بأن جميع الأفراد المنتمين إلى سن معينة، أو أصل قومي أو عرق أو دين أو جنس أو منطقة في بلد ما، كسالى أو عنيفون أو الخبيثاء أو غير مستقرين عاطفياً أو جشعون. وقد عرفه قاموس لاروس الفرنسي بأنه «حماسة عمياء العقيدة أو رأي أو مشاعر جارفة نحو شيء ما»<sup>١٣</sup>، وفي هذا الصدد تبين الأبحاث التجارية حول التعصب أن الأشخاص الذين لديهم أحكام مسبقة تجاه جماعة ما يصعدون مثل هذه الأحكام تجاه أي جماعة أخرى، ويعبرون عن هذه العداوة ضد مختلف الفئات التي يتباينون عنها، ويلاحظ أيضاً أن الأشخاص المتعصبين غالباً ما تكون لديهم أحكام مسبقة عن الآخرين، مصحوبة بسوء ظنية عميقة وحقد شديد تجاههم. وتعرف هذه الشخصيات بأنها شخصيات تعصبية سلطوية، وتتميز بأنها كارهة، وبذات رؤية كونية ضيقة، عدوانية، ومعارضة للفناتيا. وإدبها تصور مثالي للسلطة، وفكرها متجسد<sup>١٤</sup>.

فالتعصب حالة خاصة من التعصب الفكري أو الجمود العقائدي، حيث يوجد اتجاهات الفرد أو الجماعة نحو جماعات أو طوائف أخرى، ويكثف التعصب عن خضوع كبير لسلطة الجماعة التي ينتمي إليها، مع نهج لتجمعات الأخرى، ويرتبط بذلك ميل إلى رؤية العالم في إطار جامد من الأبيض إلى الأسود، مع ميل إلى استخدام العنف في التعامل مع الآخرين (Taylor & Ryan, 1988).<sup>(١٠)</sup>

يعرف قاموس العلوم الاجتماعية التعصب بأنه «خلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة، بحيث لا يدع مكانة للتسامح، وقد يؤدي إلى العنف والاستماتة»<sup>(١١)</sup>، والتعصب كما تشير أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة يشكل موقفًا أو اتجاهًا ينطوي على التمييز الفردي أو الجماعي للتفكير أو الإدراك أو الشعور والسلوك بشكل إيجابي أو سلبي تجاه جماعة أخرى أو أي من أفرانها.

والأساس في التعصب، وفقًا للمصطلح الفرنسي، هو الحكم المسبق Pre-judging دون التحقيق في أسباب هذا الحكم تجاه جماعة أخرى ككل، أو تجاه كل فرد من أفرانها منفصلين<sup>(١٢)</sup>.

وفي هذا السياق يرى كل من «جورج سمبسون» و«هيلتون بينجر» Yinger, M. Simbion and I.E.G أن التعصب، سواء أكان سلبيًا أم إيجابيًا، هو موقف عاطفي ومياري تجاه جماعة من الناس، وبالتالي فإن التعصب لا ينطوي على حكم مسبق فحسب، وإنما ينطوي أيضًا على سوء هذا الحكم<sup>(١٣)</sup>.

ويعرف التعصب الديني بأنه حالة «من التزمت وألغى في الجحش والتعصب الضيق الأخرى بعقيدة أو فكرة دينية، مما يؤدي إلى الاستخفاف بآراء ومعتقدات الآخرين، ومعارفها والصراع ضدها وحشد الذين يحملونها، وهي حالة مرضية على المستوى الفردي والجماعي تدفع إلى سلوكية تتصف بالرسونة والتطرف والبعد عن العقل والاستهانة بالآخرين ومعتقداتهم، وكثيرًا ما يؤدي التعصب الديني إلى شق وحدة الأمة وإنكار الحقوق الاجتماعية والسياسية للفئات الأخرى، وهدم البنى الاجتماعية، ولعل في تعصب الصحابة مثلاً على ما يتضمنه التعصب الديني من اقتتال وعدوان، وفي تعصب الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا ما يشير إلى كونه عاملاً هداماً، وقد اتجهت جميع التيارات التحررية في العصر الحديث إلى إدانة التعصب الديني ومعارضته»<sup>(١٤)</sup>.

ويمكن أن تسهم عدة عناصر في تشكيل مشاعر التعصب، وتشمل هذه العناصر: التفاضل الأفكار الدينية، الخوف من الغرباء، التشدد في القومية. وقد ينشأ التعصب عندما نخش مجموعة ما أن يعرّفها تناقض مجموعة أخرى من الهوية والمزايا والقوة والسياسة، أو الفرص الاقتصادية. وقد أسهمت الأفكار الدينية، ولا سيما عدم التسامح مع الجماعات التي تعتق دينًا مغايرًا، في تأسيس التعصب العرقي والظلمي<sup>(١٥)</sup>.

## إشكاليات التعصب في العالم والوطن العربي

ما زالت مشكلات التعصب العنصري بأشكاله المختلفة تشهد نموا كبيرا، وثقافتها مستمرة في المستوى الإنساني، فهناك ملايين الأفراد الذين يجدون مصيرهم تحت تأثير الغارات والإبادة الجماعية

والحروب والطائفية والمجازر السياسية. ويمكن لنا في هذا السياق أن نشير إلى وضعية الحروب الأهلية والطائفية والعرقية والحزبية في كثير من بلدان العالم مثل: كوسوفو ووزاير والشييان والكونغو والسودان والجزائر وهي الصومال، فالحروب التي تأخذ من حيث المظهر اشكالا دينية طائفية وعرقية تنتشر في بقاع واسعة من العالم، وتشكل تهديدا متواصلا للحياة البشرية، ويضاف إلى ذلك كله موجة التعصب العرقي التي تجد لها مكننا في البلدان الغربية اليوم، والتي تهدد الملايين من البشر والأطفال في العالم.

فالسلمة، هي مجتمعاتنا العربية، لم توفق في خلق الاندماج الاجتماعي بين فئات المجتمع، بل كانت تساعد أحيانا في خلق العزلة والتعصب والتباين بين الجماعات، والمزق يتجسد في عدم قدرة السلطة على خلق نموذج وطني يوحد بين الجماعات الفرعية، التي أصبحت تحظى أمنا للفرد الذي ينتمي إليها في ظل غياب أمن المجتمع والدولة، فأعضاء الجماعة الفرعية تعانق بقوة روابطها وبدرجة عالية من الانغلاق بحيث تفقد أي درجة عالية من الفرجسية<sup>(1)</sup>. وفي هذا المسار يمكننا استعراض مجموعة من الجوانب التي تجسد الإشكالية المسببة للتعصب في الوطن العربي<sup>(2)</sup>.

أولا: بنية العائلة العربية: بالرغم من حدوث كثير من التغيرات الاقتصادية في الوطن العربي، إلا أن هذه التغيرات لم تؤثر بشكل فعال في بنية الأسرة العربية (...). فبأصبحت الأسرة العربية تحتوي على عناصر ثقافية متباينة للتعبير ومناخية له.

ثانيا: البنية الدينية: استلزمات البنية الدينية التقليدية للحفاظ على استمراريتها وأصبحت تسيطر على معالم الحياة في المجتمع العربي، والحالة اللبنانية تشكل لنا خير دليل. والدولة مارست دورا كبيرا في تطوير المؤسسة الدينية الأسوقية لتحقيق استمرارية وجودها وحماية مصالحها.

ثالثا: البنية السياسية: بالرغم من حدوث تغيرات في البنية السياسية العربية: حيث أدخل كثير من الدول العربية دساتير حديثة، إلا أن جوهر السلطة السياسية ما زال تقليديا، فالأبوية والعائلية تظلان سمة أساسية في بنية السياسة العربية.

رابعا: البنية الاقتصادية: لم تعجز السياسات الاقتصادية العربية عن حماية اقتصادياتها التقليدية فحسب بل عملت على تعظيمها، ويضاف إلى ذلك سوء توزيع الدخل بين فئات المجتمع (...). مما أدى إلى ترسيخ وتثبيت البنية التقليدية للمجتمع العربي<sup>(3)</sup>.



فالدولة بممارستها، البنية على التوازنات والولاءات لا على الكفاءات، فبعد، وبشكل ضعيف، تأكيد ممارسات التعصب عبر ما يسمى توزيع الوظائف الحساسة، أو الوظائف السياسية، وليس من الضروري أن يكون تعصبا مطلقا، أو تفرقة مطلقة، وإنما لاحظنا أن كل الجماعات الأخلاقية، تلاحظ أدنى التفاسير، عندما يشكل، مثلا، مجلس وزراء، أو جوهنا معين أفراد هي مناصب معينة حساسة، مثل: الأمن، الدفاع، الإعلام... إلخ، فهي تستشعرها إذا كان في هذا التعيين تكافؤ لفرص، أو تجاوز، أو تحيز، وهذه مسألة لا يتحدث عنها الناس علانية أو على صفحات الجرائد<sup>(1)</sup>.

### الخلفيات التربوية للتعصب

هناك دلائل عديدة، وإن كانت غير موثقة بدراسات علمية بعد، تشير إلى أن المؤسسة التربوية في عدد من الأقطار العربية قد التفتت جريئة «التعصب، الديني أو العرقي، وهذا معناه

بداية التوافق والتشفاق في المجتمع لعدة أجيال قادمة من خلال آلية إعادة الإنتاج الثقافي - الاجتماعي - النفسي، والكارثة هي أن المؤسسة التربوية بدلا من أن تساعد المجتمع العربي على التواجهة العقلانية مع مشكلاته وتحدياته فإنها تعضف مشكلاته وتحديات جديدة، أي أنها أصبحت بعد ذلك مشكلة جديدة.

فالتعصب ينتقل من جيل إلى جيل، ومن التفكير إلى الشعور، إذ يعلم كثير من الأبناء، التعصب من آبائهم وأساتذتهم، وهي المجتمعات التعصبية تجد فيه التعصب ترويضاً لها في إطار المؤسسات والقوانين والعادات، وفي هذا الصدد يلاحظ أن كثيرا من الناس يرفضون مشاعر التعصب التي تعززها مجتمعاتهم.. وقد أدرك علماء الاجتماع احتمال أن يكون بعض الناس أكثر تعصبا من الناس آخرين، ويعتمد هذا الاختلاف على التباينات في طبيعة الفرد، نفسه وتجربته<sup>(2)</sup>.

فالتعصب ينطلق في أعم أحواله من تصورات مسبقة تأخذ طابع نمطية، يصنف فيها الناس إلى فئات اجتماعية ودينية وعرقية تنسب إليها مجموعة من الصفات والخصائص العامة، التي تنسب إلى جميع أفراد الجماعة موضوع التصنيف، وتعود التصورات النمطية إلى تركيبة ثقافية يكتسبها الطفل من محيطه الاجتماعي خلال تثلثه المبكرة، حيث يجري أن تنسب صفات محددة إلى مختلف الفئات الاجتماعية والدينية مثل: الخيانة والقدرة والافتقار والذكاة والبغسة، هذا من جهة السمات السلبية، ويرى بعض المفكرين أن «التصورات النمطية» هي تصورات مشوهة ولا تعبر عن الواقع، حيث هناك دائما قوة قد تكون صغيرة أو كبيرة بين الحقيقة الموضوعية من ناحية، وما ينسب إليه الصور النمطية من ناحية ثانية، ومع ذلك فإن التصورات النمطية شائعة بين الأفراد والجماعات، لأن مثل هذه التصورات تعطي حاملها من مشقة التعامل مع تعقيدات لا حصر لها في الواقع الإنساني والاجتماعي الذي نعيشه وتعيش فيه.

ويشكل اكتساب التصورات النمطية منطلقاً أساسياً لحدوث التعصب، وهي توجد في أصوله، وقد تتلوع هذه التصورات لتصب إلى جماعات قومية أو دينية أو طائفية أو عرقية، بحيث إنه بمجرد مصادفة أي فرد منها، يقوم حامل التصور النمطي بتعميم الصفات المتضمنة في هذه التصورات بشكل عفوي، كأن يقال إن الإنجليز ينصفون بالبرود، وإن الأمريكيين ينصفون بالسطحية، وعند مصادفة شخص قد لا يمكن معرفة ما إذا كان إنجليزياً أو أمريكياً (للشباب الفيزيقي والفنوي بينهما)، ولكن بمجرد معرفة جنسيته، فإن حامل التصور النمطي يستخرج من حاسوبه العقلي كل الصفات الأخرى (غير المحسوسة)، التي تعلم إصاقتها بجماعة هذا الشخص، ويكرر ويشعر نحوه طبقاً لهذه الصفات، والتعصب بما يرمقه من تصورات نمطية هو شيء مكتسب يتعلمه الأطفال من الكبار من خلال المات المتضمنة الاجتماعية، ولا سيما في مرحلة الطفولة، ولشك عدة التعصب أو ضعف وفقاً لمجموعة من التفاعلات الثقافية والفردية التي تنمي التعصب وترعاها.

وتأخذ العوامل الثقافية أهمية كبيرة في تنمية التعصب: فبعض الأيديولوجيات المعاصرة أو الضمنية تعمل على بناء التعصب ضد بعض الجماعات الإنسانية، فكثير من الأيديولوجيات العنصرية تستند إلى إلهابات علمية (مثل أن أحد الأجناس أفضل بيولوجياً من الأجناس الأخرى)، أو تاريخية (التشكيك في الدور السياسي لجماعة معينة، أو إلغاء المسؤولية عليها من نكبات أو هزائم سابقة)، الأيديولوجيات التي تكون التعصب وتغذي عليه عبرات ووجهة، هي شأنها شأن «التصورات النمطية» (Stereotypes)، هذه الرؤى الأيديولوجية تشوه الواقع بمختلف تجلياته التاريخية والمعاصرة.

في مقالة له حول الخطوة الأخلاقية من منظور الدين والعلم، يرى عبدالعزيز كامل أن التربية في الأسرة العربية تعني قيم التعصب العرقي والطائفي والذهبي والديني وهي قيم تقرس جذورها في أجواء الأسرة والمجتمع ويتفلسفها الطفل مع سمات العبادات اليومية وعواطفها<sup>(1)</sup>، وفي هذا المجال ينيه الباحث إلى قضية قلما يشار إليها في الأدبيات التربوية، وهي أن القيم التي تقربها الأسرة العربية هي قيم تسلطية تتنافى مع مفومات الوجود الإنساني، فحداً يدين للحرية والفعل الديمقراطي الحر مع قيم الطائفية والعشائرية، ليست هي قيم الديمقراطية والموث والعدم، ليست هي القيم التي تخرج الإنسان من دائرة إنسانيته؟ فالأسر التي تعمل على تعزيز قيم الطائفية والتبعية والعرقية والتعصب بمختلف أشكاله تدعو إلى الموت والعبودية والعدم، وبهذا المعنى فالترية في الأسرة لا تقتل في الطفل مفومات إنسانيته ووجوده الإنساني فحسب بل تجعل منه جلاً لا يرحم، قد يأخذ أقرب الناس إليه بسيفه ومضغته لا يمكن لنا أن نقول بأن معازير الجزائر هي نتاج لصورة هذا الإنسان الذي أنتجته تربية العبودية التي لا ترحم، فثقلت في جزاري اليوم طفولة الأسر وحولتهم إلى مجرد وحوش كاسرة، تثقل تعطشا إلى الدم، وتعيث بالوفاة، وتلهو حبا بالدمار.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: كيف يمكن لنا تعزيز قيم التسامح في مواجهة التعصب في مجتمعات لم تتجذر فيها تقاليد ديمقراطية، مثل التمثيل الشعبي، ومشاركة المجتمع المدني في عملية اتخاذ القرار؟ فالمجتمع العربي يشكو من غياب القوي الثلاثية التي تشكل معالم النظام الديمقراطي، والثلاثة هي:

١. الأرباط الفعلي بين ميادين حقوق الإنسان.

٢. الأطر التنظيمية للمعدية السياسية.

٣. المشاركة السياسية كممارسة عملية للحقوق والحريات<sup>(١٤)</sup>.

وفي هذا الصدد يمكن العودة إلى نتائج الندوة التي أعتها المعهد العربي لحقوق الإنسان في تونس. ندوة كان موضوعها «التربية على حقوق الإنسان والديمقراطية»، في فبراير ١٩٩٢، وهي الأولى من نوعها في الوطن العربي. حيث قدمت في الندوة الدراسة التي أجراها المعهد حول واقع التربية على حقوق الإنسان في الدول العربية، شملت وزارات التربية في إحدى وعشرين دولة عربية، ومائتي مؤسسة للتعليم العالي، وخمسين منظمة عربية غير حكومية تعمل في مجال حقوق الإنسان. وكانت نتائج الاستبيان بشكل مختصر على النحو التالي:

١- غياب إستراتيجية عربية في مجال التربية لتأسيس للتسامح وحقوق الإنسان.

وإن هناك خلطاً بين مفهوم الخطأ، والبدن العامة لحقوق الإنسان.

٢- غياب تشريعات خاصة بالتربية على التسامح وحقوق الإنسان.

٣- تضر بعض البلدان بعدم الأخذ بحقوق الإنسان لتجاوزها - حسب رأيها -

والشريعة الإسلامية - وهي ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل والنقاش، وذلك

بالنظر لتعدد القراءات والاهتادات من بلد عربي إلى آخر في هذا المجال<sup>(١٥)</sup>.

ومن يتأمل بعقل في مناهج الحياة المدرسية في بعض البلدان العربية يجد بأن هذه المناهج متشعبة بفهم العنف والدم والقتل، فالتاريخ العباسي والأموي الذي يدرس في المرحلة الإعدادية في بعض البلدان العربية يبرز الجانب الدموي في هذا التاريخ<sup>(١٦)</sup>. فواضمو مقدرات هذا المور لا يجدون في التاريخ العباسي غير القضايا الدرامية الدموية التي كانت تقع بين الحكام وأخوانهم وأبنائهم في صراع مجنون دموي من أجل الوصول إلى الحكم والسلطة. وهكذا تتم عملية درس قيم القدر والدم والعنف في نفوس الطلاب والأطفال في وقت مبكر من تاريخ نفوسهم النفسي والتربوي. ألم يكن لهذه التربية التي كانت تصدر على تلقين كل طفل خطبة العجاج من الرؤوس التي أبنت وحان قطاعاتها، علاقة من نوع ما بالارتداد الصول والتمزيق عن ممارسة التجربة الديمقراطية والفكر الصالح لها<sup>(١٧)</sup>.

وتجدر الإشارة في هذا السياق أيضا إلى بعض المعارضات التعصبية لبعض رجال الدين<sup>(١٨)</sup> الذين يكرسون وقتهم لقرص القيم الطائفية والتمهيد الطائفي في نفوس المؤمنين

والمسلمين، سواء أكان هذا عن قصد أو عن حسن نية؛ فرائحة بعض الخطب الدينية لا تظلم - في كثير من الأحيان - من بعض التلميحات أو التصريحات التي تحرض على الإحساس بالتمييز وتعزيز الحس الطائفي بين طوائف المسلمين، أو بين المسلمين وغيرهم من الطوائف الدينية الأخرى.

إن بعض الكتب والروايات التي تأخذ لموسى أديبة بينما هي تبت في الأصل بعض السموم القائلة على تعزيز مفاهيم وقيم الإحساس الطائفي بين الطوائف الإسلامية. وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى بعض أعمال الكتاب العرب الذين قدعوا روايات تأخذ طابعا أدبيا بينما هي تعمل على تعزيز العمق الطائفي والعنصري بين فئات الشباب في الوطن العربي<sup>(32)</sup>.

فالتعصب يمثل سمة بارزة في المجتمع العربي، ولم يعد سمة شخصية للإنسان التقليدي، وحس الإنسان الحديث في المجتمع العربي يعتاز بهذه السمة<sup>(33)</sup>. وفي هذا الصدد يقول سعد الدين إبراهيم في وصفه للوضع التربوي التي تعزز مفاهيم التمييز العنصري والإباحية الدموية في الخليج العربي: «إن جيلا كاملا في بعض دول منطقتنا الآن عاش فترة تكوينه النفسي والعقلي في ظل مفاهيم تبجح القتل والتدمير، ولا ترى السلام طريقة حياة ومنهج حياة، ومن شب على شيء شاب عليه، وهذه قاعدة منطقية<sup>(34)</sup>. فالتعصب بما ينطوي عليه من صور نمطية (...) هو الذي اكتسب بقلوب الأطفال من الكوار خلال عملية التنشئة الاجتماعية السائدة في بلدنا» <http://Archivebees.Bakheit.com>

وفي مجال التأكيد على وضعية التشيع بالعرف والتعصب يؤكد قاسم الصراف على هذه الحقيقة بقوله: «إن مفاهيمنا التربوية مشبعة بمفاهيم الحروب والدمار والعداوة والبغضاء، والعنف، والظلم، والكراهية<sup>(35)</sup>».

يقول نيت شيبلات في معرض حديثه عن الحياة الاجتماعية في الأردن: تتمثل سحنة الديموقراطية في أن أجيالا قد تمت تربيتها في أجواء تعصبية غير ديموقراطية؛ فانتقل الفصح إلى الشخصية الإنسانية التي باتت مع الزمن مروضة من أجل البقاء بعيدا عن الاضطهاد<sup>(36)</sup>. والدراسة العربية تسمى إلى (...) إحراز مبدأ الطاعة العمياء والمحافظة على قيم ومعايير المجتمع التي تحافظ على وضعية القهر الاجتماعي، فجزء كبير مما يتعلمه التلميذ ليس له علاقة بمحتويات الدروس، وإنما يقصد به طلب الطاعة المطلقة، وجعل التلميذ يستهلك استهلاكاً سلبياً كل التحيزات الدينية والقيمية والأيدولوجية التي يزرعها أي مجتمع<sup>(37)</sup>.

وفي هذا الخصوص يرى الخطاب أن الحياة الاجتماعية العربية متشعبة بقضاياها التمييز العنصري واستبداد الأقوياء، واضطهاد الأقليات العرقية، وخرق المبادئ

الإنسانية هي المجتمع. وهنا يمكن للتربية أن تؤدي أدوارا غاية في الأهمية والموضوعية. ويمكن دورها في «احترام حقوق الإنسان واحترام حقوق الطفل واحترام حقوق الأقليات والإيمان بالمعادلة الاجتماعية». وهذا يعني على حد تعبير الخطاب «التأكيد على مبدأ التربية الأخلاقية وقيم التسامح بالدرجة الأولى في المدارس والمؤسسات التربوية»<sup>(١٢)</sup>. فالدراسة أداة لإعادة إنتاج الأسر الواقع بكل سلوكياته واختلافاته التعميمية لمصلحة النخبة المهيمنة<sup>(١٣)</sup>.

وفي هذه الأوساط التربوية المستسلطة غالبا ما تسود هذه العلاقات التي تقتصر إلى التسامح والحب والحنان والتسامح والدعم النفسي، والتعزيز والمساندة والتضامن. والحوار بين أطراف العائلة، خاصة بين الآباء والأبناء. وعلى خلاف ذلك كله يسود التناظر العائلي، والتعصب، وتهمين أساليب التسلط والتعنيف والتفصالات الغضب والعدوان وتسود النزعة إلى إيجاد الحلول التربوية عن طريق القوة والقهر. وفي هذا المناخ التسلطي يفرض الآباء على الأبناء أنماط سلوكهم وحركتهم وفعاليتهم، ولا يسمح لهم بإبداء الرأي أو الاعتراض.

وتتبدى وضعية التعصب في صورة أساليب التنشئة الاجتماعية السائدة في المجتمعات العربية، وقبل أن نغول على أهمية التنشئة الاجتماعية وخطورة دورها في عملية بناء الجدار القيمي لحقوق الإنسان والسلام، نترتب علينا ما يلي الذي بدء أن ترصد واقع هذه التنشئة بما تتلوي عليه من ميادين وقيم وأساليب، تعكسها في بناء المنظومة القيمية عند الأطفال والناشئة.

لقد تبين لنا في المستوى التربوي في الوطن العربي كيف يوضع الإنسان في دائرة الاضطراب والجمود من خلال أساليب التنشئة الاجتماعية القسرية، التي تتعلق من التعصب وتصنعه في الآن الواحد: فالتربية العربية الرسمية تناقض حقوق الإنسان وتتناقض مع كل القيم التي تتصل بمعايير السلام والحب والتسامح. هنا تتم عملية إعادة إنتاج القهر والتسلط والعبودية في المجتمع بصورة واضحة.

## الناشئة المعاصرة:

### - نشأة أجنبية -

نشأة دراسة بالغ جوليا 2008 حول الجو التعليمي في جامعة تشيلي وظاهرة انتشار التعصب للجنس الأبيض، عام ١٩٩٢<sup>(١٤)</sup> أن

ظاهرة العنصرية تأخذ أبعادا هائلة في جميع الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في تشيلي، ومن أجل الحد من هذه الظاهرة بصورة علمية يتناول الباحث عينة قوامها ٣٩ مبحوثا، حيث شمل ٥٠ ٪ من ١٢ استاذ جامعي و ١٢ موظفا بالجامعة، و ١٢ طالبا جامعي

وقام الباحث - إضافة إلى ذلك - بإجراء مقابلات مباشرة ومشاهدة، وتسجيل المقابلات الشخصية لدى شخصيات عديدة من أساتذة الجامعة وموظفيها وطلابها.

من أهم النتائج التي أظهرتها هذه الدراسة وجود اتجاهات تعصبية وعنصرية عند الطلاب تجاه الجماعات المخالفين لهم في المستوى الثقافي والعرقي. وفي هذا السياق فإن الطلاب البيض يعانون رؤية تعصبية ومشاعر الكراهية والاحتقار ضد الطلاب السود. ومع أن بعض الطلاب البيض لا يأخذون اتجاهات تعصبية ضد السود، إلا أنهم لا يمتلكون مشاعر إيجابية تجاه الملونين بصورة عامة.

وهي كندا تجدر الإشارة إلى دراسة ياتقي أحمد Djangi Ahmad حول: العنصرية في التعليم العالي في كندا عام 1997<sup>(37)</sup>. أجريت هذه الدراسة على هيئة من طلبة علم النفس بجامعة تورنتو الكندية، وتناولت أبعاد التعصب العنصري الموجود في مؤسسات التعليم العالي. وقد بينت هذه الدراسة أن المؤسسات التربوية تعاني أشكالا مختلفة من التعصب التي عززتها التراكبات الثقافية والتاريخية وغياب القيم الديمقراطية. وقد بينت الدراسة مخاطر الاتجاهات التعصبية في الجامعة والمؤسسات التربوية: فالتعصب يؤدي إلى التفرقة بين الطلبة أنفسهم، ويخلق هذا التعصب في نوعية الاهتمام الذي يلقاه الطلبة من المدرسين، بالإضافة إلى التمييز التعليمي الذي يتجلى في رعاية بعض الطلاب دون الآخرين. وبيّنت الدراسة أن هذه المواقف التمييزية لطلبة وأن آخرين تؤدي إلى إضعاف كفاءة الطلبة الذين يتم تجاهلهم أو عدم الاهتمام بهم. فالمؤسسة التربوية التي يميز فيها الانحياز العنصري تلجأ إلى اختيار أعضاء هيئة التدريس من جنس معين أو فئة معينة. ومن ثم تتقلل هذه النظرة التعصبية إلى إدارة المؤسسة التربوية نفسها<sup>(38)</sup>. وقدعت الدراسة عددا من الاقتراحات والحلول التي تحد من أشكال العنصرية في السياسة التعليمية للمؤسسة التربوية، والتي يمكنها أن تخفف من أشكال التعصب الموجودة لدى أعضاء هيئة التدريس والطلبة أنفسهم. يقول الباحث في هذا الصدد: «إن قضايا التعصب بأشكاله المختلفة أصبحت ظاهرة خطيرة في الكليات والجامعات الغربية، فالتعصب أصبح مشكلة تتضخ معالها بدرجة أكبر مما كانت عليه في فترة الستينيات من القرن العشرين، ومن المؤسف أن المدارس والتعليم لم يستطيعا حتى الآن إزالة آثار التعصب»<sup>(39)</sup>. ويضيف الباحث: «إن التعصب الذي نشأ من مظاهر في المدارس والمؤسسات التربوية يأتي انعكاسا لطبيعة المجتمع، الذي يكرس مظاهر العنصرية والتمييز العنصري»<sup>(40)</sup>.

ومن الحلول التي ناقشتها الدراسة يمكن أن يشار إلى التالي:

- 1- تدريب أعضاء هيئة التدريس وتوجيههم نحو تشجيع الطلبة على قبول بعضهم البعض، وتأكيد أهمية المشاركة والاحترام مهما تكن درجة التباين الثقافي أو العرقي.

٦- توليد اهتمام أعضاء هيئة التدريس بهذه القضية، وتأكيد دورهم الحيوي في السيطرة على مظاهرها.

٧- وضع سياسة واضحة للمؤسسة التربوية تعمل بموجبها على معارضة مختلف أشكال التحصب والتمييز العنصري والتفاخي بين الطلاب.

٨- لتشجيع على تصفية المناهج الدراسية وتلقيتها من مختلف الإشارات التي تبرز القيم التعصبية.

ومن الدراسات المهمة التي تتناول قضية العنف والتحصب هي أن واحد يشار إلى دراسة محمد حسن خانم: «رؤية عينة من المثقفين المصريين لطاهرة العنف: دراسة سيكولوجية»<sup>(٣٧)</sup>. يرى الباحث في سياق دراسته هذه أن التحصب والعنف والإرهاب ظاهرة تفرض نفسها في المجتمع المصري المعاصر.

وانطلاقاً من هذه الملاحظة التوثقت بعض التساؤلات النهجية حول أسباب وخطقيات هذه الظواهر الدسرة في المجتمع. ومن أجل الوصول إلى إجابات علمية حول هذه القضية، حاول الباحث استجواب مواقف المثقفين والمثقفين في المجتمع المصري، واستطلاع اتجاهاتهم نحو هذه القضية. ومن أهم في هذه الدراسة أن العينة في أغلبها من أساتذة الجامعة والمفكرين من سياسيين وقادة أحزاب سياسية ومؤرخين وصحافيين، وقد أسفرت هذه الدراسة عن نتائج بالغة الأهمية ومنها:

■ أكد المبحوثون على أهمية التجهيز التهجيزي بين مفاهيم الإرهاب والعنف والتحصب والمذبذب والمذبذب وتحديد محاور الاتصال والتجانس والانفصال بين هذه المفاهيم.

■ ميّز المبحوثون بين نوعين من العنف، العنف المشروع الذي تمارسه السلطة والمؤسسات المجتمعية وبين العنف غير المشروع الذي تمارسه الجامعة الدينية والمنظمات والأحزاب.

■ يرى أغلب المستفتين أن العنف في مصر لا يعود ولا يفسر بعوامل خارجية، بل يعبر عن الروح الداخلية للتحية الاجتماعية والسياسية في مصر. وهذا يعني أن العنف يولد في رحم المجتمع، وينشأ بين ظهرائه، ويفسر بمنظومة من العوامل الداخلية لا الخارجية.

■ أكد المستفتون على أهمية المشكلات الاجتماعية في توليد ظاهرة العنف مثل: الارتفاع في الأسعار والتضخم والبطالة وغياب الديمقراطية.

■ وأعلن المستفتون عن أهمية التجربة الديمقراطية وإيجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية المزمنة في معاصرة ظاهرة العنف وتصنيف وجودها.

ومن الدراسات المهمة في هذا المجال دراسة سينها Sinha و أوبادهايا UPADHYA حول الاتجاهات العنصرية للشباب الهندي نحو الصين قبل وهي أثناء النزاع الهندي الصيني المسلح حول الحدود المشتركة بينهما<sup>(١٢٧)</sup>. ومن نتائج الدراسة أن اتجاهات الشباب الهندي نحو الصينيين كانت إيجابية قبل الصراع المسلح، ومن ثم تحولت إلى سلبية بعده.

دراسة كاتس Kats وبرالي BRALY حول: اتجاهات طلاب جامعة برنستون نحو بعض الشعوب: أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت مائة طالب من طلاب جامعة برنستون، وطلب منهم تحديد السمات التي تناسب بعض الشعوب ولا سيما الأمريكيين والصينيين والإنجليز...الخ وأظهرت الدراسة النتائج التالية:

■ الألمان: علميون - مجنون.

■ اليهود مرتزقة - مجنون.

■ الزنوج: كسالى - خرافيون - مزحون.

■ الإيطاليون: حقانون - مندفعون.

■ الإنجليز: أدكياء - تقليديون.

والهم في هذه النتائج تجانس آراء الطلاب في إطلاق هذه الصفات، وهذا يعني أن هذه الآراء نابعة من صورة نموزجية سائدة في المجتمع حول هذه الشعوب والآراء النموزجية حول شعوب العالم<sup>(١٢٨)</sup>.

وتعد دراسة بوجاردس BOGARDUS من أهم وأشهر الدراسات التي تناولت قضية التعصب والعلاقات بين الشعوب<sup>(١٢٩)</sup>، حيث قام بتطبيق مقياسه التعصبي المشهور على عينة كبيرة بلغت ١٧٢٥ من الأمريكيين وبينت النتائج ما يلي:

	الإنجليز	الألمان	يهود	زنوج
أقربهم	٢٩٤	٢٥٤	٢٨	٢١
أصدقهم	٢٩٧	٢٦٧	٢٢٢	٢٩
أمكنهم	٢٩٧	٢٧٩	٢٢٦	٢١٢
أقربهم	٢٩٦	٢٨٧	٢٥٤	٢٥٧

ومن الطريف أن بوجاردس أعاد تطبيق هذا المقياس بعد عشرين عاماً، في عام ١٩٤٠، ولم يجد أي تغيير في اتجاهات الأمريكيين نحو هذه الشعوب<sup>(١٣٠)</sup>.



## - دراسة مختصرة:

● دراسة سعد الدين إبراهيم: حول التعصب والتعدي الجديد للتربية في الوطن العربي<sup>(11)</sup>. تجلت هذه الدراسة في إشكالية العلاقة بين التربية والتعصب، وبيّنت أن التربية في الوطن العربي تعزز الاتجاهات التعصبية، فالتربية العربية، ولا سيما في مستوى الأسرة العربية، تعزز القيم السلبية والأفكار الخاصة عن الفئات الاجتماعية والوطنية والعرقية. وتتميز تصورات نعتية سلبية عن الآخر بصورة غير عقلانية. وبيّنت الدراسة جملة من العوامل الثقافية التي تغذي التعصب في الوطن العربي، ولا سيما مؤسسات الدولة القطرية، التي تعمل على تغذية الروح التعصبية في المجتمعات العربية. وقد خلصت الدراسة إلى التأكيد على أهمية مواجهة التعصب وتحييده ومعاصلته وإطفاء جذوره في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والتربوية.

● دراسة سعد عبد الرحمن: حول عملية التطبيع الاجتماعي وإزمات التحامل والتعصب في مجتمعاتنا العربية المعاصرة<sup>(12)</sup>.

يستلجيب الباحث قضية التعصب ومواجهة دورها في ضوء الخطابات النفسية والاجتماعية لهذه الظاهرة. وفي نسق هذه الدراسة يحاول الباحث أن يوصل بين ظاهرة التعصب ومجموعة من الظواهر الاجتماعية التي جالستها مثل: التطرف والتمزق العرقية والإرهاب والعنف والعدوان. وفي سياق النتائج يؤكد الباحث على الأصول الاجتماعية لهذه الظاهرة مؤكداً أن التعصب ليس نظرياً بل اجتماعياً. ومن ثم يتناول الباحث في العوامل التربوية التي تعزز هذه الظاهرة وتنتجها في الآن الواحد. وفي هذا الخصوص يعلن الباحث أن الأسرة في الوطن العربي تلعب دوراً في إنتاج هذه الظواهر التعصبية، مبيّناً خطرهما على المجتمع والحياة الاجتماعية.

● دراسة السيد سلامة الخميمسي: حول تربية التسامح الفكري أو نحو صيغة تربوية مقترحة لمواجهة التطرف<sup>(13)</sup>. تبين هذه الدراسة أن التعصب يشكل إحدى أخطر المشكلات التي تواجه الشباب العربي، وهذه المشكلة تحتاج إلى جهود تربوية حضارية بعيدة المدى تربط بالجهود الإنمائية العامة للمجتمع.

والباحث ينطلق من ملاحظاته الخاصة بانتشار التعصب الفكري والديني في المجتمع العربي، ولا سيما عند فئة الشباب، وعبر التحليل يبين الباحث أن مشكلة التعصب والتطرف في مجتمعاتنا العربية الإسلامية بحاجة إلى تكثيف عن قصور وعجز الأنظمة التربوية والتعليمية قبل غيرها من الأنظمة المجتمعية الأخرى. وعدد الباحث عدة نقاط وعوامل أساسية تدخل في تكوين ظاهرة التعصب في مصر وهي:

١- الحنجر على تكفير الآخرين وفرض الوصاية عليهم باسم الدين، وفرض العقوبة عليهم.

٢- انتشار ظاهرة العنف الديني وتكفير الآخرين.

٣- شيوخ الأناط، سلوكية تتسم بالعنف في مجال الأسرة والمدرسة.

٤- التطرف: مظهر من مظاهر التعصب للرأي، وفي المقابل يقترح الباحث مشروعا لربوياً يؤكد فيه التسامح ويرفض التعصب والتطرف.

● دراسة حسين سرمك حسن وعقيد محمد سعيد رؤوف: قياس التعصب لدى عينة من طلاب الجامعة. هدفت دراسة حسين سرمك حسن وعقيد محمد سعيد رؤوف، التي كرست لدراسة مظاهر التعصب لدى طلاب جامعة القاهرة، إلى قياس درجة التعصب لدى عينة من طلبة الجامعة باستخدام مقياس التعصب المستتبع من اختبار الشخصية متعدد الأوجه. وأجريت الدراسة على عينة بلغت ١٢٢ طالباً وطالبة في جامعة القاهرة، تراوحت أعمارهم بين ١٨ - ٢٢ سنة، وبينت هذه الدراسة ارتفاع درجة التعصب بين طلاب جامعة القاهرة واتضح أن ٥٤.١% من الإناث و١١.٨% من الذكور في العينة يأخذون موقفهم في أعلى مراتب التعصب في المقياس المذكور<sup>(١٤)</sup>.

● دراسة عبدالله طيفة والحسين عبدالنعم: اتجاهات طلاب الجامعة نحو بعض شعوب العالم<sup>(١٥)</sup>. هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن اتجاهات طلاب الجامعة من السودانيين والصوريين نحو بعض شعوب العالم، وقد أجريت الدراسة على عينة بلغت ٦٥١ طالباً وطالبة بمرحلة التعليم الجامعي من الطلاب السودانيين والصوريين، الذين يدرسون بكلية الآداب في جامعة القاهرة، ومن النتائج التي خرجت بها الدراسة:

■ عدم وجود فروق جوهرية بين الطلبة والطالبات من حيث الاتجاه نحو ٦١ شعباً من الشعوب العالمية.

■ أغلبية الطلاب السودانيين ٨٩.٢% يوجد لديهم اتجاه إيجابي نحو الشعب الصوري.

■ اتصف اتجاه أفراد العينة نحو الشعوب الأفريقية بالحياد دون السلب أو الإيجاب.

■ التتم اتجاه أفراد العينة بالإيجابية نحو الشعوب العربية والإسلامية.

■ إن أكثر الشعوب مكرهية بالنسبة لأفراد العينة هو الشعب الإسرائيلي وأكثرها حباً هو الشعب الفلسطيني والشعب الياباني.

● دراسة معتر سيد عبدالله حول التعصب وعلاقته ببعض الأنماط السلوكية<sup>(١٦)</sup>. أجريت هذه الدراسة على عينة من ٤١٩ من الفارسيين بكلية الآداب جامعة القاهرة، واعتمدت الدراسة مقياساً للتعصب أعدّه الباحث ويتكون من ٤٠ بنداً، وبينت الدراسة وجود عوامل وأبعاد نوعية لسملة التعصب، كما كشفت عن تجانس كبير بين عوامل

مجموعة الذكور والإناث، وبيّنت بالتالي وجود ارتباط كبير موجب بين سمة التعصب ونمط السلوك الانفعالي عند أفراد العينة.

- دراسة معتر سيد عبد الله حول الاتجاهات التعصبية، أهم أشكالها ومدى عموميتها<sup>(١٧)</sup>. أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت ١٠٠ طالب وطالبة من طلاب جامعتي القاهرة وعين شمس عام ١٩٩٠، ومن النتائج التي وصلت إليها هي:
  - أكدت عمومية مجال الاتجاهات التعصبية عند طلاب الجامعة.
  - إن اتجاه المحافظة يمثل محكاً جيداً للاتجاهات التعصبية في إطار الثقافة المصرية.

### - دراسات كويتية:

- هدفت دراسة عزت سيد إسماعيل حول سيكولوجيا التطرف والإرهاب التي أجريت في المجتمع الكويتي عام ١٩٩٦ إلى استجلاء آراء مهينة من المواطنين حول قضايا التطرف والتعصب<sup>(١٨)</sup>. وقد أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت ٢٢٧ فرداً من الراشدين ومن مستويات ثقافية متنوعة ومن مختلف شرائح المجتمع الكويتي. وهذه الدراسة تقراً واقع التعصب بدقة متناهية مع أنها تستخدم مفهوم التطرف الذي يكافئ مفهوم التعصب ويعبر عنه كما سيوضح من خلال النتائج التي أظهرتها الدراسة. ومن النتائج المهمة التي أفرزتها الدراسة:

١- ٨٩% من أفراد العينة يرون أن الرغبة في التدمير والقتل من مظاهر التطرف والإرهابين.

٢- ٧٤% يعتقدون أن التطرف شعبي مريض نفسي.

٣- ٧٣% يرون أن المتطرفين ينساقون لقياداتهم دون تفكير.

٤- ٥٨% يرون أن التطرف يعمل عقلية قديمة بالية.

٥- ٨٤% يرون أن الإسلام ليس بحاجة إلى التطرف والتعصب.

٦- ٨٩% يرون أن التطرف، والتعصب، يعارضان مع الطبيعة السمحاء للإسلام.

٧- ٧٦% منهم يرون أن التطرف الديني ظاهرة تنطفي وراء الدين.

وهذه النتائج تبين موقفاً رافضاً للتعصب وقيمه واتجاهاته وخطاباته من قبل أفراد العينة في المجتمع الكويتي المعاصر.

- دراسة فاسم الصراف: المفاهيم التربوية المتعلقة بالتسامح في مناهج المرحلة الابتدائية<sup>(١٩)</sup>. يكرس بحث فاسم الصراف نفسه لاستقصاء قيم التسامح في مناهج المرحلة الابتدائية بدولة الكويت عام ١٩٩٥. وقد اعتمد الباحث منهج تحليل المضمون حيث شمل التحليل مقررات اللغة العربية والتربية الإسلامية والمواد الاجتماعية، وتم استقصاء مفاهيم التسامح، والتعاون،

والصادقة، والاحترام والود - وقد بينت الدراسة - في النهاية - أن قيم التسامح ما زالت دون المستوى المطلوب لحضورها، حيث جاءت في المرتبة الخامسة، بينما احتلت كلمة الحبة الرتبة الأولى خلفها الصادقة ثم التعاون ثم الود في المرتبة الرابعة.

### - منهج الدراسة:

تجرى الدراسة وفقاً لمنهج البحث الوصفي بما يشتمل عليه هذا المنهج من خطوات علمية ومنهجية، وغني عن البيان أن هذا المنهج يستوجب لطبيعة القضية المطروحة التي تحتاج إلى خطة ميدانية، يتم وفقاً لها تحديد الفرضيات، ويمكن من اختبار الفرضيات والتساؤلات وفقاً لمعطيات البحث وعلى أساس الاختبارات الاحصائية القادرة على الفصل بين مختلف الجوانب الإشكالية للقضية المدروسة.

### - أداة الدراسة:

أعدت استبانة البحث بناء على عدد من القراءات المنهجية حول قضايا التعصب والفرقات العرقية وحقوق الإنسان، اشتملت أداة الدراسة على صحيفة المعلومات الأساسية وعلى عدد من الأسئلة الأساسية المتعلقة بمواقف الطلاب وآرائهم حول التعصب في الكويت والوطن العربي، واشتمل المقياس على طائفتين من الأسئلة: تتضمن الطائفة الأولى ستة أسئلة تغطي ستة أشكال من الميول التعصبية التي تخص المجتمع الكويتي، بينما تتضمن الطائفة الثانية الأسئلة الستة نفسها في مستوى الوطن العربي - والفرقات التي تغطيها المجموعتان هي: التعصب الاجتماعي، والتعصب الديني، والتعصب القبلي، والتعصب الطائفي، والتعصب ضد الوافدين فيما يخص الكويت، يقابله التعصب الإقليمي فيما يخص الوطن العربي، وأخيراً التعصب العائلي.

### - صحة الأداة Validity of the scale:

تم حساب الصدق الخارجي وفقاً لآراء عدد من المحكمين في كلية التربية وهي كلية الآداب قسم علم الاجتماع في جامعة الكويت، وتم تعديلها وفقاً للملاحظات التي أبدتها السادة المحكمين. ومن ثم حُسِبَ صدق المضمون أو صدق المحتوى Content Validity وفقاً لمصفوفة الارتباط والاتساق الداخلي للفقرات، وقد بينت مصفوفة الارتباط الخاصة بالأداة أن الارتباط بين مختلف العبارات دال بصورة كاملة  $0.921$ ، والضح أن الارتباط قد تحقق في مستوى  $0.01$  - بصورة كلية في مستوى المقياس الخاص بالمجتمع الكويتي والمجتمعات العربية. وهذه النتيجة تدل على درجة عالية من صدق الاتساق الداخلي لبنود المقياس كما بين الجنولان رقمي (١) و(٢).

جدول رقم (١): مصفوفة الترابط بين بنود الأداة

		١	٢	٣	٤	٥
١	تعصب اجتماعي	١				
٢	تعصب ديني	٠,٩٠ (**)				
٣	تعصب قبلي	٠,٣١ (**)	٠,٣٤ (**)			
٤	تعصب طائفي	٠,٢٠ (**)	٠,٩٤ (**)	٠,٨٦ (**)		
٥	تعصب ضد الوافدين	٠,٩٥ (**)	٠,٩٦ (**)	٠,٧٩ (**)	٠,٣٦ (**)	
٦	تعصب عائلي	٠,٣٠ (**)	٠,١٠ (**)	٠,٣٥ (**)	٠,٨٦ (**)	٠,٩٢ (**)

(\*) دالة مستوى ٠,٠٥ (\*\*) دالة في مستوى ٠

جدول رقم (٢): مصفوفة الترابط بين بنود الأداة فيما يخص المجتمعات العربية

		١	٢	٣	٤	٥
١	تعصب اجتماعي	١				
٢	تعصب ديني	٠,٩٤ (**)				
٣	تعصب قبلي	٠,٣١ (**)	٠,٣٤ (**)			
٤	تعصب طائفي	٠,٢٠ (**)	٠,٩٤ (**)	٠,٨٦ (**)		
٥	تعصب ضد الوافدين	٠,٩٥ (**)	٠,٩٦ (**)	٠,٧٩ (**)	٠,٣٦ (**)	
٦	تعصب عائلي	٠,٣٠ (**)	٠,١٠ (**)	٠,٣٥ (**)	٠,٨٦ (**)	٠,٩٢ (**)

(\*) دالة في مستوى ٠,٠٥ (\*\*) دالة في مستوى ٠

### - ثبات الأداة Reliability of the scale :

وُظِّفَت طريقتان لحساب ثبات الأداة:

أولاً، تم حساب معامل الثبات وفقاً لمعادلة كرونباخ ألفا Cronbach Alpha لحساب الثبات، وتعد هذه الطريقة هي الأفضل والأكثر شيوعاً لحساب ثبات (Nunnally, 1978).<sup>(١٢)</sup> ويعرف معامل الثبات:

$$\text{ألفا} = \frac{S}{(S + (1 - n))} \times \left( \frac{\text{مجموع } S^2}{n^2} \right)$$

وقد بلغ معامل الثبات للأداة بصورتها الكلية ٠,٦٨٠٣، وهذه النتيجة تشير إلى معامل ثبات عالٍ مناسب.

تاكياً، ومن ثم تم حساب الفئات وفقاً للمهجية التجزئة Split-half، وتطلق هذه المهجية من تقسيم مفردات القياس إلى نصفين، ومن ثم إجراء قياس معامل الترابط بينهما، وقد قُسمت المفردات إلى مجموعتين إحداهما تتوافق مع الأرقام الفردية والثانية مع الأرقام الزوجية، ومن هذا التطلق تم حساب معامل الترابط بين بنود النصف الأول والثاني للقياس حيث بلغ معامل الترابط 0.86، وفقاً لقياس سيبرمان براون، وهذا يعال لوتباطاً عالياً يدل على ثبات الأداة المستخدمة بدرجة عالية (الترابط بين نصفي القياس دال في مستوى 0.01، كما هو مبين في رقم (3)).

جدول رقم (3): يوضح معامل الترابط بين نصفي القياس

معامل الترابط بين نصفي القياس		
٢	١	النصف الأول
		النصف الثاني
١	0.86 (**)	
(**) دالة في مستوى 0.01		

### هيئة البحث

بدأت إجراءات الدراسة في الفصل الدراسي الثاني عام 1439هـ، وتم اختيار هيئة البحث وفقاً للمهجية العينة بالحصة، وتعد هذه الهيئة مناسبة جداً لأغراض البحث الحالي، حيث روعي في هذه الهيئة أن تشمل أغلب الكليات الجامعية (37)، ومن أجل اختيار أفراد هذه الهيئة تم تقسيم المجموع الإحصائي للفروس تم التأكيد على أهمية حجم العينة حيث بلغت 771 طالباً ومعلمة، وفي هذا الصدد تؤكد الأبحاث الإحصائية بأنه كلما ازداد حجم العينة قل الخطأ المعياري التقديري، ولإحداث قدرتها على تمثيل المجتمع الدراسة.

ويضاف إلى ذلك، أن الهيئة التي نحن بصددھا تتجاسم - إلى حد كبير - مع خصائص المجتمع الجامعي للفروس، حيث بلغ متوسط أعمار أفراد الهيئة 20.16، والوسيط 20 عاماً، بينما بلغ المتوسط 19 عاماً، وهذه هي تقريباً مواصفات المجتمع الأصلي للهيئة، وقد بلغ عدد الذكور 397 طالباً بنسبة 51.4 ٪، وبلغ عدد الطالبات الإناث 374 طالبة بنسبة 48.6 ٪، انظر الجدول رقم (4).

جدول رقم (4): توزيع أفراد العينة وفقاً للتغيري الجنس والكلية

الكلية العلمية	عدد	ذكور	إناث	مجموع
حقوق وتجارة	نسبة	51.4	26.0	24.4
	عدد	87	99	186
علوم	نسبة	51.4	26.0	24.4
	عدد	87	99	186
هندسة	نسبة	51.4	26.0	24.4
	عدد	87	99	186
طب وصيدلة	نسبة	51.4	26.0	24.4
	عدد	87	99	186
تربية وآداب وشريعة	نسبة	51.4	26.0	24.4
	عدد	87	99	186
مجموع	عدد	397	374	771
	نسبة	51.4	26.0	24.4

## نتائج الدراسة

### مفهوم التعصب وفقاً لأفراد العينة:

اقتضت منهجية البحث وقبل مرحلة توزيع الاستبانة استقراء حدود مفهوم التعصب كما يشهد في وعي أفراد العينة وهذه

الخطوة المنهجية كانت ضرورية للتأكد من قدرة أفراد العينة على التعامل بمصداقية مع الأسئلة التي تتعلق بمفهوم التعصب: إذ لا يمكن أن يعول على نتائج مثل هذه الدراسة ما لم يحدد مفهوم التعصب عند أفراد العينة. والميزال الذي طرح نفسه في هذا المستوى هو: هل يعني أفراد العينة حقاً دلالة مفهوم التعصب؟ وهل يدركون جوهر هذا المفهوم وأبعاده وخطائياته؟ وهل يتقارب تصوراتهم لهذا المفهوم حدود التصورات العلمية المطروحة؟

من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة واختيار حدودها تم تصميم استبانة أولية تتضمن مجموعة من الأسئلة التي يطلب فيها من الطلاب الجامعيين تعريف التعصب بصورة عامة، وعن ثم تقديم تعريفات للتعصب القبلي والطائفي والديني والسياسي والاجتماعي والقومي، وتقديم أمثلة واضحة لكل مفهوم من مفاهيم التعصب المطروحة.

وزعت هذه الاستبانة على 120 طالباً وطالبة في كلية التربية بجامعة الكويت (ثلاث شعب وكل منها تتضمن 40 طالباً)، والطلاب ينتمون إلى مختلف كليات الجامعة وفقاً لنظام المقررات التي تعتمد على جامعة الكويت) وقد تبين بعد تحليل النتائج أن أغلب الطلاب (97%) منهم قدموا إجابات تدخل في صميم المفهوم العلمي للتعصب؛ فالتعصب في صورته العامة أحكام مسبقة سلبية وغير موضوعية وسلوك متحيز ضد جماعات وأسم وشعوب مفارقة. والأمثلة كانت أكثر وضوحاً: التعصب الديني وبأخذ صور الكراهية والسلوك المتحيز بين الطوائف الدينية أو بين الأديان. التعصب العرقي هو منظومة من التصورات السلبية والسلوكيات المتحيزة التي يمارسها البيض ضد السود، أو ما حدث في الهولوكست والهرسك بين عرقيين: بين النرويج وغيرهم من العرقيين مثلاً الهولوكست والهرسك... إلخ. وقد أثير فيما يتعلق بالتعصب القومي والتعصب الطائفي وغيرهما إلى أمثلة واضحة تدل على فهم موضوعي لما تعنيه كلمة التعصب بأبعادها المختلفة وتجلياتها المتشعبة. وقد استخلص من هذا التحليل أن الطلاب في الجامعة يدركون جيداً مضامين المفهوم وحدوده، وهم بالتالي يمتلكون القدرة على التجاوب مع معطيات الاستبانة التي أعدت لهذا الغرض، وهذا يمكنه أن يعطي النتائج التي تم التوصل إليها مصداقية كبيرة وموثوقية عالية.

## هكذا التصعب في نسخ التحديات الاجتماعية في الكويت والوطن العربي

تضمنت استبانة الدراسة سؤالين مفتوحين يقضي كل منهما بأن يسجل الطالب عددا من التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجهها المجتمعات العربية من جهة وهذه التي يواجهها المجتمع الكويتي من جهة أخرى. ينص السؤال الأول: اذكر أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر. وينص السؤال الثاني: اذكر أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي المعاصر. وقد تم تحليل هذين السؤالين بعدما تم ترميز الإجابات، حيث تم تصنيفها وتبويبها.

فيما يتعلق بالتحديات التي تواجه المجتمع العربي فقد حدد الشباب - أفراد العينة - عدة تحديات رئيسية تواجه المجتمع العربي المعاصر. وهي طبيعة هذه التحديات يعان الشباب أن الهوية العربية الإسلامية في خطر، وأن التقليد للغرب والتماهي فيه يضع العرب والمسلمين على شفا حفرة خطر، حيث بلغت تكرارات هذا التحدي 9، 277. وبلي ذلك مباشرة غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي 6، 19. ويلاحظ هنا أن التصعب لم يأخذ حيزا كبيرا من الأهمية حيث احتل المرتبة الثامنة في سلم التحديات المشار إليها ونسبة 2% كما هو مبين في الجدول رقم (5) والتي تمثل في التصعب والعطف والإجابات غياب الديمقراطية والتخلف العلمي والتكنولوجي.

جدول رقم (5): التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر وفقا لتغير الجنس

	التحديات العلة	ذكور %	إناث %	مجموع %
١	التقليد الأعمى للغرب وشياع الهوية العربية	٢٤,٧	٢٢,٣	٢٣,٩
٢	غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي	١٩,٨	١٩,١	١٩,٤
٣	تحقيق الوحدة العربية الإسلامية	١٩,٠	١٨,٠	١٨,٤
٤	الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية	١١,٩	٩,٦	١٠,٦
٥	تحقيق السلام العادل في المنطقة	٤,٤	٧,٧	٦,٢
٦	الطلاق والتفكك الأسري	٣,٧	٦,٤	٥,٢
٧	التخلف التكنولوجي والعلمي والاقتصادي	٣,٨	٣,٣	٣,٥
٨	التعصب والتمييز والعنصرية	٣,٢	٢,٨	٣,٠
	تحديات مثبوعة أخرى	٩,٤	٩,٨	٩,٦
	المجموع	%		
	تكرارات	٨٦٠	١١٥٨	٢٠١٨



## التعصب العنصرية والتفكير

ومن أجل بناء تصور آخر متكامل مع التصور الأول حول التحديات التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر طلبنا من أفراد العينة في سؤال مفتوح آخر تحديد أربعة من التحديات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي المعاصر بخاصة، وهذا السؤال يأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية السلبية التي يواجهها المجتمع الكويتي. وبلغت المفردات التي أعلنها الطلاب 3209 مفردات. صُنفت في الجدول رقم (٦) وفقاً لمعيار النسب المئوية.

جدول رقم (٦): التحديات الاجتماعية في المجتمع الكويتي وفقاً لتغير الجنس

	ذكور	إناث	مجموع
١	20.7	21.1	20.9
2	19.5	17.0	18.0
3	17.0	16.0	16.5
4	11.7	8.5	9.8
5	31.1	37.5	34.3
المجموع	898	1311	2209
	100	100	100

ويوضح من الجدول رقم (٦) أن الطلاب بالشكلية والتحديات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي والخليجي بصورة عامة - فالأدبيات الاجتماعية تؤكد وبصورة دائمة على عمل المعلنات الناجمة عن البذخ والإسراف وحب الظاهر، حيث أحصل هذا التحدي صدارة التحديات، ثم تلاه تحدي التعصب الذي يعد أخطر المخاطر التي تهدد الوجود العربي والإسلامي. وفي المرتبة الثالثة جاء خطر الوساطة والرشوة المحسوبة التي تنخر الوجود العربي الاجتماعي. وبصورة عامة يمكن القول بأن الصورة التي قدمها الطلاب لمواقع الاجتماعي تقارب إلى حد كبير من الصورة التي تقدمها التصورات السوسيولوجية في المنطقة العربية.

## التعصب في الوسط العربي

هل يعاني المجتمع العربي من التعصب؟ وما سلم أولويات التعصب في هذا المجتمع؟ وما الشكل التعصبي الأكثر حضوراً في المجتمع العربي؟ هذه الأسئلة التي يمكن الإجابة عليها في هذه الساحة من الدراسة وفقاً لرأي الطلاب أفراد العينة. ومن أجل هذه الغاية صمم الجدول رقم (7) لتقديم رؤية متسقة وفقاً لسلم تتعدد فيه أولويات الإجابات من خلال آراء الطلاب في هذا المجال.

جدول رقم (٧): هل يعاني المجتمع العربي مظاهر التعصب التالية؟

إجابات الطلاب أفراد العينة

تسلسل الأولوية	عبارات المقاييس	نعم كثيرا	نعم قليلا	لا أبدا	مجموع	م.ج. موافقة متوسط* النقاط الوزنية
١	تعصب طائفي	216,90	211,50	28,50	100	91,1
2	تعصب ديني	216,70	218,10	25,30	100	91,7
3	تعصب إقليمي	215,80	215,80	28,50	100	91,6
4	تعصب قبلي	211,80	217,80	21,50	100	88,6
5	تعصب عرقي	237,80	251,90	10,30	100	89,7

\* حسب النقاط الوزنية وفقا لمقاييس التكرار، حيث أعطيت إجابة «نعم كثيرا» ثلاث نقاط، وأعطيت إجابة «نعم قليلا» نقطتين، بينما أعطيت إجابة «لا» نقطة واحدة، وأُعطيت الجواب «من ثم» حسب التوسطات على هذا الأسس.

يقدم الجدول رقم (٧) مقارنة واضحة بذاتها عن رأي الطلاب في أشكال التعصب العربي فأفراد العينة يؤكدون بصورة كبيرة حضور التعصب بأنواعه المختلفة في الوطن العربي، حيث تراوحت نسبة الموافقة (موافق + موافق جدا) بين 91,7% فيما يتعلق بالتعصب الديني، و 88,6% فيما يتعلق بالتعصب القبلي وقد تم تصنيف العبارات وفقا لتسلسل أهمية النسبة المئوية في عمود (موافق كثيرا). وضمن هذه الصيغة يمكن القول بأن صيغة التعصب الطائفي تأخذ قمة الهرم من بين صيغ التعصب الأخرى، ويأتي التعصب الديني في المرتبة الثانية، ثم التعصب الإقليمي في المرتبة الثالثة، والتعصب القبلي والعرقي في المرتبتين الأخيرتين.

### التعصب في المجتمع الكويتي

على غرار السؤال الذي طرح في مستوى الوطن العربي طلب من أفراد العينة الإجابة عن السؤال الذي يتعين عليهم من خلاله تحديد مدى حضور التعصب بأشكاله المختلفة في المجتمع الكويتي. وقد صنفنا هذه المعطيات في الجدول رقم (٨)، الذي يتضمن سلما متدرجا يأخذ فيه كل شكل تعصبي أهميته وفقا لرأي أفراد العينة.

جدول رقم (٨): هل يعاني المجتمع الكويتي مظاهر التعصب التالية؟

إجابات الطلاب أفراد العينة

تسلسل الأولوية	عبارات المقاييس	نعم كثيرا	نعم قليلا	لا أبدا	مجموع %	مقارنة مع. المتوسط %
١	تعصب قبلي	٦٣,٩٠	٢٥,٧٠	١٠,٤٠	١٠٠	٩٤,٦
٢	تعصب عائلي	١٥,٢٠	٤٣,٩٠	١٠,٧٠	١٠٠	٨٩,٢
٣	تعصب طائفي	١٥,٩٠	٤١,٩٠	١٣,٢٠	١٠٠	٨٦,٨
٤	تعصب ديني	٢٩,٤٠	٥٨,٢٠	١٢,٥٠	١٠٠	٨٧,٦
٥	تعصب ضد الوافدين	١٩,١٠	٥٠,١٠	٣٠,٢٠	١٠٠	٦٩,٢

\* حيث أنشأت الأسئلة وفقا لقياس ليكرت حيث أعطيت إجابة نعم كثيرا، ثلاث نقاط، وأعطيت إجابة نعم قليلا، نقطتين بينما أعطيت إجابة لا، نقطة واحدة، ونسب المجموع ومن ثم حُسبت المتوسطات على هذا الأساس.

يبين الجدول رقم (٨) (وعلى خلاف ما لاحظناه في مستوى المجتمعات العربية) أن التعصب القبلي يأخذ مكانة الصدارة بين أشكال التعصب الأخرى (٩٤,٦ %). وفي المرتبة الثانية يأتي التعصب العائلي ٨٩,٢ %، ثم التعصب الطائفي ٨٦,٨ %، وعلى التوالي التعصب الديني ٨٧,٦ %، ثم التعصب ضد الوافدين ٦٩,٢ %.

### المقارنة بين أشكال التعصب في الكويت والوطن العربي

http://www.ajph.org

من أجل المقارنة بين صيغ التعصب ومكانة كل صيغة في سلم إجابات أفراد العينة بين الكويت والوطن العربي بُني الجدول المقارن رقم (٩) الذي يوضح هذه الصورة.

جدول رقم (٩): سلم مقارنة بين أولويات التعصب في الكويت والوطن العربي

سلم التعصب في الكويت				سلم التعصب في الوطن العربي			
تسلسل	عبارات المقاييس	نقاط وزنية	متوسط	تسلسل	عبارات المقاييس	نقاط وزنية	متوسط
١	تعصب قبلي	١١٢٦	١,٥٧٧	١	تعصب ديني	١٣١٨	١,٨١٦
٢	تعصب عائلي	٩٥٢	١,٢٣٥	٢	تعصب طائفي	١٢٩١	١,٨١١
٣	تعصب طائفي	٩٢٠	١,٢٠٢	٣	تعصب إقليمي	١٢٨٤	١,٧٩٨
٤	تعصب ديني	٨٢٤	١,١٥٤	٤	تعصب قبلي	١٢٠٣	١,٦٨٥
٥	تعصب ضد الوافدين	٦٢٤	٠,٨٧٨	٥	تعصب عائلي	١١٥٥	١,٦١٨

\* حيث أنشأت الأسئلة وفقا لقياس ليكرت حيث أعطيت إجابة نعم كثيرا، ثلاث نقاط، وأعطيت إجابة نعم قليلا، نقطتين بينما أعطيت إجابة لا، نقطة واحدة، ونسب المجموع ومن ثم حُسبت المتوسطات على هذا الأساس.

تبين المقارنة بين إجابات أفراد العينة في مستوى المجتمع الكويتي والوطن العربي وجود تباين كبير بين سلمي التعصب في كل من الكويت والوطن العربي. فالتصنيف رقم (١) يبين صورة مقبولة للسلم بين المستويين، فهي الوقت الذي يحتل فيه كل من التعصب القبلي والتعصب العائلي المرتبتين الأولى والثانية في السلم الكويتي تأخذ هاتان الصيغتان من التعصب المرتبتين الأخيرتين في السلم العربي. وفي الوقت الذي يأخذ فيه كل من التعصب الطائفي والديني المرتبتين الأولى والثانية في السلم العربي تأخذ هاتان المرتبتان إلى الأخيرتين في السلم الكويتي.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن أفراد العينة يشهدون على الحضور التعصبي في الوطن العربي بدرجة أكبر منها في المجتمع الكويتي. وتتضح هذه الحقيقة عندما نقارن بين المتوسطات الوزنية التي نالها كل شكل من أشكال التعصب في الكويت وفي الوطن العربي. ومن أجل تحديد الفروق للملاحظة من حيث الشدة لا من حيث الترتيب يبي الجدول رقم (١٠) الذي يوضح أبعاد هذه القضية.

جدول رقم (١٠): سلم أولويات التعصب في الكويت والوطن العربي

تسلسل	عبارات لقياس	عند المستويين	تفاوت	متوسط النقاط الوزنية
١	تعصب ديني (مجتمع عربي)	٧١٤	٧٧٤	١.٨٤٦
٢	تعصب طائفي (مجتمع عربي)	٧١٣.٥	٧٧٤	١.٨٤١
٣	تعصب إقليمي (مجتمع عربي)	٧١٤	١٢٨٤	١.٧٩٨
٤	تعصب قبلي (مجتمع عربي)	٧١٤	١٢٠٣	١.٦٨٥
٥	تعصب عائلي (مجتمع عربي)	٧١٤	١١٥٥	١.٦١٨
٦	تعصب قبلي (كويت)	٧١٤	١١٢٦	١.٥٧٧
٧	تعصب عائلي (كويت)	٧١٤	٩٥٣	١.٣٣٥
٨	تعصب طائفي (كويت)	٧١٤	٩٢٠	١.٣٠٣
٩	تعصب ديني (كويت)	٧١٤	٨٣١	١.١٥٤
١٠	تعصب ضد الوافدين (كويت)	٧١١	٦٢١	٠.٨٧٨
	مجموع	٧١٣٦	١٠٧٠٨	١.٥٠٠

يبين الجدول رقم (١٠) أن التعصب في الوطن العربي يأخذ مداً وحدوده العليا بالمقارنة مع التعصب في الكويت. حيث أخذت أشكال التعصب في الكويت تسجيل حضورها في نهاية السلم في الجدول رقم (١٠). ومن أجل قياس الفروق بين حضور التعصب في الكويت والوطن العربي قلنا ومن خلال الجدول بحساب النقاط الوزنية التي أعطيت للتعصب (كل الأشكال معاً) في

## التعصب العرقية والديني

المستوى الكويتي وهي مستوى الوطن العربي. إذ تم حساب 1751 نقطة وزنية للتعصب في الوطن العربي بنسبة 25.8 من مجموع النقاط الوزنية الحاصلة مقابل 1157 نقطة وزنية في مستوى المجتمع الكويتي، بنسبة 1.6 من مجموع النقاط الوزنية. وهذا يعني أن إجابات الطلاب تتم عن حضور كبير للتعصب في مستوى الوطن العربي 25.8، وتقر بـ 1.6 أعمية وخطورة في الكويت بنسبة 1.6.

### تأثير متغير الجنس في مواقف الطلاب ضد التعصب في الوطن

يعكس رأي الطلاب في التعصب ومدى حضوره في الحياة الاجتماعية تأثير عدد من المتغيرات التربوية والاجتماعية التي تكون الآراء والاتجاهات، وهذا يعني أن وعي الأفراد بتخطيا التعصب وإشكاليته مرهون بعدة عوامل مؤثرة، ولا سيما التجارب الحياتية الاجتماعية الخاصة للأفراد، ومستوى تعليمهم، والبيئة التي يعيشون فيها، ومصادر المعلومات والأجواء العامة التي تسيطر بهم. وقد شكل التأثير الذي تمارسه عوامل الجنس، والمستويات التعليمية، والمحافظة، ومستوى تعليم الأب، والاختصاص الجامعي، في تصورات الطلاب الخاصة بالتعصب محور تساؤلات منهجية تبنت في أسئلة البحث وفرضياته.

ومن أجل اختبار تأثير متغير الجنس ومدى تأثيره في آراء أفراد العينة، قيسا بخص التعصب في الكويت، تم بناء الجدول رقم (11) الذي يشتمل على نتائج تحليل التباين البسيط ANOVA لآراء أفراد العينة في التعصب، وتبين خطورة وفقدان تأثير جنس أفراد العينة.

جدول رقم (11) تحليل التباين لآراء أفراد العينة في مدى حضور التعصب في المجتمع الكويتي وفقا لمتغير الجنس في الكويت

مستوى الدلالة	Sig.	P قيمة	متوسط التباين	د. حرية	مجموع القربعات	بين المجموعات	داخل المجموعات
تعصب ديني	0.025	0.101	0.158	1	0.158	بين المجموعات	271.756
			0.291	703		داخل المجموعات	
تعصب قبلي	0.081	2.483	1.025	1	1.025	بين المجموعات	227.211
			0.219	708		داخل المجموعات	
تعصب طائفي	0.001	0.128	0.215	1	0.215	بين المجموعات	228.711
			0.281	701		داخل المجموعات	
تعصب ضد الوافدين	0.109	0.183	0.229	1	0.229	بين المجموعات	250.127
			0.298	701		داخل المجموعات	
تعصب عائلي	0.001	5.89	2.583	1	2.583	بين المجموعات	209.736
			0.139	709		داخل المجموعات	

يتضح من الجدول رقم (١١) أن متغير الجنس لا يؤثر في تباين إجابات أفراد العينة في مدى انتشار ظواهر التعصب في المجتمع الكويتي، وهذا يعني أن الفروق الملحوظة بين إجابات الجنسين غير جوهرية، وتعود إلى مجرد المصادفة. نتائج تحليل التباين دون الحد المطلوب للدلالة الإحصائية كما هو مبين في الجدول رقم (١١).

وهذه النتائج تسجل تقسمها في مستوى إجابات الطلاب المتعلقة بالمجتمعات العربية، لم تُلاحظ أي فروق إحصائية دالة كما يبين الجدول رقم (١٣).

جدول رقم (١٢)، تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى حضور التعصب في المجتمع العربي وفقاً لمتغير الجنس

Sign.	F قيمة	متوسط التباين	د. حرية	مجموع المربعات		
٠,٥٦٤	٠,٢٢٢	٠,٩١٦	٦	٠,١١٦	بين المجموعات	تعصب ديني
		٠,٢٤٩	٦٩٩	٢١٢,٩١٢	داخل المجموعات	
٠,٩٤	٠,٠٠٦	٢,٥٠٠ E-٠٢	١	٢,٥٠٠ E-٠٢	بين المجموعات	تعصب قبلي
		٠,٤٤١	٦٩٩	٢٠٢,٧	داخل المجموعات	
٠,٨٦١	٠,٠٢١	٢,٩٧٦ E-٠٢	١	٢,٩٧٦ E-٠٢	بين المجموعات	تعصب طائفي
		٠,٩٦٢	٦٩٩	٦٦٩,٢١	داخل المجموعات	
٠,٨٢٧	٠,٠٤٨	١,٩٥٣ E-٠٢	١	١,٩٥٣ E-٠٢	بين المجموعات	تعصب ضد الوافدين
		٠,٤٠٢	٦٩٩	٢٨٤,٢٠٩	داخل المجموعات	
٠,٠٠٧	٢,٢٩٩	٠,٩٩٨	١	٠,٩٩٨	بين المجموعات	تعصب عرقي
		٠,٢٠٢	٦٩٧	٢١٠,٩١	داخل المجموعات	

### تأثير متغير المستويات الاجتماعية

ومن أجل اختبار تأثير متغير المستويات الاجتماعية ومدى تأثيره في آراء أفراد العينة، فيما يخص التعصب في الكويت، تم بناء الجدول رقم (١٣)، الذي يشتمل على نتائج تحليل التباين البسيط ANOVA لأراء أفراد العينة في التعصب، ومدى حضوره وفقاً لمتغير جنس أفراد العينة.

جدول رقم (١٣)، تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى انتشار التعصب في المجتمع الكويتي وفقاً لتغير السنة الجامعية

مجموع التكرارات	د. حرية متوسط التباين	F قيمة	Sig.		
٥,٥٣٧	٣	١,٤٤٢	**٠,٠٠٢	بين المجموعات	تعصب ديني
٢٦٩,٢٥٨	٣٠٠	٠,٢٨٥		داخل المجموعات	
٩,٦٧٦	٣	٣,٢٢٥	**	بين المجموعات	تعصب قبلي
٢٢٨,٢٢٩	٣٠٥	٠,٢٢٨		داخل المجموعات	
١٠,٧٠٩	٣	٣,٥٦٧	**	بين المجموعات	تعصب طائفي
٢٢٦,٤٩١	٣٠٦	٠,٤٦٦		داخل المجموعات	
٧,٦٦٦	٣	٢,٥٥٥	**٠,٠٠١	بين المجموعات	تعصب ضد الوافدين
٢٤٣,٠٨٦	٣٠٦	٠,٤٨٩		داخل المجموعات	
١,٢٢٩	٣	٠,٤٤٣	٠,٢٩١	بين المجموعات	تعصب عائلي
٢١٠,٧٧	٣٠٢	٠,٤٤٢		داخل المجموعات	

\*\*دالة في مستوى ٠,٠١ \*دالة في مستوى ٠,٠٥

يبين الجدول رقم (١٣) أن تأثير متغير السنة الجامعية كبير وجوهري ودال في مختلف صيغ وتجليات التعصب الذي يملته أفراد العينة. ويتضح من خلال نتائج تحليل التباين أن الفروق بين آراء الطلاب أفراد العينة جوهرية في مستوى ٠,٠١. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف تفسر هذا الاختلاف؟ وما اتجاه التباين بين آراء أفراد العينة في هذا المستوى؟ ومن أجل الإجابة تم بناء الجدول رقم (١٤)، الذي يبين معالم هذا الاختلاف وفقاً لمتوسطات متغير السنة الجامعية كل على حدة.

جدول رقم (١٤)، متوسطات إجابات أفراد العينة حول انتشار التعصب في المجتمع الكويتي حسب متغير السنة الجامعية

السنة الجامعية	عدد المستجيبين	متوسط الإجابات
السنة الأولى	١٢٨	١,٥٨
السنة الثانية	٢٢٨	١,٩٢
السنة الثالثة	٢٠٠	١,٩٨
السنة الرابعة	١٤٨	١,٩٢
السنة الأولى	١٢٩	١,٩٢
السنة الثانية	٢٢١	١,١٤
السنة الثالثة	٢٠٠	١,٢٩
السنة الرابعة	١٤٩	١,٢٩
السنة الأولى	١٢٨	١,٢٨
السنة الثانية	٢٢٠	١,٥٨
السنة الثالثة	١٩٩	١,٤٨
السنة الأولى	١٢٨	٢,١١
السنة الثانية	٢٢٩	٢,٢١
السنة الثالثة	٢٠٠	٢,٠٩
السنة الرابعة	١٤٨	١,٩٩

يتضح من الجدول رقم (١٤) أن الفروق الإحصائية التي أكتفها تحليل التباين في الجدول رقم (١٢) تعود إلى متوسطات أكبر لطلاب السنتين الأولى والثانية بالقياس إلى السنتين الرابعة والثالثة. ويلاحظ أيضاً أن متوسطات الإجابة لتخلفن تدريجياً انطلاقاً من السنة الأولى حتى الرابعة، والعكس صحيح. وهذا يعني أن طلاب السنوات الأولى يعتقدون بانتشار ظاهرة التعصب وحضورها في المجتمع بدرجة أكبر من طلاب السنوات الأخيرة.

هذه النتيجة غاية في الأهمية وتعمل دلالات شتى منها:

- ١- يعمل التعليم الجامعي على إزادة تشكيل الوعي الاجتماعي عند الطلاب وفقاً لمعايير جديدة أكثر تطوراً وأكثر امتداداً، وربما أكثر موضوعية: فالطالب يكتشف هذه البيانات التي يحصلها من بيئة حول الحقيقة الاجتماعية ومظاهرها المختلفة.
- ٢- يؤكد الوسط الجامعي وقضاياه المختلفة على قيم جديدة تتصل بالعلم والتسامح ورفض التعصب والتحرر من الانطباعات السلبية حول التكون والحياة.
- ٣- تؤكد التجربة الجامعية لطلاب وبصورة متتالية عبر الزمن، وعياً يتأسس على قيم التفاضل والتبادل والتعاضد والتواصل مع الآخر، وهذه التجربة تخلف من غواء النظرة الاجتماعية السائدة في الأوساط الاجتماعية للمحدودة مثل الأسرة والحي ومنطقة السكن.



وعلى خلاف المستوى المحلي تبين الجدول رقم (١٥) غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقاً لتغير السنوات الجامعية، وهذا يعني أن موقف الطلاب من انتشار التعبير في الوطن العربي متجانس رغم تغير السنوات الجامعية.

جدول رقم (١٥): تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى حضور التعبير في المجتمعات العربية وفقاً لتغير السنوات الجامعية

مجموع المراتب	د. حرية متوسط التباين	F قيمة	Sig.		
٠,٩٤٩	٣	٠,٣١٦	٠,٥٧٤	بين المجموعات	تعبير ديني
	٦٩٦	٠,٣٤٩			
٣١٢,٩٠٨	٣	٠,٥٨٢	٠,٣٦٧	بين المجموعات	تعبير قبلي
	٦٩٦	٠,٤٤١			
٣٠٥,٨٦٥	٣	٠,٢٢	٠,٧٩٥	بين المجموعات	تعبير طائفي
	٦٩٦	٠,٩٦٦			
٦٦٨,١٧٢	٣	٠,٤١٦	٠,٣٤٢	بين المجموعات	تعبير ضد الآخرين
	٦٩٦	٠,٤٠٩			
٣٨٢,٦٨٩	٣	٠,٤٥٦	٠,٣٨١	بين المجموعات	تعبير عائلي
	٦٩٦	٠,٣٠٤			
٣١١,٣٣١	٣	٠,٤٥٦	٠,٦٧٢	بين المجموعات	
	٦٩٦	٠,٣٠٤			

### - تأثير الاختصاص الجامعي

هل يؤثر الاختصاص الجامعي للطلاب - جوهرياً - في تبين آراء العينة حول مدى انتشار التعبير في المجتمع؟ من أجل تقديم تصور واضح حول هذه القضية تم بناء الجدول رقم (١٦)، الذي يتضمن نتائج تحليل التباين لإجابات الطلاب وأرائهم وفقاً لتغير الاختصاص الجامعي.

جدول رقم (١٦)، تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى انتشار التعصب في المجتمع الكويتي وفقا للتغير الاختصاص الجامعي

Sig.	قيمة F	د. حرية	متوسط التباين	مجموع المربعات		
**. ٠.٠٠٩	٢.٤١٥	٤	١.٢١٦	٥.٢٦٢	بين المجموعات	تعصب ديني
		٧٠٠	٠.٢٨٥	٢٦٩.٦٥	داخل المجموعات	
		٧٠٤		٢٧٤.٩١	مجموع	
**. ٠.٠٠٩	٢.٤١٥	٤	٢.٢٥١	٩.٤٠٥	بين المجموعات	تعصب قبلي
		٧٠٥	٠.٢٢٩	٢٢٨.٨٥	داخل المجموعات	
		٧٠٩		٢٤٨.٣٥	مجموع	
*. ٠.٠٢٢	٢.٨٤٤	٤	١.٢٥٢	٥.٤١٢	بين المجموعات	تعصب عائلي
		٧٠١	٠.٤٧٦	٢٢٢.٥١	داخل المجموعات	
		٧٠٥		٢٢٨.٩٢	مجموع	
**. ٠.٠٠٩	٥.٠١٢	٤	٢.٤٢٩	٩.٧٥٤	بين المجموعات	تعصب ضد الوافدين
		٧٠٩	٠.٤٨٦	٢٤٩.٠١	داخل المجموعات	
		٧٠٥		٢٥١.٧٦	مجموع	
٠.٢٨١	١.٢٦٩	٤	٠.٥٥٩	٢.٢٢٨	بين المجموعات	تعصب عرقي
		٧٠٢	٠.٤٤١	٢٠٩.٩٨	داخل المجموعات	
		٧٠٧		٢١٢.٢١	مجموع	

\*\*دالة في مستوى ٠.٠١ \*دالة في مستوى ٠.٠٥

يتضح من الجدول رقم (١٦) أن آراء الطلاب - أفراد العينة - متباينة جوهريا وفقا للتغير اختصاصاتهم العلمية باستثناء دالة التعصب العائلي، حيث تعيب هذه الفروق الجوهريّة، وهذا يعني أن الفروق بين إجابات الطلاب في هذا المستوى دال إحصائيا كما بين الجدول رقم (١٦). وبعبارة أخرى يتضح أن متغير الاختصاص الجامعي للطلاب يؤثر في تحديد طبيعة نظراته لدى انتشار التعصب في المجتمع، فالطالب يكون رأيا حول هذه القضية وفقا للقرع الجامعي الذي يدرس فيه.

وهنا يجب علينا أن نحدد اتجاه وطبيعة هذا التباين بين أفراد العينة في هذا المستوى. ومن أجل هذه الغاية أيضا تم بناء الجدول رقم (١٧)، الذي يتضمن متوسطات الإجابات وفقا لتغير الاختصاص الجامعي.

جدول رقم (١٧): متوسطات إجابات أفراد العينة حول انتشار التعصب في المجتمع الكويتي حسب متغير الاختصاص الجامعي

الاختصاص الجامعي	عدد المستجيبين	متوسط الإجابة
تربية وأدب وشرعية	٦٥٢	١,٠٩
علوم	١٧١	١,٨٩
هندسة	١١٧	١,٧٥
حقوق وإدارة أعمال	٦٥	١,٧٢
طب صيدلة	٦٧	١,٦٦
تربية وأدب وشرعية	١٧٥	١,٠٦
علوم	٦٦	١,٥٧
هندسة	١١٨	١,٣٨
تربية وأدب وشرعية	١٨١	١,٣٣
طب صيدلة	٦٥	١,٠٢
تربية وأدب وشرعية	١٨٠	١,٢٥
علوم	١٧٥	١,٢٥
هندسة	١١٨	١,٥٤
حقوق وإدارة أعمال	٦٥	١,٥٥
طب صيدلة	٦٥	١,٥٥
تربية وأدب وشرعية	١٧١	١,٦٦
علوم	١٧١	١,١٨
حقوق وإدارة أعمال	٦٦	١,٩٨
هندسة	١١٧	١,٧٥
طب صيدلة	٦٥	١,٩٤

يبين الجدول حقيقتين في منتهى الأهمية، وهما أن طلاب كلية الطب والصيدلة يأخذون المتوسطات الدنيا. هذا من جهة. ويقابل هذا أن طلاب كلية الأدب والشرعية والتربية يأخذون غالباً المتوسطات العليا. وهذا يعني أن طلاب الكليات الإنسانية (تربية، شرعية، أدب) يعتقدون وبدرجة أكبر من الطلاب في المجالات العلمية بانتشار التعصب وحضوره في المجتمع الكويتي. وعلى خلاف ذلك يعتقد طلاب الكليات العلمية ولا سيما طلاب الطب والصيدلة بانتشار أقل للتعصب من زملائهم في الكليات الأخرى. وبعبارة أخرى توجد عند طلاب الكليات النظرية انطباعات أشد من انطباعات زملائهم في الكليات العلمية بحضور التعصب وانتشاره في المجتمع الكويتي. ويمكن الافتراض بأن هذا التباين يعود إلى المحتوى العلمي والمناقشات التي تتم أثناء المحاضرات في الكليات النظرية، حيث تتم مناقشة مثل هذه القضايا

الإنسانية على بساط البحث. وقد يعود ذلك أيضا إلى خصائص اجتماعية تفرضها الانتماءات الاجتماعية للطلاب: فطلاب العلوم التطبيقية (هندسة وطب وصيدلة) يشعرون غالباً من أصول اجتماعية متميزة ثقافياً وميسورة اقتصادياً.

وهذه النتيجة يصعب تفسيرها في هذا المستوى، وبذلك يسبب تدخل متغيرات أخرى لا يمكن عزلها في هذا المستوى. مثل الأصل الاجتماعي للطلاب في هذه الاختصاصات، والالتقاء الإداري وغير ذلك. ويرجع في هذا المستوى القول بأن الاختصاصات العلمية التي تؤسس لتوجهات إنسانية مثل الطب والصيدلة تؤثر لمصلحة رؤية متفائلة للحياة الاجتماعية تتعلق بالحب والتسامح وتجاوز الانتماءات الطبقية والعشائرية والدينية. وعلى خلاف ذلك فإن بعض الاختصاصات مثل الشريعة والتربية والآداب قد تقضي رؤية سلبية للحيات وتعزز انطباعات أقل تفاؤلاً حول الوجود الاجتماعي. وهذه الرؤية وهذا التفسير يتسحان في المجال لتفسيرات أخرى أكثر أهمية.

وفي المستوى العربي بين الجدول رقم (١٨) تأثير متغير الاختصاص الجامعي في جانب واحد: التعصب ضد المواطنين. وفيما عدا هذا تتضح حيادية الاختصاص الجامعي وعدم تدخله بوصفه متغيراً مؤثراً في إجابات الطلاب.

جدول رقم (١٨): تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى حضور التعصب في المجتمع العربي وفقاً لمتغير الاختصاص الجامعي

Sig.	قيمة F	د. حرية متوسط التباين		مجموع الترتيبات			
٠,٧٥٢	٠,٤٧٨	٠,١٦٧	٤	٠,٦٦٩	٢٤٢,٣٦	بين المجموعات	تعصب ديني
		٠,٢٥	٦٩٩			داخل المجموعات	
٠,١٥٨	١,٦٥٧	٠,٧٢٨	٤	٢,٩١	٣٠٤,٧٩٢	بين المجموعات	تعصب قبلي
		٠,٤٣٩	٦٩٤			داخل المجموعات	
٠,٦٧٨	٠,٥٧٩	٠,٥٥٨	٤	٢,٢٢٢	٦٦٧,١٠٧	بين المجموعات	تعصب طائفي
		٠,٩٦٤	٦٩٢			داخل المجموعات	
٠,٠٠٢	٢,٩٤٢	١,١٧٨	٤	٤,٧١٤	٢٧٩,٦١٥	بين المجموعات	تعصب ضد المواطنين
		٠,٤٠٣	٦٩٦			داخل المجموعات	
٠,١٨٢	١,٥٦٥	٠,٤٧٤	٤	١,٨٩٥	٢١٠,٠١٤	بين المجموعات	تعصب عرقي
		٠,٣٠٢	٦٩٤			داخل المجموعات	

ومن أجل تحديد اتجاه الفروق الاحصائية الدالة، المشار إليها في مستوى التعصب ضد المواطنين تم بناء الجدول رقم (١٩).

جدول رقم (١٩)، متوسطات إجابات أفراد العينة حول انتشار التعصب إزاء الوافدين في المجتمع الكويتي حسب متغير الاختصاص الجامعي

المتغير	الاختصاص الجامعي	عدد المستجوبين	متوسط الإجابة
تعصب ضد الوافدين	هندسة	١١٥	٢,٠٤
	طب صيدلة	١٧	٢,٤٦
	فربية وآداب وشرعية	٥٨٢	٢,٢٨
	علوم وإدارة أعمال	٦٤	٢,٢٨
	علوم	١٧٢	٢,٢٥

ويتضح من الجدول رقم (١٩) أن طلاب الكليات العلمية يعتقدون بدرجة أكبر بمدى انتشار التعصب ضد الوافدين.

### تأثير متغير المحافظة

ومن أجل اختبار تأثير متغير المحافظة أو المنطقة الإدارية التي ينتمي إليها أفراد العينة ومدى تأثيره في آراء أفراد العينة، فيما يخص التعصب في الكويت، تم بناء الجدول رقم (٢٠)، الذي يشتمل على نتائج تحليل التباين البسيط ANOVA لآراء أفراد العينة في التعصب ومدى حضوره وفقاً لمتغير جنس أفراد العينة.

جدول رقم (٢٠)، تحليل التباين لآراء أفراد العينة في مدى انتشار التعصب في المجتمع

الكويتي وفقاً لمتغير المحافظة

Sig.	قيمة F	متوسط التباين	مجموع	مجموع	بين المجموعات	داخل المجموعات	مجموع	تعصب دولي
٠,٠٠٠	١,٨٨٥	٠,٠٧٢	٤	٢,٠٢٧	٢٦١,٨٨٢	٢٧٩,٨٢	٢٨١,٨٩٩	تعصب قبلي
		٠,٢٩	٦٥٩	٢٦١,٨٨٢	٢٧٩,٨٢	٢٨١,٨٩٩	٢٨١,٨٩٩	
		٠,٠٨٨	٤	٢,٠٢٧	٢٦١,٨٨٢	٢٧٩,٨٢	٢٨١,٨٩٩	
٠,٠٠٠	٠,٢٩٥	٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	تعصب طائفي
		٠,١٥٢	٦٥٩	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	
		٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	
٠,٠٠٠	٢,٠٢٦	٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	تعصب ضد الوافدين
		٠,١٥٢	٦٥٩	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	
		٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	
٠,٠٠٠	٢,٠٢٦	٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	تعصب عائلي
		٠,١٥٢	٦٥٩	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	
		٠,١٥٢	٤	٠,٠٦١	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	٢٢٢,٠٦٨	

\* دالة في مستوى ٠,٠٥      \* دالة في مستوى ٠,٠١

بين الجدول رقم (٢٠) أن أفراد العينة لا يختلفون كثيراً في هذا المستوى. فالفروق الملحوظة ليست ذات أهمية، وهي غير دالة إحصائياً باستثناء قضية التعصب لإراء المواطنين حيث أظهرت النتائج فروقا إحصائية دالة في مستوى ٠.٠٥، ومن أجل تحديد طبيعة هذه الفروق بين الجدول رقم (٢١)، الذي يوضح اتجاه الفروق فيما يتعلق بالتعصب ضد المواطنين.

جدول رقم (٢١)، متوسطات إجابات أفراد العينة حول انتشار التعصب لإراء المواطنين في المجتمع الكويتي حسب متغير المحافظة

المحافظات	عدد	المتوسطات
الجهراء	٢٤	٢.٢٦
الأحمدي	١١٦	٢.٢٢
الغربية	١٥٩	٢.١٢
حولي	٢٢٠	٢.٠٨
الكويت (العاصمة)	١٢٩	٢

يوضح كبير بين الجدول رقم (٢١) اتجاه الفروق الإحصائية بين الطلاب وفقاً للتغير المحافظة، فالمحافظات تخرج وفقاً لتصنيفاتها التقليدية من أقصى البداية إلى أقصى المدينة. وهذا يعني أن الطلاب الذين يمشون في المحافظات التقليدية قد خسروا بدرجة أكبر من زملائهم في المحافظات الأكثر نمواً (نسبة إلى المدينة) حالات تعصب ضد المواطنين، وهذا يمكن الإشارة إلى أن شروط وجود المواطنين في المحافظات التقليدية قد تكون أكثر قسوة واجعافاً من المدينة، ولا سيما في العاصمة. وعلى الرغم من أن تحديد طبيعة تأثير هذه المتغيرات على المستوى الفئوي لتوزيع الجدول (٢٢)، الذي يتضمن نتائج تحليل التباين للفروق بين إجابات الطلاب وفقاً لتغير المحافظات.

جدول رقم (٢٢)، تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى حضور التعصب في المجتمع العربي وفقاً لتغير المحافظات

مجموع الترتيبات	د. حرية متوسط التباين	قيمة F	Sig.
بين المجموعات	١	٠.٢٢٨	٠.٦٠٢
داخل المجموعات	٦٨١	٠.٢٤٨	٠.٦٨٤
بين المجموعات	١	٠.٨٦٨	٠.٠٩٧
داخل المجموعات	٦٨٠	٠.٤٤	١.٩٧٢
بين المجموعات	١	١.٠٨٢	٠.٣٤٧
داخل المجموعات	٦٧٨	٠.٩٦٨	١.١١٧
بين المجموعات	١	٠.١٨٧	٠.٧٤٩
داخل المجموعات	٦٨٢	٠.٢٩٩	٠.٤٦٩
بين المجموعات	١	٠.٣٧٨	٠.٢٨٢
داخل المجموعات	٦٧٩	٠.٢٩٩	١.٢٦٦

## التحليل التبايني والتباين

ويُتضح من الجدول رقم (22) غياب الفروق الدالة إحصائياً في هذا المستوى: إجابات الطلاب متجانسة، وهذا يعني أن الفروق الملحوظة في هذا المستوى ليست جوهرية، وإنما هي فروق تعود إلى مجرد التصادف الطائفة.

### تأثير مستوى تعليم الأب

تبين النتائج التي يستعرضها الجدول رقم (23) أن مستوى تعليم الأب لا يلعب أي دور في تحديد اتجاه وأراء الطلاب نحو المنعصب ودرجة انتشاره في المجتمع، حيث يتضح من الجدول رقم (23) غياب الفروق الإحصائية الدالة بين أفراد العينة في هذا المستوى.

جدول رقم (23): تحليل التباين لإجابات أفراد العينة وفقاً لتغير مستوى تعليم الأب

مجموع المربعات	د. حرية متوسط التباين	F قيمة	Sig.		
بين المجموعات	1	0.222	0.63	تصوب ديني	داخل المجموعات
27.125	27	0.285			
بين المجموعات	1	0.589	0.445	تصوب قبلي	داخل المجموعات
236.315	236	0.285			
بين المجموعات	1	0.589	0.445	تصوب مثاقفي	داخل المجموعات
236.315	236	0.285			
بين المجموعات	1	0.579	0.449	تصوب ضد الوثنيين	داخل المجموعات
251.72	251	0			
بين المجموعات	1	0.589	0.445	تصوب عاقلني	داخل المجموعات
201.697	201	0.43			

\*\*دالة في مستوى 0.01      \*دالة في مستوى 0.05

وقد بينت النتائج أيضاً أن مستوى تعليم الأب غير مؤثر في المستوى العربي، كما تبين الجدول رقم (24). حيث يتضح من الجدول غياب الفروق الإحصائية الدالة بين أفراد العينة في هذا المستوى.

جدول رقم (٦١): تحليل التباين لأراء أفراد العينة في مدى حضور التعصب في المجتمع العربي وفقا لتغير المستوى التعليمي للأب

مجموع الدرجات	د. حرية متوسط التباين	F قيمة	Sig.
بين المجموعات	٦	٠,٢٧٧	٠,٥٦٨
داخل المجموعات	٦٧٩	٠,٢٤٦	
بين المجموعات	٦	٠,٤٤١	٠,٤٠٥
داخل المجموعات	٦٧٧	٠,٤٣٨	
بين المجموعات	٦	٠,٥٤١	٠,٧٧٧
داخل المجموعات	٦٧٨	٠,٩٧٤	
بين المجموعات	٦	٠,٤٦٧	٠,٢٣١
داخل المجموعات	٦٧٩	٠,٤٠٦	
بين المجموعات	٦	٠,٢٧٦	٠,٤٨٨
داخل المجموعات	٦٧٧	٠,٢٩٨	

#### - خلاصة وتوصيات:

يشكل التعصب بأشكاله المختلفة - كما يعلن طلاب الجامعة (أفراد العينة) - واحدا من التحديات الاجتماعية الكبرى التي تواجه المجتمع في الكويت والوطن العربي (جدول ٦). وهذه الحقيقة تتوافق مع مختلف الرؤى والاتجاهات الفكرية السوسيولوجية في الوطن العربي. وهذا يعني أن واقع الرأي الطلابي يعزز معطيات الدراسات النظرية الجارية في هذا الميدان.

وهي تضاريس هذا التأكيد على حضور التعصب في المجتمعات العربية وفي المجتمع الكويتي المعاصر يؤكد الطلاب على أن التعصب الطائفي أكثر انتشارا وخطورة في المجتمعات العربية مقارنة بالكويت. حيث يهت نتائج الدراسة أن هذا النوع من التعصب يحتل المكانة الأولى بين الأشكال التعصبية الأخرى. وبالي هذا التعصب من حيث الحضور والانتشار التعصب الديني. ثم التعصب الإقليمي والقبلي وأخيرا التعصب العائلي. وهي مختلف هذه الأنواع فإن نسبة موافقة الطلاب على حضور التعصب تتراوح بين ٢٩٤,٧ و ٢٨٨,٦ (انظر جدول ٧).

وهي مستوى الكويت. وعلى خلاف ما يلهاء في المستوى العربي. يحتل التعصب القبلي الرتبة الأولى من حيث الانتشار. يليه على التوالي التعصب العائلي، ثم الطائفي. وأخيرا الديني والتعصب ضد الوافدين. وقد تراوحت نسبة الموافقة على حضور التعصب بأشكاله المختلفة في هذا المستوى بين ٢٩٤,٦ و ٢٦٩,٢ (انظر الجدول ٨).



وقد بينت المشاركة بين آراء الطلاب في المستويين الكويتي والعربي أن الطلاب يرون أن التمسك بوجود بدرجة أكبر في المجتمعات العربية، وأن أزمة التمسك تأخذ طابعاً أقل أهمية وخطورة في الكويت بالمقارنة مع الوطن العربي (جدول ١٠).

وهيما يتعلق بتأثير التغيرات الاجتماعية في رأي الطلاب في مدى انتشار التمسك في الكويت بينت نتائج تحليل التباين ما يلي:

١- لا يؤثر متغير الجنس (ذكوراً وإناثاً) في تنوع إجابات الطلاب ورأيهم في

حضور التمسك محلياً أو عربياً.

٢- يؤثر متغير السنوات الجامعية جوهرياً في رأي الطلاب نحو هذه القضية، فقد

بينت الدراسة أن طلاب السنوات العليا يعتقدون أن التمسك أقل انتشاراً في

المتجمع من طلاب السنوات الأولى، وهذا يعني أن تجربة الحياة الجامعية بما

تتطوي عليه من حياة إنسانية واجتماعية تؤدي إلى تعديل في رأي الطلاب،

فهيما يتعلق بالتمسك وحضوره وانتشاره. وهذا يعني أن الجامعة والتعليم

الجامعي يلعبان دوراً كبيراً في بناء الإنسان على صورة التسامح والمحبة ورفض

الأفكار السائدة في المجتمع.

٣- وقد بينت الدراسة أيضاً أن متغير الاختصاص الجامعي يؤثر في رأي الطلاب نحو

قضية التمسك في الكويت إذ يري طلاب الكليات العلمية (الصيدلة والطب

والهندسة) رأياً مختلفاً في مدى حضور التمسك في الكويت، وذلك بالمقارنة مع

طلاب العلوم الإنسانية (جدول ١١). وهذا يعني أيضاً أن طلاب الكليات العلمية

أكثر تقارباً هيما يتعلق بهذه القضية، وهذا يعود برأينا إلى الأصول الاجتماعية

لهؤلاء الطلاب الذين يتميزون بطابع الثراء الثقافي ونهذ التمسك.

وهيما يتعلق بالتفريق الجوهرية بين آراء الطلاب في مدى حضور التمسك في المجتمعات

العربية، وفيما لتغيرات الجنس والاختصاص والسنوات الجامعية، أوضحت الدراسة وملاحظتها

الاحصائية غياب الفروق الإحصائية في مختلف المستويات، وهذا يعني أن آراء الطلاب

متجانسة هيما يتعلق بمدى انتشار التمسك في المجتمعات العربية، وذلك على خلاف ما

لاحظناه في المستوى الوطني الكويتي.

وهذا يمكن القول إن التمسك حقيقة حية النض في وعي طلاب الجامعة، ومهما يكن الأمر،

فهيما يتعلق بمدى تعبير رأي الطلاب عن الحقيقة والواقع الاجتماعي المعيش، فإن حقيقة

الرأي لا تقل أهمية عن حقيقة الواقع، بل تكاد تتجاوزها من حيث الأهمية والخطورة.

فالطلاب يجمعون من حيث البدء على أن التمسك حقيقة تنتشر في دائرة الواقع الاجتماعي

وتهدد طموحات وتطلعات الإنسان العربي، وهذا الموقف قد يعني أن الطلاب يعايشون سلبية

هذا الواقع من جهة، ويدركون مخاطرها من جهة أخرى، وفي هذا عطاء سوسيوولوجي يجب العمل على توظيفه في بناء تربوي وحضاري أصيل، يهدف إلى نبذ التعصب والكشف عن عوامل وجوده في مجتمعاتنا، ومن ثم العمل بصورة تاريخية متواصلة على اجتثاث الجذور التي تقضي التعصب وتولد مشاعره نحو مجتمعات عربية آمنة من أفة التعصب، ومن أجل هذه الغاية فإن الدراسة ترفع عددا من التوصيات أبلغها:

ـ إجراء دراسات سوسيوولوجية وتربوية جريئة تباشر هذا الخطر (التعصب) دون خوف أو وجل أو حجل، وذلك لأن الدراسات الموضوعية هي مبتدأ الكشف عن جذور الخطر وتعرية أسبابه تمهيدا لعملية اجتثاثها وإفلاتها.

ـ تعزيز قيم التسامح، ونبذ التعصب في مختلف مستويات الحياة الدراسية منذ المرحلة الابتدائية حتى الجامعية، وإحداث تغييرات جوهرية في المناهج والرؤى وطرق العمل والمضامين التي تشكل منطلقا لعملية الناشئة من خطر التعصب الاجتماعي بمختلف تجلياته وتوابعه.

ـ العمل على توظيف ثقافي وتربوي للإعلام ومطابقته في مواجهة هذا التحدي الخطير الذي يواجه المجتمع، حيث يترتب على الإعلام أن يخصص مساحة أكبر لبناء وعي الشباب والناشئة بمدى الخطر الذي يواجه المجتمع إزاء مظاهر التعصب وصيغ وجوده.

ـ العمل بمختلف الوسائل والإمكانات المتاحة إقناعيا وسياسيا وإعلاميا وتربويا على بناء الإنسان والتمية وعيه بروح تسامحية ديموقراطية، وتعزيز قيم السلام والديموقراطية والحق والخير والعدل والجمال وحل الآخر في الوجود، التي يمكنها أن تلأهض كل الآثار السلبية لوعي مشوه دلتسته قيم ومفاهيم معادية للإنسان والإنسانية.

- 1- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨.
- 2- السيد سلامة الخديسي: تربية المصالح الفكرية (سلسلة تربية مغتربة لمواجهة التطرف)، الشريعة المعاصرة، عدد ٢٦، شهر ١٠ مارس، ١٩٩١ (من ص ٧٢ - ١٠٩).
- 3- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، السعودية، ١٩٩٦، (من ص ١٢ - ١٣).
- 4- حسين صوفيا حسن، مفيد محمد سعيد رؤوف: قياس التعصب لدى عينة من طلاب الجامعة، مجلة علم النفس، يناير/فبراير ١٩٩٨، (من ص ٦١ - ٦٤).
- 5- هاديون حسن القليب: الشكل التربوي، والفرد الصناعية، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، عدد ١٧٤، أغسطس، ١٩٩٢، (من ص ٦٧ - ٨٦).
- 6- زايد الحارثي: بناء الاستقلالات وقياس الاتجاهات، دار الفنون للطباعة والنشر، جرد، ١٩٩٢.
- 7- سعد الدين إبراهيم: التعصب والتعدي الجديد الشريعة في الوطن العربي، ضمن الكتاب السنوي السادس الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، امتدادات الانهيار الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكويت ١٩٨٨ - ١٩٩٠ (من ص ١٩٥ - ٢٠٩).
- 8- سعد الدين إبراهيم: التعصب، والتعدي الجديد الشريعة في الوطن العربي، ضمن الكتاب السنوي للجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، امتدادات الانهيار الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكويت ١٩٨٩، (من ص ١٩ - ٥١).
- 9- سعد عبد الرحمن: عدلية التحليل الاجتماعي، دراسات العالم والتعصب في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، عالم الفكر الكويتية، عدد ٨، أبريل/أيار، يونيو، ١٩٩٠، المجلد الأول، (من ص ٨٢ - ١٢٢).
- 10- سمير فؤاد، قضية السكان في النطاق الحضري الحديث، المجلة الكويتية، تربية المصالح وعسيرة التكامل الاجتماعي، الكتاب السنوي، المجلد ١٩٩٥.
- 11- عبد العالي ناصر عبد العالي: في مسألة حقوق الإنسان والديمقراطية والتدريب عليها، الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، الكويت، ١٩٩٢.
- 12- عبد العزيز كامل وأسامة الطويل: المنظومة الأخلاقية من منظور الدين والعلم، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الطفل والتجمع دراسات في التنمية الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضا، نوفمبر، الكويت، ١٩٩٢ (من ص ٤١٢ - ٤٢٩).
- 13- عبدالله خليفة، الحسين عبدالمصطفى، اتجاهات طلاب الجامعة نحو بعض شعوب العالم، دراسة مقارنة بين الطلاب السودانيين والعمريين، مجلة علم النفس، الهيئة العامة المصرية للكتاب، السنة ٩، عدد ٢٦، أكتوبر/نوفمبر، ١٩٩٥، (من ص ١٠٦ - ١٢٥).
- 14- عبدالوهاب الكاظمي: الموسوعة السياسية، الجزء ١، دار الهدى للنشر والطباعة، بيروت، ع.ت.
- 15- عزت سيد إسماعيل: سيكولوجية التطرف والإرهاب، حوليات كلية الآداب، الكويت، المجلد ١٦، ١٩٩٦، (من ص ٨٩ - ٩٩).
- 16- علي عبد الرزاق: مشكلات اجتماعية معاصرة، نماذج مختارة من مجتمعات عربية معاصرة، ط ٢، مؤسسة دلتا، الكويت، ١٩٩٤.
- 17- فريد كامل أبو زينة، عدنان محمد عوض: جموع البعثات والخطاب العبدات في البحوث والدراسات التربوية والاجتماعية، المجلة العربية للبحوث التربوية المجلد ٨، ن. العدد ١، يناير ١٩٩٥، (من ص ١١ - ٢١).

- 18- فاسم المصراف، التماهيم التربوية المتعلقة بالتسامح في مناهج المرحلة الابتدائية، مجلة التربية، عدد 17، أبريل 1998، (من ص 6 - 18).
- 19- محمد بوزيد وحدا، العرب، في القرون الحادي والعشرين، تربية ماضوية ومستقبلية، غير طابعة للنشر، المستطيل العربي، العدد 270، أبريل 1998، (من ص 17 - 72).
- 20- مصطفى خميس شاذلي، رؤية هوية من المثقفين المصريين لطاهرة العطف، دراسة سيكولوجية، مجلة علم النفس، عدد 58، يناير/فبراير/مارس 1998، (من ص 98 - 90).
- 21- معتز سيد، هوية الذات الاجتماعية الشخصية، أهم أشكالها ومدى أهميتها، ضمن الورش كعمل ملكية، دراسات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، المجلد الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 (من ص 17 - 39).
- 22- معتز سيد، هوية الذات، سمة التماهي وعلاقتها بكل من نمط السلوك ومراكز التحكم، دراسات نفسية، المجلد 4، العدد 2، أبريل 1998 (من ص 716 - 768).
- 23- Bogardus, E.S., Measuring Social Distance, J. App.Social, 1925.
- 24- CP, T.W.Adorno, the Authoritarian personality, Harper, new York, 1950.
- 25- Djangi Ahmad B. Racism In Higher Education, Paper presented at the annual meeting of the American psychological association, Toronto-Canada, 1993.
- 26- Katz, S. and Braly, K, Racial Stereotypes, J. Abn. Soc. Psy.Chol, 1933.
- 27- Madeline Grawitz: lexique des Sciences Sociales, deflex, Paris, 1982.
- 28- Sinha, a. and Upadhyay, "Stereotypes of male and female students, J.Soc. Psychol, 1990.
- 29- YANG Julia: Chilly campus climate' qualitative study on white racial identity development attitudes, University of Pennsylvania (Research report), Pennsylvania, 1992.

- 1- مؤتمرات إسلامية مثل إكادات صربية وإسلامية ذات طابع ديني ومثالي، أحزاب سياسية، أحزاب دينية، رجال سياسة... إلخ.
- 2- منير البعلبكي، المورد، قاموس إنكليزي - عربي، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1991. وانظر أيضاً: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1998.
- 3- Madeline Grawitz, L'Esquisse des Sciences Sociales, Gallimard, Paris, 1983.P. 155.
- 4- أليس الفولسي، لوحة استوائية إلكترونية، CD, ROM.
- 5- C.F.T.W.Adenas, the Authoritarian personality., Harper, new york, 1950.
- 6- عزت سيد إسماعيل، سيكولوجية التطرف والإرهاب، دوليات كلية الآداب الكويت، الكويت، 1991، ص 8 - 9، ص 20.
- 7- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1998، ص 191.
- 8- سعد الدين إبراهيم، التعصب والتعدي الجديد، التربية في الوطن العربي، ضمن: الجمعية الكويتية للتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، المنشورات الأثير الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس، 1999، (ص 19 - 21)، ص 20.
- 9- علي عبد الوهيد، مشكلات اجتماعية معاصرة، نماذج مختارة من مجتمعات عربية معاصرة، ط 2، مجموعة دفا، الكويت، 1991، ص 200.
- 10- عبد الوهاب الكواي، الموسوعة الميسرة، الجزء 2، دار الفجر للطباعة والنشر، بيروت، ص 369.
- 11- الموسوعة العربية المأثورة، موسوعة أبحاث الفكر والتربية، الجمعية العلمية لأوراس، السعودية، 1999، (ص 17 - 19)، ص 18.
- 12- تعقيب علي الطرايح على سعد الدين إبراهيم، التعصب والتعدي الجديد، التربية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 81.
- 13- سعد الدين إبراهيم، التعصب والتعدي الجديد، التربية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 89 - 90.
- 14- تعقيب علي الطرايح على سعد الدين إبراهيم، التعصب والتعدي الجديد، التربية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 82.
- 15- مداخلة سعد الدين إبراهيم، التعصب والتعدي الجديد، التربية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 77 - 71.
- 16- Madeline Grawitz, L'Esquisse des Sciences Sociales, Gallimard, Paris, 1983.P.155.
- 17- عبدالمعز كامل وأسامة الخولي، المنظومة الأخلاقية من منظور الدين والعلم، الجمعية الكويتية للتقدم الطفولة العربية، الطفل والمجتمع دراسات في التثنية الاجتماعية للأطفال، تحرير محمد جواد رضاء، نوفمبر، الكويت، 1997، (ص 217 - 229)، ص 220.
- 18- عبدالمعز ناصر عبدالمعالي، في مسألة حقوق الإنسان والديمقراطية والتدريب عليها، الجمعية الكويتية لحقوق الإنسان، القطعة العربية لحقوق الإنسان، الكويت، 1997، ص 81.
- 19- عبدالمعز ناصر عبدالمعالي، في مسألة حقوق الإنسان، المرجع السابق، ص 81.
- 20- انظر مقارنات التاريخ لطلاب المرحلة الإعدادية في سوريا.
- 21- محمد جواد رضاء، العرب في القرن الحادي والعشرين، تربية ماضوية ولعديبات لهم طاقة للتقبل، المستقبل العربي، السنة العشرون، العدد 721، أبريل 1998، (ص 17 - 19)، ص 16.
- 22- تميز هنا بين علماء الدين المتخصصين، الذين يشكلون الحكمة والفقه والمعرفة والخبرة والكتابة، وبين

- ٢١- رجال الدين الذين يمارسون الشعائر الدينية من غير تأهيل معرفي وديني يؤهلهم للممارسة الدينية الصحيحة.
- ٢٢- انظر شاذي كريك، لجورجي زيدان.
- ٢٣- تطيب علي الطرايح على سعد الدين إبراهيم: التعصب والشعبي الجديد القريبة في الوطن العربي، مرجع سابق ص ٢٢.
- ٢٤- سمير هوانة: قضية السلام في المنهج الدراسية الحديثة، الجمعية الكويتية، تربية التسامح وحضرة التكامل الاجتماعي، الكتاب الموثق الملتزم ١٩٩٥، ص ٢٢.
- ٢٥- قاسم المصراحي: غياب المفاهيم التربوية في البيئة المدرسية، (ص من ١١٢ - ١٤٦)، ص ١٢١.
- ٢٦- الطي، الشار السنة ٧، العدد ٧٠، ١٩٩٢ (ص ٢٦ - ٢٩).
- ٢٧- طهون حسن النقيب: الشكل التربوي والثورة الصناعية، دراسة في سيكولوجيا الثقافة، المستقل العربي، عدد ١٧١، أغسطس ١٩٩٢، (ص من ٢٧ - ٤٦)، ص ٧٠.
- ٢٨- أحمد الخطيب: الصفات التي يجب أن تسم بها التربية، مرجع سابق، ص ٢٨.
- ٢٩- طهون حسن النقيب: الشكل التربوي، مرجع سابق، ص ٢٢.
- ٣٠- YANG Julia Chilly campus climate: Qualitative study on white racial identity development attitudes, University of Pennsylvania (Research report), Pennsylvania, 1992.
- ٣١- Djangi Ahmad R. Racism In Higher Education, Paper Presented at the annual meeting of the american psychological association, Toronto-Canada-1993.
- ٣٢- Djangi Ahmad R., Racism In Higher Education, Ibid, P.1.
- ٣٣- Djangi Ahmad R., Racism In Higher Education, Ibid, P.5.
- ٣٤- Djangi Ahmad R., Racism In Higher Education, Ibid P.10.
- ٣٥- محمد حسن شاذي: رؤية هيئة من المثقفين المصريين الظاهرة الخفية، دراسة سيكولوجية، مجلة علم النفس، عدد ١٨، يناير/فبراير/مارس ١٩٩٨، ص من ٩٨ - ٩٠.
- ٣٦- Sinha, a. and Upadhyay ja, "Stereotypes of mal and female students, J Soc. Psychol, 1960.
- ٣٧- Katz, d. and Braly, K, Racial Stereotypes, J.Abo. Soc.Psy Chod, 1933.
- ٣٨- Katz, d. and Braly, k, Racial Stereotypes, Mime source.
- ٣٩- Bogardus, E.S., Measuring Social Distance, J App. Social, 1925.
- ٤٠- سعد الدين إبراهيم: التعصب والشعبي الجديد القريبة في الوطن العربي، ضمن الكتاب السنوي السادس الجمعية الكويتية لتقديم الثقافة العربية، الأطفال والتعصب، التربية، الحملات الانشيطات الداخلية للثقافة العربية المعاصرة، الكويت ١٩٩٨، (ص من ١٩٥ - ٢٠٩).
- ٤١- سعد عبد الرحمن: عملية التطبيع الاجتماعي وإزمات التعامل والتعصب في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، عالم الفكر الكويتية، عدد ١٠١ أبريل/مايو/يونيو ١٩٩٠، المجلد الأول، (ص من ٨٢ - ١٢٢).
- ٤٢- دراسة السيد سلامة العيسى، تربية التسامح الفكري (مجلة تربوية مقترحة لمواجهة التطرف) التربية المعاصرة، عدد ٢٦، شهر ١٠ مارس ١٩٩٦، (ص من ٢٢ - ١٠٩).
- ٤٣- ضبون سمير حسن - مفهوم محمد سعيد رؤوف: قياس التعصب لدى هيئة من طلاب الجامعة، مجلة علم النفس، يناير - فبراير ١٩٩٨، (ص من ٢١ - ٢٨).

- 46- عبد الله خليفة، المحرر: عبد القوي، اتجاهات طلاب الجامعة نحو بعض شعوب العالم، دراسة مقارنة بين الطلاب السعوديين والمصريين، مجلة علم النفس، الهيئة العامة للتصوير للكتاب، السنة 9، عدد 36، أكتوبر/نوفمبر 1998، (من ص 106 - 131).
- 47- ممتاز سيد، عبدالله، سمة التمصب وعلاقتها بكل من نمط السلوك ومركز التحكم، دراسات نفسية، المجلد 4، العدد 2، أبريل 1998 (من ص 216 - 248).
- 48- معتز سيد، عبدالله، الاتجاهات التصورية، أهم المشكلات ومدى عموميتها، ضمن لويس كامل، ملكية، قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، الجزء الخامس، الهيئة العامة للكتاب، 1990 (من ص 12 - 39).
- 49- عزت سيد، إسماعيل، ميكانيزميا التطرف والإرهاب، مجلة كلية الآداب، العدد 16، جامعة الكويت، 1996.
- 50- فاضل الصراف، الفاهيم التربوية المتعلقة بالتصاميم في مناهج المرحلة الابتدائية، مجلة التربية، عدد 72، أبريل 1998، (من ص 9 - 16).
- 51- زايد الشاذلي، بناء الاستعدادات وقياس الاتجاهات، دار الشؤون للطباعة والنشر، جدة 1997، ص 225.
- 52- فريد كامل، أبو زيد، عدنان محمد، موشى، جمع البيانات والخصائص المعينات في البحوث والدراسات التربوية والاجتماعية، المجلة العربية للبحوث التربوية، المجلد 8، العدد 1، يناير 1998، (من ص 11 - 29)، ص 23.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

# أفواء علماء ظاهرة عمالة الأطفال

مقاربة نقدية

خالد سليمان\*

سوسن مرقبة\*\*

المقدمة

تشكل ظاهرة الإلزام إحدى المعضلات الرئيسية في مسيرة الحياة. تتركبة صير أحداثها ولجاريها وطريقاتها وتفاعلاتها العمق البصمات والمعدية التي في كثير من شخصياتها، تأسيسا على ذلك، يمكن احتجاب تلك الظواهر والتفاعلات بمنزلة قطب الرخي في عملية تحديد ضرورة تطور تلك الشخصية. وترسيم مسارات تشكيلها، فإما أن تجعل منه كائنات اجتماعيا مستندة على معايير منظومته الثقافية، متمثلة أبجديتها

الأمر الذي يتجسد عبر شخصية متكيفة مع المحيط، متناقة مع عناصره. وإما أن تفرس فيه بذور التناحر والتوتر والاختلال، التي تتفاعل فيما بينها مضطربة إلى خلق شخصية مضطربة معقدة تتنازعها تيارات الانحراف والاضلال.

في ضوء ذلك، ينبغي إيلاء تلك المرحلة أقصى درجات العناية والحماية، وإعانة الأطفال خلالها بمناخات إيجابية صحية تضمن لهم النمو السليم التكميل بمختلف أبعاد: الجسمانية، والنفسية، والعقلية، والاجتماعية. بيد أن هناك مشكلات عديدة قد تعكر صفو تلك الأجواء النشودة مقرونة دعائم استقرارها، ومن أظهرها مشكلة عمالة الأطفال، التي باتت تسجل معدلات متفاقمة مقلقة هي المفرد الأخيرة بشكل خاص، ونظنها جديرة بإشغال حيز واسع

(\*) باحث، سوسيولوجي، عمان - الأردن.

(\*\*) باحثة في قضايا المرأة والمثقفات، عمان - الأردن.



## أحوال ملحة فاعلة: عمالة الأطفال

من اهتمام الدوائر الرسمية والشعبية في العالم بوجه عام، وفي الدول «النامية» بشكل خاص، انطلاقاً من تركز القابلية العظمى من الأطفال العاملين ضمن نطاقها (مكتب العمل الدولي، ١٩٩٦). وبالأستناد إلى اندراج معظم البلدان العربية ضمن قائمة البلدان النامية؛ فإن من تافهة القول الإشارة إلى وجوب احتفال هذه البلدان بتلك المشكلة المجتمعية الأخذة في التفاف، ووضعتها على سلم أولوياتها.

ويحكم انتماء مفهوم عمالة الأطفال إلى أسرة المفاهيم الاجتماعية، التي تتضمن عموماً بصعوبة إدراجها ضمن تعريفات دقيقة ومعتمدة، تتولد إشكالية تأطيرها ضمن قالب داللي معين، إذ تعيل التعريفات الاجتماعية في العادة للتيارين: حد التعارض أحياناً، تبعاً لاختلاف منطلقات العرفين وتغاير مرجعياتهم النظرية والمنهجية، فتُعد من يعيل مثلاً إلى التفريق بين مصطلحي «عمالة الأطفال» من جانب، وعمل الأطفال» من جانب آخر. وذلك بوسم المصطلح الأول بـ«مهم» سلبى يوحي باستغلال الأطفال والإساءة إليهم بصورة تعيق نمائهم الطبيعي المتوازن، خلافاً لمصطلح «عمل الأطفال» الذي يرد باستخدامه من بعض الجهات ليهيئ سمعة المفهوم وإكسابه الطابع الإيجابي، بالتركيز على النافع والبرائد الممكن إحرازها من خلاله (عبيد، ١٩٩٧).

وترثي الدراسة أن محاولة التمييز تلك ليست في حقيقتها أكثر من محاولة لتجنب الخوض في جوهر القضية والتهرب من مواجهة استحقاقاتها الأخلاقية والإنسانية، فعلى الصعيد البشري، ليس ثمة ثمة بـ«استغلال» الأطفال وشغلهم مهما اختلفت الذرائع والأسباب، إذ إن الطفولة قيمة مقدسة لا يجوز المساس بها أو الاستقواء عليها، بل ينبغي إحاطتها بعنق صور الرعاية والحماية. وتوفر الإسكانات الملائمة لعمالة الأطفال وارتباطهم بطريقة إيجابية متوازنة.

ومراجعة لطبيعة الدراسة وأهدافها، وإلقاء الانسياق نحو التذرع السردى لقائمة التعريفات المتداولة لمفهوم عمالة الأطفال، استقر رأي الباحثين على النظر إلى مفهوم عمالة الأطفال بوصفه التعبير عن انخراط الأطفال الذين لم يتجاوزوا السادسة عشرة من عمرهم، في أي عمل قد يشكل تهديداً لأحد أبعاد نموهم السليم من زوايا المتداخلة.

هذا ويكتنف ظاهرة عمالة الأطفال الغموض والالتباس من زوايا عدة، سواء فيما يتعلق بالمفهوم، أو الأشكال، أو الحجم، أو الآثار، أو سبل المواجهة، كما أن هناك فترة حقيقية في الدراسات العربية التي حاولت التعرض للظاهرة استقصاء وتحليلاً، ما يتعكس بشكل خاص في الغياب الواضح للأحصاءات الدقيقة حول حجم تلك المشكلة على المستويين العربي أو المحلي، الأمر الذي يبرز أهمية الخوض في بحث هيكليات تلك الظاهرة وتحديد إحداثياتها، وهذا منطلق إجراء هذه الدراسة التي ستحاول إحاطة اللام من مكان الغموض والالتباس

للصلة بظاهرة عمالة الأطفال، وذلك في سياق سعيها إلى تحقيق أهدافها، التي تتركز ضمن محاور أربعة رئيسة، يتعلق أولها باستجلاء الوضعية التي استقرت إليها محاولات رصد حجم ظاهرة عمالة الأطفال على المستويين القطري والعربي، أما ثاني تلك المحاور فيولي غايته مناقشة السببات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والديمقراطية التي قد تكلف أبعاد تلك الظاهرة وتسهم في تأميمها، ويأتي المحور الثالث لمحاول استقصاء أبرز التأثيرات والتداعيات الاجتماعية والنفسية المترتبة على ظاهرة العمالة في التوازن النفسي والاجتماعي والصحي للأطفال، وأخيرا، يستهدف المحور الرابع تتبع الجهود المبذولة على الصعيد الأردني، بوجه خاص، لمجابهة إشكالية عمالة الأطفال ووضع الحلول اللازمة لها، كل ذلك ضمن رؤية نقدية تحليلية، تتطرق في تشكّلها محاولة استقراء أبعاد الظاهرة، وتشخيص سلاسلها، وتعيين تطورها ومساراتها.

### أشكال عمالة الأطفال

في معرض الحديث عن ظاهرة عمالة الأطفال يجدر التنويه ابتداءً إلى أبرز الأشكال المتعددة التي تتخذها تلك العمالة، التي تصنف عادة ضمن أصناف سبعة، هي: الخدمة المنزلية، والعمل الإيجاري والاسترقاق، والاستغلال القسري، والعمل التجاري، والعمل الصناعي والزراعي، والعمل في الشوارع، والعمل العائلي وعمل البساتين، وفيما يلي بيان تلك الأصناف:

1. **العمل في الخدمة المنزلية:** تعد خدمة الأطفال في المنازل من الأعمال واسعة الانتشار في كثير من البلدان النامية، وكثيرا ما يلجأ أهل المناطق الحضرية إلى استخدام أطفال القرى المجاورة للقيام بهذا النوع من العمل، وعلى الرغم من عدم وجود إحصاءات دقيقة حول أعداد الأطفال المتضررين في مثل هذا الضرب من النشاط؛ إلا أن هناك من الشواهد ما يرجع اشتغاله على شوارع واسعة من الأطفال، وبخاصة من الفتيات في البلدان النامية، وفي الوقت الذي تتراوح فيه أعمار معظم هؤلاء الأطفال عادة ما بين (١٢ - ١٧) سنة، إلا أن هناك العديد من الحالات التي أفادت بوجود أطفال يعملون في سن الخامسة أو السادسة (مكتب العمل الدولي، ١٩٩٦، ب).

2. **العمل القسري والاسترقاق:** على الرغم من نزوع المجتمعات المعاصرة إلى تحاشي الاعتراف بأن العبودية لا تزال منتشرة في العديد من أرجاء العالم؛ إلا أن الوقائع المؤقّعة تثبت وضوح أعداد كبيرة من الأطفال تحت نير العبودية، وكثيرا ما يقع الأطفال ضحية الظروف القاسية لأسرهم فينزلون العبودية جيلا بعد جيل، وهذا لعبون والتزامات اضطرت إليها عائلاتهم، وتجسيدا لظهور آخر من مظاهر الاسترقاق، يقدم الآباء الفقراء أطفالهم لأصحاب

## أحوال ملكة فارسة وعالم الأطفال

العمل ليستغلوا مقابل تأمين الحد الأدنى من أساسيات الحياة لهم؛ نتيجة اقتناعهم الراسخ بأن أوضاع أطفالهم لن تكون في أسوأ الأحوال، بمستوى البؤس الذي يعيشونه ضمن نطاق أسرهم الموقلة في الفقر والحاجة.

**3- استغلال الأطفال في تجارة الجنس:** تحاط عملية استغلال الأطفال في تجارة الجنس بأقصى درجات التكتّم والحفيظة، مما يجعل من الصعب تكوين صورة واضحة بشأن حجم هذه المشكلة، بيد أن هناك مؤشرات عديدة تؤكد نزوعها إلى التناقص والاستئصال. ويكفي أن نشير - على هذا الصعيد - إلى وجود أكثر من ٨٠٠ موقع على شبكة الإنترنت للترويج لخدمة الأطفال (المعرفة، ٢٠٠٠).

ويعد الفقر من العوامل الأساسية المسؤولة عن دفع الأطفال للتوكل في شرك مثل هذا النوع من العمل في العديد من الحالات، كما قد يلعب الأصل العرقي دوراً بارزاً في استغلالهم لهذا المسير؛ نتيجة حرمانهم من كثير من الحقوق التي يتمتع بها أعضاء فئات اجتماعية أخرى، وذلك بحكم انتمائهم إلى عرق أو جماعة إثنية معينة (مكتب العمل الدولي، ١٩٩٦، ب).

ويترك هذا النوع من النشاط آثاراً جسدية ونفسية خطيرة للغاية في الأطفال، إذ يمرضهم للإصابة بالعديد من الأمراض من قبيل الإيدز، والزهري، والسيلان، بالإضافة إلى خطر الحمل المبكر ووفيات الأمهات بالنسبة للنساء، تاهلن عن التهور بفقدان الثقة بالآخرين، ونلاشي الإحساس بالأمن والتكيف الاجتماعي (Neuboth, 1991).

**4- العمل في القمار والفصائح:** قد يشار إلى التفرغ للذهلة الأولى أن هذا النوع من عمالة الأطفال أقل خطورة على صحة الطفل ونمائه من بقية الأعمال التي قد يمارسها، إلا أن حقيقة الأمر قد تكون على النقيض من ذلك؛ فالأطفال العاملون في الزراعة والصناعة شألي ما تصيدهم مخاطر جسيمة وعديدة، نتيجة استخدام الأدوات الخطرة والحادة، والتعرض المباشر والمستمر لتأثيرات المواد الكيميائية الضارة، والعمل ضمن أجواء مناخية مثقلة وبغير صعيدية على الألب.

**5- عمل الأطفال في الشوارع:** ينضم العديد من الأطفال العاملين معظم أوقات يومهم في الشارع، حيث يقومون ببيع بعض الحاجيات البسيطة، أو يمارسون بعض الأعمال الهامشية مثل: غسل السيارات أو تلميع الأحذية، إضافة إلى جمع النوات التي يمكن إعادة تصنيعها كالتقطع البعدية.

وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى الفرق بين هؤلاء الأطفال وأطفال الشارع، فعلى الرغم من اتخاذ أفراد العلة الأولى من الشارع مسرّحاً لأعمالهم، إلا أنهم يعودون في العادة إلى أسرهم كل ليلة، ما يتيح إمكان تسويتهم (الأطفال في الشارع) خلافاً (لأطفال الشارع) الذين يمكن القول إن روايتهم بأسرهم قد قطعت، وبات الشارع مقراً لسكنائهم وأعمالهم (مفتى الفكر العربي، ١٩٨٢)، وبشكل هؤلاء الأطفال ما نسبته ٢٠ تقريباً من الأطفال الذين يعملون في الشارع (يونيسيف، ١٩٩٢).



## أبعاد طاعة ظاهرة عمالة الأطفال

إلى أن يعملون ويمحور هي الغالب ضمن نطاق الخدمة المنزلية (Grootaert, Kanbur, 1995).  
بعبارة أخرى: يتموضع عمل الفتيات ضمن الأشكال المختلفة للعمالة، وبخاصة ضمن الخدمة  
المنزلية. وبذلك، فليس ثمة ما يسوغ التعامل معه باعتباره أحد الأشكال الأساسية المستقلة  
لعمالة الأطفال (مرفقة، ١٩٩٨).

### عمالة الأطفال : إضاءة نظرية

ثمة اتفاق شبه عام ينزع إلى تأكيد ضرورة استكمال شأفة ظاهرة عمالة  
الأطفال، بيد أن الأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك لا يعطى بالدرجة نفسها من  
الاتفاق: إذ تتباين وجهات النظر بشأن ما إذا كانت الطريقة الفضلى لمعالجة

الظاهرة هي اللجوء إلى حظرها بصورة كلية سريعة فاشطة، أم أنها تتمثل - في ضوء استحالة الإحاطة  
العاجلة بالمشكلة - في انتهاز البات تدريجية تتبنى الزيادة المتتابعة للعدد العمري الأدنى المسموح به  
للاختراط في تلك العمالة، وتأمين قضاء واف من الحماية للأطفال العاملين في الآن عينه.

توتيا على ذلك، يمكن القول إن إقتاريات التطهيرة التي تعاطت مع ظاهرة عمالة الأطفال  
قد انشطرت متمحورة ضمن تيارين رئيسيين: تيار راديكالي يؤسس لخطاب ثوري انقلابي يحصر  
على الإحاطة الشاملة بالنشء الاقتصادي والاجتماعية، وإعادة هيكلتها  
وفق أسس جديدة، كشرط ضروري لا حقايق الاختلالات الاقتصادية المختلفة، التي تعد ظاهرة  
عمالة الأطفال أحد ثمارها. إقن متقابل تيار استراتيجي معتدل ينادي بطروحات مرحلية  
تدريجيه، تأخذ بعين اعتبارها معطيات الواقع الفعلي ومقتضياته (Boquel, 1991).

هذا وينبدا بتسليط الأضواء على التيار الراديكالي، الذي يرفض بدوره الإقرار بإمكان اعتماد  
إستراتيجيات ناجعة وفعالة للتصدي لظاهرة عمالة الأطفال، ونوه إلى انشطار ذلك التيار إلى  
معسكرين اثنين: يتخذ الأول منهما من الطروحات المتطرفة في الفكر الماركسي إطلاا مرجعيا له،  
فيتعامل مع الظاهرة بحسبها أحد التظاهرات والقرينات الناجمة عن النظام الرأسمالي الذي  
يتصهر استغلال العمالة المأجورة وتفاوت توزيع الدخول والثروات في صلب تركيبته.

في ضوء ذلك، وبما أن الاستغلال بشكل جبر الزاوية في إعطاء الشروع الرأسمالي الطامح دوما  
لتعظيم أرباحه: فضلا عن إدامته وتوسيعه، فإن التشريعات والمساوي الحكومية المختلفة تعد من  
سقوط ذلك الاستغلال إن تحولت تحت مظلة النظام الرأسمالي، في المحصلة النهائية، إلا إلى الإخفاق.  
في الوقت الذي تنقل فيه - بوجه عام - مع الطرح الماركسي الأنف في ذهابه إلى خضوع  
قطاع العمالة بما فيها عمالة الأطفال - وبخاصة في البلدان النامية - لضروب متعددة من  
الاستغلال، والاضطراب، والاستلاب (Osipov, 1969) نجد أن من الصعب التسليم ببعض  
النتائج التي يخلص إليها ذلك الطرح، التي تصطبغ بصبغة الحتمية والدوغمائية.

فليس ثمة سبيل لإنكار التجاعيد المشهودة التي أحرزتها الدول الصناعية المتقدمة تحت لواء النظام الرأسمالي على صعيد تقليص حجم التفاوت في الدخل إلى حدود مقبولة نوعاً ما، ومن التشريعات القلزمة، وتوقير الآليات الكفيلة بحماية العمال - ومن بينهم الأطفال - وتضيق إمكانات استغلالهم، إضافة إلى الاتساع النسبي للهامش الذي تدور في فلكه عملية الحراك الاجتماعي ضمن ذلك النظام، ما انعكس في الانتشار الملحوظ لتقيم المساواة الاجتماعية وتطبيقاتها (Dahrendorf, 1958). فنقول هذا من دون أن نسقط من حساباتها الاتهامات المختلفة التي يمكن توجيهها إلى أنساق العمالة في المنظومة الرأسمالية، التي يمكن تبنيها بهذا القدر أو ذاك من الحماس، بما تتضمنه من تحذير من تشبيه الإنسان وتجريده من مقومات إنسانيته الحقة.

من جانب آخر، نجد أن من العسبر لقبيل الفرقة الثورية العنيفة التي يعلي ذلك الطرح البراديكالي من شائتها، جامعاً منها الأنموذج الأوحدم المؤهل لإحداث التحولات الاجتماعية القويحة، إذ أثبتت مجريات الأحداث الديمقراطية والفسادة هي ككثير من الأقطار النامية أن من الممكن تبوير عجلة التغيير والتقدم ضمن أجواء سلمية وبوئاتر تدريجية تتابعية، بعيداً عن المفاسرات الانقلابية المتطرفة التي شكلت أرضية خصبة لعمود أنظمة ديكتاتورية، شعولية درجت على إسقاط مفردات الخطاب الإنساني ومفاهيمه من قاموسها.

أما السار الثاني الملصقي إلى الفكر البراديكالي فتتجسّد بآثار جماعات عديدة مثالية المثارب والاهتمامات؛ إذ يضم مثلاً بعض العناصر الناشطة في مجال القانون، التي تصر على من قوانين صارمة ملزمة لضمان حماية الأطفال، وتحرم استخدامهم تحت عمر معين. كما يشتمل أيضاً على بعض العناصر المتشددة في المنظمات غير الحكومية، وقد يلتحق بذلك السار أيضاً أرباب العمل في المثاربع الكبيرة والمتوسطة، الذين يتوجسون خيفة من المثاربع الناشئة التي قد تعمل على استغلال الأطفال بصورة غير مشروعة في أعمالها، وتذكّر أيضاً بالعمال الذين يعيشون فقدان وظائفهم نتيجة هجرة الصناعات الوطنية إلى بلدان أخرى للبحث عن أيدي عاملة رخيصة قد يشكل الأطفال وافداً أساسياً لها.

كل هذه المجموعات غير المتجانسة يجمع بينها قاسم مشترك أعظم يتمثل في مطالباتها القوية بتعريم تشغيل الأطفال، محذرة من أن الآليات المصروغة لتأمين الحماية للأطفال العاملين لا تعدو كونها، في أغلب الأحيان، أكثر من مسككات مخدرة، قبطي - على لدى البعيد - إلى تأييد ظاهرة عمالة الأطفال، وإكسابها طابع الشرعية والجواز (Boquete, 1991).

من الواضح أن السار المتود إليه يتبنى رؤية قطعية متشددة لا تأخذ بعين اهتمامها الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تهيمن على أرجاء واسعة من دول العالم الثالث تلك الأوضاع التي تجعل من ظاهرة عمالة الأطفال ملجأها أساسياً لا يمكن تجاهله من ملامح الحياة الاقتصادية هناك.

## أفكار طلبة جامعة القاهرة

كما أنه ينتقص، إلى حد بعيد، من جدوى التشريعات القانونية التي تستهدف تنظيم الظواهر والحد منها. مشككا في جدية مراعاتها ونزاهة إجراءاتها. مع أن تلك التشريعات قد أثبتت نجاعة واضحة في العمل على تقليص حجم الظاهرة وضبطها في نطاق عديدة من المجالات. كما هي الحال في البلدان الصناعية على الأقل. الأمر الذي يقودنا إلى الوضوف عند النظر الآخر الذي يتسم بالمحافظة والاعتدال. ويغلب عليه طابع الثبرلة، مؤكدا الصعوبة القصوى لاجتثاث جذور الفطر والعنفية ذبوله وملحفاته - التي يمكن احتساب ظاهرة عمالة الأطفال من مظاهرها - في كثير من مجتمعات العالم. إذ استطاع الفطر أن يتغلغل صميغا في صميم بنائات تلك المجتمعات؛ ليوترك ندوبه الفائرة في تركيبها العضوية.

وعليه، وفي ضوء استحالة القضاء على الفطر وتداعياته بضربة واحدة قاسية؛ فإن من المنطقي، بل من الضروري، الاستعانة بالآليات التدريجية مدروسة ومبرمجة (Moustafa, 1996)، وبخاصة أن مثل تلك الآليات قد أثبتت جدواها ونجاحاتها في حالات عديدة من التعامل مع المشكلات الاجتماعية. يقال ذلك بالقياس إلى الحلول الترابيكية العاصبة التي كثيرا ما تجسد في ممارسات عنيفة وأعمالية تحاول فصل البشر القائمة من جذورها، وتستند - غالبا - إلى طروحات أيديولوجية منسوبة تقع في شرك الأحكام القطعية أحادية الرؤية.

ويحسن بنا أن نشير في هذا السياق إلى أن الاتجاه التدرجي الممثل بتماشي في جوهره مع النهج الذي اختطه الإسلام في معالجة بعض المشكلات الاجتماعية المستعصية، فلم يحرم الإسلام الرق، على سبيل المثال، موقفا اعتدلا من الآليات الكفيلة بالحد منه إلى حدود الدنيا، وذلك بالنظر إلى الوعي بخطورة الاختلالات الاجتماعية والاقتصادية التي قد تنجم عن التحريم الفوري، والسريع له. وتجاهل عمق جذره وتشعبه في بنية المجتمع.

وإذا كنا نتحفظ على بعض الأفكار التي جاءت بها المدرسة الماركسية وبخاصة انتعريف منها؛ فإن ذلك لا يعني، في المقابل، تسلمنا بكل ما يصدر عن التيار الليبرالي من مقولات ولعميمات. فلم ينته التاريخ حقا، ولم ينقض عهد الأيديولوجيا يسقوط المنظومة الاشتراكية والمصدر المسكر التراسمي زعماء عالم اليوم، كما يطالب لأحد منظري ذلك التيار الزعم (هوكوياما، 1992). الذي لا يزال مصرا على مزاعمه عقب انصرام عقد على إطلاق نظريته الموسومة، نهاية التاريخ، وإن حاول التوصل أخيرا من بعض طروحاته بتقديم تاوليات جديدة لها. بعد أن أثبتت وفتاح الأحداث نفاقها (هوكوياما، 2000).

كما لا يعني دعمنا لبعض المقولات الليبرالية أيضا أن نشرب الصفح من سجل ما ذهب إليه الاتجاه الماركسي؛ إذ إنه قد بات من المسلم به الآن - حتى من أولئك الذين يلحازون إلى نظرية معينة، صغوية الركوز إلى مرجعية نظرية واحدة لتقديم رؤية شمولية عميقة الفهم للظواهر الاجتماعية المختلفة (كريب، 1999).

وعليه، ستلخص الدراسة لنفسها طريقاً يحاول الاسترشاد بالرؤى السديدة في دينك النبازين الرئيسين. مستلهمة في الوقت نفسه القيم الإنسانية النبيلة التي تجعل من حرية الإنسان وكرامته سميت انطلاقاً وغاية جهدها: تلك القيم التي تجد في منابع ثقافتنا العربية الإسلامية الأصيلة امتدادات عريقة متجذرة.

إن يزخر التراث العربي الإسلامي بالكثير من المعطيات الوضاعة التي تصلح لاطلاعها مرجعيات نظرية يمكن الاستفادة منها في تطوير مبادئ وطرائق التعامل مع الشكليات الاجتماعية المختلفة. ومنها بطبيعة الحال مشكلة عمالة الأطفال: فقد أولى الإسلام عناية فائقة لتحقيق الفئات المستضعفة، وعلى رأسها الأطفال، محمداً الأسس التي ينبغي أن تحكم أساليب تربيتهم ورفاهتهم والقيام على أمورهم.

فقد ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا». كما أثر عنه عليه السلام قوله: «من ترك مالا فله أهله، ومن ترك ديناً فله دين». ما يؤكد حرص الإسلام على إشاعة قيم الرحمة والتكافل، وتشجيعه على المسؤولية الاقتصادية للحكومة في سد الحاجات الأساسية للمواطنين بما يضمن لهم الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن السؤال.

كما اعتد بساطة رخصة الإسلام ليشمل قطاع الخدم والمسترقيين: إذ يقول (عليه السلام) في شأنهم: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاء تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكله من العمل ما يكله». فإن كلفه ما يغلبه فليطعمه عليه..

ولم يغفل الإسلام الاعتناء بالفتيات بشكل خاص. فقد أنزل آياتاً دينية للغة في المجتمع الجاهلي، فحث على تربيتهن والإحسان إليهن، فجاء في الحديث الشريف عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله: «من عال جاروتين حتى يلبغا، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا». وضم أسلمه (الأنثي) (1967)، كانت تلك بعض الشواهد التي أوردها على سبيل المثال لا الحصر، لتؤكد إمكان استلهام القيم الإنسانية الرفيعة التي انبثقت من الثقافة الإسلامية في صوغ مخططات عملية للتعاطي مع المشكلات الاجتماعية. ومن بينها مشكلة عمالة الأطفال، محط اهتمام دراسنا هذه.

وفي أعقاب استعراضنا لأبرز المقاربات النظرية التي تعاطت مع ظاهرة عمالة الأطفال، نشرع في استعراض ما خلصت إليه الجهود العربية على صعيد رصد حجم انتشار تلك الظاهرة.

### عمالة الأطفال: الحجم والقيود

على الرغم من خطورة ظاهرة عمالة الأطفال وتشعب تداعياتها الملبية على المجتمع: إلا أن الساحة العربية تكاد تخلو، بوجه عام، من الدراسات التي حاولت رصد حجم الظاهرة وحصرها على

المستوى القومي، دون أن يحاول ذلك من القول إن هناك بعض الجهود العربية المتناثرة التي حاولت التصدي لاستقصاء حجم تلك الظاهرة. بيد أن تلك الجهود قد قصرت عن تشكيل خارطة دقيقة توضح حجم تلك الظاهرة عربياً، ما يعني هشاشة الأرقام المعلوماتية المتوافرة



## أولاً: حالة ظاهرة عمالة الأطفال

يشأن إشكالية عمالة الأطفال في الأقطار العربية بصورة تعيق إمكان إجراء الترسيم دقيق لمعجم الظاهرة وسماتها، فالبيانات المتوافرة حول حجم الظاهرة بيانات وصفية في معظمها تقتصر عن تناول البلدان العربية كافة، فضلاً عن انحصارها بالحدودية والتضارب في بعض الأحيان، كما ينصرف معظمها - بوجه عام - للاهتمام بالجوانب القانونية للظاهرة، بصورة يحكمها في الأغلب سطحية المعالجة وغياب النظرة التحليلية النافذة، وتجدر الإشارة إلى أن قيمة البيانات المتوافرة حول الظاهرة تتفاوت من قطر عربي إلى آخر وفقاً لستوى شمولية تلك البيانات وقيمتها، وكفاءة الكوادر البحثية القائمة على جمعها وتحليلها (فراجاني، 1992).

وهي الوقت الذي تدر فيه الإحصاءات الدقيقة التي تعطي صورة واضحة عن حجم ظاهرة عمالة الأطفال، تنبذ بعض التقديرات لتبرز تقاعم انتشار الظاهرة وتطشي خطورتها.

ففي المملكة المغربية - على سبيل المثال - التي يروج قانونها تشغيل الأطفال اعتباراً من عمر (12) سنة، بلغت نسبة الأطفال العاملين في العامل والورش عام (1987) حوالي (780) من الأيدي العاملة بوجه عام (سويل الخالدي، 1991)، أما نسبة الأطفال العاملين من جملة أطفال المغرب فقد اقتربت عام (1993) من 5% (Ullrich, 1993).

أما في مصر، فتعطي البيانات المتوافرة بشأن ظاهرة عمالة الأطفال خمس مجموعات من أربع مراحل زمنية بفواصل تتفاوت طويلاً خلال الفترة (1984 - 1994)، وعلى الرغم من تعدد مصادر تلك البيانات؛ إلا أنها تجمع على حد أدنى لخص العمل وتقود عملية استعراض تلك البيانات إلى نتائج شديدة التفاوت، لا تشكل عند الأطفال العاملين وفقاً لتعداد عام (1986) حوالي ثلث عدد الأطفال العاملين حسب مسيحي (1984، 1994)، ويمرّ هذا التباين إلى اختلاف الفترة المرجعية لإجراء التعداد، ومستوى الدقة المتوخاة التاجم عن الفرق بين نتائج تعداد شامل بالقياس إلى نتائج مسح متواضع العينة، ويمرّ التفاوت الواضح في البيانات المستخلصة عبر الفارق الهائل بين حجم عمالة الأطفال في كل من مسيحي (1984، 1994)، فعلى الرغم من الفترة الزمنية الطويلة القائمة بين المسحين وكثرة الشواهد التي تشير إلى زيادة معدلات انتشار الظاهرة إلا أن نسبة الأطفال العاملين وفقاً للمسح الثاني تقل عن نسبتهم لبعاً للمسح الأول بحوالي الخمس.

وإذا كانت البيانات المتعلقة بالحالة المصرية من أفضل البيانات المتوافرة عربياً بشأن ظاهرة عمالة الأطفال، فلنا أن نستنتج مدى دقة البيانات القليلة الموجودة بشأن الأقطار العربية الأخرى (فراجاني، 1992).

مجمال القول، إن البيانات والتقديرات المتوافرة، التي استطاعت هذه الدراسة تحصيلها بشأن حجم الظاهرة على المستوى العربي، من الضعف والتهافت ما لا يتيح تكوين صورة ولو تقريبية لمعجم الظاهرة ومسارات تناميها.

هذا وتتشعب الظروف والتأثيرات المترابطة بهذه التقديرات المتعلقة بظاهرة عمالة الأطفال على حالة الأردن أيضاً، إذ إن هناك مسحةاً أرضياً يتجسّد تعرض المظاهرة بشكل عامت متيسر. وقد تم تقدير أعداد الأطفال العاملين وفقاً لذلك المسح ضمن الفئة العمرية (١٣ - ١٥) عاماً بـ (٩١٠٠) طفل، بما نسبته (٠.١ - ٢.١) من القوى العاملة، إلا أن من الوارد تجاوز الأعداد الحقيقية الأعداد المذكورة بدرجة كبيرة؛ نتيجة لإشغال تسجيل الأطفال العاملين ضمن حيز الأسرة، وتجاهل أولئك الذين يجمعون بين العمل والدراسة، إضافة إلى إسقاط الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثالثة عشرة من قائمة الإحصاء (التكريري، ١٩٩٢).

ومن الجدير التنويه إلى أن هناك جملة من الأسباب التي قد تقف عائقاً دون إجراء المسوح لرصد حجم ظاهرة عمالة الأطفال بشكل جدي ودقيق، وتتنوع تلك الأسباب ليتصل بعضها بأبعاد مفاهيمية، أو مادية، وربما سياسية أيضاً.

فقد يتم قصر المسوحات المنقذة على الأطفال المنخرطين تماماً للعمل، الذين يقعون ضمن فئات عمرية محددة، تبعاً للتعريف التي تقدمها الجهات المشرفة على تلك المسوحات للأطفال الممكن إدراجهم ضمن الأطر المفاهيمية الممتدة، ما يعني استبعاد بعض الفئات العمرية الأخرى، وبعض القطاعات التي لا تدخل في دائرة تلك المفاهيم. وقد يجري تنفيذ المسوحات في فترات زمنية أو فصول مختلفة، ما يعيق إمكان التلويح في النتائج تبعاً لواقع بلد والجزر في معدلات العرض والطلب على الأطفال العاملين. وتتدخل المقومات التمويلية والمهنية، وبصورة خاصة للتأثير في تراجع مستويات المسوحات المتعلقة برصد حجم الظاهرة والحد من إهراتها، فضلاً ما تعاني الدوائر العربية المعنية بالظاهرة نقصاً في الكوادر البشرية المؤهلة، وشحاً في الإمكانيات المالية اللازمة لإجراء مثل هذه المسوح، التي تتطلب عادة توافر إمكانات ضخمة بندر وجودها.

وقد يعزى إجحام الأوساط الرسمية النابعة لمؤسسة الدولة عن القيام بتنفيذ المسوحات التي تنقص رصداً أمام انتشار الظاهرة إلى الرغبة في احتواء مظاهر الاختلال في المجتمع ضمن أضيق الحدود، والظهور بمظهر يتناسب مع الشعارات التي تطرحها، والتي تؤكد اعتناها المرفق بمواظبتها واحترامها لحقوقهم ورفاههم.

ضمن السياق ذاته، تشير إلى الطابع الاحتفالي الظهوري الذي يصوغ بمصيفته كثيراً من التظاهرات والمؤتمرات المعنية بقضايا الطفولة، التي تشهدها العواصم العربية، والتي تترجم في العادة إلى توصيات «بيروتوكولات» تبقى حبراً على ورق، ولا تجد طريقها إلى التطبيق العملي على الأرجح.

بعد الانتهاء من التمرّض لسالة حجم ظاهرة عمالة الأطفال، ننقل إلى مناقشة العوامل والأسباب التي يمكن اعتبارها مسؤولة عن بروز الظاهرة ولتأني معدلاتها.

## عمالة الأطفال : العوامل والأبعاد

لغة حزمة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تتضافر فيما بينها مفضية إلى انبعاث ومن ثم تصاعد ظاهرة عمالة الأطفال. وهي الوقت الذي يصعب فيه حصر تلك العوامل إلا أنه من

الممكن القول إنها تتمحور بوجه عام ضمن روافد رئيسة عدة: اقتصادية، واجتماعية، وثقافية، وديمقراطية، وسياسية: فيما يلي إبرازها:

### عوامل اقتصادية

تتفاوت معدلات إسهام كل من العوامل المجتمعية المختلفة في انبعاث ظاهرة عمالة الأطفال إلى حيز الوجود: (إلا أن العامل الاقتصادي يتبوأ في أغلب الأحيان موقع الصدارة على هذا الصعيد. ومما قد يثبت صحة هذا الافتراض التحسار وجود الظاهرة في البلدان الغنية قياسا إلى البلدان الفقيرة: ففي قارة أوروبا برسمها لا يزيد عدد الأطفال العاملين معن هم دون سن (15) سنة على مليون طفل، أما في قارة آسيا - التي تدرج بلدانها سبعة ضمن قائمة البلدان القائمة، فلا تقل أعداد الأطفال العاملين فيها دون السن ذاته عن (150) مليون طفل (المعرفة، 2000). وتدعم أدلة أكثر من هذا القول تأكيدها الارتباط الوثيق بين ارتفاع معدلات انتشار الظاهرة من جهة، وتلك المستويات المعيشية والاقتصادية من جهة أخرى (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 1986، مصر: 2000).

ومع الأسف الشديد، يشكل الدخل الضئيل الذي يتقاضاه الأطفال العاملون أحيانا - الذي لا يعقل إلا جزئيا بسيطاً من الدخل الذي يتقاضاه الكبار في العديد من العائلات - المصدر المالي الوحيد الذي يعول دون وقوع الأسرة في براثن الجوع والاستجداء (يونيسيف، 1997) مما يعد دافعا قويا لبروز تلك الظاهرة واستمراريتها.

ومن المتفوق، في ظل غياب العدالة الاجتماعية، وسوء توزيع الدخل واستنزاف الفساد في دول العالم الثالث - أن يدفع الفقر بكثير من الأسر إلى إلقاء أطفالهم في معترك الحياة المعيشية في مراحل مبكرة من أعمارهم تحت وطأة الظروف الاقتصادية البائسة القسوة والإجحاف. ولنتذكر هنا الإدعاءات الأنبية للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز (Dickens, 1940) ولنتذكر هنا الإدعاءات الأنبية للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز (Dickens, 1965) التي برغت في تصوير المعاناة الرهيبة التي كان الأطفال يتكون تحت وطأتها في القرن التاسع عشر، تلك المعاناة التي ملبهت - مع الأسف الشديد - لنقي بطلانها ثقيلة على مناطل واسعة من العالم في أواخر القرن العشرين. وبأشكال أكثر بشاعة وعنفا، على الرغم من كل شعارات المدنية والدفاع عن حقوق الإنسان التي يثبتي بها عالم اليوم.

ضمن هذه الرؤية تشير إلى الدور الذي يلعبه الفقر أحيانا في إلقاء الأطفال في جحيم المعارك والحروب، ففي ليبيريا مثلا، شوهد أطفال تم تجاوزوا السابعة ضمن صفوف المقاتلين، ويفسر مدير منظمة الصليب الأحمر هناك الأمر بقوله «إن من يعمل بندقية يستطيع الحصول على الطعام، وهذا ما يحدث أيضا في هايتي، فلقد ضحى كثير من الأمهات بأطفالهم للقوات المتمردة نظير تقديم المأكل والملبس لهم، وبات هؤلاء الأطفال يشكلون حوالي (20%) من النسبة الكلية للمقاتلين (المرافقي، 1996).

ونشير هنا إلى مسألة انخفاض المستوى الثقافي لمعظم الصناعات السائدة في العالم العربي، الأمر الذي لا يستدعي وجود كفاءات فنية ماهرة عالية التأهيل في كثير من ورش العمل ما يرفع من قابليات النجوى إلى استغلال الأطفال في ذلك المجال (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، 1986).

### عوامل اجتماعية

ينعكس عن الخوض في إشكالية ما إذا كانت الأنبيات التي يتألف منها المجتمع انقسامًا متكاملة متعاضدة التماسد، أو أنها تنافى بحوهرها عن التكامل، وتجنح باتجاه التناقض والتضارب؛ تعد الأسرة أحد الأنبيات التي تمثل نقطة ارتكاز أساسية في تدعيم التوازن الاجتماعي وترسيخه، ومن هنا طرأ في النشأة الاجتماعية أو قصور يعزى أداء وظائفها سيترجم على شكل تعاضدات في جدار البنيان الاجتماعي بمرته.

ومن ثم يمكن التنبؤ بالدور الذي قد يلعبه التفكك الأسري - وبخاصة إذا ما اقترن بظروف اقتصادية أو معيشية صعبة - في دفع الأطفال إلى سوق العمالة، وهذا يتسبب أيضا على ظاهرة التسرب المدرسي، التي كشفت بعض الدراسات تورطها المباشر في إفراز ظاهرة عمالة الأطفال وتوسيع هامشها (الشتي، 1998).

وربما يمكن تفسير ظاهرة عمالة الأطفال، بشكل من الأشكال، في ضوء رغبة بعض الآباء في الحفاظ على استمرارية مهنتهم التي ورثوها في الغالب عن آباءهم، التي يعتزون بها غاية العشراز، ويرون فيها إرثا نفسيا لا يجرى التفریط فيه، وذلك عن طريق توريثها إلى الأبناء، وتتميز هذه النزعة في وقت يمكن القول فيه إن العوائد المتوقعة من الانخراط في سلك التعليم قد انخفضت إلى حد بعيد، نتيجة لارتفاع معدلات البطالة بين حملة الشهادات الأكاديمية وانخفاض الطلب عليهم، إضافة إلى الاعتقاد بأن التعليم - على الرغم من ضخامة كلفته الزمنية والمادية - قد يشكل عائقا أمام الحصول على وظيفة مناسبة، نتيجة لانتفاخ سوق العمالة من جانب، وبضارب المضامين النظرية التي يقدمها التمسق التعليمي من جهة، والمستلزمات التي تقتضيها الحياة الواقعية من جانب آخر (Bonnet, 1993).

## أبعاد ظاهرة عمالة الأطفال

## هويدا بل دويهي

وتتقدم للنظرمة الثقافية الهيمينة في المجتمع العربي لتدلي بدورها على صعيد التأخير في مسار ظاهرة عمالة الأطفال، إذ إن هناك جملة من القيم الثقافية التي تصب في اتجاه مجانبة الظاهرة والحد منها، كقيم التراحم وكفالة اليتيم، والعطف على الصغير وحمايته، والنظر إلى الأب بوصفه رب الأسرة والمسؤول الأول عن إعالتها.

في المقابل لمة قيم أخرى تسهم في دعم الظاهرة وشرعنتها، من قبيل رغبة الآباء في اكتساب ابنائهم القدرة على تحمل المسؤولية والاعتماد على الذات، أو توريثهم مهتهم التي توارثوها بدورهم عن أبائهم (مكتب العمل الدولي، 1996، ج). من جانب آخر هناك القيم المادية الاستهلاكية التي عززت مجتمعاتنا، وأخذت تنبؤا مكانة رديئة في ظل طغيان قيم الرسطة والموتلة، مقوضة دعائم الترابط والتراحم الاجتماعي، وفارضة خلاف ذلك أجنداتها المعدة لخدمة قوى السوق والربح، ولو كان ذلك على حساب الفئات الضعيفة المسحوقة.

## هويدا بل دويهي

وللأسفجار المكاني نتيجة لتزايد معدلات الولادة وانخفاض نسب الوفيات هي ضوء ارتقاء مستويات الخدمات الصحية عالميا. إضافة إلى الهجرات القسرية التي تعقب المجاعات والكوارث الطبيعية التي تحتاج مناطق مأهولة من العالم، لكل ذلك إسهامه الواضح في رفع معدلات الإعالة، وتضخم نسب البطالة، وزيادة معدلات الفقر، ومن ثم الإفضاء إلى تقشي المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، التي قد تتقف ظاهرة عمالة الأطفال في طليعتها.

## هويدا بل دويهي

وذاتي الصراعات السياسية لتسهم في تفاقم حجم ظاهرة عمالة الأطفال، وهذا ما تستطوع للمحمة من خلال اندلاع المارك في بعض البقاع، كما هي الحال في فلسطين، والبنان، والصومال، والبوسنة والهرسنة، ورواندا، إذ أسفرت تلك الظروف القاسية من دفع الأطفال إلى ميادين القتال. ونستشهد أيضا بإفرازات أزمة الخليج الثانية التي وجهت الأنظار إلى ظاهرة عمالة الأطفال في الأردن، إذ تمخضت تلك الأزمة عن عودة آلاف الوافدين الذين لم يستطع السوق الأردني المحلي استيعابهم، ومن هنا كان تعاظم العديد من الآفات الاجتماعية، وعلى رأسها عمالة الأطفال.

وإذا كان لظاهرة العمالة لدى الأطفال أسبابها ودوافعها المتعددة، فإن لها في الوقت ذاته آثارها وتداعياتها المتعددة أيضا، التي ستكون موضع اهتمام المحور القادم.

## معاملة الأطفال : الإكراه والتعاطف

يجدر التأكيد دائما على أن الطفولة ببيان هي تتطلب رعاية ملائمة تضمن لذلك التينان النماء والتكامل بصورة إيجابية متوازنة، ومن الطبيعي أن ينعكس نقص الاهتمام بدعامة من دعائم ذلك

التينان في تعاطفه وتوازن وظائف وحداته.

من هنا، فإن تقويض القوميات الأساسية التي ينبغي لكل طفل أن يتمتع بها في سبيل نمائه السوي، من شأنه أن يقود ذلك الطفل إلى الوقوع فريسة للاضطرابات النفسية والاجتماعية والجسدية، ولتعد ظاهرة معاملة الأطفال من الانتهاكات الصارخة التي تعمل على إزالة تلك القوميات، إذ غالبا ما يضطر الطفل العامل إلى معاشاة ظروف وأوضاع صعبة بالغة الخطورة والإصابات، بدءا برفع الأحمال الثقيلة للرهقة، مروراً بالتعرض لمؤثرات كيميائية وبيئية من أبخرة وغازات، وحرارة، وجليد، وضوضاء... إلخ (سيود، 1997)، وصولاً إلى المخاطر المصنعة بالتعامل مع الآلات والمكينات (Abdullah, 1988).

ورع تلك المعاملة القاسية العنيفة التي قد يتلقاها الطفل من أرباب العمل (مكتب العمل الدولي، 1996، ج) الذين يتلخّن بعضهم في تعذيب الأطفال وترجيح الإصابات اللفظية والجسدية إليهم، والتي قد تصل إلى مستوى الاعتداء الجنسي، تلك الإصابات التي لا تقتني عادة بتلك بصماتها على الأجساد الفضة للأطفال، وإنما تتجاوز ذلك لتوجه ضرويات مرجعة إلى نفسياتهم، مضحية بإحساسهم بالأمن والاستقرار النفسي. ومن شأن فقدان الإحساس بالأمن لدى الطفل أن يزعزع ثقته بنفسه، ويقضي به غالبا إلى الاضطرابات الانفعالية والسلوكية، التي أظهرت الدراسات ارتباطها القين بالحرمان من إشباع دافع الأمن عند الطفولة، كما يتجسد فقدان الإحساس بالأمن عبر شعور الطفل بالقلق، والكلية، وفقدان احترام الذات، والحظ من قيمتها (حمزة، 1997).

وقد أكدت دراسات عدة أن معاشاة الأطفال لأنماط تعاطفية تنبم بالتسامح والود والتعاطف من شأنها الاتجاه بشخصياتهم نحو التوافق النفسي والنماء، خلافا للممارسات التعسفية للتشديد والتسلط، التي كثيرا ما تجعلهم أقل ثقة بأنفسهم والتماجا وتوافقا مع الآخرين، كما تطور لديهم نوازع العدوان وسوء التكيف (Lindgreen, 1974 . Bandura, 1973، وطفة، 1999).

ولتولد من الانكسارات الملاحقة التي تطارد الطفل العامل شروخ عميقة تتوغل في اللاوعي عنده، وهي ظل غياب إمكان التفسير الصحي عن مشاعر القهر والعمز والاستلاب التي تتأجج في أعماقه، ينجح الطفل عادة إلى اجترار وسائل غير سوية للإفصاح عما يعمور في وجدانه من أحاسيس سلبية خائفة.

## أحوال على خلفية معاملة الأطفال

وهذا يعودنا إلى الحديث عن الآثار الاجتماعية السلبية التي قد تنتج عن ظاهرة عمالة الأطفال. ويتبع الخيط الذي يآلف تلك الآثار تجده يمتدّ غالبا بالأذى الواضح الذي يلحق بعملية التحصيل الدراسي، إذ تدفع الظروف العملية الطفل، في العادة، إلى إهمال دروسه والعجز عن مواجهة التطلّيات الدراسية، ما قد يزيد من قابليّات تسريه من المدرسة، إن لم يكن قد تسرب منها بالفعل في وقت سابق. فوارا من الأساليب التدريسية التلقينية المضجرة والقمعية التسلطية التي تحكم أداء معظم مؤسساتنا التربوية، التي تبدو عاجزة هي كثير من الأحوال عن الاستجابة للاحتياجات الحقيقية للأطفال وإقناعهم بجدواها وقيمتها العملية (يونيسيف، 1999).

وعقب انقطاع السلة بين الطالب والمدرسة، سرعان ما يتلقفه سوق العمالة الذي غالبا ما يتركز ضمن نطاق القرى والشاغل في الأحياء الفقيرة لتكتفط، هذا إن لم يتخط من الشارع مقرا دائما له. وبطبيعة الحال يظل أصحاب العمل في البداية قصارى جهدهم لاجتناب الأطفال واستدراجهم إلى القصيدة، بتسخيم حجم الفوائد العملية التي سيجنونها نظير اشتغالهم، والتقليل من شأن الجوانب السلبية للمفردة التي قد يتعرضون لها، التي تستمر في وعي الأطفال بوصفها جزءا جوهريا وضروريا من الحياة العملية. ولنا أن نخيل مستوى الأخلاقيات والقيم التي يشربها الطفل ضمن أجواء كهذه، التي تكسبه في أفضل الأحوال مهارات سلبية كالتدخين والبيّاط والوقاحة، إن لم تلق به إلى هوة الانحراف والإفلاس، أو تدفعه إلى الانخراط ضمن عصابات المصطو، والتسلل، والسرقة، أو تجعل منه عتسوا في إحدى شبكات الدعارة التي لا تنزع عن استغلال الأطفال أبشع استغلال (مكتب العمل الدولي، 1996).

ويروج بعض الباحثين ظاهرة عمالة الأحداث ضمن العوامل الرئيسية السببية لانحراف الأحداث، إلا قد يلغى تشغيل الأحداث إلى فساد أخلاقهم، وامتيازهم لارتكاب الجرائم، نتيجة لظروف العمل من جهة، وبطبيعة بعض الأشخاص الذين يتفاعلون معهم من جهة أخرى. من هنا فإن من الضروري التمسك في وضع الضوابط المتعطة بتشغيل الأطفال والحقولة دون جعلهم وسيلة لتحقيق الأطماع المادية، أو الرغائب الشيطانية لأصحاب العمل والمتضرطين في ضماره (دلاشة، 1988).

وتتعلق احتماليّات انحراف الطفل العامل وتفتقر مكان الإحباط والعنوان لديه في ظل تعاطف حدة التفاوت الطبقي في المجتمع، وتماذي العجوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء، وذلك في ظل إخفاق السياسات الحكومية - في بلدان عربية كثيرة - في تقليص مساحة تلك الفجوة، إن لم تساهم في زيادتها، نتيجة للتحالف العميم القائم بين النخب السياسية والاقتصادية، والذي يزداد قوة ورسوخا على حساب القضايا المحرومة والمستضعفة (جرمين، 1991).

وهي سياق مناقشة الآثار الناجمة عن عمالة الأطفال، لا بد من الإشارة إلى بعض وجهات النظر التي تروى أن للظاهرة آثاراً إيجابية نافعة، فبعض من يرى أنها تؤمن في بعض الأحيان دخلاً يحمي الأسرة من الجوع، ويقيها مؤونة سؤال الناس، وبالرغم من الصعوبة الظاهرية لهذا الرأي، إلا أنه قد يشكل مبرراً يحاول تسويق الظاهرة وعدم اتخاذ الإجراءات الضرورية لتجفيفها، مبرراً في الوقت ذاته المجتمع بتشكيلاته المختلفة من تحمل مسؤولية مواجهة تلك الظاهرة.

وإذا افترضنا جدلاً أن عمالة الطفل دوراً في تنمية قدراته على التعامل مع الآخرين، وإكسابه خبرات وسمات شخصية قوية تؤهله لتجابه تحديات الحياة وضغوطاتها، فإن من الضروري التأكيد على أن تلك الخبرات تأتي في غير وقتها الملائم، كما أنها تلمس غالباً بالطابع الهدوي البسيط الذي لا يترك الطفل مجالاً واسعاً لإعمال عقله وتنمية مداركه وقدراته الذهنية (عازر ورمزي، ١٩٩١).

وهيما يتعلق بالرأي الذي يذهب إلى أن لعمالة الأطفال فضلاً في تزويد الأطفال العاملين بمشاعر الرضى الذاتي والإحساس بالتفوق والتكافة الشخصية، نتيجة إسهامهم في تأمين المتطلبات المعيشية لأسرهم، نرتقي أن تلك المشاعر الإيجابية التي قد يكتسبها الأطفال العاملون سرعان ما تتضاءل أمام فداحة إحساسهم بالفقر، والاغتراب، والانسحاق، وألمام خطورة الأثر السلبي لتركها على هوياتهم السبئية في جوانب حياتهم المختلفة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في المحصلة النهائية، نخلص إلى القول إنه وعلى الرغم من بعض الآراء التي تحاول تبرير عمالة الأطفال ومنحها نوعاً من الشرعية، عبر التركيز على الآثار «الإيجابية» للظاهرة، فإن هذه الدراسة تؤكد الطابع السلبي الملصق بالظاهرة، إذ إنها تحرم الطفل من أبسط حقوقه الأساسية، وتلقي به إلى الضياع ضمن مناهة الذلوث المرعب، «الفقر، الجهل، المرض» الذي يحتاج العالم الثالث بوجه عام، فغالباً ما يشغل الطفل العامل في تحسين أوضاعه المنية، ويتدرج عادة ضمن مهن هامشية لا تساعده على اختراق الإطار النمساوي الذي يتخبط فيه.

ولعل من نافذة القول التأكيد على أن الآثار والنتائج السلبية الخطيرة المترتبة على ظاهرة عمالة الأطفال، التي تم الوقوف عند بعضها، جديرة بتعبئة مختلف جهود الأوساط والهيئات العربية المعنية لمواجهتها والحد من استنفاعاتها، وهما يلي استعراض نقدي للجهود المبذولة بهذا الشأن على الصعيد الأردني، الذي قد يعد نموذجاً معبراً عن وضعية السامي المكرسة في أقطار عربية أخرى، مع مراعاة القروقات والخصوصيات والإمكانات المختلفة لكل قطر.



## مكافحة عمالة الأطفال : الجهود والمساهمة

تتفاوت الجهود المبذولة من قطر عربي لأخر فيما يتعلق بمكافحة ظاهرة عمالة الأطفال على صعيد الكم والكيف، وفي ضوء ضعف التنسيق بين الدول العربية بوجه عام، وقصور مؤسسات العمل العربي المشترك عن أداء دور فاعل باتجاه معالجة الظاهرة والحد منها، فإن من الصعب ضمن دراسة كهذه الإحاطة بمختلف المساهمة المبذولة على امتداد الساحة العربية التي يستدعي بعضها الاهتمام والتقدير دون شك، وعوضاً عن ذلك، ستقوم الدراسة باختيار القطر الأردني، واختصاص تجربته في مجال مكافحة ظاهرة العمالة لدى الأطفال إلى مناقشة تشريعية، تتعرض في سياقها للتشريعات القانونية النشطة بالظاهرة، والآليات التي تتوحيها الأجهزة التنفيذية المعنية في الدولة بقصد مجابهتها.

فعلى الصعيد التشريعي، واستناداً إلى قانون العمل رقم (٨) الصادر عام (١٩٩٦)، فقد تم رفع السن القانونية لمرافقة العمل من (١٣) سنة إلى (١٦) سنة، وذلك لردم الفجوة القائمة بين سن التشغيل ومن التعليم الإلزامي.

وعلى الرغم من الطابع الإيجابي لهذا التعديل إلا أنه يسلط من حساباته الأطفال العاملين ضمن نطاق عائلاتهم، أو في الأنشطة الزراعية أو في الخدمة المنزلية، ومن ثم يحرم أولئك الأطفال من التمتع ظل حماية القانون.

ويؤخذ على ذلك التعديل أيضاً إضافة لتحديث السن الأدنى المسموح بها لالتحاق الأطفال بسلك التدريب المهني، ما يشير إلى أنه يقضي الطرف ضمنها عن الحقوق الأطفال الذين تجاوزوا تلك السن بالتدريب على مزاولة الأنشطة المهنية (عبود، ١٩٩٢).

أما قانون التربية والتعليم الصادر سنة (١٩٩٤) فقد أقر إلزامية التعليم للسنوات العشر الأولى من الدراسة، إلا أنه لم يدعم بالآليات التشريعية التي تضمن له الاندراج ضمن حيز التنفيذ الفعلي.

وتجدر الإشارة إلى أن الأردن كان من بين الدول التي صادقت على الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، التي أبرمت عن الأمم المتحدة عام (١٩٨٩)، وتعد هذه الاتفاقية من أكثر الاتفاقيات الدولية أهمية لمختلف الجوانب المتعلقة بالطفولة، وفيما يتصل بمسألة عمالة الأطفال، أكدت المادة رقم (٣٢) من الاتفاقية ضرورة حماية الطفل من التعرض للاستغلال الاقتصادي بكل أشكاله، أو الاضطهاد بإداء أي أعمال قد تشكل إضراراً بصحته أو نماءه الجسماني، أو العقلي، أو النفسي، أو الاجتماعي.

وتفرض تلك الاتفاقية على الدول الأطراف الالتزام بالخطوات الإجرائية التي من شأنها ترجمة نصوصها إلى خطوات فعلية مفعلة، وذلك من حيث تحديد أعمار الأطفال العاملين وتحسين ظروف تشغيلهم.

أما المادة رقم (3٦) من الاتفاقية نفسها فقد أعادت التشديد من جديد على أهمية القصوى لالتزام الدول الأطراف بحماية الأطفال العاملين من مختلف صور الاستغلال التي قد تهمس أنتمهم ورفاههم (First Call For Children, 1990).

وهي السياق الإجمالي لمكافحة الظاهرة: عملت الحكومة الأردنية على إنشاء برنامج وطني للأمن الاجتماعي بالتعاون مع مديرية الأمن العام، وتدرج الإجراءات المبنيّة عن ذلك البرنامج عند ضبط واقعة عمالة الأطفال عبر أربع خطوات: تتمثل الخطوة الأولى في مبادرة كاتب العدل إلى التحذير من خطورة وضع الطفل وإبراز تعارضه مع القانون. أما الخطوة الثانية فتتعلق بتحديد ما إذا كانت الظروف الاقتصادية لأسرة الأطفال مسؤولة عن دفعهم للانخراط في سوق العمالة، تمهيدا لمنح أرباب أسرهم قروضاً تمكنهم من إنشاء مشاريع إنتاجية مدرة الدخل، وهذا ما تعلّمه الخطوة الثالثة من البرنامج. أما الخطوة الرابعة والأخيرة فتتخذ منحى قانونياً، إذ تعطي للقاضي بالاستناد إلى المادتين (٣١، ٣٢) من قانون الأحداث الأردني، الحق في التدخل والتزاع الطفل من أسرته لإدخاله إحدى المؤسسات المعنية برعاية الطفولة. وذلك عند ثبوت عجز أسرته عن تلبية احتياجاته المعيشية، أو إجباره على انضمام سوق العمالة.

ومن الإجراءات الإدارية الأخرى التي تتحمل بالأطفال العاملين- توظيف أولئك الأطفال بالتنسيق مع وزارة التنمية الاجتماعية في أماكن خاصة مهيأة لهم خصيصاً، مع اتخاذ التدابير الاحترازية المناسبة لعزل الأطفال الجانحين عن التهمين أو الحكوميين الذين تجاوزوا سن الطفولة، تمهيدا لدراسة حالاتهم من جانب الكوادر المتخصصة في وزارة التنمية الاجتماعية (الدستور، ١٩٩٩).

فيما تقدم ثم استعراض أبرز التشريعات والإجراءات المصوغة لحماية الأطفال العاملين وإصادة تأهيلهم. ونشير هنا إلى أن الصورة النظرية لتلك الحزمة من التشريعات والإجراءات تعطي انطباعاً إيجابياً مشجعاً، بيد أن الواقع الفعلي المشاهد قد لا يتوافق - للأسف الشديد - مع تلك الصورة المثالية، إذ إن شوارع المدن الأردنية الكبرى، بشكل خاص وكذلك ورشها، لا تزال مكتظة بعشرات الأطفال الذين تقتلهم ظروفهم القاسية وهودا أسواق العمالة، الذين يتعرضون لظروف قاسية تجردهم من أبسط حقوقهم الإنسانية التي كفلتها الشرائع والقوانين، التي تستغلها النخب السياسية مادة لزاودتها وخوض معاركها السياسية أو الانتخابية!

الأمر الذي يستلزم إعادة النظر إلى جدية تلك التشريعات والإجراءات، التي تكاد تبقى حبراً على ورق، وي طرح ضرورة تطويرها، ورفع سويتها وشموليتها، وتوفير الآليات التقنية بتفعيلها ونقلها إلى حيز الفعل الحقيقي.

## الخلاصة والتوصيات

تلخص هذه الدراسة إلى اقتناع عميق مفاده أن مشكلة عمالة الأطفال هي من المشكلات الاجتماعية لفصلية التي تواجه العالم العربي، ليس فقط بحكم كشفها عن عجز الأبنية الاجتماعية لمجتمعاتنا العربية بمختلف أنساقها عن

أداء أدوارها الفعالة بشكل سليم ومتكامل وإنساني، وليس فقط بدعوى آثارها وإدراجاتها السلبية التي تعال في المحصلة النهائية قطاعات المجتمع كافة، وإنما فوق هذا وذلك لتعلقها بشرعية الأطفال هؤلاء الذين يمثلون معقد الأمل، ويرتكز إليهم مصير الأمة ومستقبلها، الذين يحسنون بدورهم طاقة هائلة خلاقة ينبغي استثمارها وإعدادها الإعداد اللازم لجبهة التحديات الخطيرة التي تفرضها الأبنية الثالثة المدججة بنهم العولمة التي لا تظني بالا للأهم الضعيفة الهمشة.

كما تنهي الدراسة إلى القول إن الوعي العربي بخطورة ظاهرة عمالة الأطفال وإبعادها لا يزال - بكل أسفه وبالرغم من صيحات التحذير التي ترفع هنا وهناك من حين لآخر - وعياً بالقسا عزيزاً، لا يتناسب البتة مع ضراوة تلك الظاهرة، واستتعال شأنها، وفداحة انعكاساتها.

من هنا تجد هذه الدراسة أن من المناسب اقتراح بعض التوصيات التي قد تساهم بحصة متواضعة في العمل على مكافحة تلك المشكلة الجسيمة والحد من مظاهرها،  
1. العمل على إجراء دراسات عميقة وموسعة لاستقصاء مكامن الظاهرة، باستجلاء أبعادها وآثارها، وتحديد معدلات انتشارها.

2. ترسيم وتفعيل سياسات نوعية بأخطار الظاهرة وتداعياتها على المجتمع بأساقه كافة.

3. تبني برامج تعاونية منسقة بين مختلف الأطراف والقطاعات الرسمية والشعبية المعنية للحد من تفاقم الظاهرة وتسلخ شيوخها.

4. زيادة الاهتمام بظاهرة التسرب الدراسي ووضع الخطط والبرامج الكفيلة بمعالجتها قدر المستطاع، بوصفها من المسببات الرئيسة لبروز مشكلة عمالة الأطفال.

5. استثمار وسائل الإعلام وثقافته، ومؤسسات التربية والتعليم لإشاعة وتعزيز القيم الإنسانية النبيلة من تكافل وتعاون وإراحم، ومحاربة القيم الدنية الاستهلاكية الدخيلة، وتوظيف موروثنا الثقافي من القيم الأصيلة في هذا الاتجاه.

6. إيلاء العناية القصوى للمؤسسة الأسرية باعتبارها الهيئة التشريعية الأولى للنوط بها مهمة تنشئة الأطفال وتربيتهم تربية سوية متوازنة، تستدخل قيم المجتمع التوطئة وتشدن معابره التشوذة.

كل تلك الخطوات ينبغي أن تتم وفق مخطط قومي التوجه، يتجاوز الأطر الإقليمية الضيقة، إذ إن تكامل الطيريات والقدرات العربية أمر حيوي للغاية للتمكن من مجابهة ظاهرة استرقاقية بمستوى ظاهرة عمالة الأطفال وأخيراً جربت العادة عند مواجهة مشكلة ما على أن نقول لا نقف سلكاً بل سارع إلى صنع شيء ما، أما إذا هذه المشكلة، فلا نملك إلا أن نقول لا تسرع بفعل شيء بل ترفف هناك أولاً.

- الحثي، موسى، ١٩٩٥، دراسة لتقسي وتصنيف الأسباب الناجمة إلى التسرب المبكر من المرحلة الابتدائية في مديرية التربية والتعليم لشواحي عمان للعام الدراسي ١٩٩٧-١٩٩٥، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص. ص ٢٩-٢٠.
- الأميني، محمد تقي، ١٩٨٢، الإسلام وتشاكيل مجده للعصران ترجمة مقلتي، حسن ياسين، دار العلوم، الرياض، ص. ص ٣١٧-٣٢٢.
- التكريتي، نادية، ١٩٩٢، عمل الأطفال في الأردن من بينات مسح العمالة والبطالة والعائدين والفقر، ١٩٩٥، ورقة أعدت لعلاقات ندوة عمل الأطفال التي نظمها المجلس العربي للطفولة، ص. ٢.
- جرمين، جاني، ١٩٦١، الرأسمالية، تحليل، نقد، اتهام، ترجمة، نجدة هاجر وسعيد الغز، الكتلة الأهلية، بيروت، ص. ص ٢٢٩ - ٢٤٠.
- حمزة، جمال مختار، ١٩٩٥، مسألة الأطفال ورؤية نفسية، علم النفس، مجلد ١١، عدد ١، ص. ص ١٥٠ - ١٥٧.
- الحائلي، منهل، ١٩٩١، الواقع الاجتماعي للطفل العربي، الوجداء، عدد ٨٥، ص ١٩٢.
- الحسني، عثمان ع ١٩٩٩، ١٠ أبريل ١٩٩١، ص ٨.
- دلائل، أحمد علي، ١٩٩٤، مشكلات معاصرة مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، ص ٩٠.
- عازي، عادل وناهد وعزي، ١٩٩٧، مسألة الأطفال في مصر، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ومنظمة الأمم المتحدة للأطفال ص ٢٦.
- عود، جانيث، ١٩٩٢، مسألة الطفل في الأردن، دراسة وطنية، مجلة العمل الوطني للطفولة، عمان، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر الأطفال بين واقع الصراخ وواقع العمل، ١٩٩٩.
- غصن، سامي، ٢٠٠٠، أطفال الشوارع، التفتيش الدولية، مجلة الشرطة، وزارة المعارف السعودية، عدد ٨١، ص. ص ٢٨ - ٢٧.
- فرياني، نادر، ١٩٩٢، عمل الأطفال في البلدان العربية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، ص. ص ١٠ - ٢٠.
- فوكوياما، فرانسيس، ١٩٩٢، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة، حسن الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت، ص. ص ١١٦ - ١٢٧.
- فوكوياما، فرانسيس، ٢٠٠٠، عشر سنون على نهاية التاريخ، الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- كريب، إيان، ١٩٩٩، التطورية الاجتماعية من بارنولز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسن علوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص ٣٦٩.
- التراقي، محمود، ١٩٩٦، الجنود الأطفال، العربي، العدد ٤٤، ص ٧٤.
- مرفقة، سومين، ١٩٩٨، عمل الأطفال في المجتمع الأردني، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص. ص ٢٩-٢٠.
- المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٦، ندوة مسألة الأطفال في مصر، التطوير العام، ص. ص ٩ - ١٢.
- المرفقة، ٢٠٠٠، براسة الأطفال بختاها الكبار، مجلة الشرطة، وزارة المعارف السعودية، عدد ٨١، ص. ص ٢٨ - ٢٧.
- مكتب العمل الدولي، ١٩٩٦، عمل الأطفال، حقائق وأرقام، عالم العمل، العدد ١٦، ص ١٢.
- مكتب العمل الدولي، ١٩٩٦، عمل الأطفال نحو إزالة الوصمة، مكتب العمل الدولي، جنيف.

- ١٠ مكتب العمل الدولي، ١٩٩١، عمل الأطفال، غياب المعلومات وعجز في التوجيه، عالم العمل، العدد ١٨، ص ٩٢.
- ١١ مكتب العمل الدولي، ١٩٩٢، عمل الأطفال إساءة لكرامة الإنسان وتزيد هائل الموارد البشرية، عالم العمل، العدد ١، ص ٦٠ - ٦١.
- ١٢ منتدى الفكر العربي، ١٩٩٧، أطفال الشوارع، الطبعة الأولى، مطبع الجمعية العلمية لثقافة الأردن، ص ٢٢.
- ١٣ هدية، مطاوعة، ١٩٩٥، شروط وظروف عمل النساء والأحداث في القطاع غير المنظم والحرف اليدوية ودور الفتيش العمل في إحصائته، العمل، مجلد ١٨، عدد ٦٩، ص ٦٤.
- ١٤ وطنية، علي، ١٩٩١، مظاهر التسلط في الثقافة والفكرية العربية المعاصرة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، الجزائر، عدد ١، ص ٧ - ٢٢.
- ١٥ بوليسيف، ١٩٩٧، وضع الأطفال في العالي، الطبعة الوطنية، عمان، ص ٦٧ - ١٥.
- ١٦ Abdalla, Ahmed, 1988, Child Labour in Egypt: Leather tanning in Cairo. In: Combating Child Labour, Beparto, Azuela and Jo Beydon (editors), International Labour Office, Geneva, P-P. 36- 46.
- ١٧ Bandura, A. 1977, A Social Learning and Personality Development, New York, Holt, Rinehart and Winston, P-P. 60-87.
- ١٨ Beparto, Azuela, 1991, Child Labour: National Legislation on the minimum age for admission to employment or work, Conditions of work digest, Vol. 10, P-P. 8-18.
- ١٩ Bonnet, Michel, 1993, Child Labour in Africa: Development Labour Practices, Vol. 132, No. 1, P. 371.
- ٢٠ Dickens, Charles, 1940, David Copperfield, Longmans, London.
- ٢١ Dickens, Charles, 1868, Oliver Twist, Cambridge University Press.
- ٢٢ Dubrovskoff, Saul, 1958, Out of Utopia, Toward A Reorientation of Sociological Analysis, The Am. Jour. Soc. Vol. LXIV, P-P. 115-127.
- ٢٣ Grootaert, Christian and Ravi Kanbur, 1995, Child Labour: An economic perspective, International Labour Review, Vol. 134, No. 2, P. 189.
- ٢٤ Lindgreen, H.C. 1974, An Introduction to Social Psychology, New Delhi, Eastern Private Limited, P-P. 96- 100.
- ٢٥ Mustafa, Riyad, 1996, A preliminary Survey of Income Substitution and Basic education Interventions: Amplify the effects of child Labour in the MENA Region, UNICEF, P-P. 25-37.
- ٢٦ Nureick, R. 1991, Social Problems: A critical Approach, New York, McGraw- Hillinc, (third), P-P. 383-389.
- ٢٧ UNICEF, 1990, First Call For Children: World Declaration and Plan of Action from the World Summit for Children, Convention on the Rights for Child, Unicef, P-P. 62- 65.
- ٢٨ United Nation Children's Fund, 1993, Women and Children in the Arab Mighberk, UNICEF, P. 23.

# المجلة العربية للعلوم الإنسانية

علمية . أكاديمية . فصلية . محكمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي . جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١

رئيس التحرير: أ. د. عبد الملك خلف التميمي

## الانتراكات

الكويت، 3 دنانير . ديتوان للطلاب، 15 ديناراً للدراسات .  
الدول العربية، 4 دنانير للأفراد، 15 ديناراً للمؤسسات .  
الدول الأجنبية، 15 دولاراً للأفراد، 60 دولاراً للمؤسسات .

بحوث باللغة العربية والإنجليزية  
ندوات . مناقشات . عروض كتب . تقارير

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير

ص. ب. 20585 الصفاة - رمز بريدي 13126 الكويت

هاتف، 4817689 - 4815453 - فاكس، 4812514

e-mail: ajh@kucel.kuniv.edu.kw

يملك الإفراد على المجلة بالتعبير العربية والإنجليزية مع القدرة على لغة الإنكليز

<http://kucel.kuniv.edu.kw/~ajh>

# آفاق نقدية

• المشاركة السياسية **فخ** الفقه السياسي

• الأبعاد الدستورية ثقافية لنظرية القراءة

• نقد أسطورة الديمقراطية

• الإبداع الإداري **فخ** تلك البيروقراطية

• قوة العلم العربي

• الفن التشكيلي **فخ** المملكة العربية السعودية

## المشاركة السياسية في الفقه السياسي المعاصر

د. سيد أبو ضيف أحمد\*

### مقدمة

يعد موضوع المشاركة السياسية من أهم الموضوعات التي تشغل اهتمام الباحثين والعلماء في مجال العلوم الاجتماعية، خاصة علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والإدارة، سواء أكان ذلك في الدول النامية أو المتقدمة.

وللموضوع أهميته الأكاديمية، فقد أقرز لنا العلماء والباحثون كما هنالك من الدراسات عن المشاركة السياسية الجماهيرية، اهتمت في الأعم الأغلب بدراسة الاتجاهات أكثر من دراسة السلوكيات، فالاهتمام بدراسة المشاركة وليس مجرد التصويت - على سبيل المثال - قد يؤدي إلى نقل بؤرة التركيز إلى الأفعال التي تكون مؤثرة بشكل أكبر بغلق التصويت - أو على الأقل إلى الأفعال التي يحتمل أكثر أن يكون الفرد فيها ذا تأثير في الحصول على نتيجة مفضلة. كما أن للموضوع أهميته العملية، خاصة في المجتمعات التي تمر بظروف التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومحاولة تحديد إطار مجتمعي يزيد من إمكان الحراك الاجتماعي اقتصادياً وسياسياً، ويظهر قنوات المشاركة والتعبير عن الرأي.

ومن هنا فالسؤال الرئيسي لهذا البحث يدور حول «لماذا يشارك الناس؟» ومن ثم كيف حاولت الأطروحات النظرية تقديم تفسيرات لهذه المشاركة؟. وذلك لكي تتمكن من كشف الحفزات الدافعة والتعابير الصاحبة لعملية المشاركة، فضلاً عن التعرف على مؤشرات العقلانية التي تصنف أفعال المشاركة المختلفة.

(\*) استاذ العلوم السياسية المساعد - جامعة قناة السويس - جمهورية مصر العربية.



## المشاركة السياسية في العهد الناصري

وهي محاولة منا لوضع تأصيل نظري لوضوح المشاركة السياسية صُمِمت هيكلية البحث لتشمل خمسة محاور أساسية:

الأول: مدخل تمهيدي لتوضيح ماهية المشاركة السياسية، واستعراض التساؤلات المتعلقة بهذا المفهوم.

الثاني: استعراض وتحليل أهم الدراسات التي ركزت على التفسيرات الاقتصادية/ الاجتماعية للمشاركة.

الثالث: استعراض وتحليل أهم الدراسات التي ركزت على نموذج التنمية كأساس للمشاركة السياسية.

الرابع: عقلانية المشاركة.

الخامس والأخير: نحو تفسير لأزمة المشاركة في البلاد العربية.

### أولاً : ماهية المشاركة السياسية

شكّل مفهوم المشاركة السياسية صعوبة أمام محاولات تعريفه، فقد يستخدم للدلالة على أي عمل يشير إلى رفع المطالب للسلطة، أو تأكيد تلك السلطة، وقد لا يقتصر المفهوم على مجرد الجهود الناجحة للتأثير في الحكومة أو لاختيار قائدها، وإنما يمكن أن تشمل جهود بعض الجماعات في محاولتها تغيير السياسات أو القيادة.

وتعرف الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية المشاركة السياسية على أنها «تلك الأنشطة الإرادية التي يقوم بها أفراد مجتمع معين بغية اختيار حكاهم، والمساهمة في صنع السياسة العامة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر»<sup>(1)</sup>

وهذا التعريف للمشاركة السياسية يشمل في معناه العام - عند بعض الباحثين - مجموعة من الأنشطة منها<sup>(2)</sup>، الدخول في مناقشات سياسية مع الغير، حضور المؤتمرات السياسية والدعوة إليها، الاتصال بالمسؤولين السياسيين، الانخراط في عضوية الأحزاب السياسية، الترشح للمناصب العامة، تقلد المناصب السياسية.

كما يشير المفهوم عند طرف ثانٍ<sup>(3)</sup> إلى أنها تعني «مشاركة أعداد غفيرة من المواطنين في الحياة السياسية، سواء على مستوى رسم السياسة العامة، أو صنع القرار واتخاذ والتفويض». كما يعني عند طرف ثالث<sup>(4)</sup> «مساهمة الشعب أفراداً وجماعات ضمن نظام ديمقراطي». فهم كأفراد يمكنهم أن يساهموا في الحياة السياسية كأطرين أو عناصر نشطة سياسياً، وكمجموعات من خلال العمل الجماعي كأعضاء في منظمات مجتمعية أو نقابات مهنية أو أحزاب سياسية لتنظيم مشاركة طائفة للأفراد في الحياة السياسية.

كما يعرفها Myron Weiner<sup>(١٦)</sup> على أنها نشاط اختياري يهدف إلى التأثير في اختيارات السياسات العامة / أو اختيار السياسيين - على المستوى القومي أو المحلي - سواء أكان هذا النشاط ناجحاً أو غير ناجح، منظماً أو غير منظم، مستمراً أو مؤقتاً.

ومن ثم يمكن التعبير عن المشاركة السياسية من خلال مؤشرات عدة: كالتصويت في الانتخابات، عضوية الأحزاب السياسية، أو مجرد الانضمام إلى حزب سياسي، الاشتراك في اتخاذ القرار السياسي، أو مجرد الاشتراك في مناقشة أمر من أمور السياسة، وإنتاج أو استهلاك المعلومات السياسية من خلال وسائل الإعلام، كل هذا في حد ذاته تعبير عن المشاركة السياسية<sup>(١٧)</sup>.

كما أن للمشاركة نوعاً آخر قد يبدو في مظهره سلبياً، ولكنه في حقيقته عملاً إيجابياً، حيث تترتب عليه نتائج إيجابية مرغوب فيها؛ فبعض الباحثين يعتبر أن الإعراس عن السياسة أو ما يعرف بالاشتراك السياسي يعكس موقفاً وهو الإحساس بعدم فاعلية العمل السياسي وبالتالي فهو في حد ذاته مشاركة سياسية<sup>(١٨)</sup>.

وينضح مما سبق أن مفهوم المشاركة السياسية بالرغم من تعدد وتنوع تعريفاته، إلا أنه يعني في معناه العام في تقديرنا «العملية التي يقوم الفرد من خلالها بالإسهام الحر الواعي في صياغة نمط الحياة المجتمعية في التواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وذلك بأن تتاح له الفرصة الكافية للمشاركة في وضع الأهداف العامة لحركة المجتمع، وتصور أفضل الوسائل لتحقيق هذه الأهداف وتحديد دور في إنجاز المهام اليومية، التي تتجمع على المستوى القومي في صورة أهداف عامة ويكون الفرد ملتزماً بها، مشاركة في صياغتها، ومداها عليها في مواجهة كل ما يعترض سبيل تحقيقها من عقبات».

إن تحديد ماهية المشاركة السياسية في إطار هذا المعنى، على بساطته، يضع أمام الباحث المدقق عدداً من التساؤلات والتحديات يمكن بحثها من خلال النظر إلى الجوانب المختلفة لمفهوم المشاركة. فالتعريف السابق يحدد المشاركة على أنها «فعل أو سلوك مادي وليس مجرد اتجاهات ومشاعر، وبالتالي فهي نوع من النشاط، وأن لهذا النشاط وجوهاً عديدة تبدأ من قراءة أو استهلاك المادة السياسية من خلال وسائل الإعلام، والمساهمة في عملية صنع القرار السياسي، أو عملية تنفيذه».

إن هذا الفعل المادي يجب أن تتوافر فيه الصفة الاختيارية، فالفروض ألا يكون المواطن مجبراً على المشاركة، وبالتالي يدعونا ذلك إلى النظر للمشاركة من حيث نطلق الفعل التشاركي الاختياري، والتساؤل هنا: ما نطاق المشاركة؟ هل هو المجال السياسي فقط، أو يمتداه ليشمل الأنشطة الاجتماعية الأخرى؟ وما اعتبارات قصورها على مجال دون غيره؟ حيث يمكننا التمييز هنا بين ثلاثة مجالات للمشاركة: هي المجال السياسي، والمجال الاقتصادي/الاجتماعي، والمجال الثقافي.

## المشاركة السياسية في الفقه السياسي المعاصر

أما ما يتعلق بطبيعة الفعل الشاركي، بمعنى ماهية الصيغ والمسالك المطروحة للمشاركة؟ وهنا يمكننا التمييز بين المشاركة الإيجابية والمشاركة السلبية..

ومن زاوية النطاق الجغرافي للمشاركة، يمكننا التمييز بين المشاركة السياسية في إطار البيئة الداخلية للنظام، والمشاركة في إطار البيئة الخارجية له<sup>(1)</sup>. فالبيئة الداخلية تشمل العملية السياسية في المجتمع ككل، أي ( على المستوى القومي)، والعملية السياسية على المستوى المحلي (مقاطعة، محافظة، ولاية، مدينة، قرية... الخ).

كما يمكن تصور المشاركة السياسية على المستويين القومي والمحلي من خلال المؤسسات غير الرسمية للنظام، وهو ما يتضح بصورة أكبر بالنسبة للمشاركة السياسية في إطار البيئة الخارجية ( الإقليمية/العالمية)، خاصة من قبل مواطني الدولة في الخارج، تأييداً ومساندة أو معارضة ومهاجمة، وهو ما تكون له انعكاساته أيضاً على المشاركة في إطار البيئة الداخلية.

كذلك تعددت درجات الفعل الشاركي من زاوية النظر إلى المصادر الفكرية الليبرالية والاشتراكية وخبرات الدول النامية. فالليبرالية تجعل المشاركة في إطار مدخلات النظام السياسي من خلال الانتخابات والاستفتاءات والأنشطة المرتبطة بعملية التصويت، من الاهتمام بالعملية السياسية، والحملات الدعائية، والمضوية في التنظيمات السياسية وشية السياسية، على حين ترى الأيديولوجية الاشتراكية أن مخرجات النظام السياسي والعملية السياسية موضوع المشاركة، واعتبر المباحثون الماركسيون العنف بأشكاله كصفة للمشاركة في مرحلة الصراع الطبقي. ولا يمكن له بعد سيطرة الأقلية على السلطة، في الوقت الذي رفضته المدرسة الليبرالية باعتباره ظاهرة مرضية يجب القضاء عليها في المجتمع الديمقراطي. بالرغم من وجوده وانتشاره في عدد من البلدان النامية، واعتباره سمة من سمات العملية السياسية في هذه البلاد<sup>(2)</sup>.

كما أنه من المؤكد أن النظم السياسية في الدول النامية تقدم خبرة مختلفة عن تلك التي تقدمها كل من الخبرة الاشتراكية والليبرالية. وأن اختلاف الخبرات يخلق - في تقديرنا - اختلافاً في الصيغ أو الدرجات التي تعبر عن المشاركة السياسية، ولكن هذه الصيغ، بغض النظر عن ماهيتها، تهدف في البداية والنهاية إلى التأثير أو الإسهام في/أو توجيه العملية السياسية والتحكم في مخرجاتها.

وهنا يتار التساؤل: «هل هناك صيغ للمشاركة تصلح للاختيار في نظم سياسية معينة؟ أما من حيث تحديد من يتعامل الشاركي، فالتساؤل هنا: هل المشاركة جماعية أو مشاركة أقلية/تلبية؟ بمعنى ما نمط المشاركة المقصود، هل هو مشاركة شعبية وغير محددة أم مشاركة الأقلية النشطة؟ وهذا يتوقف على طبيعة العلاقة بين النظام السياسي والمواطن، فقد تكون

علاقة مباشرة، وقد تكون غير مباشرة، أي من خلال وسيط، مثل التنظيمات والجماعات السياسية، ومن ثم فإن دراسة المشاركة لا تقتصر على دراسة مشاركة المواطن العادي، أو المشاركة الجماهيرية، وإنما أيضا تشمل دراسة الجماعات والتنظيمات السياسية وشبه السياسية، الحكومية والشيوعية<sup>(1)</sup>.

كما أشارت العديد من الدراسات إلى ما للمشاركة السياسية من مستويات كثيرة من حيث صقل أو مدى كثافة ممارستها: فقد قدم بروشر والتوفه مؤشرات عدة تعبر عن درجات صقل تلك المشاركة منها<sup>(2)</sup>، توالي منصب سياسي، السعي إلى منصب سياسي، العضوية الإيجابية في تنظيم سياسي أو شبه سياسي، العضوية العملية فيه، المشاركة في الاجتماعات السياسية والمظاهرات والمسيرات، المشاركة في المناقشات السياسية غير الرسمية، الاهتمام العام بالمسائل السياسية التي لها طابع سياسي، التصويت في الانتخابات.

على أن أدبيات المشاركة السياسية تطرح تصنيفا آخر لأنماط المشاركة طبقا لمعايير الهدف من النشاط، فهناك الأنشطة الفردية والجماعية، القانونية وغير القانونية، التلقائية والمنظمة<sup>(3)</sup>.

كما يمكن تقسيم المشاركين على المستوى الفردي من حيث النشاط والفاعلية إلى: دائرة المتخطين في السياسة، ودائرة المؤثرين في السياسة أو صانعي السياسات والقرارات، دائرة الساندين أو الفاعلين، ثم تأتي دائرة لا تعتبر دائرة مشاركة، وإنما هي قابلة للتعبئة إلى جانب السلطة القائمة أو إلى جانب معارضتها.

<http://Archive.betaz>

**الدائرة الثالثة**، وهي دائرة الناهيين والساتنين، تمثل الهواة المهتمين بالسياسة، ويصعب اهتمامهم في الغالب على المشاركة في الانتخابات و/ أو الاستفتاءات العامة و/ أو المحلية، وعن أهمية التصويت باعتباره مطلباً أساسياً، وإن لم يكن المطلب الوحيد لقيام نظام ديمقراطي، فإنه يقوم بوظائف ثلاث هي<sup>(4)</sup>:

(أ) يمثل الوسيلة الشرعية لاختيار القادة، ومن ثم بعض الفرصة للتخلص من القادة غير الأكفاء أو المنحرفين.

(ب) بعد معنزة المؤشر الأول إلى اختيار الشعب بين السياسات المختلفة، مما يؤكد الصالح العام.

(ج) إنه ميكانيزم لإضفاء الشرعية على النظام السياسي وخاصة في النظم الشمولية والسلطوية<sup>(5)</sup>.

لكن يلاحظ أن هذه الدائرة من المشاركة لا تقتصر على مجرد التوجه إلى صناديق الانتخابات و/ أو الاستفتاءات والإدلاء بالصوت، وإنما قد تشمل الاهتمام والبحث عن المعلومات الخاصة بسير الحملة الانتخابية، ونتاجها الأولية، والدعاية لطرف أو آخر، إلا أنها تتميز بأنها غير مستمرة أو منتظمة أو مؤقتة.

## المشاركة السياسية في العهد السياسي العباسي

والسؤال هنا، لماذا تمتنع نسبة كبيرة من الجماهير عن التصويت، خاصة في الدول النامية؟ وفي اعتقادنا أن ذلك يعود لسبب أو أكثر من الأسباب التالية: عدم كفاية المعلومات عن هذه العملية، قلة الثقة في النظام الانتخابي، عدم شعور تلك الجماهير بأن التصويت واجب سياسي من واجبات المواطنة.

أما **الدائرة الثقافية**، فهي دائرة المؤثرين في السياسة. ومن ثم فهي تمثل دائرة المجددين أو صانعي الطغيات السياسية، وبالتالي فهي مجال للمنظمات الرسمية وغير الرسمية، والجهود الفردية التي تعتمد على روابط تقليدية في النظام. وهي إما سلبية وإما إيجابية، ويتوقف الانتقال من هذه الفئة إلى الدائرة الأعلى، وهي درجة المتطرفين في العملية السياسية، على درجة الحراك الاجتماعي التي يسمح بها النظام<sup>(14)</sup>.

عملية تقديم الطغيات السياسية هي العملية التي يمكن من خلالها للأفراد أو الجماعات توصيل مطالبهم إلى صانعي القرار السياسي، وهي لا تضم قطاعاً عريضاً مثل الدائرة السابقة وإنما تضم مجموعة من التشيطنين سياسياً وجماعات المسلحة، مع اختلاف قنوات ومساكن كل منها. وهي تدبرنا أن الصعوبات التي تواجه الدول النامية وبلادنا العربية بخصوص هذه الدائرة هي: قلة عدد **المشاركين فيها**، فلا توجد في غالبية تلك الدول جماعات مسلحة، حتى إن وجدت فهي عاجزة ضعيفة ثقافياً من ناحية، ومن ناحية أخرى نظرة أنظمة الحكم السائدة في هذه الدول إلى بعض أصحاب هذه الجماعات باعتبارها أصحالا عدائية ضد النظام، ويمكن لوسائل الإعلام (صحافة، وإذاعة، تلفزيون) القيام بإثارة المطالب السياسية الجماهيرية وتقديمها إلى السلطة، ولكن المحددات والقيود التي تضعها هذه الدول على وسائل الإعلام تجعل ممارستها لوظيفة التعبير السياسي تتم في أضيق الحدود.

**والدائرة الأولى**، وهي دائرة المتطرفين في الأنشطة السياسية، ومن ثم فهي تمثل دائرة الماعلين في السياسة ومنظميها. فهم متدخلون في صنع السياسة واتخاذ القرار وتنفيذه ومتابعيه، إما بصورة إيجابية، حيث يمتلكون السلطة، وإما سلبية بالمعارضة العنيفة. وتتقدم هذه الدائرة لتشمل الدائرتين السابقتين، ولكنها تتميز عنهما من حيث الكم والكيف، فهي أقل عدداً وتعكس خصائص المواطن المشارك بدرجة أعظم<sup>(15)</sup>.

وهي اعتقادنا بناء على معطيات التحليل السابقة تشير مستويات المشاركة، على المستوى الفردي والجماعي، إلى أن كل النظم السياسية، الديمقراطية منها والشمولية تسمى إلى تحقيق قدر أكبر من المشاركة السياسية، حتى إن اختلف مفهوم للمشاركة السياسية في كليهما، فهي تعني في النظم الشمولية ضمان المساندة والتأييد للنظام أو الحزب في البلاد التي تسمح بوجود الأحزاب، وبالتالي التأييد والمساندة للحكومة وما تطرح من سياسات وبرامج. وهذه حال كثير من الأنظمة السياسية في الدول العربية، على حين تعني في النظم

الديمقراطية الليبرالية توسيع مجالات المشاركة الجماهيرية في صنع القرار. والحقيقة التي نسلّم بها كل الأنظمة السياسية المعاصرة هي حقيقة تزايد فرص المشاركة، وتزايد ضعفها، وذلك في الدول المتقدمة والنامية على السواء<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: الأساس الذي تكمن عليه التغييرات الاقتصادية / الاجتماعية للمشاركة

ظهر منذ ستينيات القرن العشرين عدد من الدراسات النظرية والتجريبية الهامة للمشاركة السياسية، اعتمدت في أغلبها على نموذج الحالة الاقتصادية / الاجتماعية مثل<sup>(2)</sup>:

(G.Almond and S. Verba (1963), (Milbrath (1965), (Verba and Nie; 1972), (Salisbury;1973), (Barnes and Kans;1979).

ونلاحظ أن هذه الدراسات بصفتها عامة تشير إلى أن المشاركة السياسية تحركها أساساً موارد الأفراد. التي تتمثل في الوقت والمال والمهارات، وتوجهات الأفراد تجاه أنفسهم وتجاه النظام السياسي. وأن أفراد الطبقات العليا الذين يعيشون في بيئات اجتماعية تشجع على الاتجاهات الإيجابية نحو المشاركة، لديهم أكثر مشاركة في العملية السياسية بشكل يفوق أفراد الطبقات الدنيا.

وتلبي ذلك كم هائل من الدراسات. فليست الزيادة من الأدلة المؤيدة لنموذج الحالة الاقتصادية/ الاجتماعية وأهمها<sup>(3)</sup>:  
(Verba, Nie and Kim;1978), (Jennings, 1979), (Ben,Dirck Acocck and Scott; 1980), (Oggema; 1987) (Dalton;1988), (Verba,Schlosman,Brad and Leighley; 1990), (Nie; 1991), (Kenny; 1992).

كما يلاحظ أن هذه الدراسات ركزت على الخصائص الاجتماعية للأفراد مثل التعليم، السن، الدخل، الجنس... إلخ، وتوصلت إلى أن الأفراد ذوي المستويات المالية من التعليم يكونون أكثر مشاركة في العملية السياسية من غيرهم من ذوي المستويات التعليمية الدنيا (Verba and Nie; 1978).

كما أن هذه الأبحاث والدراسات ألقت بالضوء الكثيف على تحليلات المتغيرات المتعددة، والمقارنات بين المتغيرات الثنائية لمدلات المشاركة للمجموعات الديموغرافية، بمرافقة السن والدخل والتعليم والجنس والنوع. فالبرغم من أن تأثير الدخل في المشاركة أقل بكثير من تأثير التعليم، فإن المشاركة تزداد مع تقدم السن، ومع حدوث بعض الانخفاض بين كبار السن، بالنسبة للأنماط الأكثر شيوعاً (Jennings; 1979)، وكذلك أيضاً (Jennings and Merkus (1988)<sup>(4)</sup>.

## المشاركة السياسية في النظم السياسية المعاصر

وعند مراجعة بعض النواحي التخصصية لبعض هذه الأبحاث سوف نجد بعض التعارض والاختلافات في بعض الجزئيات، فعلى سبيل المثال لقد تغيرت معدلات المشاركة للرجال والنساء في بعض البلدان المتقدمة بشكل جوهري في العقود الأخيرة من القرن العشرين، فالنساء أصبحن على قدم المساواة مع الرجال في التصويت في الانتخابات (Rosenston and Hanson: 1993).<sup>(17)</sup>

في حين أشار البعض من هذه الدراسات إلى وجود بعض الاختلافات البسيطة بين مشاركة الرجال والنساء في مستويات المشاركة في الأنماط الأخرى من الأنشطة (Schlosman, Burns and Verba: 1993)، (Conway: 1991).<sup>(18)</sup> ويرجع البعض انخفاض اشتراك النساء في العملية السياسية عن الرجال إلى تباين التركيب الاجتماعي ومسؤوليات الأسرة (Jennings: 1979)، فحسباً عن بعض النواحي الديموقراطية (Anderson and Cook: 1985).<sup>(19)</sup>

كما يشير بعض الباحثين إلى تباين وتنوع معدلات المشاركة لأسباب تتعلق بالجنس، والعوامل المتعلقة بالعرف والعادات الاجتماعية (Nie, Verba, Bardsy and Junn: 1988).<sup>(20)</sup> بالإضافة إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي للأسرة (Uhlamer, Bruce and Kiewiet: 1989).<sup>(21)</sup>

فالأقليات العرقية أحياناً تكون أكثر مشاركة، وهي أحياناً أخرى تكون أقل، وذلك يعتمد على النوع المحدد للمشاركة، وعلى الفترة الزمنية محل البحث (Robo and Gilliam: 1990) وكذلك أيضاً (Berry, portong and Thomson 1990).<sup>(22)</sup>

ويوضح أحد الباحثين الاختلاف في معدلات المشاركة، ففي الفترة من ١٩٨٧-٩٧، حيث كانت معدلات المشاركة للبيض والسود تعكس التغيرات في الهيكل الديموسي في السياسة الأمريكية، لقد نتج عن تغير الوضع لحركة الحقوق المدنية أن أصبح السود أقل مشاركة في السياسة العامة في عام ١٩٨٧ عنه في عام ١٩٦٧ (Mohal: 1991).<sup>(23)</sup> وهذا يوحي لنا بأن الفروق والاختلافات في مستويات المشاركة بين البيض والسود تعكس الموانع الهيكلية أو أنماط التعبئة التفاضلية في عملية المشاركة، كما أن الفروق المتصلة بالجنس بالنسبة للتابعين هي فروق ضمنية في حجمها؛ فمن حيث التعليم والدخل نجد أن السود يقومون بالانتخاب مثلهم مثل البيض، أما من حيث الديموغرافيا والتوجهات المدنية، نجد أن السود أكثر بدرجة طفيفة في التصويت، كما يذهب أحد الباحثين (Teixeria: 1992).<sup>(24)</sup>

ومع ذلك فإن كثيراً من المعالجات السياسية للفروق والاختلافات المرتبطة بالجنس في تحول الناخبين تتجاهل دور إدراك المجموعة كمؤشر إلى المشاركة، التي غالباً ما تكون ذات أهمية، وهذا ما يتوقف على نوع وطبيعة المقياس المستخدم (Moran: 1991).<sup>(25)</sup> وكذلك

(Abranson and Claggett 1988)<sup>(٢٧)</sup> ومع تقديرنا للنموذج الحالي الاقتصادية/الاجتماعية لتفسير المشاركة السياسية، الذي قُبل وانتشر بشكل واسع بين الباحثين والدارسين، إلا أن هذا النموذج تعرض للعديد من الانتقادات التي نلعل في:

(أ) إن هذا النموذج (الاقتصادي/ الاجتماعي) يفترض أن الاتجاهات تسبق السلوك، أي بعبارة أخرى أن التوجهات العقلية الإيجابية هي سابقة لأفعال المشاركة. إلا أن ثمة أمثلة معينة من المشاركة، تزيد وتدعم العديد من الاتجاهات السياسية، بما هي ذلك الضمائية والكفاءة السياسية (Frinkle; 1985)<sup>(٢٨)</sup>. وعلى ذلك فإن مقاييس الاتجاهات السابقة على الاحتجاج هي مؤشرات قد تكون غير مهمة للاحتجاج، في حين أن مقاييس الاتجاهات بعد الاحتجاج هي مؤشرات قوية للاحتجاج (Pierce and Converse; 1990)<sup>(٢٩)</sup>.

(ب) ثمة انتقاد آخر يتعلق بالافتراضات الخاصة بفعل المشاركة: فمن المفترض أن المشاركة هي نشاط مؤلف من أجزاء صغيرة وعديدة، فكلما نُحضر فرد معين على المشاركة، فإن هذا يكون ضرورياً وكافياً لكي تحدث المشاركة. ومع ذلك فهناك أمثلة عدة من المشاركة ليست مهمة من الناحية الفردية مثل: حضور الاجتماعات السياسية، والتصويت في الانتخابات، التوقيع على عريضة، الانضمام إلى جماعة معينة، حتى لو كان الفرد معزولاً لحضور اجتماع أو التوقيع على عريضة، فإذا لم يكن الاجتماع جماعياً أو مجهولاً أو العريضة جاهزة للتوقيع، فإن فعل المشاركة هي أغلب الأحيان يجد ما يمنعه أو يوقفه (Leighley; 1991) وكذلك (Leighley; 1995)<sup>(٣٠)</sup>.

(ج) كذلك الافتراض بأن فرض المشاركة موزعة بالتساوي بين السكان، وما ينتج عن ذلك من افتراض أن أفراد الطبقة العليا يشاركون بمعدلات أعلى من أفراد الطبقة الدنيا، فإذا افترضنا أن لأفراد الطبقة الدنيا فرصاً أقل للمشاركة - عندئذ - تكون معدلات التباين للأفراد من الطبقة الدنيا ومن الطبقة العليا تعكس الفرض المتباينة للمشاركة.

كذلك أيضاً فإن العضوية في المنظمات التطوعية التي تعين أعضائها للمشاركة بشكل واضح تتركز بين أفراد الطبقة العليا (Goodwin 1988)(Hansen; 1985)<sup>(٣١)</sup>. وهذا يدل على أنه من المحتمل وجود هيكل للفرض المتباينة بين الطبقات الاجتماعية/الاقتصادية.

(د) كما أن مشاركة الفرد تتنوع وتختلف بمرور الوقت، وبما استجابة للتغيرات في ظروف الحياة وهي البيئة الاجتماعية والاقتصادية. إلا أن هذا النموذج لا يقدم لنا إلا رؤية واضحة للسبب الكامن وراء اشتراك أفراد الطبقة العليا في النشاط السياسي، في فترات معينة،



## المشاركة السياسية في الفتح السياسي العام

وامتناعهم عن المشاركة في فترات أخرى، وعلى الرغم من توافر هذه الاتجاهات أو الموارد الأخرى لأفراد الطبقة العليا يقل سبب انتمائهم من المشاركة مثبها للتساؤل (هـ) الفروق والاختلافات بين أنماط المشاركة وفقا لنموذج الحالة الاقتصادية/الاجتماعية . تبقى كما هو مفترض . غير ذات أهمية (Verba and Nie: 1972).

وسبب ذلك أن هذا النموذج قد استخدم لتقدير المستوى العام الكلي للمشاركة، على الرغم من أن المؤشرات المتوفرة المستخدمة لتصل بشكل جوهري بواحد (وليس بكل) أنماط المشاركة، وهذا يعني أن هناك تداخلا ضئيلا بين أولئك الأفراد الذين يشاركون في أنشطة الانتخابات، وهؤلاء هم من الطبقة العليا، إلا أن ذلك لا يقدم لنا تفسيراً، لماذا يختار بعضهم الاشتراك في أنشطة انتخابية، بينما يفضل البعض الآخر الاشتراك في أنشطة غير انتخابية، وكلاهما من الطبقة العليا (Verba and Nie:1972). وفي تقديرنا أن هذا الاختيار يرجع إلى رغبات وتفضيلات أفراد الطبقة العليا للصراع والمناقشة. على حين يقدم (Rosenstone and Harrison: 1995) تفسيراً بديلاً ينحى إلى أن الأفراد تتم تعبئتهم من خلال الأحزاب السياسية، في حين أن بعضهم يتم تعبئته من خلال جماعات انتخابية، وهذا ما سوف نبينه وفقاً لنموذج التعبئة الثاني.

### ثالثاً: نموذج التعبئة The Mobilization Model كأساس لدراسة المشاركة السياسية

يقوم نموذج التعبئة على أساس أن المشاركة السياسية هي استجابة لتتميعات المواقف والفرص السياسية التي تشكلها بيئة الأفراد، وأن الموارد الشخصية (الحالة الاقتصادية/ الاجتماعية) والمحفزات السيكولوجية تمثل عناصر ومكونات نموذج التعبئة..

ويقدم (Rosenstone and Hamisen:1993) أكثر النتائج شمولاً لنموذج التعبئة، وذلك بفحص أشكال المشاركة في الأنشطة الانتخابية وغير الانتخابية<sup>(13)</sup>، ويقولان بأن القادة السياسيين يقومون بالتعبئة للمشاركة في الأنشطة غير الانتخابية التي تدور حول موضوعات معينة، وذلك على المستوى القومي، وأن التعبئة تنتج عن الجهود المباشرة للجمعيات والاتحادات التطوعية، وقد نتج بشكل غير مباشر عبر التغطية التلفزيونية للأحداث والموضوعات السياسية.

كما ينحيزان إلى القول بأن التعبئة داخل الأنشطة الانتخابية هي وظيفة الاتصال الحزبي والمناقشة الانتخابية وأنشطة الحركة الاجتماعية، كما أن الجمعيات والاتحادات التطوعية تلعب دوراً مهماً وحساساً في تعبئة النشاط السياسي للأفراد<sup>(14)</sup>.

في الواقع أشار بعض الباحثين إلى عملية تعبئة الجماعة، وما تقوم به المنظمات التطوعية من زيادة ميل الفرد ليكون مشاركاً، لأنها تعطيه الفرصة للتدريب على المشاركة داخل المنظمة، ومن ثم يمكن نقله إلى ميدان السياسة، فالتهم هنا ليس مجرد العضوية في المنظمة، وإنما إعطاء الفرصة للنشاط الذي تصطبغ به المنظمة، كما أن العضوية النشيطة في المنظمات التطوعية تزيد من مستوى المشاركة الكلي للأفراد والمجتمع، وأن المنظمات السياسية لها تأثير أقوى في الأفراد وهي أعضائها، وينعكس هذا التأثير في النشاط السياسي الجماعي والعمليات الدعائية والتصويتية<sup>(10)</sup>.

كما ذهب كل من (Verba, Nie and Kim, 1978) إلى أهمية التعبئة الجماعية، وأن عمليات تعبئة المجموعة تفسر الفروق على المستوى القومي في العلاقة بين الحالة الاقتصادية / الاجتماعية والمشاركة، فعندما توجه عمليات تعبئة المجموعات نحو الطبقة الدنيا تكون ضعيفة، والعلاقة بين الحالة الاجتماعية / الاقتصادية والمشاركة قوية. وعندما تكون عمليات تعبئة المجموعات قوية، تكون العلاقة بين الحالة الاجتماعية / الاقتصادية والمشاركة السياسية ضعيفة التأثير<sup>(11)</sup>. وأوضح (Davis, 1983) من تحليله للمصنع المهداتي في كل من المكسيك وفنزويلا أن العمال في النظام السياسي الأكثر انغلاقاً لا يحولون مواردهم الاجتماعية / الاقتصادية للنشاط السياسي<sup>(12)</sup>. كذلك قد أرجع عدد من الدراسات منها: (Harris, 1994) (Gilbert, 1993) (Kenny, 1992) (Knack, 1990) مشاركة الأفراد في الحركات الاجتماعية إلى درجة تعبئة المجموعات ومدى ميلهم - بشكل موات - إلى أهداف ووسائل الحركة، وذلك من خلال الاتصالات الرسمية وغير الرسمية التي يقومون بها في الحركات الاجتماعية<sup>(13)</sup>. وهذا يؤكد على القصور بديل للحالة الاجتماعية / الاقتصادية، حيث إن الحالة الاجتماعية / الاقتصادية العالية تكون مسحوقة بمشاركة سياسية؛ لأنها تضع الفرد في سياق اجتماعي تكون فيه فرص المشاركة وهيرة.

كما لاحظ علماء السياسة مدى أهمية هيكل الفرص السياسية بالنسبة لكل من مستوى الصفوة والمستوى الجماهيري فيرى (Bowman and Boynton, 1966)<sup>(14)</sup> أن السبب الأكثر شيوعاً لهذا النشاط السياسي يقدمه زعماء الأحزاب المحلية، كما وجد (Beck and Jennings, 1979)<sup>(15)</sup> أن الحكمة التقليدية قد انعكست في أواخر الستينيات عندما كان الأفراد الأصغر سناً يشاركون بشكل أكبر من كبار السن، كما أن القهريين يشاركون بدرجة أكبر من المحافظين، وأدى ذلك إلى نتيجة مفادها أن هذه العلاقات نتجت عن هيكل الفرص السياسية الفريدة في أواخر الستينيات من القرن العشرين، التي أدت إلى مشاركة الشباب القهريين بصورة أكبر من كبار السن والمحافظين، لأن ثمة فرصاً أكثر كانت متاحة لهم لتلقاها بذلك.

## أولاً: عقلانية المشاركة The Rationality of Participation

هناك افتراض عام بأن «المشاركة السياسية عقلانية، أي أن الأفراد يشتركون في النشاط السياسي لتحقيق أهداف معينة، فهم يشيرون للمشاركة عندما تكون الاستفادة من مثل هذا النشاط تفوق التكاليف».

وحاول بعض الباحثين دراسة العائد من المشاركة من خلال بعض النماذج التي قدمها كل من (Downs, 1957) (Olson, 1965) (Votha and Nie, 1972) (Muller and Opp, 1986) (Uhlmer, 1988). لدراسة موضوعات مهمة للمشاركة مثل: تحول الناخبين، التصويت في الانتخابات، الأنماط والصور الأخرى للمشاركة، مدى الاستفادة الجماعية من المشاركة، أنماط الاحتجاج الشرعي وغير الشرعي ... الخ.

هيري Downs أن الاستفادة التي يحصل عليها الأفراد (في المدى البعيد) تتمثل في قيم الحفاظ على الديمقراطية. ويطالب Olson بتقديم حوافز انتقائية للأفراد الذين اختاروا أن يساركونا. حيث ذكر على نعمت المشاركة من خلال مجموعة المجموعة وأوضح أن الأعضاء يطلبون معفزات معينة كمسبب أو حافز للانضمام أو للمشاركة في أنشطة إضافية، بالإضافة إلى دور الأيديولوجية كعامل مهم في هذا الصدد، وبالتالي فإن الحوافز تعتبر أساسية في شحذ همم الأفراد للانضمام إلى المجموعات.

ونلاحظ أن هذا التحليل قد ينطبق بصورة أكبر على المجموعات الاقتصادية مثل (الجماعات العمل - الزراعة - ... الخ)، ولكن يحتمل أن يكون أقل فائدة من الجماعات غير الاقتصادية. أو التي يكون سلوكها اللاعقلاني هو أساس المجموعة، ويظهر ذلك جلياً في حالة المظاهرات العنيفة.

واستخدم Uhlmer الاتجاهات الجماعية في دراسة تحول الناخبين لحل التناقض الخاص بتسبب إمكان الفرد لتحديد العائد من الانتخابات، حيث أوضح أن تكلفة الانتخابات هنا تفوق دائما الموائد؛ لذلك يمتنع الأفراد عنها، وبالتالي فإن استخدام الاتجاهات الجماعية تركز على أن قرارات الأفراد للتصويت إنما تعكس جهود قادة المجموعة في تعبئتهم للتصويت، ومن ثم فإن العائد عن بعضها الحصول على الاستفادة من السياسيين المنتخبين، وبناءً على ذلك فإن قرار الأفراد للتصويت هي قرارات استثمار وليست مجرد سلوك تعبيري أو استهلاكي.

5- ذكر Muller and Opp العديد من أنشطة الاحتجاج الشرعي وغير الشرعي في كل من ألمانيا الغربية السابقة والولايات المتحدة، وذهبوا إلى القول بأنه في حالة غياب الحيزاء القائمة الاختيارية للمشاركة، يكون تقييم الأفراد وتقديرهم للضالغ العام يمثل دور الحيزاء الاقتصادية السيكولوجية، الذي يحفز على المشاركة.

ويلاحظ أنه بالرغم من أن هذه الدراسات تغطي الضوء على المشكلات العملية السياسية للدراسات التجريبية لنماذج الاختيار العقلاني في أوروبا والولايات المتحدة، إلا أنها تفتقر حثيرة للتساؤلات والتجديد حول مقاييس المحفزات المختلفة لعملية المشاركة في الدول النامية وبعض البلاد العربية، فضلاً عن كفاية إعداد مثل هذه المقاييس، ومناهج مؤشراتنا.

وعلى الرغم من بعض المحاولات من جانب بعض الباحثين لإعداد مقاييس لمحفزات المصلحة العامة: (Finkle and Opp: 1991)<sup>(17)</sup>، الذين قدموا مقاييساً يشمل على بعض المؤشرات منها: سخط الأفراد على السياسة وعدم رضائهم، ومشاعر التأثير الشخصي في تحقيق الصالح العام، واجتماعات نجاح المجموعة، العقلانية، الجماعية، التبريرات الأخلاقية، كما يلاحظ أيضاً أن افتراض العقلانية قد لاقى بعض التحدي من الادعاء القائل بأن بعض أعمال المشاركة قد تكون تعبيرية في طبيعتها، ويتفق مع هذا القول بأن القيم التعبيرية غالباً ما تذكر بواسطة النشيطين سياسياً في الدراسات التجريبية للمحفزات السياسية بقرارات المشاركة.

ووفقاً لدراسة (Whiteley: 1995) فإن نظرية الاختيار العقلاني (Rational Choice Theory)<sup>(18)</sup> تنبأ بأن المحفزات التعبيرية قد يكون لها صلة بالمشاركة. ومع ذلك فإنه يجد أن المحفزات التعبيرية قد يكون لها صلة بالمشاركة. ومع ذلك فإنه يجد أن أعضاء الحزب ذوي الشخصية الحزبية الأقوى أكثر احتمالاً أن يصيحو نشيطين ومثاليين، وليس بالمثل إلى نتيجة نهائية أو نموذج الاختيار العقلاني نموذج غير كامل لتفسير المشاركة، ومع ذلك يمكننا القول، ولو بشكل بدئي، إن نموذج القائل العقلاني Rational Actor Model مبني على تقسيم الأفراد للتكاليف والاستفادة من عملية المشاركة، وليس مجرد العامل معيّن من الاستفادات (المحفزات) تكون مصاحبة للمشاركة، بعبارة أخرى، لو أن رجلاً معيناً قام بتقدير التعبير عن رأيه بدرجة كافية، فإن المشاركة تكون هنا عقلانية بالكامل، وهذا يتوقف بالطبع على درجة الوعي السياسي، وهذا ما تقتضيه عملية الممارسة السياسية هي غالبية النظم العربية، وانعكاس ذلك على المشاركة الجماهيرية العربية في هذه البلدان، وهو ما سنعرضه لاحقاً.

### خاتمة: نحو تفسير لأزمة المشاركة السياسية في البلاد العربية

يتضح من العرض السابق أن التفسيرات الاقتصادية/الاجتماعية والثقافية لأزمة المشاركة السياسية ليست موضع اتفاق عام، لكن هذا لا يعني استبعادها، كما أن أهميتها تزداد في البلاد التي تنقسم

بضعف مؤسسات المجتمع والجماعات الوسيطة المستقلة التي تبدو أكثر فائدة في تفسير أزمة المشاركة، فهي - بتعبير Huntington - التي توفر الظروف المثالية لتقليص هيمنة الدولة على المجتمع، ومن ثم المساعدة على التطور الديمقراطي<sup>(19)</sup>.

## المشاركة السياسية في العهد المملوحي

وقد توصلت بعض الأبحاث التجريبية عن تطور الديمقراطية في عدد من دول العالم الثالث إلى أن بعض الدول التي عرفت الخبرة الأكثر نجاحاً في التطور الديمقراطي، مثل الهند، ناهزت بها شبكة واسعة من المؤسسات التطوعية المتطورة والمستقلة، التي يساعد وجودها على الحد من ظهور نزاعات سطوية في الحكم، كما أن توافر مؤسسات من هذا النوع في دول أخرى، حتى بمستويات أقل، أدى إلى سقوط بعض الأنظمة السطوية، كما حدث في الفلبين إبان حكم ماركوس<sup>(٩٤)</sup>.

كما يمكن القول بأن غياب أو ضعف أو محدودية مؤسسات المجتمع المدني يضاعف إمكانات تطور نمط حديث من التنظيم السياسي التعدي، وبالتالي نظام ديمقراطي يشجع على المشاركة الفاعلة. وقد ثبت وجود علاقة وثيقة بين مستوى تطور التنظيم الحزبي وإمكان قيام حكومات على أساس انتخابات حرة تنافسية، فعند Huntington - مثلاً - تحتاج أي انتخابات جدية إلى مستوى معين من التنظيم السياسي، لأن المشكلة ليست في إجراء الانتخابات وإنما في تكوين التنظيمات الفاعلة على الإشراف على صلاحيات الانتخابات<sup>(٩٥)</sup>.

وتعتبر الدول العربية من الدول التي لم تعرف التطور المؤسسي بالتميز الذي يساعد على دعم التطور الديمقراطي، سواء في مؤسسات النظام السياسي أو في مؤسسات المجتمع، بما فيها الأحزاب السياسية، خاصة في الأنظمة العربية التي تسمح بقياسها - وتوجد في الواقع تفسيرات متعددة لضعف المشاركة السياسية في الدول العربية - بغياب الإشارة بليغها شديد إلى أبرزها، لأنها تقتضي دراسة أكثر عمقاً وشكلاً:

(١) اضمحلال القوى السياسية والاجتماعية تاريخياً في المجتمعات العربية والإسلامية عموماً، وقد أرجع بعض الدارسين هذه الظاهرة إلى عدة عوامل من أهمها<sup>(٩٦)</sup>:

(أ) ثقت وبعثرة الجهود بسبب الصراعات السياسية والفكرية في الدول الإسلامية المتتالية منذ العصر الأموي حتى العثماني.

(ب) نقشي الخرافات في المجتمعات الإسلامية، ويترجم النظر إلى الحكم كنظام إلهي وليس وضعياً.

(ج) الغزوات المتكررة التي تعرضت لها البلاد العربية والإسلامية.

(د) طبيعة حكم الدولة الأموية ثم العباسية في ظل ملكية مطلقة ظهرت المجتمع، وأطلق عليها فترة «الملك المعضون» - الذي ظل يمارس السلطة على غير مراد الشرع ومعطياته، ولذلك لم يكن مصادفة خلق الفكر الإسلامي من اهتمام أساسي بدور انجتماعات الاجتماعية والسياسية، ربما باستثناء دراسة ابن خلدون «المعشبة» التي قامت في المجتمع الإسلامي على أساس قبلي في الغالب خاصة في منطقة المغرب العربي<sup>(٩٧)</sup>.

وفي العصر الحديث توصف طبيعة المشاركة في بعض البلاد العربية ذات الطابع العسكري - كما هي الحال في سوريا ومصر والجزائر - بشكل خاص - الذي يسيطر فيها العسكريون على مقاليد الأمور - بأنها مشاركة تعبوية لحزب وحيد، لتحقيق هدف جوهري من الناحية الواقعية،

ويلاحظ أنه بالرغم من أن هذه الدراسات تلقي الضوء على المشكلات العملية المصاحبة للدراسات التجريبية لنماذج الاختيار العقلاني في أوروبا والولايات المتحدة، إلا أنها تظل مثيرة لل تساؤلات والتجدي حول مفاهيم الحفزات المختلفة لعملية المشاركة في الدول النامية وبعض البلاد العربية، فضلاً عن كيفية إعداد مثل هذه المقاييس، ومهمة مؤشراتنا.

وعلى الرغم من بعض المحاولات من جانب بعض الباحثين لإعداد مقاييس لحفزات المصلحة العامة، (Pinkle and Opp: 1991)<sup>171</sup>، اللذين قدموا مقاييساً يشتمل على بعض المؤشرات منها: سخط الأفراد على السياسة وعدم رضائهم، ومشاعر التأثير الشخصي في تحقيق الصالح العام، واحتمالات نجاح المجموعة، العقلانية، الجماعية، التبريرات الأخلاقية. كما يلاحظ أيضاً أن افتراض العقلانية قد لاقى بعض التحدي من الادعاء القائل بأن بعض أعمال المشاركة قد تكون تعبيرية هي طبيعتها. ويتفق مع هذا القول بأن القيم التعبيرية غالباً ما تذكر بواسطة التشيطن سياسياً في الدراسات التجريبية للحفزات المصحوبة بقرارات المشاركة.

ووفقاً لدراسة (Whiteley: 1995) فإن نظرية الاختيار العقلاني (Rational Choice Theory)<sup>172</sup> تلبى بأن الحفزات التعبيرية قد يكون لها صلة بالمشاركة. ومع ذلك فإنه يجد أن الحفزات التعبيرية قد يكون لها صلة بالمشاركة. ومع ذلك فإنه يجد أن أعضاء الحزب ذوي الشخصية الحزبية الأقوى أكثر احتمالاً أن يصنعوا تشيطن ويحصل بذلك على نتيجة مفادها أن نموذج الاختيار العقلاني نموذج غير كامل لتفسير المشاركة. ومع ذلك يمكننا القول، ولو بشكل بدلي، إن نموذج التفاعل العقلاني Rational Actor Model مبني على تقييم الأفراد للتكاليف والاستفادة من عملية المشاركة، وليس مجرد أتعاط معينة من الاستفادات (الحفزات) تكون مصاحبة للمشاركة. بعبارة أخرى، لو أن رجلاً معيناً قام بتقدير التعبير عن رأيه بدرجة كافية، فإن المشاركة تكون هنا عقلانية بالكامل، وهذا يتوقف بالطبع على درجة الوعي السياسي، وهذا ما تفتقده عملية المازمة السياسية هي غالبية النظم العربية. وانعكاس ذلك على المشاركة الجماهيرية العريضة في هذه البلدان، وهو ما سنعرضه لاحقاً.

### خاتمة: نحو تفسير لأزمة المشاركة السياسية في البلدان العربية

يتضح من العرض السابق أن التفسيرات الاقتصادية/الاجتماعية والثقافية لأزمة المشاركة السياسية ليست موضع اتفاق عام، لكن هذا لا يعني استبعادها، كما أن أهميتها تزداد في البلاد التي تتسم بضعف مؤسسات المجتمع والجماعات الوسيطة المستقلة التي تبدو أكثر فاعلية في تفسير أزمة المشاركة، فهي - بتعبير Huntington - التي توفر الظروف الملائمة لتقليص هيمنة الدولة على المجتمع، ومن ثم المساعدة على التطور الديمقراطي<sup>173</sup>.

## المشاركة السياسية مع الفهم السياسي المعاصر

وتجدر الإشارة هنا إلى تحليل Huntington لتأثير المؤسسة العسكرية في إمكانيات التطور الديمقراطي في دول العالم الثالث. فقد أكد هذا التأثير، لكن مع تحفظ مؤداه أنه ليس مستقلاً عن الظروف السياسية فهو يزيد في حالات الفساد والركود وسوء أداء المؤسسات المدنية. خاصة عندما تكون المؤسسة العسكرية واسعة ومسيّسة، مما يجعل بناء واستمرار الديمقراطية أكثر صعوبة<sup>(14)</sup>.

(٤) طبيعة البناء الحزبي في بعض البلاد العربية: الذي يعتبر ظاهرياً نظاماً تعددياً، لكنه مصمم على أساس هيمنة حزب حاكم، ولا يتيح لأحزاب المعارضة إمكانيات لمناقشته جدياً. وهذا من أهم سمات ما يسمى بالأنظمة شبه الديمقراطية Semi Democratic أو الأقل من الديمقراطية Less Than Democratic أو الأنظمة الديمقراطية المحدودة Limited<sup>(15)</sup>. وفي تقديرنا أنه بالرغم من أن هذه الأنظمة تسمح بدرجة من التناضس السياسي وتتيح قدراً من الديمقراطية لا يتوافر في الأنظمة السلطوية الخالصة، إلا أنها تقتصر عن الوفاء بجميع الشروط اللازمة للتطور الديمقراطي الكامل.

فهي تعاني من تقييد التناضس وإبقاء عند مستوى أقل من التداول على السلطة، ومن انتهاكات الحرية ونزاهة الانتخابات العامة التي لا تنعكس بنتائجها التمهيلات الشعبية بدقة، ومن محدودية الحريات والحقوق السياسية والمدنية بما يحرم بعض الاتجاهات والمصالح من التعبير عن نفسها، وهو ما ينعكس سلباً على درجة وفاعلية المشاركة السياسية في كثير من الأنظمة العربية.

<http://Archivebest.Sakhril.com>

خاتمة

إن عرض و أهمية هذه الدراسات إنما يعكس التراث الفكري لما نُشر عن مشاركة المواطن السياسية، غير أن كثيراً من الموضوعات النظرية والتجريبية التي أثبتت أوجه الغياب النسبي للبحث في بعض جوانب هذا الموضوع،

فلقد أدى التركيز المفرط على دراسات السلوك التصويتي وتحول الناخبين إلى إغفال أو عدم الاهتمام بدراسة الأشكال الأخرى من المشاركة هذا من ناحية، وإلى ندرة الدراسات التي اهتمت بنتائج المشاركة من ناحية أخرى.

كما أن أغلب الدراسات التي تناولت نتائج معدلات التحول للمنظمة ركزت على الشروط في الاجتماعات بين من يقوم بالانتخاب ومن لا يقوم به، والتي غالباً ما تكون - هذه الفروق - بسيطة. على الرغم من أن حاجيات الناخبين واهتمام الناخبين تختلف اختلافاً كبيراً، فغير التناخبين من المحتمل أن يذكروا الاحتياجات الاقتصادية الشخصية على أنها مشكلات بشكل يفوق الناخبين، كما أن احتياجات والتمهيلات الأفراد النشيطين قد تتجاهل آراء واحتياجات المواطنين غير النشيطين، وأن هذا التجاهل قد ينعكس على القرارات السياسية.

يتمثل في تحريك الشعب نحو السياسة العامة، أي أنها تفلل أهداف وأراء ثلوث القوة السياسية (الجيش، الرئيس، جهة التحرير (سابقاً)) للشعب بدلاً من أن تفلل ورغبات وأراء الشعب<sup>(1)</sup>.

كما يوجد نوع آخر من الأنظمة السياسية العربية المعاصرة توصف بطبيعة المشاركة فيها بأنها ينطب عليها مجالان سياسيان، الأول يغلب عليه الطابع التنظيمي وهو حال الأنظمة الخليجية. والثاني طابع حديث، هامشي، وبعض الأنظمة لجمع بين هذين المجالين مثل الكويت، والمغرب بخاصة، حيث يهيمن الملك تاريخياً على النظام السياسي بصورة واضحة، كذلك فإن الدستور المغربي يرفع من وضعية مجلس الوزراء في مقابل البرلمان، كما أن نظام الانتداب القائم على درجتين يحول دون سيطرة أحزاب المعارضة على الخلية مقاعد البرلمان، ولذلك فهناك الحكومة الائتلافية التي يرأسها زعيم حزب المعارضة<sup>(2)</sup>.

وهذا يعني أنه حتى في العصر الحديث لم تتطور هذه الجماعات المستقلة لتخفيف الطابع السلطوي لأنظمة الحكم العربية وتشجع من عملية المشاركة السياسية الفاعلة في شؤون المجتمع. (3) دور الاحتلال الأجنبي، الذي عانت منه الدول العربية بدرجات مختلفة، وما كان له من تأثير مباشر في العملية السياسية. ولذلك يصعب فهم الأنظمة السياسية خلال تلك المرحلة بمعزل عن التدخل الخارجي.

ويمكن الحديث عن الديمقراطية الوصائية Tularchy تحت الاستعمار الأجنبي التي تعيزت بمكونين، أولهما الالتزام بخلاف هيكل سياسي قديم وإجراءات إدارية لحفظ النظام وتأكيد مشروعية سلطة الدولة، وثانيهما إدخال نوع من النظام التمثيلي والانتخابات، التي سرعان ما تطلت عنه الدولة بعد الاستقلال مثال ذلك تونس، البحرين. على الرغم من أن الهيئة الناطقة كانت محدودة، وأن سلطة الممثلين المنتخبة كانت مقيدة بالسلطة الاستعمارية، فإن تباين وتوقع تأثير التراث الاستعماري في العملية السياسية والتطور الديمقراطي للمستعمرات ارتبط بتباين شكل المستعمر السابق، وينطبق ذلك على معظم البلاد الأفريقية والأمريكية الجنوبية وآسيا والدول العربية التي خضعت للسيطرة الاستعمارية.

(3) تأثير المؤسسة العسكرية، والقصد بذلك ليس فقط استيلاء هذه المؤسسة على الحكم كما حدث في بعض البلاد العربية، ولكن قبل ذلك تأثيرها ك نموذج، في السياسيين المدنيين، في اتجاه اعتبار الجيش نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه مؤسسات المجتمع وخاصة المؤسسة الحزبية. مما أدى إلى نوع من تجييش لبعض الأحزاب، وقد حدث هذا لبعض الأحزاب الثورية أو تنظيمات الرفض السياسي والاجتماعي في مصر قبل ١٩٥٢. وبعض الأحزاب الليبرالية والبيئة التنوعية. وبالرغم من أن بعض الأحزاب المعاصرة في بعض الدول العربية نشأت بمعزل عن ظاهرة الميليشيات وبعبداً عن أعمال العنف، ولم يكن بينها حزب ثوري يعتبر الدولة عدواً يجب تحطيمه، فمن الضروري التساؤل عن تأثير هيكلها بالطبيعة العسكرية لرواسيها.



- 1- Moschsky H., "political participation", *International Encyclopedia of the social science* (New York: Collier Macmillan, 1968) P.253.
- 2- انظر في هذا الصدد مؤتمرات المشاركة السياسية، المندوب عبد الحبيب فلاح، المشاركة السياسية في مصر، دكتوراه غير منشورة (جامعة القاهرة)، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، 1999، د. صلاح عيسى، المشاركة السياسية للتلاميذ (القاهرة: دار الوقت العربي، 1998)، د. حمدي عبدالرحمن، ثقافة المشاركة السياسية للتلاميذ، دراسة ميدانية في قرية مصرية، بحث مقدم إلى المؤتمر السنوي للمناهج لبحوث السياسية، الثقافة السياسية في مصر بين الاستمرارية والتغير، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، 1 - 2 ديسمبر 1997.
- 3- عبدالحكم الشاذلي، العسكريون والخدمة السياسية في العالم الثالث، السياسة الدولية، العدد 267، أبريل 1999، ص 68.
- 4- رعد عبودي بطرس، لزلة المشاركة السياسية وقضية حقوق الإنسان في الوطن العربي، المستقبل العربي، العدد 276، أبريل 1999، ص 21 - 22.
- 5- Myron Weiner, "Political participation: Crisis in The political process" In Binder, ed; Crisis and Sequence in political Development, *APSR* No.3, September, 1970, p.169.
- 6- Ibid., P. 168.
- 7- حول المشاركة الإيجابية والسياسية المشاركة، المندوب عبد الحبيب فلاح، المشاركة السياسية في مصر، مرجع سبيل ذكره، ص 147.
- 8- وحول الحقوق الجغرافية للمشاركة انظر: (المراجع السابق) ص 147 - 149.
- 9- وحول العنف والمشاركة السياسية انظر: د. محمد جواد رضا، ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة، التدمير سوسيوسيكولوجي، مجلة عالم الفكر، المجلد 5، العدد 2، أكتوبر 1991، ص 112 - 120.
- 10- د. حسين توفيق، الانتخابات البرلمانية في مصر 1995، العنف الانتخابي وثقافة العنف، المستقبل العربي، العدد 276، أبريل 1999، ص 2 - 22.
- 11- Verba, Sidney "Who participate? What do They Say?" *APSR*, N. 87, 1993, pp. 300-318.
- 12- حول تعدد هذه المؤشرات ونسبها انظر: كمال المنوفي، التشكيلة السياسية في الفئة السياسي المعاصر، مصر المعاصرة، العدد 700، يناير 1981، ص 181.
- 13- Samuel p. Huntington and Joan M. Nelson, No Easy Choice: political Participation in Developing Countries (London: Harvard university Press, 1976) P.12.
- 14- حول ملغية التصويت السياسي ورفضه انظر: د. حامد زبيح، مقدمة في العلوم السلوكية (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة) 1989، ص 197 - 198.
- 15- Dennis J., "support For The institutions of Elections by Mass Public" *"APSR"* No.4, 1970, pp. 820-830.
- 16- Zuckerman, Alan S., and Darrell M. West, The political Basis of citizen contacting: Across National Analysis, *APSR* No 79, 1985, pp.117-131.
- 17- حول علاقة وسائل الاتصال بالعمل السياسي و المشاركة السياسية انظر: د. محمد عودة، أساليب الاتصال و التغيير الاجتماعي، دراسة ميدانية في قرية مصرية (القاهرة: دار المعارف، 1997).

ومن ثم فإن هذه الدراسة تدعو إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الظلم بالتصويت، حيث إن التحول في التصويت قد ينشأ عن دراسة هي فوق التحولات معقدة أكثر منها نتائج حاسمة، هذا وإن عملية المشاركة تزيد من الجدول السياسي Political sophistication والقناعة السياسية Political Efficacy للأفراد، ومن المحتمل أن لهذه التأثيرات نتائج طويلة المدى بالنسبة للفرد. وفي هذا نناقش مع ما ذهب إليه (Jennings; 1987) من أن الشباب الذين اعتنقوا في ستينيات القرن العشرين في فرنسا وأوروبا ظلوا متميزين عن الذين لم يحتجوا، وذلك بالنسبة لآرائهم السياسية بعد ذلك عشرين عاماً.

وهذا ما يدعونا إلى القول بأن تعريف وتحديد هذه التأثيرات على المستوى الفردي والجماعي، كما ذهبت (Jan Leighley; 1995) إلى التأكيد على استمرارها على مدار الزمن، ليس إلا بداية نحو فهم نتائج للمشاركة بمعناها العام.

وفي تقديرنا أن الإجابة عن السؤال «لماذا يشارك الناس؟» على الرغم من وجود الكم الهائل من الدراسات والأبحاث، وهي إجابة جزئية، فمع التأكيد على الدور الحيوي والمهم للحالة الاقتصادية/الاجتماعية في وضع هيكل مشاركة الأفراد في النظام السياسي، التي تجعل الأفراد ذوي المستويات العالية هم الأكثر مشاركة عن أولئك الذين يقللون عنها، فإن نموذج التعبئة يقترح إجابة لذلك «لأن الناس يطلب منهم أن يشاركوا». وبالتالي فإن كلا النموذجين يقدم تفسيرات بديلة بالنسبة «لماذا يشارك الناس؟».

والدراسة تطرح عدداً من الأسئلة البعيدة تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة لتربط بالأهمية النسبية للحالة الاقتصادية/الاجتماعية، التوجهات الدينية، التهيئة السياسية كمؤثرات في النشاط السياسي للأفراد. بالإضافة إلى التحيزات التعبيرية والمادية المصاحبة لعملية المشاركة، ومقاييس هذه التحيزات، هذا فضلاً عن أفعال المشاركة المختلفة التي تتوقف على نوع التأثير والمبادرة المطلوبة.

وعلى هذا النحو يمكن القول - خلاصاً - إن القيود التي اعتبرت تطور مؤسسات المجتمع في الدول العربية والداعية على السواء أسهمت بدور هائل، إلى جانب العوامل الاقتصادية/الاجتماعية والثقافية، في التأثير سلباً في عملية المشاركة السياسية الجماهيرية في هذه الدول.

ولذلك فإن أحد من تلك القيود - سعياً لتقوية مؤسسات المجتمع، يعتبر أهم و ربما أول خطوة باتجاه تدعيم فرص المشاركة السياسية والتطور الديمقراطي في البلاد العربية. وفي تقديرنا أن ذلك يتطلب وقتاً وجهداً وصبراً ومهارة، فعملية المؤسسة Institutionalization هي بطبيعتها في حاجة إلى كل ذلك، وعندما لا تتوافر تقاليد المؤسسات مستقلة لا توجد مشاركة عملية الجذور.

ولذلك فإن تأسيس وتطوير الديمقراطية داخل مؤسسات النظم السياسية العربية يحتاج إلى جهود كبيرة لتدعيم الاستقلال والموارد والمهارة التنظيمية والخبرة، ليس فقط لهذه المؤسسات، ولكن أيضاً لمختلف مؤسسات المجتمع الوسيطة مثل النقابات المهنية والاتحادات العمالية وجمعيات رجال الأعمال والهيئات الفلاحية والاتحادات الطلابية ومختلف الجمعيات الاجتماعية، فضلاً عن تحرير وسائل الإعلام.

- Rosenzweig, and John M. Hansen, *Mobilization, Participation and Democracy in America* (NY: Macmillan press, 1993).

Schlosman key technician, Nancy Burnard Verba S., *Gender And The pathway Participation: The Role of Resources* "Paper personal at the Annual Meeting of The Midwest political science Association, (Chicago:1993).

قدم عدد من الدراسات التفسيرات المبين وتلويح الظروف في معدلات المشكلات من أعضائها دراسة

- Andersen Kristi and Elizabeth A. Cook, *Women Work and Political Attitudes*, *AJPS*, 29, 1983, pp. 688-695.

Norman H. Nie, Verba S., Henry Brady, Kay I. Schlosman and Jane Jann *Participation in America: Continuity And change*, paper presented At The Annual Meeting of the Midwest Political Science Association (Chicago: 1988).

حول درجة مشاركة وطوعية نشاطات الأقليات السياسية الطور:

- Ulfarur Carole J., Bruce E. Cain and D. Frederick Krawiec, *political participation of Ethnic Minorities in 1980s*, *Political, behavior*, 11, 1984, pp. 199-225

- Bobo Lawrence and Frank D. Gilliam, "Race, sociopolitical participation and Black Empowerment" *AJPS* 84, 1980, pp. 377-393.

حول درجة ومشاركة المستشارك الأقليات العرقية الطور:

- Berry Jeffrey M. Kent E. Poteroby and Ron Thomsen, "Sociopolitical behavior of poor people," paper presented at the Annual meeting of the American political Science Association (San Francisco: 1990).

Mohai Paul, "Black Environmentalism" *Social Science Quarterly* 71, 1991, pp. 744-763.

Trivette Ray A., *The disappearing American Voter* ( Washington Dc: Brookings Institution, 1992).

Martin Rebecca B. *Groups in Rotamer: Current Models* *Apss*, 30, 1984, pp. 758-776

- Abramson Paul R., and William H. Claggett, "Race- Related differences in Self Reported and validated Turnout," *Journal of politics*, 46, 1984, pp. 719-738

يعرف مفهوم الكفاءة السياسية «Efficiency» بـ «معدل انه الإحساس من قبل الفرد بان سلوكه و أفعاله لها، أو يمكن أن يكون لها تأثير في العملية السياسية، الذي يجعل التغيير الاجتماعي أمرا ممكنا، و أن المواطن يمكن أن يلعب دورا في هذا التغيير» و الإحساس المنخفض للفرد بالكفاءة السياسية ينظر اليه باعتباره جزءا من مجموعة المعوقات للاندماج السياسية، و الإحساس العالي بالكفاءة السياسية يعتبر مطلبها مهما للمشاركة السياسية: انظر في هذا الصدد 85 من:

Finkel Steven E., *Sociopolitical Effects of Participation and Political . Efficiency: A panel Analysis* *AJPS*, 29,1985 pp.391-431,Finkel S.E,The Effect of Participation on Political Efficacy and political support: Evidence from a West German Panel, *Annals of politics* 49, 1987, pp.441- 460.

piorec roy and philip E . Converse, *Attitudinal sources of protest behavior in France: Difference Between Be Fore and After Measurement* *public opinion-Quarterly*, 34, 1980, pp. 285-316.

- ٣٤- إن للمصاعيم الضمنية - كما نذهب - لهذا الافتراض ينظر إليها بوصفها عندما يدرس الفرد كيف يفسر بيانات السبع الطائفة بمشاركة الأفراد أو عدم مشاركتهم، فلو كانت سيدة إنها وقعت على عريضة قد قُدمت لها و إليها استجابات بشكل إيجابي، ولكن بعداً لتفسير إذا انضمت هذه السيدة أنها لم توقع على عريضة هل يعود ذلك إلى أنه طلب منها ذلك، وتصرفت بشكل سلبي، أم أنها ببساطة لم يطلب منها ذلك. انظر:
- Leighton Jan E., Participation As A Stimulus of political Conceptualization, *Journal Of Politics*, 53, 1991- pp. 197-211, Leighton Jan E., Attitudes, opportunities and incentives: A Field Essay on political participation, *political Research Quarterly*, No. 1 March, 1995, p. 187.
- ٣٥- حول دور العامل الاقتصادي في عضوية الجماعات السياسية انظر:
- Hansen John Mark, the political (Economy of group Membership, *APSR*, No 79, 1985, pp. 79-96, Goldwin R. Kenneth, One Billion Dollars of in Fluxion: The Direct Marking of politics (NJ: chatham House, 1988).
- ٣٦- Rosenow Steven J., and John Mark Hansen, "Mobilization, participation and Democracy in America (New York: L. Macmillan Press, 1993).
- ٣٧- Ibid, p. 174.
- ٣٨- Ibid, p. 176.
- ٣٩- Verba S. and Norman H. Nie, Participation in America, Op. Cb, p. 184.
- ٤٠- Verba S. Nie and Jae Jae in Kim, Participation and political Equality (cambridge: Cambridge University Press, 1978).
- ٤١- Davis charles, political Regimes and socioeconomic Resource Model Mobilization: Some Venezuelan and Mexican Data, "Journal of politics" 45 , 1983 , pp. 423-448.
- ٤٢- ومن أهم هذه الدراسات التي اهتمت بدراسة تعبئة الجماعات المشاركة انظر:
- Kacik David, Organizing for Collective Action: The political Economies of Associations (New York: Aldine de Gruyter, 1990), Gilbert Christopher p., The Impact of Churches on Political Behavior: An Empirical Study (Westport: Green wood press, 1995), Harris Rodrick C., Something Writng: Religion As A Mobilizer of African - American political Activism "Journal of Politics", 56, 1994, pp.42-68.
- ٤٣- Bowman Lewis and G.R. Boynton "Recruitment Patterns Among Local Party officials: A Model and Some Preliminary Findings in Selected Locales" *APSR*, 60, 1966, pp.667-676.
- ٤٤- Beck paul Allen and Ken Jennings, political periods And plitical Participation "APSR", 74, 1979, pp.733-750.
- ٤٥- وأهم هذه الدراسات انظر:
- Downs Anthony, An Economic Theory of Democracy (New York: Hargar and Row Ross, 1957), Muller Edward N. and karl-Dieter opp, Rational choice and Rebellious collective Action *APSR*, 80, 1986, pp.471-489.
- ٤٦- Uhlman C.J., "Rational Turnout: The Neglected Role of Groups, "Party Identification And Participation of Collective Action, "Journal of Politics, 53, 1991, pp.339-371.

- Whitley Paul F., "Rational choice And Political Paction Evaluating the Debate," *Political Research Quarterly*, 84, 1995, pp. 211-233. -43
- Samuel P. Huntington, "Will Most Countries Democratic," *Political Science Quarterly*, No. 99, 1984, pp. 198-211. -48
- Larry Diamond, *Lipset and Jauch*, *Building and Sustaining Democratic Governments in Developing Countries*, *World Affairs*, No. 1, Summer 1987, pp. 3-17. -49
- Samuel P. Huntington, *Political Order in Changing Societies* (New Haven: Yale University Press, 1968). -58
- انظر في هذا الصدد : أحمد صالح سعد، *تاريخ العرب الاجتماعي: تحول التكوين المصري من النمط الأموي إلى النمط الرأسمالي (بيروت: دار الصحافة، 1981)*، د. محمود الكوي، *مبدأ الشورى في الإسلام مع مقارنة بمبادئ الديمقراطية الغربية والنظام التركي (الأكاديمية مؤسسة الثقافة الجامعية، دة) من ص 11، 18*. -61
- علي أبوعليل، *الخطاب التاريخي: دراسة منهجية ابن خلدون (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1985)* من ص 16، 19. -68
- أحمد مطلق، *نشأة المؤسسات البرلمانية وتطورها في الجزائر المعاصرة (الجزائر، 1981)*، وكذلك انظر محمد سائق طايح، *المؤسسة التشريعية في الجزائر: أحمد الموردي، محرر، المؤسسة التشريعية في العالم العربي (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية) من ص 2-1997*. -73
- أحمد ثابت، *التحول الديمقراطي في العرب (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، 1996)* من ص 10، 19. -84
- Samuel P. Huntington, *Political Order*, pp. 182-188. -85
- د. صالح حسن مروج، *أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي (القاهرة: الزعماء للإعلام العربي، 1988)*. -86

# الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية القراءة

د. أحمد يوسف\*

## تقديم

إن التحولات العميقة التي شهدتها الدراسات الأدبية والنقدية والجمالية في العقود الأخيرة من القرن العشرين كانت ثمرة من ثمار تطور الفكر الحديث والفلسفات الثقافية والإنجازات العلمية، التي ما لبثت ترخّ المعقّدات وجأ إلى دراسة تنصّب إلى الاستشهاد بأن العقل البشري أولئك على أن يستند قدراته الكاملة، ويعطي كل ما لديه من مطلقات خلاقة.

وفي هذا السياق المعرفي لم يكن الوعي النقدي والفكر الجمالي في منأى عن هذه التحولات الجذرية، التي تركت آثارها الواضحة في طبيعة النظري الأدبي، مغلقة أسئلة جوهرية لمحضنت عنها المسورات نقدية وجمالية شكلت ما يعرف بـ (نظرية الترامد) أو (جمالية الثقافي).

إن الإشكالية الأدبية التي تواجه نظرية الأدب وعلم الجمال ونظرية النقد تتجلى في السؤال التالي: كيف نقرأ نصاً أدبياً؟ وكيف نقسّ القارئ القديم هذا النص أو ذاك؟ وكيف يقرأ القارئ المعاصر؟ هل تكون مستويات التقى ودرجات الاستجابة واحدة أم متعددة؟ وما السر في ذلك؟ وهل هناك قواطين موضوعية تتحكم في هذه العملية؟ هل نستطيع وصف النص بأنه مبنى بطريقة تمكن من التحكم الذاتي في تفسيره<sup>(1)</sup>.

من الطبيعي أن تستدعي هذه الأسئلة حضور حقول معرفية متصلة ومنفصلة عن حقل نظرية القراءة، مثل تاريخ الأدب وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية والفلسفات بما فيها، وفلسفة الفن بخاصة، والمدارس النقدية وعلم أخرى، منها على وجه التحديد العلوم البيولوجية والرياضية.

(\*) كلية الآداب بجامعة بغداد.

## الجهاد النصوي: منهجية لنظرية القراءة

إذا أردنا أن نحصر تلك الأسئلة المتنامية في سؤال مهم وجوهري ومؤدء: هل عملية التفكيك تتعلق باستجابة القارئ أم بضاعية النص؟ أم أنها تقع خارج هذين القطبين؟ أمكننا بعد ذلك أن نضع أهدينا على جوهر الإشكالية المطروحة في حقل لنظرية القراءة بضفيها السياقي والنسقي.

### فاعلية النص واستجابة القارئ

هل تاريخ النقد - منذ زمن بعيد - يقف إلى جانب القراءات السياقية، ويهمل العالم النصية إلا قليلا، ولكن هذا الوضع ما لبث أن تغير مع الثورة التكنولوجية الحديثة، التي أحدثت تحولات منهجية في طرائق التعامل مع النص، وأصبحنا ندرك أن فعل القراءة متعلق بفاعلية النص.

ولما تطرقت التقارير المحايدة في تعجيد الداخل على الخارج تعجيدا لم يدع مكانا للقارئ بوصفه القطب الثالث في نظرية القراءة، بيد أن القارئ بوصفه القطب الثالث في نظرية القراءة، بيد أن القارئ بوصفه القطب الثالث سرعان ما تحول إلى مقولة تمخض عنها أموض كبير، وبخاصة عملية البحث عن الأليات التي تجسد هذه المضامين، التي أصبحت أقرب إلى التطهير منها إلى التطبيق.

مالت التقارير التطبيقية إلى تحكم فاعلية النص بعدما انحزمت جميعا القراءات السياقية التي كانت تعصدها الفلسفات ذات التوجه الإنسية، سواء أكانت مبالغة إلى تغليب الذات في بحثها عن دلالة النص، أم إلى جديع الحالات الخارجية، والقراءة السياقية كانت تنطلق من أن المؤلف صانع المعنى، ولا سبيل إلى فهمها دون الوقوف على مقصدية المؤلف، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الواقع بجميع موصفات. إن نظرية القراءة حسب منظور مدرسة كونسطنس، لا يمكن حصرها في دائرة القراءة النسقية للعلقة، ولهذا لم تحظ البيئية لديها بذلك السحر الذي تركته في أشباحها، وإنما كانت تسمى إلى الأخذ بمنطلقات الفلسفة الميتافيزيقية، التي تنظر إلى الوعي على أنه وهي شيء ما، حيث كان لاستجابة القارئ مكانة خاصة هي أديانها، ولكن ليس إلى حد التطرف إلى أحد أقطاب فعل القراءة، فلقد حكم «إيزر» منطق التفاعل بين النص والقارئ.

أمام هذا الوضع طبقت مدرسة كونسطنس Constance الألمانية مقولة وودي آلان Woody Allen عندما يكون أمام اختيارين لا تردد أبدا في اتخاذ الاختيار الثالث، وهو ما صنعه بالشمع وولف جاتنج إيزر Wolf Gang Iser، إذ مال إلى فكرة التفاعل بين النص والقارئ، وبذلك تجاوز النظرة الأحادية التي تغلب، إما قطب استجابة القارئ، وإما قطب فاعلية النص، وعلى الرغم من الملاحظات التي أوردناها آنفا، فإن مقولة التفاعل بين القارئ والنص وجدت شيوعها في الوعي النقدي الحديث.

## فعل القراءة بين جمالية التلقي وجمالية التأليف

إن هذا لا يعني، بأي حال من الأحوال، أن إشكالية القراءة قد قُضيت، بل كان لابد من مواجهة العديد من الإشكالات المطروحة، وبخاصة داخل السبيل التاريخي للثقافة الأدبية والتقديرية والجمالية.

ومن أهمها مقولات الذوق والتأثير وحكم القيمة وغيرها، ولكن أبرزها كان يمس في ضرورة التمييز بين جماليتين اثنتين: جمالية التلقي وجمالية التأليف. وهاتان الجماليتان تتباينان من حيث المرجعية الثقافية الإنسانية التي يمكن حصرها في ثلاث ثقافات: الجرمانية والأنجلوسكسونية والفرانكوفونية. ولأسف فإن الثقافة العربية تتلاقح أو تتأقظ في الغالب الأعم مع الثقافتين الأنجلوسكسونية والفرانكوفونية، وبعبارة أخرى، فإنها تتأثر بهاتين الثقافتين المتمثل في عظمة الفكر الألماني وعظمته المعالي.

هناك فرق بين دراسة تأثير المتلقي في أدبيات التجربة الشعرية العربية القديمة والحديثة، وبين طبيعة تلقي شعر المتلقي. وهكذا تركز نظرية القراءة على العلاقة التي تحكم الطارئ بالقص الشعري، بدل الوقوف على جماليات شعر المتلقي أو قارئه. صحيح أنه لا يمكن إهمال التراكمات المعرفية التي اعتنت بهذين القطبين، **ومجمل** البحوث التطبيقية التي انجزت في هذا المجال، وبخاصة في الثقافات الأخرى، ولكن هذا الأنجلوسكسونية والفرانكوفونية والألمانية والإيطالية والروسية والعربية.

أحكمت نظرية القراءة تصوراتها النظرية والتطبيقية في ألمانيا لدى كل من روبرت هانس ياوس Robert Hans Jauss، وإيرز Iser، وكلاهما يجمع بين الثقافة الأنجلوسكسونية (إيرز) والثقافة الفرانكوفونية (ياوس). تُضاف إلى ذلك الجهود المساهمة للسلطانيين الروس، ونشاطهم بحلقة براغ وإرث ميخائيل باختين Michael Bakhtine ومدرسة تاركو الروسية، مما كان له أثر كبير في المنهجية الفرنسية (بروب Propp - ياكوبسون Jakobson ليفي ليفي-ستراوس Lévi-Strauss).

هناك - في المقابل - جهود السيميائيين الإيطاليين وعلى رأسهم بريوتو Prieto و أمبرتو إيكو Umberto Eco، أما في الثقافة الأنجلوسكسونية فهناك تقاليد قديمة واسعة تبدأ من ألفريد نيتشه Alfred Schlegel وتنتهي بـ T.S. Eliot وريتشاردز Richards في إنجلترا، ونورمان هولاند Normand Holland وسنتالي فيش Stanley Fish وجونان كيلر Jonathan في أمريكا، الذين نبس بعضهم تفكيرية ديريدا Derride.

تختلف نظرية القراءة لدى مدرسة كونستانتس الألمانية عن الإسهامات التي سبق أن ألقينا إليها كونها يوجد لها مشروع واحد، وتعمل إلى التظهير أكثر مما تعمل إلى التطبيق.



## الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية القراءة

كما هي الحال بالنسبة إلى النقاد الذين يركزون جهودهم على دراسة كيفية استجابة قارئ ما لنص أدبي. ولنا مثال جيد. يمكن للمرء أن يعاينه في كتاب (مقالات في النقد الأدبي) لـ أ. آ. وينشاورز.

لا يكاد النقاد يظفر بوجهة نظر واحدة تجمع بين تلك الآراء، لأنها لا تستقي من معين معرفي واحد، ولا تتطلق من إطار مرجعية مشتركة؛ لهذا يمكن وصفها بالنظرات بدل النظريات، التي تؤطرها أسئلة فلسفية وفكرية واجتماعية وأدبية، فهي تعكس أصولها من مشروع ثقافي متعاضد، وترتبط بينها اهتمامات واحدة.

لم يعد الوعي النقدي المعاصر يتعامل مع تاريخ الأدب تعاملاً كرونولوجياً، تتعاقب فيه الوقائع الأدبية تعاقباً زمنياً متصلاً، بل أصبح ينظر إلى طبيعة نفي النص من منظور الأصالة التي تشترط القراءة والاختلاف والقطعية التي يرافقها ميلاد النص المختلف. لقد حاولت جمالية التلقي<sup>(1)</sup> أن تربط القراءة التاريخية والنظريات المحيطة للنص الأدبي في فلسفة التأويل، وأن تعطي أهمية للحكم الجمالي القيمي الذي يرافق تلك اللحظة<sup>(2)</sup>. وبه يمكن معرفة نجاح العمل الأدبي أو فشله.

تتعلق القراءة الإنسانية التي تعيد الذات الإنسانية من الراي القائل بأن «الإنسان سابق نوعاً ما على تاريخه وشروطه الاجتماعية التي تتبع منه»<sup>(3)</sup>. وهذا يلخص الصراع الذي دار بين جون بول سارتر<sup>(4)</sup> وليفى ستراوس. وهو يشير إلى ذلك الصراع الجاد بين التوكسية والبنوية.

## تاريخ الأدب خطاب متجدد

<http://Archiv>

ومن هنا أمكننا النظر إلى تاريخ الأدب على أنه خطاب متجدد يتطوي على لحظات متباينة من حيث الفاعلية النصية. ومن حيث وقع التلقي. إننا أمام جدلية العيار والانزياح. فهذه الثنائية تعكس

مشاهد التحول المستمر، وتبادل الواقع بين التمازج، فما كان انزياحاً يصبح بحكم الاستعمال المتكرر معياراً، والعكس صحيح. ولهذا كانت أطروحات ميشال فوكو حول التاريخ تقوم على مقولة الانفصال والتباين بدل مقولة الاتصال التي تبنّاها الفلسفة التقليدية لتاريخ. ولا غرو أن ينظر ياكوب إلى تاريخ الأدب على أنه تاريخ للثقفي، وبما أن عملية التلقي مستويات متباينة بحكم الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية الأدب، كان تاريخ الأدب خطاباً متجدداً، فهو خطاب منفصل أكثر مما يكون خطاباً متصلاً.

إن سيروية التحول في العمل الأدبي ترافق تلك الفرضيات التي تقدمها النصوص للثقفي ليبلغ في عالم فسيح يغري بإنتاج المعنى. ويتأني أن يقدمها تقديمها مجاناً بوصفها فاعلية معطاة. كما أنها - في المقابل - ترفض الانقياد إلى سلطة الخارج الرمزية. وعليه فإن دراسة

التقليدي بمعانيه الثابتة وثوقه الجاهز يتنافى مع فعل القراءة، وإن كان يقدم أدوات مساعدة لا يلغى التكرار لها.

إن هذه التصورات يأسرها المطلق، ويسلطي على مجامعها وهم الحقيقة، مما يجعلها تعادي الاختلاف، وتضايح الوحدة بدل التعدد، والشخص للراسخ بدل الصابر. وفي ظل هذا المناخ الثقافي اختلق النص الشعري الحدائي؛ لأنه لم يعتكف إلى عمود الشعر، واختار الحدائنة المستعارة، وحاول أن يبرز شروعية هذا النص بالبحث عن أمثلة من التراث عادة ما انحصرت في الشعر العباسي (بشار بن برد - أبو نواس - أبو تمام - المتنبّي - العري)، أو في الشعر الأندلسي (الوشحات).

إن الرغبة في البحث عن لحظة تنظم فيها هذه الحدائنة المستعارة داخل سياق التراث هي شكل من أشكال إثبات حسن النية، وإبعاد تهمة التعمد والمصيان والعقول عن الشعر العربي الحدائي - إن المسألة - هنا - تتعلق بهيمنة المعيار الفني القديم على جمالية النص الحدائي؛ مما أثر في طبيعة التلقي، وفرض ذوقاً جديداً، وبلاغة أخرى، وبني أفق انتظار جديداً على انقراض أفق انتظار سابق.

ليس من السهل تشييد تصور جديد لعملية القراءة في ضوء شيوع فكرة المطلق داخل الوقائع التاريخية بعامة، والأدبية بخاصة. يُضاف إليها السعي الحثيث لتشكيل تاريخ أدب يستجيب إلى الروح القومية في زمن نشوء القوميات في أوروبا وفي العالم العربي، الذي شهد حركات تحررية، الأمر الذي يقصر البيل إلى كتابة تاريخ الأدب العربي، سواء لدى المستشرقين أو الدارسين العرب. وفي ظل جمالية التلقي يمكن أن نفيد النظر في بناء تاريخ الأدب العربي انطلاقاً من مستويات تلقيه مع مراعاة وجهة نظر النقد الجديد، التي ترى بأن الأدب ما هو إلا تاريخ أشكاله<sup>(1)</sup>.

إذا تأملنا أدبيات هذه الكتابة نستنتج غلبة المتصل على المنفصل من الناحية الزمنية، والمعيار على الاستعمال من الناحية الأسلوبية، والإشادة بالتعطّات التاريخية الجامعة في تاريخ الأمة. ومن الطبيعي جداً أن يتمخض عن هذه النزعات القومية تاريخ أدب يستجيب لهذه الروح، ويحدد مسبقاً شروط التلقي، مما يضفي على قراءة النصوص الأدبية نوعاً من التطبيق الآلي للعلاج المعطّل، متجذرة في الطرائق المنهجية المتبعة، خاصة في الدراسات العليا والبحوث الجامعية.

ما زالت آثار النزعة التاريخية بمشاربها المختلفة توجه المعارضات النقدية لتاريخ الأدب، ثم عملت بعض الاتجاهات النقدية السياقية على الترميمها، وبخاصة المنهج الاجتماعي الوثوقي الذي توطّره الفلسفة الماركسية، وكذلك الانبهار بالنزعة الوضعية الضيقة. ولهذا أننا يأسر بعظمى أهمية كبيرة لتحليل الضمّون في حين لا تلقى لديه ميلاً إلى التحليل الشكلي؛ فقد أولى

## الأبعاد المعنوية الخفية لنظرية الفراءة

عليه لمضامين النصوص التي كان يعانجها بغية استكشاف القيم التي تتداخل معها، وذلك بغية مقارنة مستوى التقني لأثر جونه بالقياس إلى أثر راسين، ومن هنا لاحظنا أن فراءة إنيغمايتها - جونه - تشبه إلى أن الأسطورة تتضمن تلك الروح الألمانية المتصاعدة التي تجسدت في الدولة الألمانية القوية.

### هولتران الفراءة النفسية

ظهرت الفراءات النفسية لتعلن انبعاث أنظمة الفراءات السيكولوجية ونزول مشروعهما النقدي، ومن أبرز الاتجاهات التي سطت على تفويض الوعي النقدي السيكالي نذكر بعض ما سينتج لاحقاً في فصول هذا البحث<sup>(1)</sup>.

1- تراث الشكلياتين الروس<sup>(2)</sup>.

2- النقد الجديد<sup>(3)</sup>.

3- تأثير الكسائيات الحديثة<sup>(4)</sup>.

4- البنيويات

وهكذا استبدلت الفراءة النفسية - هي ظل هذه الشروط الجديدة - الطارح بـ «الداخل» والشروح التاريخية والاجتماعية والنفسية بـ «الأنية»، والعيار بـ «الوصف»، والمطلق بـ «النسبة» واليقينية بـ «الاحتمالية»... الخ. ساعدت هذه العوامل على تجاوز تلك المفاهيم التقليدية، التي صرحها ما تجلت في معطيات أخرى، وأخذت مسارات مثوية، مثل الدعوة إلى تجديد النظريات الجمالية والنقدية، والهيل إلى اصطلاح الفلسفات التأويلية، التي تنزعه عن الشروح المدرسية، وتحاول إعادة صوغ مفهوم الأدب وعلاقاته بالمعطيات الخارجية، مثل علاقة الأدب بالفكر وبالتاريخ وبالجممع.

وهي هذا السيكالي قدمت الكتابات التطهيرية لروني ويلييك René Weillch وأوستين وأرين Austin Weron أمثلة تمثل هذه المساهمات الجديدة متأثرة بالتراث الشكلياتي وإسهامات حلقة براغ: لتغدو تقدماً جديداً، وبالمثل بلورت أطروحات أرنست كاسنير Ernest Cassirer - التي نشرت بعد وفاته - المرتكزات الفلسفية لشروح البنيوية قبل أن تصبح تياراً فكرياً ذاع صيته في أوساط النخبة المثقفة في فرنسا، ولكن هذه البنيوية غلبت عليها النزعة الصورية.

كان لابد من دليين منعها الشكلياتي المجرد، وتطعيمها بفراسة تكوينية تعود جذورها إلى جون بياجي<sup>(5)</sup> J. Piaget، وتصبح تياراً بنيوياً يناهض التيار الصوري على يد لوسيان جولدمان L. Goldmann الذي استثمر فلسفة هيجل Hegel وماركس Marx ولو كانت Lacan لبناء علم اجتماع أدبي يصبو إلى التماسك بين البنيات الذهنية والإبداع الثقافي من أجل بناء رؤية للعالم لا تقتصر بقرينة المؤلف بوصفه فرداً يعمل شبكة اجتماعية معقدة لا تفتقرها الصور الرومانتيكية والتجريبية.

يدعوها لودويج فون بيرتراند لاني (Ludwig Von Bernhart) إلى عدم فصل النظرية العامة للإنسان عن الطابع الإجرائي في أثناء تحولها إلى سيروية منهجية، مما يسمح لها بتابعة عملية انتقال المبادئ من حقل اختصاص إلى حقل اختصاص آخر؛ فهي لا تنطلق إلى تلك التحولات المنهجية التي لا تفسر عمق المعارف، ومن هنا حاولت نظرية القراءة أن تروم نسخها على النحو الحركي الذي أشار إليه سابقاً لودويج فون بيرتراند لاني. هناك تصور خاص للمدرسة الجشطالتيّة للتلقّي المباشر لا يوضّفه نسخاً سيغميائيّاً، وإنما هو نتيجة لعملية التحليل التي تقوم بدورها بتحويل حقيق لحالة الوعي<sup>(12)</sup>.

كما هو واضح لم يفتد الأدب صلاته بالتاريخ والمجتمع والثقافة، وفي المقابل يمكن القياس على علم النفس، حيث أهدت قراءة هذه العلاقة قراءة مغايرة تجلّت في عودة جاك لاكان J. Lacan، فرويد Freud، وتصميم جديد للبنوية النفسية، وربط المعطيات النفسية باللغة والكلام، هذا دون أن تغفل نظريات يونج Young التي شجّت على صرحها فورتروب فري<sup>(13)</sup> N. Theop Frey ما عرفه بالنقد الأسطوري، الذي انكب على البحث عن الأنماط البدائية أو النماذج العليا في الأدب.

كل هذه المقامح كانت توشح بوجود أزمة نظرية حالية تحيط بجهاز المفاهيم الذي يحكم صلب منسورات القراءة. وما تكرر تلوح أفكار جديدة في الأفق حتى تجرّوها المابعدية، فإنها تمكّنت البنوية، ورسمت فواعدها في الفكر والنقد. وصيغت فلسفتها أشياء مبرحان ما ينشئ تيار فكري آخر يزجّح سلطانها مثل: ما بعد البنوية أو التفكيكية. والأمر نفسه ينطبق بالحدّة Modernité وما بعد الحدّة Post- Modernité.

إن هذه التحولات المتتالية في مجرى الفكر والفهم لم تسمح للوعي النقدي أن يتأمل ذاته تأملاً هادئاً وعميقاً، على الرغم من أنه كان معطوفاً كل الحظ في توافره على مرجعية منهجية دقيقة، لم يعرف في الغالب الأعم كيف يستثمرها استثماراً حسناً، وتتمثل على وجه التحديد في الثورة المنهجية التي صاحبت اللسانيات الحديثة، وأحدثت قطوعة إستمبولوجية مع النهج التاريخي والمقارن في دراسة اللغة، ووضعت آليات عملية في مقاربة الوقائع مقارنة محايطة وعلمية إلى ما حد ما.

لقد كان لها أثر جلي في العلوم الإنسانية والدراسات الأدبية، وأبرزها قراءة النصوص القديمة قراءة أصيلة تختلف اختلافاً جوهرياً عن القراءات الفيلولوجية التقليدية. وذلك باستدائها إلى الحاضر، وتبنيها مع المعطيات الزمانية والمكانية التي تستفيد من تجاربها وتجعلها قابلة، للإسهام في بناء الحدّة أو ما بعد الحدّة المنشودة، كما هي الحال في العودة إلى سحر الكلاسيكي، الذي يهيمن على متقبل الحدّة، ويسم خطابها بمصمم المجانيبة السحرية والحنين إلى الفولكلور وأساليب العيش القديمة، وأنماط اللباس العتيقة والفضاء

## الأبعاد المعرفية لنظرية القراءة

المنسوج للعلامة، وهو ما يعجده النص الحدائي بتمثل الماضي والشخصيات التراثية والوظائف التاريخية القديمة تمثلاً فلما يمكن أن نطلق عليه التناص الذي لا ينفذ عند حدود التقنيات الفنية، بل يمتد إلى ضلعها على نزيعة نقدية لخطاب الحدائنة هي الفكر الغربي.

ومن المنتظر أن تلقى الحدائنة المستعارة في المجتمعات التقليدية رفضاً حاداً؛ لأن هذه المجتمعات صاحبة التراكمات التراثية الضخمة لا تستوعب لمطلق خطاب الحدائنة، سواء تجلى في أنماط الكتابة أو في الأنماط النقدية والثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية، ولا سيما أن دعاء الحدائنة هي الغالب يجهلون أو يتجاهلون هذه التراكمات التراثية، وإن هم كانوا على وعي بها، لم يحسنوا استثمار الأدوات التحليلية لتقديم تصورات مقبولة لخطاب الحدائنة، ولجذب عقدة الانبهار التي تدفعهم إلى تبني لغة استغرافية عنيفة لا تجني في الأخير أي ثمار.

وهذه حال كثير من الشاهج النقدية التي خاطرت بطرحها في بناء متصورات للقراءة، إذ لم تستطع بعد حل بعض المعضلات الجمالية والنقدية (الذاتية والموضوعية، الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى، طريقة الأدب... إلخ) وثرائها غارقة في غموضها وعموميتها، أو كثيراً ما فضحت الطرف عن القبول بالنقدية النقدية التي لا تقف وراءها اختيارات منهجية وفكرية.

وفي النقد التاريخي والاجتماعي والنسبي والفني والجمالي يشكل مشهد الوعي النقدي المرتبك، وإذا حاصرته الأسئلة الجرحية اجتمعت بالاجتهار التكليفي الموهوم، وجمع بين التحليل البيئي والتحليل التاريخي والاجتماعي جميعاً اضطراباً لا اختصاراً. لا تبرز نظرة نقدية محددة، أو يتبنى مفاهيم غريبة عنه، ويدافع عنها دفاعاً لا يعرف كيف يفتح نفسه بها، بل أن يفتح بها غيره، والوضع هذا ليس وفقاً على الثقافة النقدية العربية، بل يمتد - حتى - إلى الثقافات الغربية نفسها.

إن نظرية القراءة مدينة إلى هذا الوضع التكريي والنقدي الذي حفرها على الخوض في هذه المسائل المعقدة وبناء نموذج لا يدعي الكمال، ولا يسقط في دائرة الانشائية والتوقيفية، وهو مشروع يتطلب جهداً يقف بالأسباب والقيادات التي تؤدي إليه، فكيف السبيل إلى عقد علاقات جديدة بين الأطروحات المتعارضة والتصورات المتنافضة دون العودة إلى تلك التكاملية السهلة أو التوقيفية المبسطة؟ إنها أسئلة غاية في التعقيد، وتتطلب وعياً نقدياً متيناً وحافاً من أجل تركيب نموذج بين هذه الأطروحات المتباينة، وإن يتأخر هذا بيسير إلا بواسطة إسهامات فلسفية وفكرية وعلمية تقدم تحليلاً جديداً لهذه المعضلات المنهجية المطروحة، وبالفعل تواضعت نظرية القراءة على دعم هذه الفلسفات، ومن أبرزها:

## الأبعاد الفلسفية لنظرية القراءة

نجمل هنا الأبعاد الفلسفية التي ارتكزت عليها نظرية القراءة في الفلسفة الفينومينولوجية، والفلسفة النقدية، التي تشكلها مدرسة فرانكفورت، وإن كنا على وهي كبير بانه من سوء الاعتقاد أن يظن المرء

بأن حضور الفلسفات الأخرى منعقد بل لعابن حضورها في أدبيات الوعي النقدي الحديث، الذي ينسم نارة بالتداخل ويتشدد التجاوز ثارة أخرى. ولهذا لاحظنا أن هاتين الفلسفتين ذات منشأ جرمانى أم وما زال بعد الفكر الفلسفي المعاصر من معيته الذي لا ينضب. وهي التي شكلت المرجعية الفلسفية لأطروحات أصعاب مدرسة نظرية كونستانتس الألمانية.

### ١ - الفلسفة الفينومينولوجية:

إن الفينومينولوجية عصبية على التحديد، إذ لم يسارع أحد إلى تقديم إجابة حاسمة وقاطعة عن سؤال: ماذا تعني الفينومينولوجية؟ هل قدرها كقدر كثير من المفاهيم الإنسانية التي ظلت تراوح بين كثير من المفاهيم والأطروحات. فكيف مثل مفهوم الفلسفة نقسه.

هل ينبغي النظر إلى هذه الإشكالية نظرة إيجابية، لأنها تمثل وضعية مريحة، وتحيل على خصيصية التحول التي تساهم الفينومينولوجية على الانتقال من قبضة الحد الجاهز، والتعريف المطلق، والتعجير الطولي، أم أن الانفتاح هي متخيل الانطلاق ما هو إلا شكل من أشكال انحناء الفينومينولوجية تحت الفلسفات التي تمجد الذاتية، وتبذل الموضوعية؟ وقد لا يكون الموضوع سليما إذا طرحناه من هذا المنظور لكون الفينومينولوجية تمتلك تصورا متقدرا في النظر إلى شالية الذات والموضوع. فالانفتاح صيغة من صيغ قابلية التحول، والانحراف، هي عالم الأفكار المتغير على الدوام.

نذهننا هذه الحيرة إلى تغيير طرائق البحث الفلسفي، واختيار أساليب منهجية مغايرة لما هو سائد. ولعل ذلك يجعلنا إما أن نختار قراءة مثل هذه الفلسفات وفق أدبياتها وقضاياها الكبرى، وإما أن نخشع لتأويلها لدى كل فيلسوف من فلاسفتها. وعلى الرغم من أن هذا الاختيار الأخير فيه من التقصيل المدرسي ما يسيء إلى جوهر البحث الفلسفي، لكنه يسهم في إخراج الأساليب المنهجية من حيرتها.

كثيرا ما يعتمد الباحثون الأمريكيون إلى هذا الاختيار فتلقبهم بـ"البنوية - مثلا - بإعلامها لا بقضاياها ومقولاتها، وبذلك يستطيعون الإجابة عن سؤال: ما البنوية لدى كلود ليفي ستراوس أو جاك لكان Lacan، أو ميشال فوكو ML Foucault أو رولان بارت R. Barthes أو ما الفينومينولوجية لدى هوسرل Husserl أو هيدجر Heidegger أو سارتر

## الأبعاد الفلسفية لنظرية القراءة

Sartre أو ميرلو بونتي M.Merleau Ponty أو إنجاردن Ingarden أو دوفرين Defrin أو أي فلسفة أخرى تعددت مشاربها، وتباينت مصادرها؟

لم يستطع الفكر الفلسفي أن يتحرر مما ورثه عن الوضعية وموقفها من الفلسفة بعامة، والميتافيزيقيا بخاصة، فلما نزال نلاحظ الفلاسفة ومؤرخي المعرفة يسارعون من أجل تقي تهمة الفلسفة عن أعمالهم، فالبنوية ليست فلسفة، والفينومينولوجية ليست فلسفة... إلخ. وفرويد Freud ليس بفيلسوف، وليفي سترأوس، وفوكو، وغيرهما ليسا كذلك. الواقع أن الخطاب الفلسفي المعاصر يعاني مرضا تاريخيا، ووهما نظميا، ويتحدث عن القطيعة بمنحيل L'imaginaire يهيمن عليه خطاب الآخر، ويقع في معطور المسكوت عنه.

صحيح أن الفينومينولوجية فلسفات متعددة أكثر منها فلسفة واحدة، مثلها مثل البنوية، فهي بنويات، والسيميائية سيميائيات، وهذه ميزة يختص بها الفكر البشري الذي يعمل كل البيل إلى الاختلاف والتباين؛ لهذا كله ركز دو سوسير De Saussure على طبيعة التباين في النسق اللساني، ومن هنا ألفينا النقد الفينومينولوجي قد تجعل «السياق التاريخي للعمل الأدبي ومؤلفه وشروط إنتاجه وقراءه» كان النقد الظاهري يهدف إلى قراءة محايدة شاملة للنص بعيدا عن المؤثرات الخارجية»<sup>14</sup>.

إن الذين يلتصقون بتمسيقا فلسفيا الفينومينولوجية هم أولئك الذين يرهنون فهمهم في كتابات هوسرل، ويعتقدون أنهم وقفوا على الحق كل الحق، ولكن الحق قد يكون غير ذلك لو هم وسعوا مداركهم، وطلبوا لدى أشواغ فلسفة هوسرل، فليد يجدون أن البعد التأويلي (الهيرمينوطيقية) يطلب على فينومينولوجية هيدجر، بخلاف الفينومينولوجية التي تحصر نفسها في الوصف الخالص ولا تتعدى إلى التأويل، ولولا هذا الواقع ما كنا نرى ذلك التطعيم الحاصل بين الوجودية والفينومينولوجية لدى سارتر وميرلو بونتي.

هناك من وجد ضالته النهجية في مقاربة الفلسفة الفينومينولوجية انطلاقا من مساندة خطاب هوسرل، ثم البحث عن تجلياته في الاتجاهات الفينومينولوجية الأخرى، وبذلك يكون قد تجنب الوقوع في اشكالية حصر الفينومينولوجية في هوسرل من جهة، والتفلسف في تناول قضائها من حيث أصولها وفروعها من جهة أخرى.

والأصل هنا لا يعني سوى ذلك الجهد النظري الذي خلقته فينومينولوجية هوسرل، ولكن لابد من تحويل أجهزة مفاهيمها إلى إجراءات عملية تعنى قطاعات كبيرة من الظواهر المدروسة، ومن أبرزها فعل القراءة الذي يهتم بعملية الإدراك الجمالي بوصفه خبرة تصبح فيها القيم الفنية فيما جمالية، ويتذات (intersubjectivité فيها القارئ مع النص المقروء).

والوقوف على وجهة نظر الفلسفة الفينومينولوجية - كما تجلت في كتابات إنجاردن وأثرث في بارس وإيزر تأثيرا واضحا - من الواجب نقد البدائل الفلسفية المطروحة، منها الإيمان

الأقصى ينتائج العلم، التي لا تستقر على حال، ثم تقديم نقد عميق للموقف الفلسفي حيال فعل القراءة وعملية الإدراك الجمالي، وذلك ما نلمسه في دراسة إيجارين لموضوع المثالية والواقعية وموقع النص الأدبي من هذه المثالية التي ظلت، تتنازعه ردحا طويلا من الزمن.

أرادت الفينومينولوجية أن تقتحم تلك المجالات الخصبة التي تركها العلم، ولم يبق لها حيلة إلا أن تحتاج إلى جهد لتوضيحها؛ فهي من البدايات والسلطات التي لا ينق العقل طاقتها وجهده من أجلها، بل هي ركيزة لكل أبنية المعرفة وسائر الحقائق المعطوة. ومن هنا وجدتُ نظرية القراءة تليد تلك الرؤى الجمالية الكلاسيكية التي كانت رهينة التصورات المعرفية، التي تفصل بين الذات والموضوع فصلا فجعا، وتحصن الإدراك الجمالي في أحد أطراف تلك الثنائية، إما هي البعد الذاتي، وإما هي البعد الموضوعي، وهكذا سار تاريخ النقد الأدبي على هذا القوال، فانقسم إلى نقد ذاتي أو نقد موضوعي - وضاع في تاريخ النقد الأدبي موضوع القارئ وخبرته الجمالية وطبيعة التقى لديه.

يتصور علم الجمال الفينومينولوجي القراءة بوصفها خبرة جمالية تنجس إلى النص وأبنيته، أو ماغية تلك الأبنية النصية كما تجل في خبرة القارئ، فالواقعة النصية ليست منفصلة عن القارئ وغير مستقلة عن إدراكه، فهي حلول الذات في الموضوع أو حلول القارئ في النص، ولكن نظرية الأدب التقليدية وتاريخ النقد الأدبي حاولا تجاهل هذه المسائل الشائكة، واستسلم إما لمعطيات القراءة السياقية، وإما لمعطيات القراءة الحداثية البغلة، محذرين في ذلك العلم الحديث الذي صوّف نظره عن إكاشات والمسائل الميتافيزيقية.

لم تحط منزلة الإنسان بالعناية اللائقة، ولأسبما في الخطاب النقدي الذي تناس دور المتلقي في بناء النص وإنشاج الدلالة، ويمكن النظر إلى البنسوية في تاريخ الفكر الفلسفي والنقدي على أنها صورة حية لتراجع الروح الإنسانية واختلافاتها من مسرح صنع التاريخ، فانهصر دور القارئ في المتلقي السلمي لتكن بوصفه معطى مطلقا.

تكتب القراءة النفسية على نقد أوهام القراءات السياقية، وحتى القراءات الحداثية، وهذا النقد لا يطرح نفسه بديلا لهذا الاتجاه النقدي أو ذلك، وإنما يقدم أسئلة مطيرة حول نسيان القارئ أو تناسيه من عملية الممارسة النقدية والتطهير الجمالي. ومما يثير الحيرة أن علوم الإنسان التي تبلورت في القرن التاسع عشر نادت بمركزية الإنسان، ولم يحاول الخطاب النقدي أن يستفيد من معطيات العلوم الإنسانية لينبي صرح القارئ، ويتجاوز إطار الطرف أو النص في ذاته.

لا يمكن الإغلا، من شأن المحاولات المخبولة التي درست القارئ من وجهة سيكولوجية أو سوسيلولوجية باستثناء بيار جوزا P. Jozas وجاك ليهاردت J. Leenhardt، ومقاربات أخرى لا تشكل بعدا نظريا صليا، وكنا بحاجة ماسة للموقف على ماغية القارئ دون الانزلاق إلى المفاهيم الصورية الفارقة في التجريد، وعدم الخضوع - أيضا - إلى النزاعات التجريدية.



## الأبعاد المعنوية لنظرية القراءة

والأمر هنا يتعلق بمشهور نقدي لمهنية القارئ يفرضها التداولي والمجرد هي أن واحداً فالمعطى الصوري المجرد يضفي على القارئ طابعاً مثالياً لا يتحقق إلا في العالم الأفلاطوني، والمعطى التجريدي يضفي عليه طابعاً انتكاشياً من الصعب اختلاؤه نموذجاً للتعميم.

لا تخرج ماهية القارئ عن الحد المعيني الذي يتخذ الحدس المباشر مرتكزاً له، بحاجة أن تطبق مبدأ الاستدلال في رسم ماهية القارئ طريق يضل الباحث أكثر مما يهديه إلى سواء السبيل. وكل من تحدثوا عن القارئ المثالي أو النموذجي أو حتى الضمني لم يستطيعوا فكاًفاً من هذه التصورات المثالية المجردة، ولم يميزوا بين القارئ بوصفه ماهية عينية و واقعة مرهونة بالشروط الزماني والمكاني.

إذا تعاملنا مع هذه التوجهات على أنها مثالب، فلأن العلوم الإنسانية انطلقت انطلاقاً أصلي إلى سحر نتائج العلم، وطبقها بعداً آخرها على الظاهرة النفسية، وحصرتها في خبرة القارئ و وعيه، ونسبت أن وهي القارئ هو الضمان الوحيد لإضفاء الدلالة على النص وإنتاج معناه. ومن هنا يتبين لنا أن علم الجمال الكلاسيكي لم يدفع نظرية الأدب في النقد إلى اقتحام هذا المجهول/المعلوم. ولا نستثني اتجاهها نقدياً واحداً مما ينصوي تحت القراءات السياقية، ولعل من أهمها النظريات النفسية ذات التوجهات التجريدية.

سبق أن أومأنا إلى أهم النظريات المعرفية التي لم نواكب فيها القارئ، فلا المعطيات المنطقية الصورية ولا المعطيات التجريدية أُدركت بحدود عقلية لهذا التوليد المنطقي بوصفه سلسلة وبيادة. ونحن هنا لا نضطرط في وهم التعميم. وإنما نتحدث عن التثنية الأولى لهذه العلوم الإنسانية، التي بهرها العلم الطبيعي. ولم ينج لها هذا الانبهار بناء جهازها الظاهري وفق طبيعتها الخاصة، واعتماداتها المختلفة وإشكالاتها المثيرة. وهذا ما حاولت أن تداركه في العقود الأخيرة من هذا القرن. وعليه يتبين لنا ذلك الاضطراب المخيف الذي هز النظريات الجمالية، وخلخل أبنيتها النقدية منذ تطبيق المنهج الفيلولوجي إلى آخر اتجاه من القراءات السياقية.

إن أزمة علم الجمال الكلاسيكي ونظرية التفويض هي أزمة العلوم الإنسانية بالأساس، وإذا كان هذا شأنها في الفكر الغربي فما بالها في الخطاب العربي المعاصر؟ وكل النقاش الذي حار حول نظرية النقد أخطأ سبيله عندما انصرف إلى الإعراض عنها، ولم يمس جوهر الإشكالية.

إن هذا الجوهر يكشف عن فقر إستيمولوجي مدفع في مقاربة قضايا العلوم الطبيعية وتأثيرها في العلوم الإنسانية. إنها لم تترك في ذاتها، وتتأمل خطاياها، وتراجع أطرها المعرفية، وإنما استولى على مجامعها الانبهار بالعلم، والإيمان بنتائج إيماناً أصلي، وحتى بطرقه المنهجية، وكان الوفاق الإنسانية مرادفة أو مطابقة للوفاق المادية. كل ذلك جعل مدرسة فرانكفورت تنتقد هذه التصورات، وتبني صرح النظرية النقدية - ولا سيما - أدورنو Adorno وهابرماس Habermas. وتقدم نقداً لهذه النزعة، شكل هذا النقد فيما بعد مشروعها النظري.

## ٢ - هيدسنة في الكفون :

تعرف هذه المدرسة بالنظرية النقدية، ومن أبرز أعلامها:

(أ) ماكس هوركهايمر (Horkheimer Max) (١٨٩٥ - ١٩٧٦) <sup>(١٢٦)</sup>.

(ب) ثيودور أدورنو (T. Adorno) (١٩٠٣ - ١٩٦٩) <sup>(١٢٧)</sup>.

ترك هذان المفكران تأثيرهما الواضح في فلسفة مدرسة فرانكفورت إلى جانب هابرماس. ترك هابركوز ووالتر بنيامين إرثك فروم وإرنست بلوخ ويورجن هابرماس. حيث بدأت بمراجعة فلسفة هيجل. وينتقد مفاهيمات الهوية التي جعلت النظرية النقدية تحرك المعرفة إلى ظاهرة بشرية من خصائصها التعدد. واستلزم ذلك نقد المنطق المنطقي الذي ارتكزت عليه.

ويعد أدورنو من أكثر أعلام مدرسة فرانكفورت. الذين عملوا على تفكيك مبدأ الهوية <sup>(١٢٨)</sup>. وأرسوا أسس مفهوم السلب الذي حاول ماركوز أن يجد له مكانة في الجدول الهيجلي. «إن التناقض الجدلي السلب من داخل الهوية لا ينقش من أهميته. فهو يفرض نفسه في الواقع على أنه تفتح منحرف داخل الهوية/القاتون التي عليه أن يفسر نفسها ويلفها في الوقت نفسه» <sup>(١٢٩)</sup>. يختلف إلى ذلك أن النظرية النقدية جعلت حملة شعواء على تحويل العقل إلى مجرد آلة. وهذا ما أدى بها إلى نقد النزعة الوضعية. والفلسفة البراجماتية. ويمكن هنا أن نجد القراءة التفسيرية في مدرسة فرانكفورت خلاصتها من ذلك التصور الأوحده للتمسك بمفهومه الوضعي.

شكلت كل من الفلسفة الماركسية والتحليل النفسي وفلسفة التاريخ وعلم الجمال محطلات وفقت عندها النظرية النقدية لتجعل منها مرجعية نظرية. بعد أن تعرضت للتحليل والنقد. حيث نجد فيلسوفا مثل هابرماس يصور الماركسية داخل نظرية التواصل الاجتماعي. ويمكن القول بأن هناك أوجهها عدة للماركسية تعاملت معها مدرسة فرانكفورت. ولأسيما بعد أن شرع الفكر الماركسي في مراجعة جهاز مفاهيمه. بدءا من جورج لوكانش ولويسيان جولدمان. ومن هنا ترك ذلك التحول النقدي لدى والتر بنيامين <sup>(١٣٠)</sup>. «إن كانت النظرية النقدية بوصفها مسمي لإعادة بناء الماركسية. تبدو لمجل أبنسور Miguel Abensour سبيلا من دون مخرج» <sup>(١٣١)</sup>.

لقد رأينا أن مؤسسي مدرسة فرانكفورت كانوا قد تلمذوا على كبار علماء النفس الجشطاطيين. ولأسيما أن علم النفس الفتح على القضايا الاجتماعية. وأصبح لعلم النفس الاجتماعي منزلة خاصة لدى أصحاب النظرية النقدية. وبعد سيجموند فرويد حلها لهج. خصوصا أن إريك فروم بدأ يطرق موضوعات غير معهودة مثلما تجلى ذلك في مؤلفه «الخوف من الحرية». وكذلك الأمر بالنسبة لماركوز. الذي كان يعد فلسفة التحليل الفرويدية «جزءا فاعلا في التفكير الاجتماعي للعدالة الاجتماعية» <sup>(١٣٢)</sup>. ويجهتد هابرماس في البحث عن مكانة التحليل النفسي ضمن دائرة التأويل منذ دالتاي إلى جادامير.

## الأبعاد المعرفية لنظرية القراءة

انكبت مدرسة هراكنفورث على نقد العقل الأداتي فالعقل صار أداة بعدما استطاع أن يحول الطبيعة إلى أداة ولهذا حرم هوركاهايمر وأدورنو على إبراز وجه التناقض بين نزوع العقل إلى التحرر من جهة، ووقوعه في البربرية من جهة أخرى. ومن هنا فإن «العقل ليس فقط مرجعاً للتحليل، بل إنه موضوعه كعقل يدخل في أزمة مع نفسه في قلب التاريخ»<sup>(1)</sup>. وهي بذلك تقدم نفسها على أنها علم نقدي للمجتمع والأنظمة التواصلية. إن الفلسفة التقنية تعلم «بأن العقلنة أصبحت محايثة لتطور البشرية، غير أنها استعبادية أكثر مما هي تحريرية»<sup>(2)</sup>. وذلك لأن منطقها لا يسلم بمبدأ الاختلاف، ويترتب عالم عليه مغلق.

أسهم أدورنو في بناء المنهجية الجمالية، فالتقى على الفن، ورأى فيه عاملاً يساعد على الصلابة في عالم تكونت بجدلية التمييز<sup>(3)</sup>. فقد أتاح له حبه ومعرفته للموسيقى<sup>(4)</sup> أن يتحول إلى أحد المنظرين في علم الجمال المعاصر، حيث أثر تأثيراً نسبياً في جمالية التفكيك التي شاركته نظراته إلى نقد الوجه المبني للفن في المجتمع المعاصر. بيد أنه يرى أن سحرية الفن لا تجد مشروعيها إلا إذا خدمت الضمير، وليس الجمال غاية في ذاته<sup>(5)</sup>.

## ٢- علم الاجتماع الألماني: كان أدورنو - R. Reut Kae - يكتنف دور R. Loewen

## ٣- النظريات المعكولة: حيث يتكلم علم النفس العربي

ساعدت هذه التيارات الفكرية والفلسفية نظرية القراءة على فهم العلاقة التي تجمع بين البنيوية والتأويلية، وبين الصورية والتاريخية. وبين البلاغة القديمة والبلاغة الجديدة، وبين الذات والموضوع، أو بين الشكل والمحتوى. كما أن تحليلها لجمال الأسئلة المطروحة أقاد من إنجازات البحوث العلمية داخل الحقول المعرفية المختلفة، وكذلك من الأسبقية الاجتماعية والثقافية لمجتمع العدالة. حيث بدأت الاحتجاجات الطلابية في الجامعات الغربية تهز التقاليد الأكاديمية الثابتة، وتعرض على الفكر أن يدخل معركة التغيرات الاجتماعية. كما حدث في الستينيات في فرنسا (ماي ١٩٦٨)، إذ أسقطت البنيوية من عليها، ولوحطت على يدوان جامعة السوربون عبارة (الويل للبنيوي).

وبالتفصيل حدث ذلك في الجامعات الألمانية، فبدأت الروح الطلابية تتطلع إلى مناخ فكري يعادي التحجير، ويمقت الخضوع إلى سلطة المؤسسة، وهو ما ألفناه في كتابات بارت المتعددة على كل ما هو أكاديمي، سواء على الصعيد التهدي أو على صعيد اللغة الواصفة. إنه جهد ما بعد ريمون بيكار R. Picard الذي يمكن وصفه حسب ما يبرر عنه بـ: عصر لغة التدجيل.

## نظرية القراءة وخطاب الحائثة

يشبه هذا الانعطاف الحاسم - إلى حد ما - موقف جبران من لغة الرافضي (تكم لفتكم ولي لغتي)، أو موقف صلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي من العقاد (لغة الشعر ولغة النشر)، يمثل هذا

التصدام الحضاري بين الأجيال حركة التطور الطبيعية التي تظهر درجة ثورتها في عالم الأفكار والمفاهيم، أكثر مما تظهر في عالم المادة والأشياء.

لقد بعدت الشقة بين النخب المثقفة ذات المستوى العالي من التكوين والتعليم وبين بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى ذات المستوى التعليمي المنخفض. أضحت خطاب جاك لاكاز - على سبيل المثال لا الحصر - متعمداً على الفهم حتى لدى أهل الاختصاص، وكذا الأمر بالنسبة لأعلام النيبوية والسيمياء والتأويلية، وأسيما استعمالهم لعمولة معرفية مستعمدة - كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً - من التسانيات العامة والحقول العلمية الخاصة.

هل معنى ذلك أن على نظرية القراءة أن تأخذ في حساباتها هذا الوضع الموسيوقنائي المتميز، وتؤمن بوجود تراتبية اجتماعية جديدة يمكن أن تشكل مجموعة اجتماعية خاصة، تقوم بوظيفة الجماعات الثقافية في الهيمنة على التوجيه الثقافي والفكري والأدبي، وفرض أتعاض استهلاكية هي حقل الإنتاج الثقافي والإبداعي؟

بذلك نكون قد تخطينا مرحلة (لماذا لا نقول ما ينبغي؟) فالخطاب لا ينبغي له أن ينزل إلى هذا المستوى من القراءة، في زمن أصبح منفتحاً على ما فوق الحدائق sumodémies، ويتوق إلى التماسرة الفكرية المستمرة لمنتجات أساطيره الحديثة. وهل معنى ذلك أن البناء الثقافي والأدبي يعيش (رأسمالية احتكارية) و(إمبريالية) بحكم الهيمنة شبه المطلقة على وسائل الإنتاج الثقافي والإعلامي والتقدم التقني في مجال المعلوماتية والثكاء الاصطناعي والمخابر، التي ما فتئت تأتي بالابتكارات تلو الأخرى.

إن ما يخلق النخبة المثقفة أنها لا تستطيع فكاًفاً عن ماضيتها الثقافي، ولا تعلم بتحقيق القطيعة على النحو الذي تجده في الجالات العلمية؛ فممازنا نرد في كل نظرية أدبية وجمالية مفاهيم أفلاطون وأرسطو وهيجل وكانط وغيرهم، وممازنا - أيضاً - عندما نتحدث عن صياغة نقدية عربية تعود مرة أخرى إلى الجاحظ، وقدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري والجرجاني (الفاضي وعبد القاهر) والقروطاجني والسكاكي وابن رشيق وغيرهم.

كل ذلك بخلاف النظريات الرياضية المعاصرة التي لا تحتكم إلى إقليدس أو أي رياضي قديم، إلا ما تعلق بتاريخ الرياضيات، فمن الوهم أن نطبق مفهوم القطيعة الإبيستيمولوجية تطبيقاً آلياً على الخطاب الثقافي والفكري، لهذا ينبغي الأخذ بالاحتياطات المنهجية عندما

## الأبعاد المعرفية والنقدية لنظرية القراءة

نتحدث عن مفهوم (النظرية) في القراءة، وعن (نخبة القراء)، وهي كلها مصطلحات في طريق بناء تصور نظري يحكم المفاهيم للقراءة.

ضمن غير الميسر إنجاز نمط واحد يكون نموذجاً يعتنق به القارئ في أثناء مقارنته للنص، ذلك لأن طبيعة التلقي وشروطه تختلفان من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن ثقافة إلى ثقافة، ثم إن نظرية القراءة لم تكن رائجة قبل عام ١٩٦٥ على النحو الذي هي عليه الآن. وبعد هذا التاريخ توالى البحوث في مجال اللسانيات والآداب والفلسفة والفن، وعقدت المؤتمرات والملتقيات لدراس أمر القراءة وجماليات التلقي، فامتد تأثيرها إلى الثقافة العربية عن طريق الترجمة قارة والدراسات لارة أخرى، وتكفلت بعض المجلات العربية بإحداثها بين جمهور القراء والمختصين، ومن أبرز هذه المجلات نذكر على سبيل المثال لا الحصر: مجلة فضول (مصر)، دراسات سمعية لندية لاسانية (المغرب الأقصى)، الفكر العربي المعاصر وكشفيات معاصرة (البنان)، عالم الفكر (الكويت)، علامات في النقد والنص الجديد (السعودية)، تجليات الحدالة (الجزائر).

لقد أنجزت العديد من الرسائل الجامعية في هذا الشأن، وظهرت ملامح التغيير ترتسم في أسلوب التعامل مع النص، سواء أكان شعراً أم قصة أم رواية أم مسرحاً، ولم يعد تاريخ الأدب يكتب على النوال المهود، وبطريقة تسوية الوثائق والأحداث مشطوعة بمقتضيات من النصوص، بل ألفينا آثار هذه التحولات وأدباً في مقدمة لشعر العربي لأوضح على سعيد المنهج واللغة. إن لغة النقد قد امتزجت بلغة الإبداع، وشهدت القنتان خلوة عجيبة شبيهة بـ (لغة الدجل)، حيث لم تسلم من سطوة السامطين، ولم تلق القبول الحسن لدى النقاد التقليديين، وكثير من الباحثين الجامعيين المحافظين، لأن هذا التوجه في الممارسات النصية أفرز رطانة أسلوبية يستعصي فهمها حتى لدى أهلها، وشجع (أشباه النقاد) على المكابرة والادعاء دون أن تكتمل أدواتهم المعرفية، وتضج ملكتهم النقدية، ولكن هذا الوضع عام في كل الأزمنة، ولا يمكن القياس عليه.

قد يبدو للملاحظ أن تعاضد اللغة ووحدة المنهج ورصانة الأسلوب لدى طه حسين والمقاد والبيهر الإبراهيمي وغيرهم، يبدو أن كل ذلك ارتبط بالطموح الذي كان يحث هذا الجيل في تحقيق مجتمع متحرر ومستقدم وأمة واحدة متماسكة، ولما انكسر هذا الطموح، وخاب مسعاه، وبدا حلم المستبنيات وهما وسراباً حفر كل ذلك الوعي النقدي على تغيير لغة الخطاب ووحدة، وتاليا تغيير الرؤيا والمنهج.

لعل ما يفسر حقيقة الرقبة في تبديل آليات التفكير هو الافتتاح الكامل بالنظري عن الأيديولوجية، ولبنى النزاعية لبنا مرناً، وتلك هذه الظاهرة تكون سمة من سمات الثقافة الإنسانية المعاصرة، التي تعفت الثبات والجمود، وتنحصر للتحول والتغيير، وتلخص ذلك على

وجه الخصوص في أدبيات التفكير الغربي المعاصر، ولعلها من خلال هذه (الكلمات)، التي لم ترق إلى درجة المصطلحات، وهي كالتالي:

أ - الموت: موت المؤلف<sup>(34)</sup> - موت البنيوية<sup>(35)</sup> - موت العلامة<sup>(36)</sup>.

ب - النهاية: نهاية الحضارة - نهاية الأيديولوجيا - نهاية التاريخ.

ج - المقاعدية: ما بعد المجتمع الصناعي - ما بعد البنيوية - ما بعد العداثة - ما بعد الفلسفة.

وهي كلها مؤشرات إلى الأزمات الحادة التي تعترض الوعي البشري في صنع مصيره على النحو الذي يشهده. لهذا ألفت الأزمات الفكرية بظلالها على نظرية القراءة من بعيد أو من قريب، وأصبحنا غير حازمين بالتيار ذوق الأجيال القديمة ونظريتهم الجمالية وطرق تعاملهم مع النصوص الفنية، وصبرنا ننظر إلى الوافعة الاشتراكية على أن فيها من الطرح الأيديولوجي والسياسي أكثر مما فيها من الأدبي والفني إبداعاً وقلداً، وبمثل ظهر عجز البنيوية وكثير من التيارات النقدية: مما ترك أزمة حادة في الوعي النقدي. وهذا السؤال إلى الأذهان من جديد: كيف نقرأ نصاً أدبياً؟ السؤال على بساطته حير التفكر والدارسين، وما زال يحيرهم، بل شغل يورق المنظرين. هل القراءة تعليق أم إسقاط؟ يرى تودوروف أن فعل القراءة تعليق بسيطه النسق، وتحكمه آليات التفسير والوصف<sup>(37)</sup>.

من هنا مال الخطاب النقدي المعاصر إلى التطوير أكثر من ميله إلى التطبيق، ومما يعد من الهبات والمثالب التي يؤخذ عليها. لكن نظرية القراءة كانت تهيمن إلى حد الفراغ الحاصل في النظريات الجمالية والنقدية، التي لم تخرج عن أسوار الدراسات الأكاديمية والبحوث التقليدية، وكذلك جمود المناهج التعليمية المعيارية التقنية، التي لا تسهم في تحفيز الطاقات الخلاقة على المعطاء المتجدد، بل تعمل على خنقها بالحفظ والتبسيط، وتشكيل ذوق جاهز، وفهم عاجز عن إنتاج المعنى، وشعور بعدم القدرة على التفاعل الحي مع النص.

إن الإحساس بالتردي لدى القارئ دفع ببعض الدراسات النقدية إلى الوظائف ضد هذه المناهج التعليمية والبحوث الأدبية، فكانت على مراحل متفاوتة، حيث شرعت في إدخال المنهج السيلولوجي الوافد مع الحملات الاشتراكية. إنه ثمرة من ثمار تحقيق المخطوطات التراثية تحقيقاً علمياً بتطبيق النقد التاريخي، الذي قام بضمم تلك المخطوطات، ولأسيما بعد هوية بعض البعثات العلمية من الجامعات الغربية، وهي تحمل متصورات متباينة للفن والأدب، والنقد، ولكنها لم تلج إليها نقدياً متبذراً، لأن صراعها كان ذاتياً وهامشياً، إذ لم تحمل معها مشروعاً ثقافياً يأخذ بأسباب التقدم المعرفي وخصائص الثقافة العربية. وعليه لم ينض إلى استخلاص نتائج إجرائية يكون لها الأثر العمود في دفع الوعي النقدي إلى الإبداع. وظل الصراع الصدامي بين الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة لا يروح المحافظة والجمود، أو الاستقرازية والاستغراب: صحيح أن سلطة الآخر الأكبر ظلت تهيمن على الخطاب النقدي المعاصر، سواء أكان هذا الآخر الأكبر مستمكلاً في التوروث أم في الغرب المتقدم.

## الأياد العنصرية في نظرية التاريخ

لم يبق الفكر العربي على تجاوز أسئلة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورهافة رافع الطهطاوي وعبد الحميد بن باديس، كما أنه لم يضاف جديداً إلى أطروحات الذين يُصنّفون في خانة (التوير والتقدم)، و التحدّيين الذين مثل سعيهم وهم يلجسون بالخطاب العلمي والعلمي في واقع اجتماعي لا يقدم خطوة إلا إلى الوراء.

من الطبيعي ألا يكون للعلوم الإنسانية حظ وافر في تقديم مقاربات علمية وموضوعية للإشكالات المطروحة، لهذا كله ظهر عجز الصراعات السيفائية التي غيّبت حضور الفرائض واستبدلتها بمقولات مستعارة، على الرغم من أنها أحدثت شرخاً لا ينكر في مسار تلقي العمل الأدبي، كما كان سائلاً لدى القدماء، وأضحى لدينا تاريخ أدبي تفلوت اقتلعي النقدية في تقديمه، دفع النقد العنيف الذي وجه إلى الكتابة التقليدية إلى تغيير جمالياتها وأساليبها ورويتها للعالم، نذكر منها جماعة الديوان التي تناولت شعر شوقي وتثر المفاوطني بالنقد والتجريح، ودعوة طه حسين إلى استعمال النقد التاريخي منهجاً في بناء تاريخ الأدب، وثورة جماعة أبولو على الأساليب التقليدية في نظم الشعر، وكذا صرخة جبران وأبي القاسم الشابي ورمضان حمود في وجه الجمود والتقليد.

كل هذا لا ينبغي أن يدير له الدارس ظهره، لكن مال القراءة السيفائية كشف عن عجز في مواجهة النص، وإغفال مقام الفرائض في عملية تلقي وتقدم المعرفة على التوصل إلى كتابة تاريخ لتجربة الشعرية المعاصرة بمراعاة بلاغاتها الجديدة، واشتغالات رؤية شبيهة مغايرة لتحقيق هذا المبتغى. مما لا ريب فيه أن هناك محاولات جادة لتغيير بالأسالة والجدد، غير أنها لم تلق الفاح الملائم لاستثمارها، فبقيت مجرد جهود فردية سرعان ما طمسها ثقافة التسيان السائدة، وطورتها الأحداث، لأن الدرجة السليمة للتمثل الثقافي في المجتمعات العربية تأتي في التحضيق الأسفل مع شبه الغدوم وجود إستراتيجيات علمية وفكرية بعيدة المدى إلا ما ندر. يضاف إليها غياب الحوار المسؤول من أجل بناء مشروع المجتمع المتوحد، وهذا يؤدي إلى حقيقة ضروعا أن إرادة الإنسان ومطافئه في المجتمع العربي معقدة وغائبة، فكيف السبيل إلى الاهتمام بالفرائض؟

### موقوفات التلقي في أدبيات النقد العربي المعاصر

لا يظفر الباحث بشيء إن هو عاج بالمراسات النفسية التي تهتم بإشكالية فهم الموضوع، سواء من منظور السياق العام، أو من منظور النص ذاته بشكله ومحتواه، أو من منظور الفرائض بخلاف ما هو عليه

الأمر في الدراسات النفسية الغربية، التي انكبث في السنوات الأخيرة على دراسة آليات فهم الفرائض للنص<sup>(1)</sup>، مركزة على البنى المعرفية، وتنظيم الذاكرة، ودور الخطاطات (Schémas) ودور الخلفيات المعرفية السابقة، وهذا ما يمثل الانشغالات الكبرى لعلم النفس المعرفي.

كان لهذه الدراسات الأثر العميق في التوجيه التربوي، ومساعدة الطلاب على فهم النصوص، وإنتاجها وفق تصورات علمية محددة، وهذا ما نعدمه في تطوير البرامج، وإعداد النصوص، ودفع المعلمين إلى تطوير مهاراتهم، وتنمية قدراتهم الإبداعية، وتحفيزهم على التفكير النقدي، متجنبين في ذلك التقني، وحشو الأذهان بالطوليات، والحواشي، فإن هم أقبلوا على قراءة النصوص ألفوا أنفسهم عاجزين عن إبراز ما قرأوا، و تلك منقصة مربها إلى غياب الموجهات التعليمية (Didactic)، مما أدى إلى نكس عقول القراء الناشئين، يضاف إلى ذلك ضعف الروابط بين النظرية الأدبية وبقية المعارف الأخرى، واستمرار نتائجها في بناء تصور علمي لنظرية القراءة، والإقبال على مناقشة إشكالاتها وقضاياها الشائكة، والإسهام في ترسيخ قواعد المؤسسات العلمية داخل الوسط الجامعي أولاً، ثم تعميمها على المجالات الاجتماعية الأخرى ثانياً، والتغلب على الأساليب التقليدية في مقارنة النصوص، سواء أكانت شروحا أم تفسيراً أم تأويلاً.

إنها نملأ كتب الأخبار والمستنقالت التاريخية، وشرح الآثار الشعرية والتثنية باستثناء تلك المحاولات الأسيلة لدى القدماء (الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، والفراء، وغيرهم)، التي تحتاج إلى تعديل وتهيئة، داخل متصورات القراءة الحديثة. **ولاسيما البلاغة العربية القديمة** التي يمكن أن تشكل معطى أساسيا في مقارنة تحليل الخطاب، وتحديد مواطن الألفة (Linguistic) في النصوص إن هي خضعت للتحقق النقدي ومواطن الألفة والتأويل الجدل والتعليق الضروري.

ومن أهم هذه المتصورات التقليدية ضرورة الانتقال من الاهتمام بالسماع إلى الاهتمام بالقارئ، أي الانتقال من الشعرية المشفوية إلى شعرية الكتابة التي أربكت الأجناس الأدبية وقواعدها الكلاسيكية. وكذلك توجيه الدرس النقدي إلى تأمل خصائص الوبق والاستجابة، بدلا من الوقوف على المقاربة المحايدة، أو الأسبغة الخارجية لإنتاج النصوص.

هذه كلها مقدمات تقضي إلى عالم نظرية القراءة، وفيليا ما نجعت الكتابة العربية الحديثة في تغيير التقاليد الأدبية الموروثة، وظهر عجزها في بناء نوب جديد، وأفق انتظار غير مبهود، وإذا أخذنا التجربة الشعرية العربية نموذجا لذلك، ولأعلننا مسارها من حيث التقني، لوحدنا سلطة الشعر التقليدي مازالت تحتفظ بتفوذها لدى القارئ العربي، وهي المقابل عدم قدرتها على صوغ حداتها للطروج من سلطة الآخر وسعده.

إن الشعرية الحديثة لم تغير كثيرا من تقاليد القراءة العربية القديمة، ولم يتراجع أمامها سلطان الذوق العام الذي شيدته البلاغة العربية القديمة، ولم تسهم إسهاما نوعيا في تقديم بديل مقنع لأفاق الانتظار الجديد، وتحفيز القراء على الاستجابة لجمالياتها. وهذا لا يتم إلا وسط التحولات الثقافية والمعرفية والاجتماعية، وداخل مناخ يشجع على التغيير والتقدم، وهو ما نعدمه في الثقافة العربية المعاصرة إلا قليلا.



## الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية القراءة

ليست هناك أسباب نهية الطريق لهذا التغيير المأمول لتقبل الجديد، وهو أمر غير يسير أن تقتنع به الذهنية الثقافية العربية، بخلاف ما عليه الواقع في الثقافة الغربية التي انتعشت فيها نظرية التلقي. فقد تطورت في وضع من الحياة الألمانية الأدبية والسياسية وقلب عليه طابع الصراع، ومن ثم احتلت مكانها في المجال الثقافي من خلال أشكال مقلدة من الحوار والجدل مع التماهي والتقاليد الأخرى، وهي لم تجد نفسها مضطرة إلى رفض الاتجاهات المناهضة بالإعلان عن تقادمها ونقصها فحسب، بل كان عليها كذلك أن تدعي نقصها، خصوصاً في مراحلها الأولى، الثورة والجدد<sup>(23)</sup>، وذلك ما لم تتوافر عليه الثقافة العربية المعاصرة.

إن أدب الصراع - بالمفهوم الأخلاقي - في الثقافة الثقافية العربية لم يرق إلى المستوى الذي يصبح فيه فاعلاً ومؤثراً ومشعراً، بل تحكمه معايير ذاتية لا صلة لها بالوعي الثقافي، والتخطيط المرسوم في الغالب الأعم، لأن النظرة الأيديولوجية تقضيه أكثر مما تؤطره النظرة العلمية. لهذه الأسباب لم يستجيب الوعي الثقافي العربي استجابة فاعلة لرافع الأسئلة المطروحة، وظل غارقاً في المشكلات الوهمية، والقضايا الهامشية الزخيفة.

هل يمكن تحجيم فعل القراءة برسم تطويعها هذا ما قلناه المقاربات النهوية عندما تصورنا القراءة على أنها مجرد فعل لغوي، قد يضع بين يدي التلقي أدوات إجرائية من أجل تحصيل تعليمي، ولكننا إذا حصرتنا إستراتيجية القراءة في هذه المقاربة المحدودة فإننا نتجزع عدداً كبيراً من الثروة المعلوماتية دون القراءة، بيد أننا لا نستطيع البتة الإحاطة بنضاض الدلالة، والافتقار منها دون فعل القراءة، فالتأويل والدلالة ثمار مشروعها، والهدف الأسمى إستراتيجيتها.

بقي أن نتساءل عن ضرورة تحديد مفهوم القراءة بإضافة صفات لها، هذا ما نكسبه في الثقافة الثقافية المعاصرة، سواء كانت غربية أم عربية، فإننا كانت بعض هذه الصفات من قبيل الترفيع اللغوي، أو جرياً وراء اصطلاح المصطلحات البراقة التي لا تدل على معن أصيل، بل ظاهرها بخلاف باطنها، فإننا حصرتنا القراءة في إحدى الصفتين اللتين تتجاوزان إطار الوصف في ذاته، لتغدو مصطلحاً قائماً على تقديم مبرراته المعرفية، وعليه لا يمكن الوقوف على إشكالات نظرية القراءة دون فهم أبعادها السوسيوثقافية ومرجعيتها الفلسفية وتحديد جهازها المفاهيمي، وهذا كله يدفعنا إلى نقد خطاب الحداثة وتفكيك آلياته بوعي نقدي متبصر وعترك بأهمية علم اجتماع المعرفة بعامة والإنسانية بخاصة.

- بول - أوران أسون: مدرسة فرانكفورت - ترجمة: محمد عرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - لبنان - ط 1 - 1990.
- تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي - ترجمة: جابر عصفور - منشورات دار عيون القريبة - ط 1 - 1996.
- روبرت هولز: نظرية النص - ترجمة: عز الدين إسماعيل - منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة: السعودية - 1998.
- محمد نور الدين أظاية: الحدائق والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج غادامر - أفريقيا الشرق - المغرب - ط 1 - 1991.
- أحمد يوسف: الشكلازيون الروس - مجلة كتابات معاصرة - بيروت - ع 99 - 2000.
- تيري إيجلتون: الظاهراتية والهرميوطيقا ونظرية النص - ترجمة: محمد خطابي - مجلة علامات - مكتبات الغرب - ع 7 - السنة الأولى - ربيع 1998.
- فولتجنج فيليب: هل العلم والفن متطابقان؟ - مجلة فكر وفن - ألمانيا - ع 80 - السنة الخامسة والمشرورين - 1999.
- نور ثروب فراي: تشريح النقد - ترجمة: محيي الدين صبيحي - دار الكتاب العربي: ليبيا - 1991.
- رولان بارت: درس الميمولوجيا - ترجمة: عبد السلام بن عبد المكي - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - المغرب - ط 1 - 1987.
- جان بياجيه: البصيرة - ترجمة: عارف طهنة ونظير توري - منشورات دار عيون - لبنان ط 1 - 1980.
- جان بول سارتر: دفاع المثقفين - ترجمة: جورج طرابلسي - دار الآداب - لبنان - ط 1 - 1999.
- تيري إيجلتون - نظرية الأدب - دار نيب: منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق - 1998.
- روثيه ويلز: أوسن وارن: نظرية الأدب - ترجمة: محيي الدين صبيحي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - لبنان - ط 1 - 1987.
- Abenour Miguel , Initiations avec le monde philosophique, la découverte monde, Paris, 1984.
- Adorno T. W.: Philosophie de la nouvelle musique, ED. Gallimard, Paris- 1962.
- Adorno T.W., Dialectique négative, Ed. Payot, Paris, 1980.
- Adorno T. W. : sur la théorie esthétique Ed. Klincksieck - 1976.
- Bertalanffy Ludwig Von , Théorie générale des systèmes, Trd. Jean- Benoist Charred, Ed. Dunod, Paris, 1993.
- Cixous Jean Petiot , Morphogénèse du sens, Ed. PUF, Paris.
- Deschênes A. J. : La compréhension et la production des textes (Monographies de psychologie) Ed.P. U. Québec - 1988.
- DÖlitz, F. Histoire du structuralisme tome I - Ed. La découverte - Paris, 1991.
- Adorno T.W: philosophie de la nouvelle musique ED.Gallimard,Paris - 1962
- Eco Umberto , Sémiotique et philosophie du langage.Trad. Myriem Bourcier, Ed. P.U.F, paris, 1991.
- Jauss H.R. Pour une esthétique de la réception - trad. Claude Mailhot - Préface: Jean Starobinski - Ed. Gallimard - Paris, 1978.

- Jares, H. R. Pour une herméneutique littéraire, Ed. Gallimard, Paris, 1982. -
- Iser Wolfgang , L'acte de lecture, théorie de L'effet esthétique, Ed. Mergada
- Riffaterre Michael , La production de texte, ED. Seuil, Paris, 1979. -
- Todorov, Tzvetan: Poétique de la prose - Ed. Seuil - Paris, 1971. -
- Preface: Jean Starobinski - Ed. Gallimard - Paris, 1978. -



- 1- Michael Kiffner, La production du texte, ED. Seuil, Paris, 1979, P.11.
- 2- H.R. Jauss, Pour une herméneutique littéraire, Ed. Gallimard, Paris, 1982, pp.13,14.
- 3- H.R. Jauss Pour une esthétique de la réception, 1978.
- 4- تيري إيجلتون، نظرية الأدب، ترجمة: دكتور هبة منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٠٦.
- 5- جان بول سارتر، دفاع الملقدين - ترجمة: جورج طرابيشي - دار الآداب - ط ١ - ١٩٧٢.
- 6- روثيه ويلفاند وآلستون وايزن، نظرية الأدب - ترا: محيي الدين صبيحي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - لبنان - ط ٩ - ١٩٨١.
- 7- هذه المباحث شكلت من أطروحتنا التي أنجزناها ما بين جامعة مارك بلوخ لعلوم الإنسانية باستراسبورغ وجامعة وهران - مخطوط موجود في مكتبي الجامعتين ولهذا لا يسمح القام هنا للتوسع في هذه القضايا النظرية والتفصيلية.
- 8- انظر أحمد يوسف، الاشتكاليون الروس - مجلة كتابات معاصرة - بيروت - ج ٢٦ - ٢٠٠١.
- 9- انظر ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة - ترجمة: إسماعيل عيسى ومحمد يوسف نجم - دار الثقافة - لبنان - ج ٢ - ١٩٦٠، وكذلك نقد وحليقة لروكسان بارث.
- 10- أحمد يوسف، المرجعية الساتلية والخطاب النقدي - مقال لصحت النشر بمجلة النص الجديد.
- 11- انظر التنبؤية - ترجمة: عارف مدينته ونشتر أوبري - منشورات دار عويدات - لبنان - ط ٢ - ١٩٨٠.
- 12- Théorie générale des systèmes, Trd. Jean - Benoist Chabrol, Ed. Dunod, Paris, 1993, P.78.
- 13- Jean Piaget, Genética, Morfogenética da vida, Ed. PUF, Paris, 36.
- 14- ينظر نور ثوب، طراي، شرح لكتاب الأدب، ترجمة: محيي الدين عيسى - دار الكتاب العربي - ليبيا - ١٩٩١.
- 15- تيري إيجلتون، الظاهراتية والهرمنوطيقا ونظرية النص - ترجمة: محمد خشاني - مجلة مقالات - مقال في الكفوف - ج ٣ - السنة الأولى - ربيع ١٩٩٤ - ص ١٠.
- 16- كتب الروايات في بداية عهد: حيث جمع بين الأدب وطعم النفس والفلسفة - حضر أطروحتي حول: كائنات معاصرة في تناقض ذلك الحكم الفطرية ١٩٧٢، وأنشأ بعدة أ بولوات معهد الدراسات الاجتماعية - صدر استاذ كرسي الفلسفة الاجتماعية، عام ١٩٧٩.
- 17- اعتدى منذ صدره إلى فلسفة كائنات، وكان مولعا بالقوسيدني. انشئ بهور كهايمر عام ١٩٧٢، وتول من الجشطاطية والظاهراتية، وهذا ما يفسر اهتمامه بعلم الجمال. فقد حضر أطروحتي كيركغور: بناء الاجتماعية - تولى رئاسة المعهد بعد وفاة هور كهايمر.
- 18- Voir T.W. Adorno, Dialectique négative, Ed. Payot, Paris, 1980.
- 19- بول - لوران أسون: مدرسة فرانكفورت - ترجمة: سماء حرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - لبنان - ط ١ - ١٩٩٠، ص ٢٥.
- 20- انظر تيري إيجلتون، الفكرية والنقد الأدبي - ترجمة: جيلر منصور - منشورات دار عين للدراسات - ط ٩ - ١٩٨٦.
- 21- Miguel Adorno, Estéticos avec le monde, 1 - philosophie, la découverte / le monde, Paris 1984, P.212.
- 22- بول - لوران أسون: مدرسة فرانكفورت - ترا: سماء حرب - ص ١٠٦.
- 23- المرجع السابق، ١١١.
- 24- معهد نور الدين أفاق، الحدائق والتواصل في الفلسفة الثقافية المعاصرة لنموذج هابرماسي - إفريقيا الشرق

- ١٠ - المغرب - ط ١ - ١٩٩١ - ص ٧٧.
- ١١ - فرانكويس فيلش، هل العلم والفن متضادان؟ - مجلة فكر وطن - المانيا - ع ٥٤ - السنة التاسعة والمثرون - ١٩٩٧ - ص ٩.
- ١٢ - Voir T. Adorno: Philosophie la nouvelle musique, ED. Griffland, Paris - 1962 - P. 130.
- ١٣ - Voir T. Adorno: Sur la Théorie esthétique Ed. Klincksieck - 1976 - P.30.
- ١٤ - رولان بارت: درس الميديولوجيا - ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي - دار لويستال للتأليف - الدار البيضاء - المغرب - ط ٢ - 1٩٨٦.
- ١٥ - Denise, F. (1998) Histoire du نظير ١٩٦٨. نظير في مايو ١٩٦٨ في لقاءاتهم في مايو ١٩٦٨. Histoire du structuralisme tome I-Ed. La découverte - Paris.
- ١٦ - Umberto Eco, Sémiotique et philosophie du langage, Trad. Myriem Bouabou, Ed. P.U.F, PARIS, 1993, PP. 17,18.
- ١٧ - Voir Todorov, Tzvetan: Poétique de la prose - Ed. Souli - Paris, 1971.
- ١٨ - A.J.Dorblin: Les deux faces de la psychanalyse: la théorie et la pratique - Ed. P.U.Quebec - 1988.
- ١٩ - روبرت هوب - نظرية النقد - ترجمة: هز الدين إسماعيل - منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة - السعودية - 1٩٩٤ - ص ٧٧.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## نقد أسطورة الديمقراطية : من دولة الإكراه إلى دولة الديمقراطية

د. عماد هوزي شعيب

### ملخص

يصعب على الوعي السياسي العربي السائد أن يستوعب عدوية نقد المسائل التي لم تتحقق لديها، أو التي هي موضوع أسطورة فكرية صند، ذلك أن منطق التفكير أو منطق التوصيف الواقع كما هو، من دون إضافات الترسيمية أو التماثل الأجلاني، ليس من المناهج المعتادة في الوعي العربي. ولعل الأخطر يكمن في أن هذا الوعي الحساب لمؤسسة التسامرية والمنطق البوليغامي يعتبر كل نقد للديمقراطية أو لأي مشروع سياسي أو فكري يعنق ثيل مؤامراتي أو سلطوي... الخ من المشروع بأسره.

إن عقلنا السياسي والثقافي السائد منذ قرن تقريباً لا يستطيع أن يقبل لغة التفكير التي تقوم على تفكيك المشاريع البديلة، لأن الشك يذهب باليقين، والأفكار الكبرى والمشاريع السياسية والفكرية الجذرية تحتاج دائماً إلى أكبر قدر من القناعة والإيمان، وأقل قدر من التفكير والشك؛ لأنها تحمل سمعة التعتة. وهذا ضروري بطبيعة الأحوال، لكنه ليس معرفياً!

إن وظيفة المعرفي الشك، الشك الذي يبحث عن الأقصى في المعرفة، وليس الشك بالمعنى الوسواسي، أو مجرد الانتقال بطريقة خالف تعرف، ومن هنا تنبأت ضرورة تفكيك مشاريعنا التي تطرح منذ زمن، كي تصل بها إلى وعي واقعي متطابق للواقع وأكثر عمقا.

(\*) استناد الإحصاءات هنا بجامعة دمشق.

## نقد أسطورة الديمقراطية

وليس من الضروري أن يكرر المرء هنا، لتبيل شهادة حسن قنطرة من الأخيرة أو حسن سلوكه، أنه مع الديمقراطية أو ضد الفساد أو بدعم المجتمع المدني، ذلك أن المعرفي لا يحتاج إلى أكثر من أن يُقدّم نفسه كما هو، صانداً للوعي السائد. ولعلنا بحاجة إلى التأكيد مجدداً على أن المعرفة لا توضع بين ثنائية إمّا... وإما المثالية التعبوية اللا ديمقراطية عبر أكثر من خمسين عاماً قد انتهت إلى ما نعرف اليوم: إذن المطلوب اليوم ليس أن تبيع شعارات مجرد أنها نقيّة، المطلوب أن نعرف إيجابيات مشاريعنا وسلباتها، نعرف الإيجابيات كي ندعمها ونعرف السلبات لتتجاوزها ونؤهل القديم على الرضبة سليمة.

خلال خمسين سنة كان الفكر العربي يركّز على الإيجابيات إلى درجة الأسطورة، ولعلّ السلبات أو نُقيت عنه، في موضوع الديمقراطية، فساداً أو بحسن نية. والبحث الذي بين أيدينا يدعي أنه انتقل إلى الضفة الأخرى من النقد، أي إلى تسجيل سلبات أسطورة الديمقراطية: النقد الذي هو بناء على البناء وليس لعنا لكل شيء.

نحن نطرح في السلبات لأننا نرفض الوسائل الفكرية المريحة للرؤوس. كعنا كل الأيديولوجيات. وظيفتنا أن نستقر الراحة في الرؤوس ونبعث الفلق؛ لأن الاسترخاء يؤلّد الاسترخاء، والوسادة تذهب إلى النوم، إن مشروعية بحثنا أنه لا يحمل صفة التسييس ولا صفة الذبّة؛ فلنسا بعضه مشروع فكري سياسي كغيره، لأننا نذكر أن المعرفي: لأنه غير أيديولوجي بمعنى الوهم التكمّل. ليس شعبياً، ولكن يكون.

نحن أكثر ما نشعر أن نجد قنطرة لتبيل بتعريف مستنتج الساكن من المعرفة والأيديولوجيات والسلطات؛ ذلك أن أفضل مشروع فكري هو عشية على طريق المعرفة، وعليه فإن وظيفتنا هذا البحث أنه يقدم توصيفاً للواقع، وليس لنبأ له، ولا يدافع عن دولة الإكراه ضد دولة الديمقراطية؛ لأن لا هدف سياسي له. ولأن ليس لغة من عاقل يرفض الديمقراطية، ونزوة ما يريد الوصي.

## الدولة الإكراه

على الرغم من أن مقربة الإكراه تقع موقفاً سيئاً على مسامح المواطن العربي، ونخصوصاً المثقفين، إلا أن إخراج الرؤوس من الواقع، باعتباره خياراً ملهيّاً وظلالاً، يستدعي الاعتراف باعتباره يرضى نفسه علينا سواء أقبّل به أم لم يقبل.

إن من المذائب التي أتت بها تجربة عصر الأنوار أنها أقامت «العقل النقدي» على الماضي والحاضر يعاقبهم عسرها، ولعل الحق يكمن في النقد الذي وجهه هرود ومن ثم هيجل، عندما رآيا: «أن من الخطأ النقد من قاعدة زمنية وفكرية مختلفة».

وقد جاء النقيض الهيجلي: باعتباره تحققاً وتجاوزاً معاً، يؤكد لنا على أهمية استنباط ما سوف ندعوه منهجياً: التمثل<sup>(1)</sup>.

وتعني بالتمثل ذلك النهج الذي يستجيب استجابة بالعض الفيزيائي للواقع، فيعيشه داخلياً دون إحكام الرغبات والشاعر والتقد السبيل، ويضع حسابات ذلك الواقع التاريخي في سياقها ليكشف عما إذا كان بالإمكان أفضل مما كان، أي أن يكون الموقف النقدي متأثراً من (هضم) التجربة السائدة واستيعابها باعتبارها ضرورة بالعض التاريخي، وباعتبار ما يحدث في الواقع إنما تستجيبه طبيعة الأشياء أو روح العصر<sup>(2)</sup> التي يجب أن تترك ويدرك أن من الضرورة الاتصاف لها، فلكي نطمئن الطبيعة يجب أن نطمئنها.

ولكن لا يذهب البعض في اتهامنا بأننا قد غالفنا كثيراً في إبراز دور السياق أو الروح أو الواقع على حساب دورة الإزادة، فإتينا يجب أن نذكر الإزاديين كم هي متكومة تجربة النقد الإزادي أو الفعل الإزادي في التاريخ، ونذكر أن إزادية ماركس نفسه كانت محدودة عندما أكد أن مهمة الإزادي هي تقصير فترة العمل وتخفيف الآم الولادة، وهذا ما قبله جزئياً من ماركس، لكننا نريد أن نضع التمثل قبل الإزادة، لأن في التمثل فيما لا يمكن للإزادة أن تعمل من دولته.

وهنا نقول إن أي فعل سياسي لا يمكن أن يكون فعالاً حقيقياً من دون الدولة، على اعتبار أن الدولة هي مال مؤسسي، لم نستطع التجارب والأفكار، معلومة كانت أو واقعية أو شبه واقعية، أن تتجاوزها؛ حتى أن الوهم الماركسي يزول الدولة مع زوال الصراع الطبقي، قد تم توسطه بدولة تمثل ديكتاتورية البروليتارية.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لكن كل دولة هي في الحقيقة مستنكر الإكراه، وهي تعريفاً مستنكر العنف، لأن أي دولة لابد أن تمنع العنف الاجتماعي والسياسي، وتمارسه بأشكال متنوعة تبدأ بالإكراه السياسي والاجتماعي المباشر (الإكراه)، أو غير المباشر (الضيق)، كما تقوم بالإكراه الاقتصادي، ما دامت تعبر عن مصالح اقتصادية لفئة معينة. وعليه فإن لا دولة من دون سلطة ولا سلطة من دون تسلط، لكن الإكراه هو الشكل المبدئي (ولنقل البدائي)، وكلما تطورت الهيئات عمل الدولة انتقلت من الإكراه المباشر إلى ذلك غير المباشر.

وتبقى سمة الإكراه سمة غالبية على الدولة حتى في نموذجها الذي سندعوه بدولة - القانون، إذ إن القانون - كما هو معروف - يُقسّم في بعض أقسامه إلى قسمين: الأول القانون المدني وفيه تتوسط الدولة بين المتنازعين، وهذا شكل من مسبوقة التطور إلى دولة - القانون. والثاني هو القانون الجزائي، وفيه تحتفظ الدولة بالحق العام، فعلى لو تسقط المتنازعون حقوقهم، فإن للدولة حقا إكراهياً، هو الحق العام.

ومن المهم التأكيد هنا على أن سمة الإكراه تبقى في لبّ نية الدولة، ومن الوهم، كل الوهم، أن يتصور المرء أن أي نظام سياسي يخلو من الإكراه، إذ إن هناك الكثير من الأمثلة التي تؤكد



## نقد أسطورة الديمقراطية

أن الإكراه المضمّن تحت الرّماد هي الدول الديمقراطية ذات الإرث القانوني. سرعان ما يتبعث كالنار عندما تتهدّد الدولة، وأول من القمع العنفي الذي تعرضت له حركة الطلاب في أوروبا، خصوصاً فرنسا العام ١٩٦٨، ما يؤكد كيف أن الدولة الديمقراطية سرعان ما تكشف عن أثارها الإكراهية إذا لم تفلح الضبط، أو إذا هدّدت الحرية... الدولة.

ولهذا فإنّ تمثّل واقع الدولة وسلّية الإكراه هي بليتها، سيساعد على فهم كيفية التعامل مع هذا الإكراه، دون عصايب لفظي، وبالتالي يمكن إخراج الوسائل الواقعية الممكنة للتحوّل من الإكراه إلى الضبط، ومن العنف إلى القانون بدلاً من التسياسي والنزاع على واقع الإكراه واستبداله الذهني الرغويوي باللا دولة، أو بدولة غير إكراهية البتة.

إن من مميزات مجتمعاتنا العربية أنها مجتمعات غير حديثة، بل ما قبل حداثة: الأمر الذي يجعلها تحول الحرية إلى قيمة كونية؛ بل وتبالغ في أهميتها دون أن تدرك أنها مشكلة فلسفية ووجودية لا حل لها، وأن الديمقراطية شيء والحرية شيء آخر، مما يجعل الحرية، وعلى مستوى ضيق أحد تجليات النظام الديمقراطي، لكنها حرية مشروطة بالدولة والنظام الاقتصادي والعلاقات الدولية والإقليمية السائدة وما يدور بالأسان القومي<sup>(١)</sup>.

من خلال مراجعة عصبة التشريعات المعروفة عن الدولة ونشأتها وتأسيسها، نلاحظ أن أرسطو عرف الدولة ككلّين معطى بشكل طبيعي، ولم يعرف شيئاً آخر في أشكال التنظيم الاجتماعي. بمعنى أن التفكير في الدولة لاحق على تأسيسها، حتى أنها قد عدت جزءاً بديهية في التفكير السياسي لفترات طويلة من الزمن، ولكن اكتشاف الديمقراطية قد بين أن هناك شيئاً<sup>(٢)</sup> على سطح الأرض لا تعرف الدولة، بل تعيش في مجتمعات يمكن تسميتها مستقرات قروية وهي مجموعات قبائل.

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نقيّل ما يراه عالم الاجتماع الأمريكي ليستر، فـ «ويرد، من أن الدولة هي نتاج استعمال عقري للذهن البشري، أو أنها ظاهرة عظيمة أنتجها عقل واحد، أو عقول قليلة متعاونة معه.

كما أن النظريات الإرادية الاختيارية في تشكيل الدولة، كذلك التي عرفناها عند جان جاك روسو، لم تكن أكثر من محاولة لمباينة الانتقال من الإكراه إلى الضبط، ومن دولة الإكراه إلى دولة القانون. بمعنى أن نظرية العقد الاجتماعي هي لاحقة على تأسيس الدولة، وأن مجرّد استخدامها باعتبارها تحليلاً تاريخياً لتشكل الدولة، لا يشكل أكثر من طريقة تاريخية.

كذا، فإنّ النظرية الإرادية الليبرالية، التي ترى أن ابتداء الزراعة قد جلب معه الفائض في الإنتاج، مما مكّن من الانصراف إلى العمل الملهي الهدي ونشوء تقسيم العمل الذي أسفر بتخصصه المهني عن نشوء وحدات اجتماعية مستقلة التامت تلقائياً وتدرجياً فيما بينها بالدولة؛ هذه النظرية التي دعا إليها عالم الآثار البريطاني جوردون تشايلد<sup>(٣)</sup> بتأسيس متميز على الماركسية تتعرض اليوم لنقد شديد، إلا إن ابتداء الزراعة لم يجلب معه تلقائياً الفائض، فهنود

الأمازون - على سبيل المثال - تقريباً، يعملون في الزراعة، لكنهم على الرغم من ذلك لم يكونوا ينتجون فائضاً، وقد بدأت بعض قبائلهم، منذ زمن ليس بالبعيد، تتجش فائضاً هاملاً، استجابة لطلب المستوطنين الأوروبيين الجدد. لقد زعمت هذه القبائل نبات المنيوكا بكميات كبيرة لأسباب تجارية تجارية، وقد حدث الفائض المتوقع، إن واقعة كهذه تظهر أنه كان يوسع هؤلاء، من الناحية التقنية البعثة، أن ينتجوا فائضاً، لكن ما كان ينقصهم هو تلك الميكانيزمات الاجتماعية الضرورية التي تشكل حاداً دافعاً لاستعمال الوسائل المذكورة<sup>13</sup>.

ثم إن هناك نظرية أخرى لإرادة نشأة الدولة هي (فرضية الري لكارل هينفوجل) وأنا أفهمها على النحو التالي: في بعض التواحي الجافة أو شبه الجافة من الأرض، حيث يضطر الفلاحون إلى بذل جهود منظمة من أجل الحصول على نتائج متواضعة باستخدام وسائل ري غير متطورة وغير كافية، وجدت مجموعات منهم، في مجال زمني معين، أنه من مصلحة الجميع التنازل عن بعض الحريات الفردية لمصلحة تكوين وحدات سياسية كبيرة من هذه المجموعات المتناثرة، تكون قادرة على تطوير نظام فعال للري يجعل العمل الزراعي سهلاً نسبياً، وذا نتائج أفضل على مستوى الحصول، والجماعات التي قامت بإنشاء نظام الري المخطط، وإدارته، هي التي أنشأت الدولة، بيد أن فرضية هينفوجل هذه واجهت أخيراً صعوبات حالت دون التسليم بها، إذ أظهرت البحوث الأثرية في ثلاث جهات التخلفا هينفوجل شواهد على فرضيته القائلة (في بلاد ما بين النهرين، والصين، والمكسيك) أن الدولة ظهرت فيها قبل التفكير في حالة معيطة ومتطور للري، لذلك أمكن القول، إن «نظام الري» لم يلعب ذلك الدور الكبير الذي يتسببه هينفوجل في مجال نشأة الدولة.

إن هذه النظرية هي نشأة الدولة، والنظريات الإزادية المشابهة، تقف عاجزة أمام مسألة أساسية في هذا المجال، إنها مسألة العنف، فمن الثابت - تاريخياً - عجز الوحدات السياسية الصغيرة المستقلة عن رؤية مبررات معقولة للتخلي عن حريتها والخضوع لسلطة مركزية. لقد كان هناك دائماً قسر خارجي مرغم في مجال التوحد والتضخم السياسي، وتستطيع مراقبة ظاهرة «الإرغام» هذه عبر التاريخ من الوحدات القروية الصغيرة، وحتى الإمبراطوريات الكبيرة، ويمكن لذا أن نلاحظ ذلك عبر التاريخ كله من دون استثناء واحداً وإذاً يكون علينا أن نعرض عن الفرضيات الإزادية هي ظهور الدولة باحثين عن نقطة بداية أخرى<sup>14</sup>.

لقد أظهرت الدراسات التاريخية التي عرضها كاتنرو أن النظريات التي تعتمد فرضية القسر والعنف، أساساً نشأة الدولة هي أكثر إقناعاً وثباتاً على المحلل التاريخي والأثري، خصوصاً الحروب التي شكلت - باعتبار الكثرين - معجوراً لتشكيل التاريخ، فقبل خمسة وعشرين قرناً قال هيراقليطس إن الحرب هي أم الأشياء كلها، وقبل أقل من قرن من الزمان درس هوبز سبنسر بشكل عملي وتفصيلي في نشأة الدولة، كذلك فعل لودفيج جوميلهينز، وجوستاف راتسنهوفر، وكذا فعل فرانز أوبنهايم.

## نقد أسطورة الديمقراطية،

لقد لعب الإكراه أو العنف، كأشد أنواع الإكراه تحليلاً دوراً أساسياً في ظهور الدولة. وهذا ما قدمته لنا المواد التاريخية والأثرية التي تشكل الدلائل على الحضور المظاهر للحرب والعنف في المراحل المبكرة لنشأة الدولة في بلاد ما بين النهرين ومصر والهند واليابان واليونان وروما وأوروبا الشمالية وأواسط أفريقيا ووسط أمريكا والبيرو وكولومبيا، حتى أن إدوارد جيتز قد برهن على أن كل الوحدات السياسية ذات المنحى الحديث لنشأتها لنصر أو حرب في معركة ما، كذلك برهن جان هانسينان على أن ظهور الدولة بعد الأخرى هي أواسط أفريقيا قد تم بطريقة العنف والتقسر. وإذا كان بعض الأنثروبولوجيين قد تحفظوا أن شعب المايا القديم قد أنشأ دولة بغير عنف، إلا أن الرسوم الصخرية التي وجدت في يوكاتان، قد أكدت على المشاهد الحربية وشغب المايا بتعذيب أسراهم. كما لاحظ ميخائيل كو أن جماعات المايا الكلاسيكية كانت تهوي العنف والحرب<sup>١٢</sup>.

إن هذا الإكراه جزء بنيوي من تركيبة أي دولة وهي نشأتها الأولى، وعلى خلاف ما تقول به الماركسية حيثما نلتقى رأي مارسيل جوشيه في بحثه حول أصول الدولة، الذي يعتبر فيه أن الانقسام الاجتماعي ليس محصلة لضرورة مادية اقتضاها نمو التجمعات في لحظة معينة من تاريخها، فهي البدء كان الانقسام، ذلك أن الواقعة الاجتماعية لم تشكل إلا من خلال انبثاق حيز سلطوي قائم على الاتصال.

وهذا التصور يضع حداً لما سبق من رؤية من الدولة، فهو أن نشوئها قد نشأ عن تقسيم العمل الاجتماعي الفاعلي بنشوء جهاز متخصص لإدارة شؤون المجتمع، كما يضع حداً للتصور الماركسي الذي يحلل وظيفة الدولة من منظور اقتصادي صرف<sup>١٣</sup>.

ولابد أن نشط هنا مع بيار كلانستر، الذي اعتبر أن الاعتقاد السياسي قبل أن يكون اقتصادياً، وأن انبثاق الدولة هو الذي يحدد ظهور الطبقات، الأمر الذي يكشف مدى الوهم في تصور اجتماع بشري من دون سلطة.

لقد عرفت التجربة السياسية الإنسانية الإكراه مع كل تحولاتها، إذ بدأت بالنموذج العسكري المتمحور حول شخص الملك أو الفرعون.

وشكل الحكم المطلق والكنهوت النموذج الأول للمنظم في الإكراه، فيما جعل وجود الكنيسة شكل ضماناً أولى للإكراه، لكنه انتقل خطوة إلى الأمام في القرون (من ١١ إلى ١٣) عندما أصبح دينياً، مما أدى إلى رفع سعة القداسة عنه وجعله مادة للنقد والتجاوز أيضاً، ففما شخصاً بعد أن كان طوبياً متعالياً.

عصاب الكلمات هو الذي يدفع كل الذين يتناولون موضوع الإكراه بشاعرية أو مواقف ذاتية، لكن هؤلاء - وهنا مغالطة مبكية - هم الذين يتناولون بالموضوعية، كأن ليس من الموضوعية أن يصف المرء الواقع، أو ليس من الموضوعية (بالمعنى الواسع) أن يتم تحليل

ملحوس لواقع ملموس، يمكن أن نقول عند العربي: (إكراه). حتى يستلزم كل منظونه الواعي واللاواعي من كراهية المصطلح إلى الحد الذي يجعل الوعي أسيراً لرد الفعل النفسي.

من هنا نشأت (ضرورة) الإكراه: الضرورة بالمعنى الفلسفي، وهي الضرورة التي يفرضها الواقع في سياق تحققه دون أن يعبر، أي الواقع، أي اهتمام برأينا به، فنحن لاحقون على الواقع، لا تؤثر فيه بقدر ما تصفه ونضع بناء على وصفنا له (مشاريع) للتعامل معه.

لا يعني في هذا السياق أنك عندما تصف الواقع أنك تتناه (بالمطلق) تكن شرط التجاوز هو الاعتراف، والتصحيح للشرط السائد، ومن ثم التعامل عليها لتجاوزها، فلا تجاوز بالمعارضة لجسد المعارضة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك بإنكار الشرط الذي أنتج الواقعة. إن كايوس الوعي الثابت للمثقفين العرب يقتدون واقع الإكراه باعتباره مرشداً، ولا يقرّون أنه (واقع) بقدر ما هو (ضرورة)، طو لم يكن واقعاً لما وجدوا أنفسهم تحت وطئته، ولو لم يكن ضرورة لما كان واقعاً، إن الواقع لا تسألنا رأينا فيها لكنها تطالب منا التصحيح لها كي نتجاوزها من الداخل، هنا لا بد من التأكيد على أن التجاوز من الخارج وهم، نعم، فإن تجاوز الواقع يعني أن تكون في بناء وهي سياق حراكه الداخلي، والدليل على ذلك أن كل الصراخ والمويل واللعنات التي دفع البشر لثمتها ضالها في تعدد الإكراه في صورة مختلفة، لم يدفع هذا الإكراه للتحويل من شكله المباشر إلى شكله غير المباشر، (الاعتماد على شروط داخلية أو خارجية أو كليهما لاستحداث هذا التغيير، ويقدّر ما تتضمنه الذات الثقافية) بقدر ما يدفع المثقفون (للتجريد) القرصي، بحيث يتوهمون أن التغيير قد تم كحسيمة (اتصالات) الذين تجاوزوا الإكراه خارجياً، أي، الثقافيين الذين (زأوا) على حكمهم كي يدفعوهم إلى الديمقراطية... والغريب في الأمر أن التضخم يتحول إلى تغيير وإلى دعوات وإلى إثبات أحزاب... تمتلئ الديمقراطية ودعوات الحرية وتخيّل أنها تستطيع أن تعمل في الواقع ما تريد دون التدخل في موازين قوى هذا الواقع، أي في (ضرورة) هذا الواقع.

والأغرب هنا، أن من الذين يدافعون عن الحرية، تنظيراً مضاداً للحرية الماركسيين، الذين ينسبون أن ماركس ذاته هو الذي قال: «من الأفضل انتخاب مباشرة إلى الواقع بدلاً من الاكتفاء بتخيّله» وهو الذي قال: «يتعين علينا أن نخرج رؤوسنا من الواقع لأن تطرح الواقع من رؤوسنا» وهو الذي قال: «إن العنف فاضرات التاريخ»، وهو الذي يرى بمرود كامل الاستعمار<sup>(1)</sup> باعتباره تحضيراً للشعوب الإقطاعية... إلخ، وكان على ماركس أن يقول ما يريد، وعلى الماركسيين أن يتخلّطوا الواقع (للضاد) دون الاعتراف بضرورات الواقع المعيش، لقد أكل الواقع التحليل الواقع المعيش.

ولعل من الفارقة هنا أنه مع شخسة الإكراه ونهوية، فإن ذلك قد ساعد على دخول مرحلة «الضنون»، لأن القوانين لم تعد قوانين الله للشجسة هي الكنيسة، (وهنا لا بد من التنبؤ إلى دور الكنيسة في تحويل الناس المنظرين إلى مضبوطين، وهو دور إكراهي يلزم في التجربة الأوروبية).

## بعد أسطورة الديمقراطية

ونلاحظ هنا أنه وعند القرن (الثاني عشر) كانت الأنظمة قد أتت (بالتمريخ حتى القرن السابع عشر) الأجهزة الإدارية والقانونية وأقامت قاعدة الموظفين القانونيين (الكثيرين، ثم العظماء من الطبقة الوسطى والاستغرافية. ومن الجنود المرتزقة والفكرين السياسيين، ومن ثم من عموم الطبقة الوسطى. وهذا ما انتهى بدوره لتكون الدولة - الإكراه طريقا إلى الدولة - القانون والدولة - المؤسسات. وهذا السياق الثلاثي مترابط إلى حد كبير فلا يجوز اعتباره سببا ثلاثيا منفصلا. وهو سياق مترابط متفصل إلى حد كبير، لكن السمة الغالبة هي سمة الإكراه في المرحلة الأولى. أما سمة القانون أو المؤسسات فتأتي مع تراجع حدة الإكراه لمصلحة الضبط.

وهنا لابد أن نشير إلى أن (الآن تورين) لا يعطينا عندما يعتبر أن الدول التي حكمها أسر مائكة تحولت إلى ديموقراطيات. لأنها اعترفت وتوغل في المزج بين المركزية والاعتراف بالتنوع. كما يؤكد أرنست رولان أن الأسرة المالكة (الكلمينيان) قد جعلت فرنسا طبقة ٨٠٠ عام على ما هي عليه اليوم. إذ إن التماهي بين مصلحة الملك أو (المالكة) ومصلحة الشعب - كما حدث في بريطانيا (تيدور)، وفرنسا (الليزيون)، وأسبانيا (الهابسبورج)، والسويد (الغزاس)، والبرغال (الافيزيس) قد جعل تنظيم حقوق الخلافة نوعا من تنظيم استقلالية الدولة. وبناء مفهوم السيادة التي حددها بوبين العام ١٥٧٦ بأنها سلطة الدولة المطلقة والدائمة. وقد ساهم في إنجاز مرحلة من أهم مراحل دولة الإكراه (بعد التخليد المباشر، وإقامة السيادة والاستقرار، وزرع جذور القوانين والمؤسسات). التحول في القرن السابع عشر من الأيديولوجية الملكية إلى الأوتوجارشية التي ربطت سلطة الملك بالله، مما اتكّن توسيعها في المنطقة السياسية وإضافة إمكانات اقتصادية خلقت دعائم أقوى لسلطة الدولة. وعليه فإننا نتفق هنا مع تارد بأن (التعاقد) لم يكن الرابطة الأولى. بين الإدارات الإنسانية. في تشكيل الدولة الحديثة. بل كان الاقتران بفائد مشهور هو الأساس. وقد تداخل مع زرع الدولة التي اتسعت بسعة الإكراه آنذاك القيام بعدد من الإجراءات القانونية. وذلك منذ القرن (السادس عشر) تمثلت بإلغاء اللاتينية وترسيخ قوانين العلاقات مع الأفراد.

وهنا يجب التأكيد على أن الكاثول (القدس) لقيام الدول المتطورة. وهو:

دولة الإكراه - دولة القانون - دولة المؤسسات

لم يكن مسارا متقطعا أو منفصلا وفق رؤية ميكانيكية للمراحل فقط. لكنه كان مترابطة ككاثول (ضروري) لقيام أي (دولة) بالمعنى الحديث للكلمة. لكن سمة كل مرحلة كانت إما بقلية الإكراه. وإما ببرز القوانين بدخول لعبة المؤسسات. لكن أحدا لا يمكن أن يتصور - بمداخلة - أن هنالك تقسيما مرحليا للدولة في سيرة تطورها. (والسمة) لا تلغي توازن العناصر المختلفة. وهي تشير أي (السمة) إلى الغالب في السلوك السياسي. وإلى بؤرة الاهتمامات التي تنقسمها التيارات والعمليات السياسية.

إن إبراز بعض المفكرين (الموضوعيين) أن «العنف كان حافلة التاريخ»، يشير بوضوح إلى دولة - الإكراه في عملية تطور الدولة، حتى أن وجودية - ماركسية كـ «سيمون ديوپوار» تقول: «من المستطع معارضة منحصر ما بأنه يعني الجريمة والاستبداد، ذلك أنه من دونهما لا يمكن تحرير الإنسان... إتنا لا نستطيع أن نتجنب ذلك الجدل الذي يذهب من الحرية إلى الحرية من طريق الديكتاتورية والاستبداد».

إن هذا القول يدعو إلى الإكراه، لكنه يمتلئ<sup>(1)</sup>، ويقراء قراءة واقعية، الأمر الذي يجعلنا نقول سلفاً: إنه لن يكون مقبولاً الأخذ به من أولئك الذين يحملون بالانتقال عجائبي، أو الذين يرون بين السطور السابقة عملية تبرير لفكرة المستبد المستبتر، أو لمطلق فكرة الاستبداد، إلا إن الأمر لا يدعو أن يكون توصيفاً لواقع هو عملية منجز بالفعل، فنحن هنا لا ندعو إلى دولة - الإكراه، لكننا نقرها، وهي قد تحققت فعلياً، والطلبات الارتقاء بها بدلاً من لعنها.

إن لشكل الدولة، هي صورتها الأولية، لا يكون إلا عبر سلطات تطور وحدة المجتمع السياسي القومي، وتضاف عنها ضد الضامات والشكالات الخارجية والداخلية، كما تعني بها أيضاً من حيث ماضيها ومستقبلها، ومن حيث استمراريتها التاريخية، والحفاظ والدفاع عن التذاكرة الجماعية، وإقامة عنصر (القوة) باعتبارها مرجعاً للوجود وإداة له فهي أن في مرحلة الدولة - الإكراه بالذات.

إن دور دولة الإكراه يتلخص في إقامة (القوة) داخل وخارجياً، أي في إحاطة المواطنين وضبطهم، وهي رسم حدود الدولة بالمعنى القومي، وهي تأهيل البنية الاقتصادية التحتية، وكان البعد الأخير له معذور مهم؛ ذلك أن الدول التي مارست فيها الدولة، لا الطبقة الحاكمة، التحديث الاقتصادي والتدخل التوازني فيما بين الفترانيات المجتمعية هي التي طلت فيها الديمقراطية ضعيفة وطلقت عليها الحركات الثورية (كما حدث في أمريكا اللاتينية مثلاً)، بمعنى أن دور دولة الإكراه يجب ألا يغالي في التدخل الاقتصادي خارج حدود نهضة البنى التحتية، وإلا فإن هذه الدولة ستفقد القدرة على الانتقال إلى المؤسسات، وبالتالي إلى الديمقراطية (باعتبار أن أساس الأخيرة الاقتصادي يكمن في اقتصاد السوق)، فالإكراه بمعنى الضابط اجتماعياً هو وظيفة صليبة لدولة الإكراه. أما الإكراه الاقتصادي فهو الذي يعهد لارتكاس دولة - الإكراه إلى دولة عصابات اقتصادية خلف واجهة سياسية، وهو أمر يحيل دولة الإكراه إلى مادة بين الماضي عند أي انتقال سريع إلى الديمقراطية، وهو ما حدث فعلياً في تركيا وهي دول الاتحاد السوفييتي السابق، وتحديداً روسيا الحالية، حيث تشكل الماضي الشكل الأكثر حفيظة بالمقارنة مع تسلط عصاباتي كانت تعارسه وهو الدولة الإكراهية. ويجب أن نذكر هنا أن القلو هي دور دولة الإكراه كارثي على الدولة نفسها، ولم يعد مقبولاً النقاضي عنه في سياق حركة كره الشج (الديمقراطية) التي تحاول أن تكوّن العالم على هوية

## نقد أسطورة الديمقراطية

(الديموقراطية) السياسية بعد نشوء تباين النظام العالمي الجديد. بعد أن كيننا نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية على هوية (الدولة) كهوية سياسية. ولتمت عملية تعميمها ببطء. وهبطت منذ ١٩٤٥ وحتى مطلع السبعينيات. حيث تم القضاء على القوى النافذة من عائلها. ذلك أن هذا القو يعرض هذه الدولة إلى المطالبات الدولية في سبيل أخطاء تأتي في سياق المبالغة في دور الإكراء. أو إلى تكبيها بحيث تفقد دور الإكراء فتضيق الإرت الأولى لقيام الدولة وترتكس فيما بعد إلى ما يشبه نقطة الصفر.

وإذا لاحظنا أن البعض يرى أن دولة الإكراء قد وصلت إلى مرحلة اعتداء السلطة على الدولة<sup>١</sup>، فإننا نرى أن هذا الاعتداء هو مؤشر من مؤشرات استئصال دولة - الإكراء لأغراضها، وبالتالي اليد في عملية نهش ذاتها. على الرغم من أن علينا ألا نفل من أهمية أن كل دولة هي بناءا التشكيلية الأساسية (سلطة). ولا سلطة من دون تسلط. ولكن تسمية البعض يشي من الدقة. اعتداء السلطة على الدولة. يجب أن تكون دقيقة. فلا يجب اعتبار ضبط الناس سلطويا وتمت علاقات صارمة في إطار مواجهة عدو خارجي. أو تخطيط حدود الدولة. بما يمكن اعتباره اعتداء من السلطة على الدولة لأن هذا الفعل هو بالأصل جزء من سياق دولة الإكراء. لكن القو فيه إلى حد اعتيال شعب بأكمله إنما يمكن أن دولة الإكراء (بسمعة الإكراء العالمية) يجب أن تكون انتقالية ضرورية نحو مرحلة أخرى. وإلا فإنها ستفني إرثها لترتكس إلى ما قبل الدولة. وذلك أن هذا الإكراء هو النتيجة الوحيدة لصيانة إرث (الدولة). وإدخالها مسار التطور.

<http://Archivebeta.Sakhri.com>

ومن الواجب التنبيه على أن عناصر القوى الداخلية في دولة الإكراء إذا وصلت إلى حد التشابك والتعقيد. ما يجعلها (مراكز قوى). بدلا من أن تكون (موازن قوى). فإن هذا الوضع سيؤول إلى هدم وجود خيار للتحويل إلا التحول العنيف نحو سمة الدولة الأعلى. ولكن كلما بقيت هذه القوة في حدود (الموازن) ولم تشكل مراكز. كان بالإمكان إحداث انتقال سلمي. حيث إن التحول العنيف قد يؤدي إلى ارتكاس عن جوهر الدولة. وبالتالي إلى التدمير السياسي والاجتماعي. المتمثل في الحروب الداخلية الأهلية والإثنية والدينية والثقافية... أو إلى التدمير الأمني والاقتصادي الذي تعيشه المجتمعات الحكومية. وهي كل الأحوال سيكون على هذه الدولة أن تعيد تبني بعض وظائف دولة الإكراء من جديد. (إن لم نقل أنها قد تعيد بناءها في لحظة تاريخية تعود بها إلى نقطة الصفر. وقد تتبنى في هذا السياق نماذج فاشية أو قومية متعصبة. أو ما قبل قومية متطرفة لإنجاز هذا الدور). وهي كل الأحوال فإن الانتقال السلمي ضروري جدا للمحافظة على استمرارية سبيل الدولة ولتعزيزها لاحقا باتجاه الديمقراطية. الأمر الذي يتطلب دائما من الدولة الإكراء أن تكون دولة بلا مراكز قوى. أي أن تبقى في حدود موازين القوى القابلة للتبدل دون إحداث اهتزاز شديد في استقرار النظام

(حيث الاستقرار هو واجب دولة الإكراه الأول). ولعل هي كاريزما الدولة ما يشكل ضماناً صام تحول (الموازنين) إلى (مراكز). ذلك أن مركز الثقل ينتقل التوازن، ويهيل المركز إلى موازين لوازنية مؤقته.

وهنا لابد من التنويه إلى أن الدور الكاريزمي بقدر ما هو ضماناً لمرحلة الخطل لاحطاطقدر ما يشكل خطر ارتكاسة إذا تحولت الكاريزما إلى لامشالانية سياسية، أو إلى ضرب من (نيرونية) معاصرة، أو إن هي أصرت على عدم الانتقال في لحظة استنفاد مهام الدولة - الإكراه لأفراضها، فتحوّلت من كاريزما أومشروع كاريزما إلى استبداد ديكتاتوري خارج سياق التاريخ.

إن التحول ليست ذات سياق (مطلق) <sup>(17)</sup>. قد يتصور البعض، ونحن نحذر من أن يتخيل القارئ، أننا نقدم تحليلاً أو وصفة على شكل آلية قانونية، بل نصر على أننا نوصف واقعاً دون السعي إلى استخلاص نتائج قانونية، بل قد يبدو الأمر لنا، بمنزلة تفكير بصوت عالٍ، وتقرير سياسي خارج السرب القانوني الناموسي في علم الاجتماع السياسي. على اعتبار أن فكرة القانون الاجتماعي أو السياسي منسوبة لدينا، إستيمولوجياً، لعرف مدى مخاطرة العلم الناموسي في حقول الاجتماع والسياسة والنفس والتأويل... إلخ، وعليه فإن التوصيف يعني وضع أحداثيات الواقع وأحداثياته المختلفة. صحيح أن في بعض التوصيف، لكنه نحن الواقع باعتباره واقعاً يجب تمثله قبل تقديمه والانتقال به في أيتم اتجاه بدلاً من الإغراق في تقديمه.

إننا نقول إن الانتقال إلى الديمقراطية هو أمر ضروري أولاً، كما قلنا سابقاً، سيأتي ضمن عملية الديمقراطية كهيئة سياسية موعلة، لكن الانتقال يجب أن يكون في سياق التطور بالدولة وليس بالإطاحة بها، ويتمين أن يتم المرور، أو الاكتفاء - على الأقل - بعضمون مراحل دولة القانون وسولة المؤسسات قبل الشروع في دخول الديمقراطية كمشروع سياسي. هنا نحذر من أن الديمقراطية هي مشروع سياسي وليست مجرد فعل (حرية) كما يتوهم كل الناس العاديين وجل المثقفين، إنها (نظام سياسي) كأي نظام سياسي آخر، يجب أن يأتي على حامله (سياسية) وهي هذا الدولة... وليست الحرية... ففكرة الحرية لا تتضمن البعد الديمقراطي باعتباره كما سترى، يشترط التنظيم بالعلم السياسي والتأويل وفكرة المواطنة.

## مسؤول الديمقراطية

### مستقبلها وهم:

من الصعب أن يقدر القارئ (العاوي) كيف يسوع منقذ لنفسه الحديث من مسؤول الديمقراطية، في الوقت الذي تبنى عليه هذه

المسألة مطلباً ومعاناة ومقدساً، وهي الحقيقة نذكرني هذه المفارقة بين قدسية المطلب وضرورة تقديمه بشجيرة لي مع أستاذ مادة الإستيمولوجية في جامعة دمشق: الذي بدأ درسه بعدم



مطالباتنا بطقية علمية. ولا تعجبت من ذلك أجابني همسا: لأنهم لو عرفوا العلم فإنهم لن يقدموه، بلأننا نحتاج إلى العلم ولا يجوز أن نعلمهم كيف يقدمون العلم لأننا لم نصل إلى مستوى بعد<sup>(1)</sup>. في الحقيقة اكتشفت مبكرا كيف أن تسييس القضايا هو تعريب للعقول، إذا ما بلغت حدود التسييس مبلغا تعبروا هدفه تحويل الناس إلى مجرد قطع متلاحق. إذ إن المعرفة الحقيقية هي تلك التي لا تسجل ما لها وما عليها، أما أن تسجل ما لها ونخفي ما عليها (على طريقة هيثاغورث في فضيحة جذر العدد 2)، فهذا ما ليس من الحقيقة، بل إنه ليس نصف الحقيقة لأنه خيانة - بكل ما تحمله الكلمة من معنى - للمعرفة.

منذ البداية، نعاود التأكيد أن الديمقراطية هي نظام سياسي، ومن دون هذا النظام، كعامل يأتي بها ويصونها، لا يمكن - فعليا - أن نشغل إمكاناتها الحقيقية للفعل السياسي. إن أخطر ما يمكن تسجيله للوعي الديمقراطي الزائف، أنه يبدأ من الديمقراطية باعتبارها مطلبًا، والمطلب يتحول بها (أي بالديمقراطية) إلى أسطورة خلاص، والأسطورة تبقى على المحاسن وتذر الرماح في عيون القاريه البارد، الذي هاجسه المعرفة، وهنا بالذات يمارس (الأسطوريون) لعبة أستاذ الإستمولوجيا، فهم لا يتحدثون عن مساوئها، يحرفوا المواطن عن رؤية الحقيقة، فضلا عن كونهم لا يعرفون هذه المساوئ. فالديمقراطية أسطورة والأسطورة مقدسة ليست قابلة للخطأ ولا مساوئ فيها.

وهي صلب الإشكالية. إن الذين يمارسون - بوعي أو من غفلة - من كون الديمقراطية مبدئ للفعل السياسي يفتشون - لا عن مساوئها - بحسب بل عن إيراد كم إن الديمقراطية نظام بللعنى السياسي. وهم أن الحقيقة لا تكون إلا على حاملة نظام وحيد هي (الدولة). ونحن نسجل هنا أن الديمقراطية نهاية وليست بداية، وأنها قد تكون بداية بشر ما هي نهاية (نقطة وصول)، أي بشر ما نستطيع أن نكون خاتمة مسار الدولة من الإكراه إلى القانون إلى المؤسسات. ومن ثم فإنها، تمهيدا لمسار لاحق... الدولة أيضا<sup>(2)</sup>.

إذا كانت الديمقراطية، تتجلب في بلادنا العربية، باعتبارها (ولو نظريا) أيديولوجية، أي وهم رؤية نظرية شاملة وكافية وأقية، فإن وعي الطريق إليها لم يتجاوز - فعليا - مجرد أساطير إضاهية، تبدأ بالإطاحة بالدولة، أي دولة ومطلق الدولة، برموزها، وتحقيق مبدأ تداول السلطة وتفعيل المجالس النيابية (كأن ما سبق لا علاقة له بالدولة)، وإطلاق حرية المواطن في القول والفعل... هنا يتم خلط الديمقراطية، كنظام سياسي، بالحرية. وعليه فإذا كانت الحرية مسألة فلسفية لم تتحل ولم تحل... ولن تحل، فإن الوهم السحري الذي يربط بين الحرية، مطلق الحرية، والديمقراطية، يساهم في تعهد الصورة السحرية القداسية الأسطورية للديمقراطية، ويضفي عليها سمة (الخلاص) المسيحي. والهدى المنتظر، الأمر الذي يرفع من درجة (الأسطورة) ويرخي على الواقع أمتارا من الوعي شديد التزييف.

والخطورة في الأمر أن منطق الديمقراطية سابق الذكر، يتخطى عن مقومات فكرة التمثيل، فهي ذاتي بلا (مقدمات)، وإذا تقويب المقدمة تصبح اللازمة هبوطاً مطلباً أو وجوباً للتفتح، فالشرط بلا معنى وبلا ضرورت، وهنا نغدو الديمقراطية شرطاً سابقاً لكل شرط، «من دونها لا شيء ومعها كل شيء»، وبهذه الاختزالية الخطيرة لغدو الديمقراطية (واحدة) يتماضي كل فعل سياسي به، وكل فعل وجودي وجماعي يتخذ شرعية وجوده واستمراره عبره، إنها مفتاح التفتح، فهي وهم أعظم من هذا.

وكيف يغدو (الواحد) شرطاً لكل شرط أو شرطاً بلا شرط مسبق، التمس في هذا تأنيبه للديمقراطية ودفعها إلى مرتبة المحرك الأول أو الذي ليس كمثلته شيء؟

إن أخطر ما تنتج به الديمقراطية في شكلها سابق الذكر أنها تقدم نفسها على أنها مطلب بلا عقل، فلا منطق يسوقها، وهي تركيب بلا أطروحة ولا نقض؛ فلا جدل يحكمها، وهي منوطة للمطلق باعتبارها مطلقاً، وهي البداية والنهاية، بلا سياق، ثمرة برسم القطع، وبإختصار فالديمقراطية هنا تقضي على العقل مرتين: مرة بتوصيفها غير الواقعي، ومرة أخرى لا إتها تقويم (تأني) يحرّم كل تناول لها، فالأفشار منها رذيلة، والخصر معرفتها فيها مؤامرة، واتخاذ موقف تقدي منها رسم سلطوي جماعياتي لتجلباتها الأولى، ورفضها على عواهلها خروج أثم عن (خط) الجماعير وعن القداسة (البيورانية).

وهي أحسن الأحوال، وإذا ما انكسرت من الاضطراب ولو قليلاً على قدرتها، ينقلب علينا مثقفون «أن رفقا بالقوايرير، وكيف يقبل للكتب (أشفي) أن يند جنباً لم يكمل أصولاً»، والسؤال الذي نطرحه بالمقابل، كيف تقبل استمرار حمل بجنين مشوه ما دما قادرين على تحليل جيناته وصيغياته وإجهاضه أو معالجته بالهندسة الوراثية أو هي أسوأ الأحوال إعادة الحمل من جديد.

إنها صيغة صعبة القبول وإلى أبعد حد من جعل الديمقراطية مقدسة، وهي تعادل معادلة موضوعية معادلة كل من حاول الاقتراب من أي مقدس لدى أي شعب من الشعوب.

ولعل من أخطر ما تبين به أنها استخدام الديمقراطية بالأسلوب الملعوب فضلاً عن قدسيتها، أنه يقدم لنا نموذجاً آخر مشابه لاستخدام التكتلة بطريقة التسليم بالفتح: فهي تحول مستخدميهما إلى أداء، بل إلى ثروس في التكتينات، ونجعلهم - أيضاً - يستخدمونها بشكل آلي بلا عقل أو إفعال لها، وهذا ما يفسر لما استطعت تجارب الديمقراطية الكولونيالية/الاستعمارية، مطلع الخمسينيات ونهاية الأربعينيات مكرراً، وكيف ساهمت بافترابها، فضلاً عن سياق التشوير لاحقاً الذي أعطى مشروعية لإنشائها، في أن تكون فعلاً لا لنا إنما عليها، وهي تذكرنا بالفريق الذي أقامه الفيلسوف الفروعي جاستون بلشاز بين الحلم الإلهي وحلم البهيفة<sup>(1)</sup>، حيث الثاني هو فعل الذات، أما الأول فهو فعل كائن آخر، وعليه فإن الديمقراطية الكولونيالية غدت فعلاً للآخرين في مقدرات سياستها، حيث غابت الذات عن حقل الفعل، إنها ديموقراطيتهم وليست ديموقراطيتنا، ولهذا لم تعدد كثيراً.

إدراكه مسبق يجب القول إزاء موضوع الديمقراطية، إننا يجب أن نعي أن الديمقراطية (نظام) سياسي، وأن النظام يتألف من (Order) بمعنى الأمر والترتيب، أي أنها تتوحيح لمسار الأمر والترتيب، وعليه فإن هذا المسار بقدر ما هو أمر وترتيب بقدر ما هو واقع الحاسن والتساوئ معاً؛ إنه أكثر مذاهب الحكم واقعية، ومن واقعته يتألف الحكم عليه بأنه قابل للخطأ. وهذا يوضح لنا ضرورة تبنى واقعية موازية هي السعي نحو الديمقراطية: إذ إن هذا السعي يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أن لا حل سحرياً وعجائلياً مع الديمقراطية، إنها كما يقول تشومسكي «أقل النظم سوءاً» ولكنها لن تحمل الأمل في انقلاب يغير كل شيء، نحو الأقصى من كل شيء؛ كما أن هذه الواقعية تدفع باعتبار الدولة طريقاً إلى الديمقراطية إلى واجهة المطلب الديمقراطي، فمع الدولة يكون الأمر والترتيب في شكلهما البدائي، وبالديمقراطية يتحقق الإنقاص المتزايد لعسف الأمر، والاضطلال والترتيب، لكن الدولة والديمقراطية حدان أقصيان يتأرجح بينهما الأمر والترتيب، وفيهاب أحدهما يكون كل منهما هي وضعية ساذجة، ولكننا يجب أن نعترف - قبل كل شيء - بأن هذا النظام يبعديه سابقه الذكر لا يكون من دون الدولة، الأمر الذي يجعل كل وهم بديمقراطية من دون مسار الدولة المتحقق ثلاثياً... ليس مجرد وهم، بل وهما ضاراً للغاية ومضراً لكل من يتبناه.

في وهم الديمقراطية نأثي إلى موضوع تصور الديمقراطية (كإفراط في الحرية)، أو كإفراط في الحصول على هذه الحرية وأعمالها، وهذه تعود التأكيد على ضرورة الحد من التعاضد بين الحرية والديمقراطية من ناحية فلسفية، على اعتبار أن مشكلة الحرية هي أكبر بكثير من مشكلة القول أو الفعل الحر، وعلى اعتبار أن الديمقراطية والحرية هي وضعية احتواء رياضي بحيث تكون الديمقراطية أحد تجليات الحرية، وليس العكس كما هو سائد، لكن الناحية الأخرى تتمثل هنا في أن وهم ربط الديمقراطية بالإفراط في الحرية ينقصه إدراك أن الديمقراطية هي أحد الأشكال المؤسساتية لتنظيم الحرية وفوقتها، كما أنه إذا كان الهدف الجوهرى من الديمقراطية هو تحقيق العدالة والمساواة، فإن الإفراط في الحرية يؤدي إلى إفراط في اللامساواة، وبالتالي إلى استبداد ضعفي، وعظمي أيضاً، كاستبداد طبقة أو استبداد وسائل إعلام، أو استبداد لوبي... وهذا ما يفسر الدعوات الأيديولوجية في ذروة عصر الأيديولوجية (منذ القرن التاسع عشر إلى سقوط الاتحاد السوفييتي) من أجل ديمقراطية اقتصادية واجتماعية، أو ديمقراطية مركزية وأخرى موجهة، ذلك أن هذه الدعوات كانت تعي خطورة الديمقراطيات البرجوازية في تشويه الإنسان وهي استخدام أداء، ولكن مع سقوط الاتحاد السوفييتي والإجهاز على الأيديولوجيات (الحدرة) من الديمقراطية بنموذجها «الليبرالي» بات استخدام مفردة الديمقراطية كأنها الخلاص الذي لا نقاش فيه، على طريقة «نهاية التاريخ» (لفرانسيس فوكوياما) أو حتى «صراع الحضارات»

لصومائيل هانتينجتون، وفي كل منهما ضروب من نزعة هيكلية وأخرى ماركسية اقتصادية ضمنية أو علنية لتبرير واقع ما يسمى اليوم بالعدالة، وكل ما في الأمر أن غياب الضد يبرز لقيضه باعتباره مطلقاً.

ولكن إذا كانت (شرعية) النظرية الماركسية التي تحفظت على الديمقراطية لمصلحة الاقتصاد وتأمين مستقبل الإنسان أو لمصلحة الإنسان (النوع)... إلخ، هذه الشرعية أخذت شرعيتها من نقد جدي لمطالب النظام الديمقراطي الكيماوي، فإن سقوط النظام الاشتراكي والتراجع النسبي (لما يسمى بمفهوم الأيديولوجيات) لا يعني الاستغناء كلية عن العناصر العملية في الديمقراطية.

سواء أعيدت إلى أذهاننا الحساسية من النقد الماركسي الذي هلاه الفيلسوفات كاتشيرة التي سقطت، فإن القول بأن نظام الاقتصاد السوق باعتباره الخط الموازي (المطلق) اقتصادياً للديمقراطية السياسية يزيد من العبودية الإنسانية على المستوى الفردي، ومن التبعية الاقتصادية والسياسية على المستوى الدولي، وعلى رغم ما تلفظ كلمة الاعتماد المتبادل ودولة السيادة منه، هذا القول التحليلي يبقى صحيحاً إلى حد ما، ويستحق أن يوضع في سلة قائمة الحساب، ذلك أن الحد المطلوب اليوم من هيمنة الدولة غير الديمقراطية واقتصاد السوق ليس ضماناً للديمقراطية السياسية والمساواة لأن هيمنة الدولة في الإسلام واللوبيات... تلف كالحصان رهيب يأخذ من الإنسان بقايا الجسد ما يمنع إياه الديمقراطية بالرضا، والسؤال هنا يتمثل، وبمفهوم الوفاقية المتأخرة، إذا افترضنا بالتالي (جمل ما)، أن الديمقراطية يجب أن تهي هيمنة دولة الإكراه، وإذا تطورت مع الذين يستطيعون الموقف إلى درجة المطالبة بإلغاء هيمنة الدولة إجمالاً، فمن الذي سيحل محل هذه الهيمنة؟

إن أخطر ما في الأمر أن الدعوات السلاجة نحو الديمقراطية لا تستند إلى أنها نظام، وأن النظام يستند جذوره هنا من التخطيط والإكراه صمماً، (بالنسبة اللازمة في كل مرحلة من مراحل تطور الدولة) هذه الدعوات لا تسال نفسها من سيحل محل النظام، ومن سيرجم مكان الهيمنة؟ تلك القنبلة الانشائية التي عندما تفجر يغياب الهيمنة مختلف إشكالات أكثر خطورة، يتمثل في نشوء عنف اجتماعي قد يتركس بالمجتمع السياسي إلى ما قبل (السياسي)، وما قبل الدولة، لأنه وبغياب الدولة تغيب وساطتها في تنظيم العنف الاجتماعي والهيمنة عليه، وجعله في الحدود الدنيا أو تقييده أو تحويله، وعندما يغيب الضابط ينفلت الهوان الاجتماعية ويتبدد مبررات (السياسي)، كشمع حضاري وتعدني، ويصبح الغالب هو السائد، وبما أن لا غالب في الحركات الاجتماعية، فإن السائد الوحيد هو التمزق المجتمعي، أو اعتداء المجتمع على الدولة بصورة الأكثر سوءاً، ومع غياب إريك الإكراه الضابط للحياة، وغياب الرابط القومي، فإن الديمقراطية تنقود إلى انعدام الأمن، وهو جزء من سيورة تجر الفوضى والجريمة... وعنف الطوائف،

## نقد أسطورة الديمقراطية

هنا يجب أن نفهم أن الديمقراطية تشكل «كاشفاً» من الطراز الرفيع لواقع المجتمعات، وهي تسرع في عملية الكشف الاجتماعي بإبراز التناقضات (أعني التناقضات ما قبل الدولة العاصرة) إلى السطح: أعني أن الديمقراطية عندما تُنقل إلى مجتمعات لم تتضح فيها آلية الحراك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، يحلها لمشاكل الأقبليات وصياغة مفهوم واسع للمواطنة والمشاركة، والتحقق القومي باعتباره البديل الأعلى عن أي تحقيقات كينونية كالانتماءات الدينية أو الطائفية (وهي في آخر تحليل اتصالات قبلية مركزية) أو القبلية أو العشائرية، وترسخ الشروط الاجتماعية والاقتصادية المتمثلة بالتقاليد البرجوازية والنمو الاقتصادي، والتعرض للتطور والنمو في معدلات التعليم، ونمو الطبقة الوسطى وإثباتها السياسي والبيروقراطي (بالعنى الإيجابي للمصطلح) والاستقرار السياسي الختاني عن كل ما سبق... إلخ. نقول: إذا نقلت بغير تلك الشروط فإنها «تؤدي إلى تعميق ومأسسة التقسيمات العرقية والإقليمية القائمة»<sup>(١٢)</sup>، وستنتج بلا رحمة مدمرة المجتمعات التي تعمل فيها، بدلا من أن تجعلها - حسبما يتوهم البعض - وبشكل آلي - حضارية. إذ إن الانتماءات ما قبل القومية سرعان ما تجد وسيلة للنمو والتحقق والبروز في حالة الديمقراطية على أرضية لا قومية. لأن الانتماءات الصغيرة خصوصا الكينونية تجد مؤسستها الأبرز في لعبة الديمقراطية، والأمثلة على هذا كثيرة.

فقد نال الحزب الهلندي في الانتخابات التي ١٩٩٢-١٩٧٧، صوتا من أصل ٢٩٩٤٢٠٠٠، و٢٨٨ مقعدا نيابيا من أصل ٦١٧، وعندما قرر هتلر بعد بضعة أشهر إقامة نظام الحزب الواحد هب الشعب الألماني ليمحضه التأييد. حيث نالت الفائزة ٢٩٩٥٥٢٢١ صوتا، ولم تلق معارضة إلا من جانب أقل من عُشر الناخبين (٢٢٩٨٦١٩ صوتا)<sup>(١٣)</sup>.

والأمر ذاته يتكرر مع الفاشية، فعندما قرر الدوتشي «تغيير الدولة» تحت شعار: «كل السلطة للفاشية» جعل موسوليني برنامجه السياسي في استفتاء ١٩٢٩ على ٢٩٨.٢ من أصوات الناخبين، الذين بلغت نسبة مشاركتهم إلى الناخبين المسجلين ٨٨.٢%<sup>(١٤)</sup>، إذن فالديمقراطية كشفت المجتمع وأمراته السارية والأمر نفسه يتكرر عندما كشفت الديمقراطية ما حدث في هايتي التي أرسلت إليها الولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٩٤ اثنين وعشرين ألف جندي باسم استعادة الديمقراطية، إذ كان من نتائج ذلك أن كشفت انتخابات ١٩٩٨ أن ٥٥ فقط من أصل من يحق لهم الانتخاب قد شاركوا في التصويت، مما عكس كم هو هذا المجتمع غير منسجم وغير أنه بهذه الديمقراطية، التي تعني في المصطلح حكم الشعب.

والأمر يتكرر - بشكل آخر - في النموذج الليباني، حيث لم تستطع المشاركة العالية في التدخل الشعبي بالسياسة والديمقراطية المفروضة بقرارا دولي منذ تركيبة ١٩١٢، أن تمنح تحول المجتمع السياسي على مدى أكثر من خمسين عاما إلى طوائف مفتتلة بحثا

عن كيان أو (حصة) في التركيبة السياسية، بل ويعتبر ذلك باعتباره حقا سياسيا تكفله الديمقراطية الأمر الذي كشف هزال نظام الديمقراطية على أرضية ما قبل قومية. أي على أرضية غياب المشاريع القومية (الكبيرة): الأمر الذي يفسح في المجال أمام ظهور المشاريع الصغيرة، التي تجد لنفسها حرية التعبير والتشكيل السياسي عبر الطوائف، وهذا لا يعني أن الأنظمة الديكتاتورية تلغي الأبعاد ما قبل القومية، لكنها تدمع لعبيراتها، ما دامت لا تستطيع - في ظل غياب البعد القومي - أن تحولها إلى اتصالات من الدرجة العاشرة. الأمر هنا ليس في الفاضلة في تعبيرات ما قبل قومية غير الديمقراطية أو إبقائها كالجعر تحت الرمال في الأنظمة المهيمنة، إنما في تبيان مخاطر ظهورها الملن. وفي تبيان مخاطر تأليه التحول الآلي بالديمقراطية نحو مجتمعات متحضرة.

وتكشف الديمقراطية الهندية القائمة على مساحتين (جغرافية وبشرية) كبيرتين هزال الديمقراطية المنقولة على الحامل الكولونيالي الاستعماري. حيث تبنى ولاية بيهار، غارقة في القوض دليلا ساطعا على مدى التمدد الحضاري بالديمقراطية الهندية، وهي الديمقراطية التي شهدت انقلابات سياسية لرؤساء وزارات وسياسيين كبار بما يمسك الواقع الاجتماعي الذي تعكبه صورة الديمقراطية الاستغلالية في اتحاد هندي يضم ٢٩ ولاية نصف سكانه ٨٠٠ مليون أميون، 27% منهم تحت خط الفقر. في وقت تعطل فيه التيار غاندي بموجب القانون أن يظل مفعول قرار قضائي (على الرغم من استقلال القضاء) يظل معلقا في البرلمان بعد ثبوت ارتكابها لمخالفات أثناء حملة ١٩٧١ الانتخابية. والأمر لا يتوقف عند هذه المفارقات بل يتعداها إلى صعود الأصولية الهندوسية، حيث إن حزب بهارتا جانا الهندوسي المتطرف يعتبر أن الديمقراطية تعني حكم الأغلبية، وهم هنا الطائفة الهندوسية، ويهدد بالتالي بأبشع طائفة سياسية في التاريخ البشري هي بلد ضخم العدد - سكانه يعتنقون سبع ديانات، ويتكلمون ثمانية عشرة لغة دستورية، ويتوزعون بين أكثر من أربعين إثنية رئيسية<sup>٢٢</sup>.

وأعل صورة الديمقراطية «الكاشفة للتمزق المجتمعي» لتضخ أكثر في تجربة جنوب أفريقيا، التي أصبحت مع الديمقراطية إحدى أكثر المناطق عنفا بلا حرب على وجه البسيطة: حيث وقفنا لبيانات مؤلوفة فإن معدل الجريمة قد فاق ستة أضعاف نظيره في الولايات المتحدة الأمريكية (مع أن فارق عدد السكان والمساحة لا يقارن)، ويقود روسيا بخمسة أضعاف، وهنالك ستة حراس أمن مسلحين في مقابل شرطي واحد للدولة، كما تعرضت العملة لتدهور كبير وواصل المعلمون الهرب من البلاد، وتحوّلت نسبة البطالة إلى الازدياد لتصل إلى نحو 2٣٪. صحيح أن كل هذا لا يبرر نظام الأبارتهيد العنصري، إلا أن الديمقراطية من دون إرث سياسي تفعل أكثر مما هو الأمر عليه، كما هي الحال في روسيا.

## نقد أسطورة الديمقراطية

التي انقلبت إلى عضديات، بعد أن غالت دولة الإكراه في دورها وتجاوزته إلى حد فسخ الدولة، فيما أسست ويعمق للأ دولة أساسها النافيا. والديموقراطية يصفق الغرب عبرها ليلتمس عندها بعثي دمايات الثقليين على نظام جورباتشوف باسم الديمقراطية والبرلمان. ويفضون النظر عن حله للبرلمان بعد أقل من سنتين لأنه أراد إصلاحات تشمله، مما يشرح كيف تكون الديمقراطية انتقالية، وهي ذاتها الديمقراطية التي جعلت شعبا بأكمله تحت خط القصر وأفضل نائب فيه لا يتجاوز نصف دولار أمريكي، إذ إنها كشفت عيوب النظام السابق وغيوب المجتمع بأسره، وهي - ولو إلى حين - تكرسه.

ولا تنابع تعرية الفهم العربي للديموقراطية نقول: إن العالم العربي يعيش إشكالية في مفهومه للعالية، حيث يتم الخلط بين العالوية المجتمعية والأطوية السياسية<sup>(1)</sup> البرلمانية، فالأولى مضادة للديموقراطية وتؤدي إلى ظلمان الديكتاتورية على خلاف ما هو متائج من حيث سيادة العالوية السياسية البنية على أساس البرنامج والفكر السياسي، ولابد هنا من التحذير<sup>(2)</sup> من أن تصور الديمقراطية من دون حاملها السياسي أضي الدولة (النظام الأمر، التراتيب) ويصير تعبيراتها السياسية على المستوى الأفقي المثل بالأحزاب، النقابات، الجمع الغني، ومن دون إرث عميق ومتجذر لهذا المستوى الأفقي (وهذا يعني ضرورة إطلاق هذا المستوى مريعا والعمل على تفعيله وفتح آفاقه)، الذي يضي ولا غير ذلك يأخذ نفسه من الأيديولوجيات والطالب الأنية والسياسية المباشرة والواقعية ومن أثار الفكرية والاجتماعية الطارئة والحدثة والمصالح الاقتصادية، من دون هذا الإرث تحول الديمقراطية إلى عملي يعكس المستوى العمودي الأكثر تجذرا، وهو المستوى الطائفي والعشائري والقبائلي والديني والناطقي والحراني وهو مستوى أكثر من ثابت، بل إنه متجذر من العمق ويتبع في زمن الجزر السياسي، عندما يذهب مد الأحلام الكبيرة وتأثيرات المستوى الأفقي وتجذره الضعيف، وعندها تطلب الديمقراطية إلى ارتكاس

هكذا كانت مهمة الديمقراطية أن تكمل ما أنجزته الدولة من تعيين الوعي المرتبط بالوطن، وبما يتحول إلى (قيمة) عصرية تضع كل المواطنين في حالة تساو أمام الدولة وإزاء الوطن، فإن ديمقراطية المستوى العمودي مسترتكس بالوطن إلى تدمير يعكس ما قبل الدولة، ومسترتكس بالمواطن إلى جذره الكهنوتي.

وهذا كما نميز بين مستويات عدة للانتماء كالانتماء بالكنوتنة، وهو الانتماء الفروض مع الولادة والانتماء بالواقع، وهو انتماء يفرضه العمل أو الكان، والانتماء بالممارسة، وهو الانتماء الذي يفرضه الزره على سلوكه بالوعي، فإن ديمقراطية المستوى العمودي هي ديمقراطية الكهنوتية، ديمقراطية الأكثرية المجتمعية، اللاقومية واللاوطنية، وديموقراطية ما قبل الدولة، ديمقراطية القصور بهم، الذين لا حول ولا قوة لهم، ديمقراطية من لا يملكون الواقع ولا السلوك ولا الوعي، إنها فضلا من كونها ديمقراطية لا حضارية ولا تمدنية ولا عصرية، فإنها تعود للانشاء على نفسها لثاني ذاتها.

## أوهام الديمقراطية التمثيلية

إن القلو في تاليه فكرة الديمقراطية التمثيلية، وقيمتها من حيث إمكان الحضور الأكثر فيها، يعمل ضدياً من الوهم الإضافي فالممثلون يعملون ضمن صفة لا ديموقراطية؛ لأنهم أقرب إلى طبقة

أوليغارشية، وهم أقلية بالضرورة، ذلك أن ضدياً من الاستقلال والانعزال أيضاً، عن التاخرين سرعان ما يحدث لحظة وصول الناخب إلى سدة الموقع النهائي، وهم لا يحاولون الاتصال مرة أخرى بذخبيهم إلا عندما يقترب موعد التجديد، الأمر الذي يطرح علينا سؤالاً غاية في الأهمية وهو: هل الديمقراطية حكم للأكثرية أم أنها حكم للأقلية النيابية التمثيلية تحت وهم الأكثرية؟ ثم كيف يمكن أن تتحدد هذه الأكثرية ببعض في المجتمعات المعربة التي تضم موزاييكاً عثاقها وإثنا وعشاقها ودينياً، أي هل ستتحدد هذه الأكثرية على أرضية الأكثرية المجتمعية أم على أرضية الأكثرية الوطنية؟ ومن الذي يضمن ألا تتحول الأكثرية المجتمعية بصورتها الموزاييكية إلى أكثرية سياسية، بل متى يمكن أن يتحول المرء من انتمائه ما قبل الوطني إلى انتماء وطني حقيقي؟ إن كل تلك الأسئلة تقف عاجزة عن أن تحدد وبدقة، التمايز المطلوب بين ما هو وطني وما هو اجتماعي من مراحل ما قبل الدولة بالنظر الحديث.

وكل ما سبق يجعلنا نضع تساؤلاً عاماً، إن كانت الديمقراطية يمكنها فعلياً للأكثرية، أم أنها ضمان للأقلية؟ ذلك أن الأكثرية (Majority) هي الرشد والأقلية (Minority) هي القاصر، والقاصر هو الأول بالرعاية.

فالديموقراطية هي النظام الذي تعترف فيه الأكثرية بحقوق الأقليات، على اعتبار أن ما هو أهلي اليوم، قد يتحول إلى أكثرى غداً، على أن ندرك إننا كما ذهبنا بأن المقصود هنا بالأهلي والأكثرى ما هو بالعنى السياسي الوطني للكلمة، وعلى اعتبار أن حامل الديمقراطية الموازي للدولة هو الحامل القومي وكلاهما، أي الديمقراطية والقومية مسئولة عن المواطن.

ومن هنا فإن الوعي الديمقراطي يجب ألا يقوم إلا على الارتباط التبادلي بين الوحدة التي يجسدها النظام التمثيلي البرلماني، والتنوع السياسي، وهنا بالضبط يجب التأكيد على أن الديمقراطية هي ذلك الاعتراف، ليس فقط بالحقوق السياسية، إنما هي اعتراف بحق الإنسان كفرد، بالانتماء الكينوني، والثقافي، وهذا ما لا يمكن ضمانه في المجتمعات المعربة ما لم تضمن سلفاً اتفاق المواطنين، التي تميز بين الانتماء إلى الوطن كالانتماء أولي وبشية الانتماءات الأخرى، وببعبث لا تغلب الأخيرة على الأولى، الأمر الذي يضمن حق الإنسان في التعبيرات الشفافة عن انتماءاته الكينونية دون أن يتعارض ذلك مع الانتماء الوطني والسياسي، ومن دون أن يحدث ذلك الاختلاط الذي كثيراً ما يحدث في شترات الجزر السياسي، وهنا يكون احترام



الأقليات ينضمون إلى حد كبير إلغاء فكرة الأكثرية ذاتها، وهذا كله يتطلب شطرين هما النقاشية الديمقراطية، والتركيبية المؤسساتية، هي الوقت الذي تتعدد فيه الثقافة الديمقراطية بذلك الجهد المبذول للجمع سابق الذكر بين الوحدة والتنوع، ولا ضامن لحقوق الأقليات إلا هي إطار القانون، إذ إن فكرة الديمقراطية لا تفصل أبداً عن منطق الحقوق، مما يحيلنا بدوره إلى الثالوث المقدس: للوصول إلى الديمقراطية من دولة الإكراه إلى دولة القساقون إلى دولة المؤسسات، فالديمقراطية ليست صفة تمثيلية للحكام فقط، إنما هي ذلك التكامل بين أبعادها الثلاثة: «احترام الحقوق الأساسية، الوطنية، الصفة التمثيلية»، فالارتباط المتبادل بينها هو الذي يكون الديمقراطية<sup>(٢١)</sup>.

وما دامت مخاطر الاختلاط بين الأكثرية السياسية وتلك الاجتماعية قائمة إلى حد كبير في المجتمعات الموزايقية وفي عموم المجتمعات العربية، التي لم يخضع فيها الحراك السياسي لمتوضع في قمة الهرم، فإن الدعوات الديمقراطية يجب ألا تقفز فوق حقيقة أن المواطنة شرط مسبق قبل التلويح في المستوى الديمقراطي، على أن ندرك أن «المواطنة تستدعي الوحدة الاجتماعية المتكاملة، كما تستدعي الوعي بالانتماء لا إلى مجرد مدينة أو دولة قومية»<sup>(٢٢)</sup>، إنما بالوعي ما قبل القومي أيضاً بالانتماء جزءاً من الهوية العامة للشرق والجماعات، على أن يوضع كل انتماء في مكانه.

## الأدبيات المتعلقة بالديمقراطية والتغيير

### (مقدمة القراء: ندخل إلى بيئة السياسة والتغيير)

في سياق أسطورة دور الديمقراطية، ومع تداعي صعود الدولة العربية الحديثة، ومع الحضور الدائم للوعي الأخلاقي، الذي رافق

جميع الأيديولوجيات السياسية، وهو وعي يستمد جذوره من اللاوعي الجمعي التاريخي، الذي انتهى إلى ضروب من وجدانية سياسية نافذة، فإن ظلمة الفساد السياسي والاقتصادي والإداري، التي استلحلت في بنى الدولة العربية المختلفة، قد استدعت نقمضها، هي محاولة لإيجاد نظرية (أرضية) لمشكلة مستفحلة تعس الحقوق وتغول الأخلاق، وتهدد مستقبل الأجيال، وفي هذا بدا ذلك الانسداد بمنزلة ما يسميه فرويد التثبيت التيبدي، هي محاولة هي بمنزلة حلالة الروح عندما تجد الجموع البشرية أن حاضرها ومستقبلها في خطر.

لكن البارز هنا أن صفة القداسة الأخلاقية التي تحفل بها الأيديولوجية الدينية قد انسحبت بدوره على الديمقراطية، فصورته المسافة، لدى العديد من المثقفين كأن الخلاص الديني (الأرضي) معنلاً بالديمقراطية هو البديل عن خلاص متعال تحمله الأيديولوجيات الدينية.

وهي الحقيقة إن هذا ليس أكثر من وهم إضافي يضاف إلى مجموعة الأوهام المفروطة عن الدور السحري للديمقراطية.

صحيح أننا لا نذكر - سلفاً - أن في النظام الديمقراطي من آليات المراقبة والمحاسبة، ما يكفي لجعل واقع الفساد أقل فساداً وأكثر قدرة على السيطرة مما هي الحال في بقية الأنظمة السياسية، إلا أن هذا لا يبرر إغفاء القدرات (الخلاصية) للديمقراطية، في هذا الوطن.

ومن هنا تأتي مشروعية دراسة الفساد في واقعه كضرورة بالعضى الفهمي، أي دراسة الضرورة بما هي جملة الأسباب التي دعت، وكانت قد حلت، إلى ظهور الفساد وتناميه.

وبهذا ومن خلال وهي الضرورة يمكن تجاوزها، أو على الأقل البدء في خلق مجتمع سياسي واقتصادي وإداري مضاف، الأمر الذي يجعل دراسة ضرورة الفساد بمنزلة دراسة (تفكيكية) مهمتها رسم خارطة التوافيق السائدة ووصفها.

لكننا لن ندعي أننا سنقدم نظرية في الفساد، بقدر ما لن ندعي أننا سنقدم وصفة سحرية مضادة للفساد عليه، وإذا ما بدت دراستنا (الباردة) هي بعض التواضع وضعية أو تمنع إلى إيجاد الحلول، فإن سبب ذلك هو الطبيعة الخاصة للظواهر، إضافة إلى عدم قدرة المحلل، مهما أراد الابتعاد عن أوج حقن الوهم، على أن يكون كذلك. يبقى أن هدف البحث هنا هو، رسم الخريطة، وعلى كل صاحب اختصاص أن يأخذ منها وضعية التي يلزمه بها دوره الذي اختار في الحياة.

إن أول مواقف يواجهها هنا أننا نعمل، فعلاً - إلى الاتفاق مع الطروحات الخجولة وقليلة الظهور، التي ترى ضرورة ألا يتحرك أمر مواجهة الفساد للوعاظ (الوجدانيون)، ولتداولات الصالونات الفكرية، لكننا، وبالقوة لنفسها، لا نعمل - سلفاً - إلى حصر الظاهرة في البعد الاقتصادي من خلال الدعوة إلى اقتصاد سياسي للرشوة<sup>(1)</sup>، كما أننا لا نعمل إلى اعتماد النزعة التبريرية للفساد، والمفرقة في برامجها، باعتبارها آفة الشرور، كما يرى هانتينغتون<sup>(2)</sup>، مع أن فيها من الواقعية السياسية ما يجعل المرء، إذا أراد الموضوعية فعلاً، أن ينظر إليها بعين الاعتبار، أو أن باعتبارها مادة تفسير على الأقل.

ويجب أن نؤكد أن تشخيص أسباب الفساد لا يفضح لقانون وضعي، كما لا يلتزم بعلاقة خطية (linear)؛ فتحتي بأن تكون مقدمات بعينها، وبالضرورة لتسير، بكل حالة سياسية، نحو الفساد؛ العلاقات الاقتضاء المنطقي، لاتصلح في هذا الحقل، وعلاقات الارتباط الطردي أو العكسي باعتبارها علاقات خطية لا يمكن استخدامها هنا من دون أن يكون في ذلك صنف شديد بالواقع؛ فإن نقول إنه كلما انخفضت درجة المشاركة السياسية تزايدت احتمالات ظهور الفساد وحدته، فإن الأمر يكون أقرب إلى مقاربة مقارئة، ولكن لو ألقينا مفردة الاحتمالات لكان الأمر قانوناً خطياً غير مقبول؛ لأن الدول التوتاليتارية والثورية تزيد المشاركة السياسية

## نقد أسطورة التدهور التاريخي

غير الشعبية، وهي من أكثر الدول هشاشة. ومن الخطئية الساذجة القول «إن بيئة النظام السياسي يمكن أن تكون ذات علاقة طردية أو عكسية بالفساد السياسي» إذ إن بيئة معينة يمكن أن تساعد على ظهور الفساد، وبيئة أخرى يمكن أن تقلل من ظهوره<sup>(174)</sup>.

ويدعو الاضطراب واضعها في أغلب الدراسات التي تتناول الفساد وأسبابه، إذ أن الدراسات نفسها تذهب إلى رسم قانون خطي، ثم تعود لتؤكد على أن مفهوم الفساد مفهوم مركب يتطوي على أكثر من بعد واحد<sup>(175)</sup>. وإن العلاقة الارتباطية بين الأبعاد الاجتماعية والفساد قد لا تسبق في بعض الحالات، بمعنى أنه ليس من الضروري أن ينشأ كل نمط للفساد من عدم المساواة أو العدالة. كما أنه ليس من الضرورية أن يؤدي غياب التفاوت الطبقي العام بين الأفراد إلى إلغاء الفساد، حيث يصعب وضع نظرية عامة في هذا الشأن<sup>(176)</sup>. وهنا تقدم رسالة المؤلف تستدعي القول: بأن الواقع بثبت وجود شبه التجاذب في حالات متكررة إلى تماثل الظاهرتين معاً، أي عدم العدالة بكل صلوحتها والفساد<sup>(177)</sup>. لكن هذا لا يعني أن وجود العدالة الاجتماعية يلغي الفساد، ولكنه قد يحدد منه الأمر الذي يجعلنا نؤكد خبر مرة أن وظيفة البحث هنا إنما هي إعطاء صورة ما، تستدعي عدم الوبط بشكل خطي بين بنية وأخرى، أي أن البعد الوطني البنوي يطرح نفسه علينا منهجياً لاعتبار الفساد بنية والديموقراطية بنية أخرى، وتحتاج الدول إلى أيضاً، بحيث أن التقاطع بين هذه البنى لا يعني بأي حال من الأحوال إلغاء حقيقة الاستقلالية النسبية لهذه البنى على الرغم من أنها تلبس واقع الاعتماد المتبادل. والفهم البنوي- سابق التفكير، يفسس في المجال اهتمام قوابة ظاهرة الفساد من خلال ضرورتها الحيوية واعتمادها المتبادلة، وليس من خلال قوانين خطية واقتصادية مثل القول «بأن الفساد السياسي يكون أقل في الدول التي يرتفع فيها معدل الاستقطاب الطبقي»<sup>(178)</sup>.

## البنى الخاصة أو ضرورة الفساد

تؤكد جميع الدراسات أن الفساد ظاهرة عالمية، ويذهب سياسي واقعي إلى اعتباره ظاهرة بشرية مرتبطة بالمصالح وهو كالشر، من غير الممكن مكافحته، إنما يمكن منع ضرره عبر القانون<sup>(179)</sup>. وتقول دراسة إن ظاهرة الفساد قد عرفت منذ أن عرف الإنسان المجتمع السياسي لتنظم، حيث ظهر في بابل القديمة وفي روما وفي الحضارة الهندية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهي المصوّر الوسطى في أوروبا وفي مناطق مختلفة اليوم في أوروبا والولايات المتحدة واليابان وتركيا والمكسيك ودول العالم الثالث<sup>(180)</sup>. حتى أننا نستطيع القول إن الفساد قيمة (ملحظة) بأي نظام مياسي، فمع السلطة السياسية ثمة تسلط، ومع كل تسلط ثمة فساد.

لقد بين تقرير نشرته إحدى المصنّف الأمريكية في أغسطس 1997 أن الأمم المتحدة تهدر نحو ٤٠٠ مليون دولار سنوياً بسبب الفساد والتهدير وسوء الإدارة<sup>(181)</sup>. ووصل في عام واحد عدد المتهمين بالفساد في فرنسا إلى ١٠٠ وهي إيطاليا ٣٢٥٦ بينهم ١٩٣٦ مدير مؤسسة

و ١٠٧٢ مديراً محلياً، و ٢١٧ برلمانياً، منهم وزراء ورؤساء حكومات سابقون، فيما ارتكب في روسيا ٩٠٠ ألف جريمة فساد في عام ١٩٩٢، واعتقل بسببها ٤٨٢ مسؤولاً حكومياً، منهم نائب وزير التجارة الخارجية، وشهدت فرنسا سماعاً انتخابياً حاداً حول الفساد في الدورة الانتخابية للعام ١٩٩٢، حتى أن الرئيس فرانسوا ميتران قد اضطر إلى القول: في معرض دفاعه عنه فساد حزبه: إن ٢٨ نائباً<sup>(١٧)</sup> من الاشتراكيين وحظائهم قد اتهموا بالتورط في فضائح فساد، بينما بلغ عدد المتهمين من أحزاب اليمين ٢٠ نائباً، أي بفارق نائبين لمصلحة الحزب الاشتراكي؛ وربما لن تكون فضائح الفساد الدم الملوث في ألمانيا، ولا الفضائح المالية التي أحاطت برئيس وزراء اليابان الأسبق هي الأخيرة.

ووفقاً لتقرير وزارة التجارة الأمريكية في نهاية العام ١٩٩٤، فإن الشركات الأمريكية رشّوا عبر قومية في عام واحد ما يقارب ١١ بليون دولار في التعاقدات الدولية وتربحون دولار في سوق المشتريات السنوي في البلدان النامية، وارتفع عدد المخالفات التي تشير إلى الفساد الرسمي إلى أربعة أضعاف بين العامين ١٩٨٥ - ١٩٩٥، في وقت تناقص فيه قصص الفساد لاعتل سولفا إلى جانب التحقيقات الفيدرالية بشأن الرشوة في شركة (I.B.M.) في الأرجنتين وأزمة اليابان في ابتزاز أموال المدرعات والقروض. وردود الأفعال العنيفة حول شقيق الرئيس المكسيكي السابق كاروس دي جورتي في عمليات غسل مفاصد السلب والنهب والانهاسات في فضايها (وابت ووتر) و(ووتر فليت) بشأن الفساد الضخم في الحملة الانتخابية الأمريكية للعام ١٩٩٦، ومع انتشار التحريات والتحقيقات إلى بلجيكا وفرنسا وألمانيا والبلدان الإسكندنافية وإسبانيا وسويسرا، كان يفت في المسجون الكثير من رؤساء الوزارات الأوروبية وأعضاء مجالس الوزراء، والبرلمانيون والقيادات الحزبية ورؤساء النقابات وسكرتير عام سابق بحلف الناتو، وواجه اثنين من الرؤساء السابقين في كوريا الجنوبية تهماً تتعلق بالفساد<sup>(١٨)</sup>.

وأشار تقرير نشرته (الفاينانشال تايمز) في مايو ١٩٩٢، ويؤيده أحد مؤسسي (التحالف الدولي ضد الفساد)، الذي أنس في برلين وختم سبعين شخصية من المتخصصين، أن الضرر الذي يلحق باقتصادات العالم الثالث من جراء الفساد، لا يقتصر على طمسارة هذه الدول مورداً من موارد العملات الأجنبية النادرة، بل تكون مشاريع ذات قيمة في هذه الدول قد حرمت من هذه الموارد<sup>(١٩)</sup>. وقد تعمقت ظاهرة الفساد حيث جرت العادة على تقديم ٥٪ من ٢٠٠ ألف دولار لأي مسؤول تقل مكلفته عن الراس الأعلى في الإدارة المعنية، وإذا قدمت الشركة ٥٪ من مليون دولار فيوسمها الاطمئنان إلى أنها قد حصلت على دعم مدير عام، وإذا قدمت مبلغ ٥٪ من عشرين مليون دولا فيمكن اكتساب وزير، أما مبلغ ٥٪ من ٢٠٠ مليون دولار فهذا يعني شراء رأس السلطة<sup>(٢٠)</sup>.

وأمام تصادم هذه الظاهرة أحد الاقتصاد (الخصي) حجما يناهز بحجمه المالي الناتج العام الإجمالي والطام لجموع دول العالم الثالث<sup>(1)</sup>، وإذا سرنا على ما تحاول الأبحاث الخفية رسمه، فإن بعضها يحاول أن يربط الفساد بالدول التوتاليتارية أو التامية، والبعض الآخر يجعل الفساد أكثر ارتباطا بالنظم الديمقراطية منه في النظم الأرستقراطية، على اعتبار أن الحكام الأثرياء في النظم الأرستقراطية يكونون أقل عرضة للفساد، بينما يكون الحكام في الديمقراطيات أكثر عرضة لهذا الفساد<sup>(2)</sup>، إن هذا يجعلنا نقول إن جميع النظم السياسية عرضة للفساد، وما دامت ثمة مصالح أو علاقات قريبي أو لوازم اجتماعية رابطة بين الأفراد، وما دامت التحولات السياسية والاقتصادية تقود إلى ظهور مصادر جديدة للثروة أو فئات وشرائع اجتماعية جديدة لها مطالب لا يستطيع النظام السياسي الاستجابة لها؛ لضعف أو لعلالة مؤسساته، أو لا يستطيع النظام الإداري أن يواكبها نظرا لتصرامة تقاليده أو لظف قوانينه، فإن ثمة فسادا.

إن فكرة المظالمة أو (القصور الذاتي) تطرح نفسها علينا بشدة في معالجة ظاهرة الفساد. فمتغيرات الواقع زالت أكثر تسارعا، من قدرة المؤسسات والقوانين والأعراف الاجتماعية على التزامن معها. والمظالمة هنا تعني هي أمرين الأول: ممانعة التغيير، والثاني: السهر على ما درجت عليه الواقع المسالمة والتهم بقوة الدفع الذاتي أو قوة القصور الذاتي لأفريق. ولهذا فمظالمة الإرث السياسي أو الاجتماعي أو الأخلاقي، سواء أكان سياسيا أم اجتماعيا أم إداريا أم قانونيا أم مؤسسيا، كلها ما يمكن تسميته الذي يقف خلف ظهور الفساد كظاهرة مرتبطة بالعصرية.

<http://Archivebeta.Sakhi.net>

في الحقيقة نحن نطق مع الدراسات التي تعتبر أن العصرية والتحديث يتصاحبان بالفساد، لأننا نرى أن تسارع التغيير سيواجه بالمظالمة سابقة الذكر، الأمر الذي يجعل القوى الحيوية ضمن المجتمع والاقتصاد والسياسة سرعانا ما تجد وسائل إغرائية أو إكراهية للالتفاف على تعطيل العصرية، وقد لا تكون هذه العصرية إيجابية بالمعنى الحقيقي للكلمة، إذ قد تقود سلبية بقدر ما يعتبر البعض أن تقل جميع القيم والمتنوعات العصرية أمر ضروري، كما قد تؤدي في السلبية إذا كانت تفعل تحت شعار حرية الاتجار القديم خدمات سيئة وقائمة للشعوب. لكننا يجب أن نعترف بأن بعض الدراسات لا تعطى عندما ترى أن الفساد في مجتمع معاصر «ليس» تماما - نتيجة الحراف السلوك في البدائن المتفق عليها، بقدر ما هو نتيجة الحراف المتبادلة عن الأنماط الموضوعية<sup>(3)</sup>، وهو ما نراه تجسيدا للفساد الذي يقوم بين العصرية والواقع المسالمة، ما يظهر على صورة: (المظالمة).

ولكن هذا التحليل لا ينجو الذهاب به إلى حد التعميم المفرط لأنه يستند على قاعدة لسود بعض الأدبيات الفلسفية من هوبز إلى ماركس، وتعتبر الأخلاق أو الأنماط الموضوعية للسلوك متغيرة بتغيري الواقع والزمن. وهي قاعدة قد تصدق في بعض قواعد السلوك أو الأخلاق، لكنها تمتنع عن

أن تتحول إلى (ما صدق) لهذه القاعدة فيما يتعلق بالفهم الكبير، فالسوقفة مائة في كل الشرائع والقوانين وأمعاق السلوك منذ القدم وعلى الرغم من محاولات (الثوار) في روسيا قبول ثورة ١٩١٧ الصب عليها لتأمين موارد للثورة، إلا أن إرادتها قد ظهرت على أيدي الثوار أنفسهم في قوانين وشرائع الدولة السوفييتية، حتى أن هانتجنون نفسه يعترف بأن التساؤل حول المعايير القديمة يؤدي إلى زعزعة شرعية كافة المعايير . ويصنع الصراع بين الليبرالية المعاصرة والتقليدية، فرضاً جديدة للأفراد كي يتصرفوا بأساليب غير مقبولة حيال هذه الليبرالية<sup>(١٢)</sup> . وهذا يعني أن القيم تعطى بقوة على الانتماء والعودة إلى الصورة الأولى، في كل مرحلة يتم الانقلاب عليها، بالأخذ في الاعتبار بعدها الزمني للتغير: لأنها تستمد شرعيتها من (الأنفس)، أي من أقل الأعلی، والغاية، والكمال والعادل، وهي مطالب رافقت الإنسان في كل أيديولوجياته من الأسطورة إلى الفلسفة إلى الأديان. كما يجب التوجه إلى أن الطبقة الوسطى هي أكثر الطبقات قدرة على حمل والتطوير للأخلاق تم بالخص الأيديولوجي، الأمر الذي يجعل سقوط الطبقة الوسطى، في حالة تضاد شديد بين قدر مدفع وثراء فاحش، مقدمة لتعميم الحالة الأخلاقية ونسائها بين مطلب أقصى يتجسد في التيارات الأصولية، ممارسة انفصالية لهي في الحالتين لانفجار مجتمعي.

وعلى الرغم من أننا نعترف بأن السياسة لها أخلاقها<sup>(١٣)</sup>، وهي تختلف عن الأخلاق المجتمعية، إلا أن التقنية الخفية الراجعة التي تعيد الصلة بين الاجتماعي والسياسي تجعل من الصعب ألا ينشأ المفهوم القوي، وعلى شاكلته (الإنسان الحيواني) نفسه على الرغم من متغيرات الواقع الجديد . إنها عطالة الأيديولوجية من تحقيق قدراتها على الاستمرار بعيداً عن أي محتوى اقتصادي أو اجتماعي أو مزخرفي.

وعليه فإننا لا نستطيع في سياق فهمنا للعلاقة بين الأخلاق السائدة أو القديمة ومتطلبات العصر، أن نضع الأولى أسيرة للتأثير، مع أن الأخيرة تسعى لكي تفعل ذلك. لأن فترة الأولى على الاحتفاظ بمحتواها على الرغم من المتغيرات والعودة للتأثير في تقنية خلفية راجعة هو أمر لا بد من الاعتراف به، وهو ما يلقب - فعليا - وراء الحملات الدائمة على الفساد، وما يذهب إلى حد انتهاك أصولية سياسية، الأمر الذي يجعل حل مشكلة الفساد ملجأ في النظم السياسية كافة.

لكن المعاصرة تسهم فعليا في الفساد . لأنها تطلق مصادر جديدة للثروة والسلطة، مما يجعل العلاقة بين هذه المصادر والسياسة لا تحددها الليبرالية التقليدية، فيصبح الفساد، بهذا المعنى، محصلة مباشرة لنشوء فئات جديدة لها مواردها وثريد أن تكون فاعلة داخل الإطار السياسي<sup>(١٤)</sup> . إلا أن الأمر لا يمكن تلخيصه بهذه الكلمات فقط، ولابد من إبراز الوجه الآخر للمساكة، إذ إن هذه الرؤية تغفل التساؤل الشرعي عن أحقية هذه الفئات، وبعضها خطر على المجتمع، في أن يكون لها دور سياسي، وتضرب مثلاً على ذلك: تجار المخدرات، الذين يسعون للحصول على السلطة السياسية والحماية الأمنية والحصانة البرلمانية.

فالتفسير الجرد، قد يكون صحيحا بشكل عام، إلا أنه يغفل حقيقة أن معاملة التغيير قد تكون ذات فائدة أكبر من التغيير ذاته. كما أن الفساد قد يكون وسيلة لاستيعاب هزات اقتصادية قوية ومعمرة وعلى يسار أو على يمين النظام السياسي السائد. كما قد يكون وسيلة لاستيعاب الفئات الجديدة داخل النظام السياسي عبر وسائل مضافة، لأن النظام يعجز عن تكيف نفسه بالسرعة التي تسمح بالسرعة المستمرة، ما دامت شرعية أي نظام التغير وفقا لموازين القوى القديمة والناشئة حديثا. ولتثال على ذلك قائم في بعض البلدان العربية التي شكل قدوم العسكريين إلى سدة الحكم فيها تعارضا مع البرجوازية العربية، وكذلك شكلت الفئات الاقتصادية حديثة النعم تعارضا مع هؤلاء العسكريين، خصوصا ممن دخلوا مشاريع التنموية بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي، مما جعل الفساد جسرا بين طبقتين قديمة وحديثة وبين فئة اجتماعية - سياسية محددة لابد أن تجد نفسها، ما دامت هي السلطة السياسية، في صف هاتين الطبقتين اقتصاديا. وأن نجد الطبقتان سالفتا الذكر أنفسهما في رعاية العسكريين سياسيا، وهو الأمر نفسه الذي جعل الفساد جسرا بين من يمتلك زمام السياسة في أفريقيا، وأولئك الذين يسيطرون على الثروة<sup>(1)</sup> الأمر الذي يتجسد في فسادين متلاقين: فساد الفقراء الذين وجعوا أنفسهم في السلطة فسخروها للمال، وفساد الأثرياء الذين يحتاجون إلى السلطة من أجل قوة مضاعفة لحماية أموالهم. والواقع أن هذه هذين الفسادين تتجلى في أن كليهما محكوم بالضرورة، فالسلطة السياسية من دون اقتصاد عمياء، والاقتصاد من دون سلطة كالبحر بلا عظام ولا ينفذ ولا يتحرك، والضرورة هنا، بكلمة، هي: «السلطة فساد هي وتفتية الاختياطي، وأمال هو فساد يهوي ممرکز وموجه سلفا».

نعم إن صدمة المعاصرة الأولى تقف، إلى حد ما، وراء النزعات الثورية، وعلى التوازي معها تلك الأصولية إذ إن منشأ الرغبة في الانقلاب على مظاهر التغيير والفساد التوازي لها، يدفع نحو الثورة أو نحو السلف الصالح، وهي مظهر من مظاهر (التوسلجي) البيوريتاني المتعصب، التي في مراحل حكمها الأولى على الأقل، تؤدي بمعاداتها للفساد، وهذه مفارقة. تأثيراتها مشابهة لتأثيرات الفساد نفسه، إذ إن كليهما يتحدى سيادة الدولة، فالفساد يستبدل الأهداف الخاصة بالأهداف العامة، والتوازي يهملون قواعد السياسة والعدالة والقانون لتحليل قانون أعلى (ثوري). تكن المفارقة الأخطر هي أن المفارقة الأولى تحل نفسها بتحول الثوار إلى سياسيين، وبالتالي إلى (لاعبيين) في لعبة السلطة السياسية والاقتصاد والتحالقات... والمصالح، وبالتالي فما انقلبوا عليه سرعان ما يجدون أنفسهم في لجة ليست هذه هي الضرورة<sup>(2)</sup>.

إن سببورة المعاصرة تتصف عموما بالتمركز الاقتصادي: سواء بيد الدولة أو بيد فئات اقتصادية معينة، وهي لا تتسع في المجال أمام الارتقاء المالي. وعندئذ يكون من الأسهل التغلغل السياسية طريقا للارتقاء الاقتصادي، الأمر الذي يجعل السياسة طريقا إلى الفساد

الاقتصادي، فيما نلاحظ أن هنالك بعض الدول يكون فيها من السهل غالباً الارتقاء المالي، بخلاف نظيره السياسي، فيما يؤدي الارتقاء الأول إلى شراء المناصب السياسية، وهذا ما يجعل متجهة شعاع الفساد تذهب من الاقتصاد إلى السياسة<sup>(14)</sup>، ولذا أن نلاحظ - أيضاً - أن متجهة شعاع الفساد تتعوق على الأقطاب من الحركات المفتوح إلى الحركات المغلقة، أما إذا كان الحراك السياسي والاقتصادي مغلقين على شكل طبقات محددة (Castles)، فإن متجهة شعاع الفساد ستتقلع بين الطرفين، وهذا في تقديرنا أخطر أنواع الفساد.

لقد بنيت تجربة إنجلترا في القرون السابع عشر وأواخر القرن التاسع عشر، وكذلك أمريكا في القرن التاسع عشر أن نسمية الفساد في الحياة العامة قد تزامنت مع تأثيرات الثورة الصناعية، وهو فساد ناتج عن توسيع التنظيم الحكومي، مما يرى فيه البعض إيجابيات لتعمل في تحفيز التطور الاقتصادي، وبسيلة لتجاوز القوانين التقليدية أو التنظيم البيروقراطي، وعلى سبيل المثال كان أعضاء الهيئات التشريعية في الميغدييات والمانينيات من القرن التاسع عشر، في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك أعضاء المجالس المحلية في المدينة، يقبضون الرشاوى من شركات السكك الحديدية والإنتاج الغذائي والصناعي، مما أسهم في تسريع عجلة النمو الاقتصادي الأمريكي. وكذلك نجد ما يشبه ذلك في فترة حكم كوينشيك في البرازيل، حيث كانت نسبة هداية من التقييم الاقتصادي تتم بموازاة نسبة هداية من الفساد البرقاني<sup>(15)</sup>، لكننا لا نستطيع أن نعتبر ذلك أكثر من (مؤشر) للضرورة، الأمر الذي يعني إعطاء صورة (واقعية) عن (البنية) الاقتصادية والسياسية التي توافقت العصرية، حيث قلنا إن من طبيعة هذه البنية أنها مؤهلة - بالأصل - للفساد، بل ومنزوعة عليه إلى أبعد حد، وهو ما يجعلنا نعتبر أن العصرية هي المناخ الأبرز للهيئ لمزيد من الفساد.

لكننا نختلف مع هانتينجتون الذي يعتبر أن مجتمعاً غير فاسد نسبياً (مجتمع تقليدي)، قد يرحب بقدر معين من الفساد، ويعتبره مهاداً يسهل الطريق إلى العصرية (معتزلاً في الوقت نفسه بأن المجتمع الذي قضى فيه الفساد، يكون غير قابل لأن يتحسن حاله بتفادى الفساد)<sup>(16)</sup>، إذ إن ترعيب هذه المجتمعات بالفساد لا ينبع من إدراكها لضرورته، كما أن الفساد فيها لا يعارض، في بعض تلك المجتمعات وليس في كلها، مع القيم السائدة التي لا تشجع على الالتزام بقيم ومعايير الأداء المؤسسي، كما هي الحال في زامبيا وغانا وسيراليون وسفلية<sup>(17)</sup>، حيث تشجع القيم السائدة على تقديم الخدمات الاجتماعية لذوي القربى والعائلة، وتتجلى هذه الطمعات في التوظيف والبعثات العلمية، حتى إن أدت معارضة القانون<sup>(18)</sup>.

وتعتبر حالة سفلية نموذجاً واضحاً لدور القيم السائدة في دعم الفساد وتحقيقه، حيث يكون الفرد شديد الارتباط بأسرته ويلتزم بإهائنها، الأمر الذي يستوجب معارضة كل القيم الجديدة التي تطالغ فواعد التزامه العائلي وصولاً إلى حد



معارضة العنف، ولهذا فإن خدمة الأقارب من موقع السلطة أمر لا مبرر له، وذلك على العكس مما هو الأمر عليه في الدول الأوروبية<sup>14</sup> والأمريكية التي فشلت فيها روابط الأسرة.

وعلى صعيد آخر فإن هذا الواقع لا يمكن تسميته بشكل هذه الخطيئة، إلا إن الدول الإسلامية والعربية بشكل خاص، تعاني هبسا مستشرياً، تزامن - ربما بالصدفة هذه المرة - مع عملية العسرة، إلا أن القيم الاجتماعية التي تحد على الروابط الأسرية وألقف دافعاً وراء بعض مظاهر الفساد العائلي والعشائري والقبلي والديني والطائفي... والمحسوبية وتقديم الخدمات، لا تبرز هذا الفساد على صعيد الرشاوى، أو أن تكون الخدمات على حساب صحة المجتمع، لأن في الإسلام تحريماً واضحاً للرشوة، رفضاً اعتبارها مجرد هدية، الأمر الذي يطلق ضغطاً أخلاقياً وشخصياً على القاسد، سواء من قيم المجتمع السائدة، أو من الأنا الأعلى، بما يجعل فضيحة حل مشكلة الفساد أكثر من مشكلة رافعة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لأن الأيديولوجيا الأخلاقية تفيى هي الحكم، وهذا ما يفسر الارتكاس الحالي في بعض هذه الدول إلى الأسولية بكل أشكالها وأنواعها، لأنها تجسيد للأخلاق المنهكة بالفساد، وفي أحسن الأحوال يدل عن الأوضاع السائدة، لأنها لم تجرب أو لم يسمح لها بالانكشاف من خلال فعل الممارسة بدلاً من الاكتفاء بالتظهير، صحيح أن الضغط الأخلاقي لا يمنع الفساد، لكنه يقيم نفسه فيها مساجلة على الدول والأفراد.

وفي الحقيقة، ربما قد يكون للعسرة دور في توفير أحد عناصر مناخ الفساد في تلك الدول، إلا أن المشكلة الفعلية تكمن في نشوء النظام السياسي العربي على قواعد ما قبل قومية، وما قبل مفهوم الدولة بالعلى المعاصر، وهو ما انعكس في بنية التنظيم نفسها، التي حددت المحسوبية والوساطة فيها جزءاً من امتداد الطواغر ما قبل القومية في الدول حديثة النشوء، كما أن الجذور ذاتها قد انعكست تصارعاً على السلطة السياسية وعلى دور ما، ما انعكس في المزيد من التركيز باتجاه الأصول، إن المفارقة في الفساد السائد في الدول العربية تكمن في أن الفساد جزء من البنية لكن الأيديولوجية السائدة تلفظ في وجهه، الأمر الذي يطرح حالة خاصة فيما يسمى (بالتوازن الحيوي الداخلي ذاتي الفعل) البنية، فهي فاسدة بقدر ما هي تراعي ضرورة الفساد في البنية، وهي تحت سيف الأخلاق بقدر ما لم تستطع قيم البنى الفاسدة أن تكون قواعد ثابتة ومعترف عليها للسلوك.

ومهما كانت النتائج الإيجابية للفساد في سياق تحريك العسرة، فإننا نراها نتائج مترتبة بشكل معدي وليس قويا، بمعنى أننا نستطيع أن نلاحظ في كل حالة، مهما بلغت من سوء، الإيجابيات إذا أردنا ذلك، أو أن نقول: بأنه من غير المنطقي اعتبار الفساد دافعاً للعسرة. بقدر ما هو ملازم لها بمعنى (الضرورة) التي تحكم البنية.

إذن، تؤهل البيئة السياسية المطابقة للعصرنة جميع الظروف المناسبة لارتفاع حدة الفساد، ويحاول البعض تبرير ذلك باعتبار أن الفساد يقوم بدور مشابه لدور اللوبيات (جماعات الضغط) في الدول المتقدمة، إلا أن غياب المؤسسات السياسية عن الدولة النامية، أو ضعفها، لا يجعلان التحليل دقيقاً، لأن الفساد هنا هو فساد فردي أو عسائري، وليس فاعلية مدنية بهدف ترسيخه مؤسسة أو حزب، من أجل المساعدة على تجاوز معوقات العصرنة.

هنا نأتي إلى إشكالية الأوهام الديمقراطية، فالأخيرة ليست حلاً عاجلياً لمشكلة الفساد باعتبارها مشكلة بنوية، وعليه فإن الديمقراطية هي غياب إرث عميق لتأثير المؤسسات، واتساع حرية المشاركة، تقسح في المجال أمام المزيد من الفساد (كما هي حال روسيا ورومانيا)، وهي الأخطر في حال تجذر النمط السياسي التي تحل فيها استبدادية دولة الإكراه محل الدولة عموماً، أو التي يحل فيها استبداد حاكم فاسد مكان الدولة ككل. كما هي حال هايتي في عهد (دوفالييه) والفلبين في عهد (ماركوس) وأوغندا في عهد (عبيدي أمين) وأفريقيا الوسطى في عهد (بونجاسا)<sup>(١٧)</sup>، إذ إن أخطر أنواع الفساد وأكثره انحطاطاً هو الفساد الملغى لكبار المسؤولين، كما هي حال المكسيك التي حولت نسبة كبيرة من القروض الخارجية الموقعة لها، إلى خصاصات شخصية لكبار المسؤولين<sup>(١٨)</sup>، وكما هي حال الرئيس زياس في كوت ديفوار (١٩٩١ - ١٩٩٥)، التي كانت زوجته تفرز بالجائزة الأولى في المناصب في كل مرة، وهنا لا يتم التفريق بين المال العام والصلصة الشخصية للحاكم. وعليها أن نلاحظ أن هذا التفرق قد امتدح إلى زمن طويل في أوروبا وتحقق تدريجياً في المرحلة الحديثة من تاريخها، وهو ما لم يتحقق إلا مع العصرنة.

ومن عناصر الضرورة في فعل الفساد، طبيعة المجتمع، وبالتالي طبيعة المجتمع السياسي التي تتأثر عن الطبيعة الأولى. ذلك أن المجتمعات الموزايقية لا يمكن إلا أن تعكس في بنية المجتمع السياسي، إذ إن طلب العدالة يستدعي التخلي في بعض الأحيان عن علنية النظام السياسي لصلصة تدخل خارجي المصلحة، ينهم بعض التشكيلات الاجتماعية الموزايقية (العائلية، العشائرية، الدينية...) في المجتمع السياسي، ويعطيها دوراً ما دفعاً لاحتمال أن تطرح الديمقراطية في نموذجها الانتخابي بهذا التوازن؛ ذلك أن الديمقراطية تعني بشكل سطحي، على أنها انتخاب الكفاءات، إلا أن الوصول إلى هذا المستوى لا يكون متوافراً بالشكل اللازم دون تحقيق تراكب طويل في مفهوم الوطنية، مما يجعل هذا التعامل يتقلب على مستوى المعارضة، إلى انتخاب التشكيلات الموزايقية لمثلها وليس من توافر بهم. فعلاً، الكفاءات مما يجعل التشكيلات الأقوية خارج دائرة الفعل السياسي، خصوصاً إذا كانت في دائرة انتخابية لتشكيلة موزايقية أقوى.

وإذا كانت الديمقراطية هي حكم الأكثرية واعتناء الأقلية بالعلم الوطني، فإن الديمقراطية الساذجة والمقامة على أرضية مجتمعية مقسمة بعوامل ما قبل قومية ووطنية، سرعان ما تتحول إلى الأقليات الموزايقية واستبعاد الأقليات الأخرى، فهي إذ ترسي كتلاً مجتمعية إثنية أو دينية أو عائلية... على حساب كل أخرى. فإنها تكرر الفعل لما قبل قومي ووطني بدلاً من أن ترتقي به.

## نقد أسطورة الديمقراطية

ولهذا وبقدر ما تستدعي الاعتبارات الوطنية اشتراك جميع الفئات المجتمعية، فإن بعض الدول هي مرحلة دولة - الإكراه، وبالرقم من توازن التوازي المتبادلة - أحيانا - للدفع باتجاه دولة القانون، فالمؤسسات تجد نفسها أمام ضرورات اشتراك خارجي مقبوع للمجموعات الصغيرة، هي وقت يبدو فيه لبعض هذه الدول أن التفاضل عن بعض مظاهر الفساد لدى هؤلاء، ولدى أفرادهم (ميراث) من أجل ترسيخ الاستقرار السياسي ولو إلى حين، وفي بعض الأحيان يكون ذلك التفاضل جزئيا من لعبة الميكانيكية التي تطالب الحكام بأن يعسك الأخطاء على القادة حتى لا يكونوا ضارين على تجاوز أو الانقلاب على الاستقرار، وهذا ما عرفته تجارب مثل أوغندا وكينيا.

والحقيقة أن الأمن والاستقرار السياسي هي مرحلة دولة - الإكراه، فالجدا من حيث الفساد، ولكننا يجب أن نؤكد أن الفساد جزء من أي نظام سياسي، ولغة مستويات نوعية للفساد بقدر تطور النظام نفسه، لكن دولة - القانون، وبالتالي تفعيل المؤسسات تدريجيا، وحدها التي تستطيع أن تضع حدا لتشيده وتحوله إلى قاعدة. إننا يجب أن نعترف أن الجدال التوسلتي بين حدي الفساد والنقل العليا هو من طبيعة الأشياء، فضرورة الفساد هي أطروحة تستدعي تقييدها في إطار الجدال، والتقييد هنا هو استبعاد الوجدان الأخلاقي بحثا عن تحقق مطلق للفهم، (وهو مطلب لا يمكن الحكم عليه بالتحقق فعليا)، ولكن الجدال هنا ليس جدلا هيجليا أو ماركسيا، بلهذه ثلاث مرفوع جديد، إنه جدال بلشليز وهاميلان الذي يجعل التفاضل بين الفساد والأخلاق الأعلى جزءا من التقييد، حيثية جدلية صراعية لا تنهي، إلا أن طموح الديمقراطية يصير دائما باتجاه نشر الحيل نحو الأخلاق بقدر ما يستطيع.

ومن خلال إنزاع ضرورة الفساد والأخلاق في تباينيهما الصراعي، فإن على قوى المجتمع أن تخطار بينهما، فيما على الإرث الديمقراطي أن يدفع تدريجيا نحو المزيد من تطبيق الفساد.

## وهم وسطحية الفهم الشائع للمجتمع المدني

يعكس مصطلح المجتمع المدني، المستخدم في الوعي السياسي العربي السائد، لعبة المصطلحية وللزامها مع لعبة القداسة، ففي وقت هزمت فيه التجارب السياسية لاعتبارات كثيرة، خصوصا التجارب

السياسية خارج الدولة، فإن مصطلح المجتمع المدني سرعان ما بدأ بالاندماج في أوساط المثقفين، باعتباره بديلا عن العلاقة مع الدولة، ووسيلة لتسمية أخرى للديمقراطية، وهنا بالذات تبدي الوهم والعيث الفكري، إذ إن المصطلح بات يستخدم كأنه بمنزلة حزب سياسي ضمني، أو بمنزلة مواجهة دائمة مع الدولة، أو بمنزلة اختصار للعبة الديمقراطية.

وهذا يعكس كم هي مشاركة تأليه الديمقراطية وتقدس المجتمع المدني، إن التندد الأكثر بروزا لفكرة المجتمع المدني قد جاء ممن هو خارج إلحاح الديمقراطية، بل ممن يشذونها (العبة) في إطار وعي شعولي بارتباط هذه الفكرة بفكرة الدولة<sup>(1)</sup>، أما أغلب الدراسات التي

تجلبنا بإطلاعية المفاهيم الأيديولوجية: كالثورة، والديمقراطية، والمجتمع المدني والتحرر، فهي لا يمكن أن تتدحرج خارج مسألة بوتويبا القدامى، فالأشياء التي لا تجرب، والتي تلج الأفكار في المطالبة بها، هي التي يفالي الفكر هي إبراز قيمتها<sup>(12)</sup>.

لقد انبرى المثقفون العرب إلى استخدام هذا المصطلح مع غياب الأمل في التجارب الحزبية بالديمقراطية معاً، فقالوا في إبراز كآسار حالهم لهم يستخدمونه «حصان طروادة» بهدف إزالة الدولة والاتئلق بالديمقراطية، وهذا الفع النهوي سرعان ما عكس الضعالة الفكرية التي تلف وراء هذا الاستخدام؛ إذ إن هذا التصور قد أسقط حقيقة المجتمع المدني، وهو مجتمع على اتصال حقيقي بواقع الدولة، وأنه وليد تفصل الوحدة الاجتماعية والفلسفة<sup>(13)</sup> وبالتالي فهو الوجه الديمقراطي لعلاقة المجتمع بالدولة، وبالتالي فهو لم يتم - أبداً - في ميروته لقرينة إلا باعتباره مفصلاً في علاقة الدولة بالمجتمع، وليس بالثقافة بين الدولة والمجتمع، ولا باعتباره نتيجة ضلالت، فونكسوتية بينهما.

وأول في تجربة روسيا وأوروبا الشرقية ما يفيد في حسم المسألة هذا، إذ إن هذا (الانئلق) لواقع منتجات المجتمع المدني من أشياء مؤسسات غير متأصلة في التمسك بين الدولة والمجتمع قد خلق مافيا سياسية ومجتمعية أطاحت بالدولة وتم قمع المجتمع المدني؛ وهنا لابد من التنبيه إلى أن مخاطر تحول المجتمع إلى (غول) هي أخطر من استبداد الدول التوتاليتارية، لأن الإطاحة بالدولة لحساب وهم تحقق سريع الديمقراطية وتأسيس أسرع للمجتمع المدني، سرعان ما أظهرت البنى المجتمعية الأكثر تعقيداً، وسرعان ما استبدت القوى ما قبل الحداثية، إذ إن أخطر ما في الأمر هنا أن الدولة والديمقراطية باعتبارهما من منتجات الحداثة السياسية، عندما تعيان، فإن الطرف الذي يسود، ولو كان انتقالياً، سوف يبرز - إلى حد كبير، اتقاء للأحداثي - بل الأعمال فؤالة على المستوى الحضاري في المجتمع الأمر الذي يؤكد أن «نزعة أمثلة المجتمع المدني في مقابل تثبيح الدولة، لابد أن تصعو على مجتمع أكثر دراسة من الدولة»<sup>(14)</sup>.

إن هنالك وهماً يتصور بأن المواجبة مع الدولة ستفضي إليها إلى قيام المجتمع المدني، أو أن (كسر) الدولة سيؤدي إلى هذا المجتمع للشود، وهو وهم سلاح للغباء؛ لأن هذا المجتمع لا يقوم خارج العلاقة مع الدولة، لأن أصوله تكمن في العملية السياسية، أي في الدولة نفسها. وهذا ما يعني أن استقلالية المجتمع المدني هي استقلالية نسبية، لأن هنالك ضروباً من (الاعتماد المتبادل) بينهما تفرضه الطبيعة الوسيطة للمجتمع المدني بين الدولة و«مجموع المجتمع»، بل إن الأمر يتذهب بنا للتأكيد على أنه ما لم تتم الإجراءات النهائية لسيادة الدولة، وهذا جزء من مهام دولة - الإنكار فإن المجتمع المدني لا يمكن أن يقوم، بل إن قيامه سيكون تهديداً (لقيام) الدولة نفسها، وليس عاملاً مساعداً لها أو فزاعاً على التوسط بينها وبين المجتمع.

إن الديمقراطية المطلوبة هي ديمقراطية عاقلة وليست ديمقراطية لا عقلانية مطلوبة ساذجة، وعليه فإن وهي سلبها هو المقدمة الأولى لتحقيقها.

- ١- راجع فكرة التمثيل في البحث.
- ٢- على الرغم من أن التعبير السابق يعتمد ارتباطا أدنى بعض المفكرين، على اعتبار أساسها التهجيلي، لكننا يجب أن ندرسه أن فكرة طبيعة الأشياء، عند ابن خلدون، وسيبويه الأندلس، عند مونتسكيو، وروح العصر عند هيجل، أو العقلية المدنية عند ماركس... كلها تتوافق إلى حد كبير.
- ٣- في كثير من الأحيان تتناول الدولة القانون وحقوق الأفراد عندما يتصل الأمر بعلاقات دولية ووظائف تتعلق بالأممات الدبلوماسية، وإلحاحات الرئيس أو الملك بحق العفو أو استصدار أوامر بحل علاقات لأسباب الأمن القومي، كل ذلك من طوقس (التواضعية) في العصرية، وما يمكن أن الإكراه يخلق مشغولا في الدولة.
- ٤- L.F. WARD Dynamic Sociology, Appleton, New York, vol.3p.124.
- ٥- V.G. Childe, Man Makes Himself, London, 1936, p.82-83. من المرجع الكامل، ص ١٩.
- ٦- روبرت كار لايون، نظرية في نشأة الدولة، الفكر العربي، العدد ٢٢، السنة ٢٠٠٢، ص ٩.
- ٧- المرجع السابق.
- ٨- المرجع السابق، ص ١٠ - ١١.
- ٩- مارسيل غوسنيه، أصل الدولة، الفكر العربي، السنة ٢٠٠٢، العدد ٢٢، ص ٢٥.
- ١٠- وهذا موقفه من الاستعمار الفرنسي للجزائر.
- ١١- راجع فكرة التمثيل والتدبير.
- ١٢- فعل ذلك الأستاذ جورج طرابياشي في مناقشته على برنامج الاتحاد المائتين، الذي جمعني مع الأستاذ أحمد عبد الله، الاتحاد المائتين في الفترة الممتدة من ١٩٩٦ إلى ١٩٩٧.
- ١٣- في الحقيقة أننا نذكر من أن الحياة لها أبعاد طبيعية ومادية فالدولة الخطية هي إسقاطات سطحية منا على الوجود.
- ١٤- وقد اكتشفنا لاحقا أن هذا الأستاذ لم يكن يدرك شيئا بالعلوم والبحوث إلا أن جهله بها هو الذي جعله يندسها عبر سميتها.
- ١٥- هذا يجب أن نعرفه أن الديمقراطية هي الدولة لأنها نظام، وهي نصيب المواطنين بشيء من صداماتها ومساوئها، بقدر ما تكفل أسسها في الدولة، فهدفها ليس المواطن إنما الدولة، مع أنها تدعي نظرية تكس ذلك.
- ١٦- راجع بهذا الخصوص أطروحتنا في الدكتوراه بعنوان الخيال عند جاكسون باشلار، جامعة دمشق، أو النسخة المطبوعة في دار طلائع، دمشق، ١٩٩٩.
- ١٧- ROBERT KAPLAN, Was Democracy Just a Moment, The Atlantic Monthly, November, 1998.
- ١٨- جورج طرابياشي، في ثقافة الديمقراطية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٧٧، نقلا عن: Y van Rossum: La République contre Démocratie, Paris, PUF, 1996.
- ١٩- المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٦٨.
- ٢٠- في ثقافة الديمقراطية، مرجع سابق، نقلا عن كريستوف جاكرو، الديمقراطية في الهند، Paris, Fayard, 1998.
- ٢١- تميل نحن بين الثقافية من الثقافية والأقلية، بعض الأقلية السياسية.
- ٢٢- راجع عرض محاضرة جورج طرابياشي بعنوان «إشكاليات الديمقراطية» في القدس العربي، العدد ٢٩٦٩، ١٩٩٩/١١/٢٦.
- ٢٣- راجع مقدمة إلياس مرفص لكتاب القراء في العالم الإسلامي، دار الحقيقة، ١٩٩١.

- ١- آلان تورين: ما هي الديمقراطية، ترجمة حسن شويبي، دار الساقي، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ١٠.
- ٢- المرجع السابق، ص ١٢٠.
- ٣- د. زكريا غوار: «مناقشة نظرية في دراسة الاقتصاد السياسي لقرشوك»، دراسات مصرية، العدد ١/٢٥، السنة الثالثة والثلاثون، مارس/أبريل، ١٩٩٩، ص ٨٩ - ٩٢.
- ٤- Samuel Huntington, «Modernization and Corruption», Arnold Hindenheimer, Public Corruption, N.J. Transaction Books, 1983, P.192. راجع أيضا: صموئيل هانتينغتون: النظام السياسي لجنتمعات متغيرة، ترجمة سميرة طويعود، دار الساقي، ط ١٩٩٢، ص ٩٧ - ٩٢.
- ٥- إكرام بدر الدين: ظاهرة الفساد السياسي، الفكر العربي، العدد ٦١، السنة ١١، ١٩٩٢، ص ٦٦. المرجع السابق.
- ٦- هناك وجهات نظر تقول بأن الفساد كالقرشوك، ينبع من التفاوت الهائل بين ثراء هاجس وقشر مدفع، وأن القرشوة هي إضافة توزيع للثروة وإعادة توازن طبيعي، بسبب أن القشر المدفع وانعدام القدرة على الثورة يدفعان بالتالي إلى إيجاد التوازن عبر الفساد بأنواعه كلها، وليس فقط عن طريق القرشوة.
- ٧- المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢١.
- ٨- روبرت ر. ألورد، «الحزب والجنح»، إشيكاف، رانها كنالي، ١٩٩٥، ص ٢٩٤.
- ٩- د. بشار الأسد، الكفاح العربي، ١٩٩٩/٢/١، ص ٨.
- ١٠- Leslie Palmer, «Bureaucratic Corruption and its Ed Corruption», London, Remedies, in Michael Clark, France Press, 1983, P.102.
- ١١- الحيداء لندن، ٩٢/٨/١٨.
- ١٢- د. مناصر عشور، عصر الفساد، دراسات عربية، السنة ٢٥، العدد ١/٢-٣، ١٩٩٥، ص ١١ - ١٢.
- ١٣- ROBERTS, LIKEN «CONTROLLING THE GLOBAL CORRUPTION EPIDEMIC, FOREIGN POLICY SUMMER 1993».
- ١٤- د. مناصر عشور، مرجع سابق، ص ١٩ - ٢٢.
- ١٥- الحيداء لندن، ١٩٩٢/٥/٦.
- ١٦- F. FESTIAU L'ECONOMIE SOUTERRAINE, PARIS, HOCHETTE, 1989, P. 13.
- ١٧- THEODORE LOW, PUBLIC AFFAIRS, NO. 81, SEPTEMBER 1981, P. 6.
- ١٨- صموئيل هانتينغتون: النظام السياسي لجنتمعات متغيرة، مرجع سابق، ص ٩٤.
- ١٩- المرجع السابق، ص ٩٦.
- ٢٠- د. عماد فوزي شعبي، السياسة وفق الحكم، دمشق، ١٩٩١، الفصل الثالث.
- ٢١- صموئيل هانتينغتون، مرجع سابق، ص ٢٩ - ٨٠.
- ٢٢- م. ملكولان: «نظرية في الفساد»، المجلة السوسولوجية، عدد ٩، يوليو، ١٩٦١، ص ١٩٦.
- ٢٣- يقول هانتينغتون، في السياسة الأمريكية ظاهرة لاكتة وشائعة، إلا أن الوزير والمستشار قد ينعمر بأنه مضطر إلى التخلي عن مركزه من أجل النهوض بأعباء عائلته، راجع النظام السياسي لجنتمعات متغيرة، مرجع سابق، ص ٨٦.
- ٢٤- المرجع السابق، ص ٩٠.
- ٢٥- المرجع السابق.

- 30- Stephen Riley, «The Land of Waving Plains: Political Economy, Corruption Impurposed Political in Sierra Leone», London, Francis Pinter, 1983, p.200-201. in Clark, op.cit.
- 31- Ronald Smith, *plepositions*, op.cit, p.332.
- 32- Gerald Caidex and Naomi Caidex, «Public Administrative corruption, Public» administrative corruption review, vol.37, no.3, may-june 1977, p.303-304.
- 33- Robert Jackson and Carl Rosberg, «personal rule theory and practice in Africa», comparative politics vol. 16, no.4, (July) 1984, pp431-434.
- 34- جريدة الميمنة الكويتية، ١٩٨٦/٥/٢٠.
- 35- راجع بهذا الخصوص كتاب: المجتمع المدني دراسة نقدية، د. عزمي بشارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، حيث يشير على مفاهيم هذا الكتاب ونقطة جازمين أن (مؤيدته) بشارة هي هذا التحد الذي من 2002 هـ، حيث الفاسي، والديمقراطية في لعبة الديمقراطية، وإدراكه الفكر لعدم دراسة لا الديمقراطية ولا المجتمع المدني، وهذا التحد الفريد ربما لا يتأتج به ديمقراطيون.
- 36- وهذا هو أن تصبح الأنظمة السياسية التي التجرد دولة الإفراد، تهاش في القصة الديمقراطية وفي استقلالية المجتمع المدني بشكل يتطور نسبية، حتى يتوحد هذا التحد.
- 37- عزمي بشارة، التوجه السابق، ص ١١.
- 38- عزمي بشارة، التوجه السابق، ص ٢٢١.

## الإبداع الإداري في ظل البيروقراطية

د. رندة اليافعي الزهوي\*

### مقدمة

إن التحديات والتغيرات الطارئة التي تواجهها المنظمات عموماً، والشركات العربية خصوصاً، في العصر الراهن تختلف إلى حد كبير عما عهدها في السابق. فالعولمة (Globalization) والخصخصة (Privatization) والمنافسة الحرة والعابرة، والإنترنت، ومنظمة التجارة العالمية (الجات)، والاتحادات والاندماجات، والتغيرات السريعة في التكنولوجيا، والتحول إلى أنظمة السوق الحرة... الخ، كل ذلك يؤثر في الأسلوب الذي تدار به المؤسسات، وفي أدائها وإنتاجيتها.

فمعنى أن أبواب القرن الحادي والعشرين تعيش في اقتصاديات غير مضمونة، اقتصاديات المعلوماتية التي تعتمد على السرعة، والخيال، والمرونة، والابتكار، والإبداع. لقد أصبحت اقتصاديات الحجم الكبير، والاستفادة من متعنى الخبرة والتعلم أقل منفعة للمنشآت التي ترغب في تحقيق مزايا تنافسية. لذلك لم يعد بإمكان المنظمات الاعتماد على المركزية، والتسلسل الإداري الهرمي الذي تفرضه البيروقراطية الإدارية، لأن الاقتصاديات الحديثة ببساطة هي اقتصاديات الانتقال السريع للمعلومات، إن الإبداع يدعم قوة أي منظمة في تميزها عن المنظمات الأخرى. أما الإدارة التقليدية فقد أصبحت غير ممكنة في الوقت الحالي لما لها من عواقب وخيمة، فهي تحول الأفراد العاملين إلى بيروقراطيين، وتسلبهم قدرتهم على الإبداع والتفكير، وهذا لا يتماشى مع متطلبات هذا العصر، ولكن مع ذلك علينا ملاحظة أن الكثير من الأعمال الروتينية هي أي منشأة ستظل دائماً موجودة، مما سيسمح للبيروقراطية أن تأخذ مجراها.

(\*) أستاذة مساعدة في جامعة دمشق واللقب محمود.



## الإبداع الإداري في ظل البيروقراطية

إن التغيرات الحاصلة في البيئة الخارجية تجعل الشركات البدعة ومعدتها قادرة على تحقيق النجاح؛ ويتطلب ذلك من الإدارة العليا جهوداً مكثفة، تدعم من خلالها العملية الإبداعية التي تبدأ عادة من الداخل، وكلما كانت المنظمة أكثر إبداعاً تعلمت أكثر، وإن أي تأخير في دفع العملية الإبداعية سيؤدي إلى خسائر في فرص التعلم، وبالتالي فقدان مراكز تنافسية، وخصص موقفية أساسية للشركات، وينبغي على المنظمات العربية - بناء على ما سبق - الاستعداد والتهيئة لمواجهة التحديات؛ ولا يكون ذلك إلا عن طريق الإبداع والابتكار اللذين يتعثران أمام بيروقراطية مناسلة من الصعب تجاوزها.

ويبدو أن بعض الاتجاهات الاجتماعية والإدارية يتجه نحو اللامركزية، والحد من البيروقراطية التي تتسع وتعمق مع اتساع أعمال الحكومة، ولا يكون ذلك إلا بتقليص دور القطاع العام في بعض المنشآت، وإتاحة لشهد تحويل عدد من الدول العربية بعض شركات القطاع العام إلى القطاع الخاص، خصوصاً في مجال الطيران، والكهرباء، والهاتف... ومن التغيرات الأخرى الجارية الآن إقامة شبكة معلومات (الإنترنت)، ويتطلب كل ذلك إحداث تغيير سريع، ولكن الأهم هو سرعة التقدم التقني، والتغيير الاجتماعي، ويبدو أن معدل التغيير الحاصل يتقدم وفق متوالية هندسية عوضاً عن متوالية حسابية؛ فمن الخطأ التفكير في أن التغيير هو شيء قد بدأ في منتصف القرن التاسع عشر بل إن التنوير والنقلات الفجائية قد بدأت منذ الثورة الزراعية في العصور القديمة، ومع الثورة الصناعية، وعصر النهضة الأوروبية، وأصبحت البيروقراطية الحديثة منطلوقة في نهاية القرن الثامن عشر، لأنها كانت الوسيلة المناسبة للتعامل مع التغيرات السريعة الناجمة عن نشوء الحكومات الوطنية، والاقتصاديات الصناعية.

## أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى استعراض آلية الإبداع والابتكار في ظل البيروقراطية من خلال التعرض إلى مفهوم البيروقراطية، بما في ذلك نظرية ماكس فيبر، وصفات البيروقراطيين، وذكر أهم إيجابيات

البيروقراطية وسلبياتها، والاتجاهات الحديثة للبيروقراطية. كما يهدف أيضاً إلى تعريف الإبداع، والتعرض إلى أهم موقفاته، والسبل الممكنة لدعمه، والأساليب المناسبة للإبداع. ويتعمق هذا البحث حول استعراض دروس مستفادة من تجربة بعض المنظمات اليابانية التي ابتكرت منتجات جديدة في ظل بيروقراطية إدارية، وسيقدم أخيراً بعض الحلول والمقترحات التي تناسب بيئة المنظمات العربية.

## أهمية البحث

تعود أهمية هذا البحث إلى ضرورة تفهم المخاطر والتحديات المحيطة بعالمنا العربي، والعمل على مواجهتها بفعالية وكفاءة، ولا يمكن ذلك إلا بعد تحديد أهم الفرص والتحديات الموجودة في

البيئة الخارجية، ومعرفة نقاط القوة والضعف التي تتحلل بها المنظمة داخليا، والتي تميزها عن غيرها من المنظمات، ولا يخفى على أحد منا الأثر الذي يحدثه التقدم التكنولوجي، والخصخصة، والمعرفة، والمنافسة، والأساليب الإدارية الحديثة... في منظماتنا العربية. إن معظم الشركات العربية تعاني- وستعاني صراعات وتوترات سببها الرئيسي عدم الاستعداد، وعدم وجود الرؤية الكافية لإحداث التغيير الداخلي. إن هذه الشركات تسعى في تقديم منتجاتها إلى تقليد الغرب، واستخدام أساليب إدارية لا تتوافق والبيئة العربية، لذلك يكون تسببها الفشل. إن الجهاز الإداري العربي، سواء في القطاع العام أو الخاص، قد اعتاد بيروقراطية معينة، يصعب عليه التخلي عنها في المدى القصير على الأقل.

ويكتسب هذا البحث أهميته من كونه ضروريا ومفيدا لكل باحث ومدير، وفائد، وموظف، وحتى القارئ العادي لما يستعرضه من معلومات تساهم ولو إلى حد ما، في فهم ضرورة الإعداد الجيد لمواجهة خطر المنافسة التجارية، خصوصا أن هذه المنافسة ستزداد حدة مع انضمام معظم الدول العربية إلى منظمة أبحاث وتغيير هيكليتها الإدارية، والاتجاه نحو الخصخصة، وفتح الأسواق أمام منتجات البلدان الأخرى، وتشجيع الاستثمار الأجنبي، وإزالة الحواجز والعوائق التجارية أمام المستثمرين، ورفع الحماية عن المنتجات المحلية.

## مشكلة البحث:

كثيرا ما يقال إن البيروقراطية تقف حيز عثرة في وجه الإبداع، وإذا ما ذكرت البيروقراطية، أو نعت شخص ما بالبيروقراطي فليتبادر إلى الأذهان بطء الإجراءات، وقلة المرونة، وكثرة التعقيدات.

إن ما البيروقراطية وما إيجابياتها وسلبياتها؟ ولماذا أسير فهمها واستخدامها؟ إن المشكلة الأساسية التي تطرحها هذه الدراسة لتطلق من واقع نعيشه، ومن قرن جديد نحن على أبوابه، ومعتقدات راسخة يصعب تغييرها، ومتغيرات حاصلة علينا مجازاتها، والمسائل المطروح هنا: هل يمكن للشركات العربية وهي تزج تحت وطأة البيروقراطية، أن تدفع بالإبداع والابتكار، وتقدم منتجات جديدة تستطيع معها منافسة المنتجات الأجنبية؟ وهل التغيير ضروري لإحداث ذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن الموازنة بين التحديات

## الإبداع الإداري في البيروقراطية

الحاصلة في البيئة الخارجية، وتجلب إحداث تغيير سريع ومفاجئ، من شأنه أن يخلق مشاكل ومعضلات أكثر من ذي قبل؟ وما الإبداع؟ وهل يقتصر الإبداع على تقديم منتج جديد، أم extends لتشمل كل ما له علاقة بالإجراءات والأفكار الخلاقة؟ والأهم من كل ذلك، ما طبيعة العلاقة بين البيروقراطية والإبداع؟ وهل يمكن توظيف البيروقراطية في خدمة الإبداع؟ سيحاول هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة لتحديد آلية البيروقراطية التي يمكن تطويرها لتتوافق مع متطلبات البيئة، ونبحث في الوقت نفسه على الإبداع والتغيير لتحقيق مزايا تنافسية تساعد المنظمات على النجاح والبقاء في السوق.

### البيروقراطية

ظهرت البيروقراطية منذ أكثر من (2500) سنة، لكنه يمكن القول إن المصطلح ذاته حديث بعض الشيء، ففي القرون الثامن عشر اشتقت البيروقراطية من الكلمة الفرنسية التي تشير إلى الفئاض

الذي يغطي المكاتب الحكومية، واستخدمها الميبراليون في القرن التاسع عشر في تقديم القوانين الصارمة، والاضطراب الإداري، وسوء الإدارة في الحكومات القاشية (ساندرز Sanders 1999). ويرى علي (1997) أن المصطلح الأول من مصطلح البيروقراطية Bureau يعود إلى الفرنسية يعني «الوثائق» الذي يقابله مع الوثيقة. وإن استخدمت لاحقاً للإشارة إلى فضاء المكاتب التي يعمل عليها رجال الدولة، والمصطلح الثاني Crise يعني القوة والسلطة. وأورد رجب (1999) أيضاً معنى مشابهاً لمصطلح البيروقراطية المؤلفة من مقطعين: الأول المكتب، والثاني وهو السلطة. أما المنيف (1996) فذكر نقلاً عن عبد الكريم درويش أن الأصل الإيزيقي لمصطلح البيروقراطية يعني القوة. وهي في الفرنسية مكونة من مقطعين: الأول يعني «المكتب» والثاني «الحكم» أي «حكم المكتب».

والبيروقراطية معانٍ مختلفة، تختلف باختلاف الفئة التي تستخدمها: فهي تعني عند رجال الأعمال مجموعة الموظفين النظاميين بالتمنى المحدد الذي تمل عليه الخدمة المدنية، وبصفة خاصة في وظائفها العليا. (المنيف، 1996: 101، 102). أما في الوقت الراهن فإن كلمة البيروقراطية أصبحت مرادفة للروتين، والعجز الإداري في الإدارة. وأورد الباحث عدداً من الملاحظات الدارجة للبيروقراطية كالفساد، والرتابة، والسلطة، والدور، والقواعد، والكفاءة، والهرمية، وهي موجودة في القطاعات الحكومية والعسكرية والمدنية كافة، بل هي موجودة في القطاع الخاص أيضاً.

إن للبيروقراطية هي رأي موسى (1998) تعريفين: الأول سياسي: ويعني تركز السلطة بيد فئة تهيمن على الإدارة، والآخر سوسولوجي: يظهر التدرج في السلطة والابتعاد عن التحيز. وعرفها طاهر (1981: 60) نقلاً عن مالكس فيبر بأنها «ال جهاز الإداري الذي يتركز في أيدي

أفراد رسميين يتمتعون بمعرفة تكتيكية فائقة.. وبمستلح الباحث أن الأفراد الرسميين هم الذين يهتتمهم الإدارات العليا في تلك المراكز اعتقاداً منها أنهم قادرين على تطبيق القواعد والقوانين، وإذا لم تطبق القوانين بشكلها الصحيح فهذا عائد إلى الأفراد.

إن استخدام البيروقراطية قديماً قديم الإنسان، فقد كانت هناك علاقات معينة تحكم الأسرة، وعلاقة الزوج بزوجه، ثم تطورت لتشمل حكم رئيس القبيلة لعشيرته. ولم يكن هناك آنذاك قوانين مكتوبة، ولكن الأوامر كانت شخصية وتنفذ على الفور، وقد عرفت التنظيم الإداري حضارات عدة كالحضارة السومرية، والفرعونية، والبابلية، والصينية، واليونانية (الإغريقية)، والرومانية، أما في العصر الوسيط فسادت العلاقات الإقطاعية، وتزامنت نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر مع ظهور مبدأ التخصص، وبدأت البيروقراطية بالانتشار مع بداية الثورة الصناعية، وتوسع الحكومات، وزيادة دخلها القومي، وتضمن الإدارة فيها، وذكر علي (١٩٧٧) أن أهم القوى الخارجية التي أسهمت في نمو الجهاز البيروقراطي هي: تطور التنظيم الصناعي، ودخول الحكومات عبر سن القوانين والتشريعات، والأوامر الاقتصادية، وانتاج بعض الدول الطريق الاشتراكي.

وكان محمد (١٩٨٢) رأي آخر وهو أن أصول البيروقراطية تعود إلى أفلاطون الذي رأى أن العدالة لا بد من أن تأخذ مجراها، وأن الدولة عليها أن تعمل على تحقيق هذه العدالة، ولن يكون ذلك ممكناً إلا عندما يكون هناك توافق بين فئات المجتمع ومواعيه، والوظيفة التي يشغلها. وربما تعود أصولها أيضاً إلى أرسطو الذي وجد أن الدستور هو أفضل وسيلة للحكومة هي فرض حياة خيرة، وإلى مكافيلي الذي حث على مركزية الحكومة.

### نظرية ماكس فيبر Max Weber

لقد طور عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) النموذج البيروقراطي وكان يعرفه بالإطار المنطقي - القانوني (ماكينا McKenna وبوش Booch ١٩٩٥) ويميز نموذج فيبر منطقياً لأنه

يحدد تحديداً دقيقاً أداء معظم الأنشطة في أي مشروع، وهو قانوني لأن الأعمال مبنية على مجموعة القواعد والإجراءات الموضوعية مسبقاً لكل وظيفة أو عمل، ويرى المليف (١٩٩٥) ومحمد (١٩٨٢) وعلي (١٩٧٧) أن فيبر قسم السلطات في أي منظمة إلى ثلاث وهي: السلطة البيطورية التي تعتمد على الصفات الشخصية للقائد، والسلطة التقليدية المتوارثة من الأقارب، والسلطة الرشيدة المستمدة من القواعد والإجراءات التي تعطي الشخص الشرعية في ممارستها. ومن صفات نموذج البيروقراطية الذي طوره ماكس فيبر أنه مثالي؛ لأنه يلغي الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين الطبقات.

## الإمام الإداري مع نهج البيروقراطية

أشار كل من الطنج (١٩٩٥) والمنيف (١٩٩٤) وعلي (١٩٧٧) إلى أن البيروقراطية كانت نتاجا للتغيرات التي نأتت من الثورة الصناعية، ونجم عنها ظهور النشاطات الصناعية التي حولت المزارعين إلى عمال، وأصبح التوجه نحو الإنتاج بكميات كبيرة. إن ما أراده فيهر هو وضع هيكلية متالية، واضحة المعالم لنشاط الأعمال؛ فدعا إلى وجود نظام يؤمن الاستقرار والتوازن. واعتبر الطنج أن النظرية البيروقراطية مبنية أصلا على نظرية نيوتن Newton التي تقترض أن «العالم ومكوناته هو نظام آلي Mechanistic. وهو يدعو إلى القول إن العمليات الطبيعية كالحيمة قابلة للتفسير بنواميس الفيزياء والكيمياء، وإن لكل فعل رد فعل» (الطنج ١٩٩٥: ٥١). وأشار الباحث إلى أن البيروقراطية تستند أيضا إلى نظرية X لـ «ماك جروجر» MacGregor التي تصف الإنسان بالكميل، والشر. ويسعى نحو تحقيق أهدافه الخاصة، لذلك وضع ماكس فيهر نموذج العقلاني الذي يتمتع بقدرة على فرض الرقابة في التنظيم.

إن الهدف من بيروقراطية فيهر هو تقديم خدمة، والابتعاد عن الأهواء والأهداف الفردية. وهذا يؤمن «الدقة والسرعة، والمعرفة، والاستمرارية، والوضوح؛ مع الخضوع الكامل للرؤساء ذوي القوة والسيطرة القانونية» (المنيف ١٩٩٤: ١-٤). ويورد ظاهر (١٩٨٤) نقلا عن كارل فريدريش Carl Friedrich أن البيروقراطية هي القرب كانت نتاجا لثلاثة عوامل: أولها نفوذ الكنيسة واتساع سيطرتها، وثانيها الدور الذي لعبه الجيش، وثالثها ظهور الحكومات. فكل واحد من هذه المؤثرات أدى دورا أساسيا في تطور البيروقراطية. وذلك لأن كلا منها يتطلب وجود جهاز إداري ضخم يقوم بتنفيذ أعماله، ويحتاج من تقديم خدماته للناس. وبين أيضا أن النظام السلطوي يعتمد في أساسه على هيكلية قائمة التي تؤثر بدورها في مستوى العلاقة بينه وبين مرؤوسيه. «إن طبيعة الإدارة نفسها تتميز بوجود سلطة الإداريين النابعة من سلطة مكانتهم ونفوذها، وليست سلطة شعبية مستمدة أو ينسبهم، أو بمقدار ما يملكون من ثروة أو حكمة؛ وهم في هذه الحالة لا يخدمون الشعب بمقدار ما يقدمون مكانتهم التابعة للسلطة نفسها» (ظاهر ١٩٨٤: ٤٣). ويعبارة أخرى: إن الإداريين يعينهم مجلس القيادة، وعليهم الالتزام بالوائح والأنظمة. ويورد علي (١٩٧٧) في السياق نفسه أن فيهر يبين أن السلطة تعني ممارسة شخص ما قوته على الآخرين، وأنه من الواجب على الأنشاع الامتناع لأوامره؛ مما يسهم في دعم الاستقرار والثبات النسبي للمنظمة.

إن أهم معالم البيروقراطية التقليدية هي: (١) تعريف الواجبات والمسؤوليات تعريفًا دقيقًا، (٢) التخصص، (٣) السلطة الرأسية، (٤) إطاعة الأوامر، (٥) الاعتماد على الخبرة المستمدة من المعرفة التقنية، (٦) التطبيق الأمثل للقوانين، (٧) الإدارة الموضوعية، (٨) اللامشخصية، (٩) المكافأة حسب الترتيب ومسؤولية العمل، (١٠) الترقية حسب الأقدمية أو الأداء كما يقدرو الرؤساء، وليس وفقًا للوراثة أو المعرفة، (١٠) الفصل الواضح بين ملكية المنظمة وإدارتها، وإنه

إن الواضح أن التنظيم البيروقراطي يعتمد كلها على القواعد، والإجراءات، والهام المعرفة تعريفا واضحا، كما يعتمد على العلاقات، والمسؤوليات التي ينبغي أن تكون واضحة مسبقا لكافة العاملين في المنظمة. إن هذا النموذج، كما افترضه فيهر، منطقي وموضوعي لأنه خال من نزوات الأطراف، ورفيالهج، وأهوالهج، وتنشيطاتهم، كما أنه يقدم الثبات والاستقرار لمنظمة الأعمال. ورأي ساندروز (١٩٩٧) أن البيروقراطية هي عبارة عن إدارة الأقسام والفرع في منظمة ما، وذلك باستخدام التعليمات الكثيرة، والإجراءات المركزية، إنها تمثل الهيكلية التنظيمية في المؤسسات الخاصة والعامة.

### صفات البيروقراطي

ترتبط صورة البيروقراطي في معظم الأحيان بعدم تحمله مسؤولية عمله؛ فهو غالبا ما ينحو باللائمة، في تبرير قصوره، على قواتين الشريك، أو على السلطات العليا فيها، ولكن نادرا يقف

البيروقراطي، عاتقا في وجه التواصل الفعال بين الأطراف المعنية من موظفين وعاملين وزبائن ومنظمات إن الذين يقومون بالعمل الحقيقي، ويؤمنون ما تريد المنظمة تحقيقه هم المدرسون في المدارس، والمعلمون، والميكانيكيون في وكالات النقل، والهندسون وطاقم البناء في منظمات الإنشاء والتعمير، وأعمال المحطة التجميعية في المصانع. إنهم أحد الأطراف، وفي الطرف الآخر هناك الزبائن أو المستورون الذين تمثل حاجاتهم ورفاهيتهم السبب الأساسي لوجود منظمات الأعمال التي يؤمن منظمها بفكرة «الزبون دائما على حق». ولكن البيروقراطي يقف حاجر عثرة في عملية الاتصال بين تلك الأطراف.

ذكرت زينلن Zetlin (١٩٩٧) أن القليل من البيروقراطيين يعترفون أنفسهم بأنهم بيروقراطيون، وتصدر عنهم غالبا العبارات التالية: «دعونا لا نجعل في أي شيء»، أو «في العجلة القادمة»، أو «من الضروري الأخذ في الاعتبار العواقب قبل القيام بأي مبادرة». وعن صفاتهم أيضا رفض التغيير، والبطء في التفكير، والاعتقاد أن أي تغيير هو ضرب من ضرر أو التهور.

إن البيروقراطي كما رآه نيسكانن (موسى، ١٩٩٥، ١٥٩) «ليس مجرد شخص يعمل بطريقة روتينية البتة، كما أنه لا يستهدف دائما تحقيق الصالح العام وحده، ولكنه، مثل أي شخص آخر، يسعى إلى زيادة منفعته الخاصة. ويكون ذلك أساسا من خلال العمل على زيادة حجم ميزانية المكتب أو الإدارة التي يديرها». ويعتقد نيسكانن أيضا أن البيروقراطي يمتلك «سلطة احتكارية وتقديرية مهمة؛ وذلك لحصوله على معلومات لا تكون غالبا متاحة للآخرين. إنه لمن العلوم أن البيروقراطية تزيد النفقات الكلية بشكل أكبر بكثير من الإنتاج المحقق».

## الإدماج الإداري مع الديمقراطية

وجد النقيب (١٩٧٦) في دراسة أجراها عن البيروقراطية وصفات الشخص البيروقراطي في لبنان، أنها تبعد كل البعد عن البيروقراطية التقليدية لغيرها، وأعاد ذلك إلى عدة أسباب أهمها: أن القيم (العائلية، والاجتماعية، والثقافية، والفلسفية...) تؤدي دورا بارزا في حياة الشخص البيروقراطي أكثر بكثير من الخبرة، والمهارة التي يتمتع بها الفرد. أضف إلى ذلك المكانة الاجتماعية التي يحظى بها البيروقراطي، وأثر البيئة الاجتماعية المحيطة التي تؤثر بدورها في حياته العملية. فرأى الباحث أن هذا ينطبق على المواطن العربي عموما، لأنه أسير العائلة التي تفرض عليه سلوكيات معينة، مقابل تقديم الرعاية، والحماية، وبناء عليه، فإن البيروقراطي يعمل مع هذه السلوكيات التي تجعله يبتعد عن تحمل المسؤولية، والتخاذل القرار، أو المبادرة، فيسعى دائما إلى الاستعانة برئيسه طاقيا الحماية. واستنتج أيضا أن المشاركين في الدراسة يتخشون من الروتين على الرغم من اعتقادهم أن سبيل النجاح هو الالتزام بالقوانين والأنظمة، ولين له أن البيروقراطيين اللبنانيين ليسوا دائما طليعة في يد السلطة، وهذا يناقض نموذج فيبر، وبذلك النتائج أن البيروقراطي يزداد مع تقدم العمر تعلقا بالأنظمة والقواعد، وأنه كلما ارتفع مستوى التعليم قلت نظرة احترام الذات عند البيروقراطيين أنفسهم. وهذا ما أكدته دراسة أحمد وآخرين (١٩٨٠)، التي أبرزت أن الشخص البيروقراطي هو الأكبر عمرا، والأقل تعليما من غيره.

## إبداءات البيروقراطية

في حين أن البيروقراطية تنصف بثلاث صفات وهي: (١) التدرج الهرمي للسلطة، (٢) التوافق المركزية مع البيروقراطية في تعريف المسؤوليات، وتحديد التوجيهات، بوضوح، فالمستويات الإدارية

المتدرجة تسمح بالسياسة اتخاذ القرارات، ويتخذ كل مستوى القرارات، ويتخذها بسرعة، ومن دون حصول أي جدال، وذلك لوضوح نطاق سلطاته ومسؤولياته، وتتضح في هذا الهيكل التنظيمي الخطوط الفاصلة بين المستويات الإدارية المختلفة، ويشير إلى من المسؤول؟ وأمام من؟ ويساعد ذلك في انتقال المعلومات من الأعلى إلى الأدنى متوافقا بتقنية مرتدة Feedback من الأدنى إلى الأعلى، وتحقق بالتالي كفاءة الاتصال، إن البيروقراطية تناسب المنظمات القديمة في المجتمعات الصناعية الحديثة إلى أجزاء وفروع: إذ يستند من تقسيم العمل إلى وظائف بسيطة ومتكررة، ويمكن القول إن الهيكل التنظيمي البيروقراطي المقترح هو مؤشر إلى الاستقرار والثبات ومن صفاته عدم التغيير. (٣) التقسيم الإداري ويشاول العمل بين الشخص البيروقراطي والوظيفة التي يشغلها، إن هذه الصلة الموضوعية التخصصية كانت الأبطأ في التطبيق بين أوجه البيروقراطية كلها، فلا تتخذ القرارات وفقا للمعارف، أو بما يخدم الأصحاب، ويعقق الحسابات، بل لما فيه مصلحة المنظمة، فتتم الوظائف والترقيات بناء على الجدارة وليس على أساس تقديم

خدمة الصديق أو قريب. (٢) القوانين البيروقراطية، إن تطوير القانون، أو القاعدة الإدارية لتتكامل مع البيروقراطية اللاشخصية. هالقوانين والقواعد الإدارية، والإجراءات لا تترك أي مجال لتفاوت الأهواء، والتصرف الشخصية، فهي إذن ضمان لمعاملة الموظف والزبون، وحتى المواطن العادي معاملة عادلة، وللمحد من تحكم الناجر، أو البائع، أو البيروقراطي.

إن أكثر نقاط القوة في البيروقراطية، على الرغم من سمعتها السيئة، هي أنها تقدم مستويات إدارية واضحة المعالم، متخصصة، وبإمكانها طريقة المشاكل، والتشجيع على المبادرة. تاهيل عن استقرار المؤسسات العامة، وبخاصة كما ذكرت مور (Morse ١٩٨٨).

أما موسى (١٩٩٥) فيقول: إن أهم إيجابيات نظرية هيبز أنها تقوم على الوضوح، والاحترام، وتخفيض التكاليف، وزيادة الإنتاج والأداء، ويرى كل من رجب (١٩٩٩) ونور الله (١٩٩٢) أن البيروقراطية تضمن استمرارية العمل واستقراره، والنسابة ودعم القيم والسلوكيات الرسمية الموضوعية.

ومن الإيجابيات الأخرى للبيروقراطية ما ذكرته شامان (١٩٩٩) في أنها وسيلة لتنسيق الجهود، وتحديد المسؤوليات بشكل يساعد على تحقيق الأداء، فالتقصود بالبيروقراطية هو تسيير الأمور وليس تعيقها، ولكن اتساع أعمال الحكومات والتطبيقات وتعددتها أدى إلى إساءة استعمال البيروقراطية، وإساءة فهمها. ونريد التباحث السبب في ذلك إلى عيوب الأفراد من تحمل مسؤولياتهم، وتعصبهم بالتواطع والأنظمة، ونجم كل ذلك في رأيها عن عدم وضوح حدود مسؤولية الفرد، ويعود ذلك إلى الخوض في حدود سلطة الوظيفة، فلهذا يشهرون من مسؤولياته لأنه لا يعرف حدود سلطاته، فيفضل التقيد الحرفي بالتواطع والأنظمة والقوانين والتعليمات، أما السبب الآخر فتعزوه شامان إلى العامل التربوي الذي يعود إلى نشأة الطفل في المنزل إذ ينمو معتمدا على والديه، فيتهرب من تحمل المسؤولية، ويرافقه ذلك حتى عندما يعمل في أي وظيفة.

وأكدت أخيرا نتائج دراسة أحمد وزملائه (١٩٨٠: ٦٠) أن ظاهرة البيروقراطية هي ظاهرة سلوكية لتأثر بالبنائ الإداري والتفكسي الذي يسود محيط العمل، وأنها، أي البيروقراطية، ليست وليدة الأنظمة والقوانين والقوانين.

### مساوئ البيروقراطية

إن الضغط الذي يمارسه النظام البيروقراطي على الفرد ليلتزم بالقواعد والإجراءات، يوجد حالة من الانشغال الدائم بالوسائل المستخدمة في سبيل بلوغ الأهداف، وتصبح الوسائل أكثر أهمية من

النتائج أو الأهداف نفسها. وقد يكون أيضا هناك حالة من الارتباط بالقواعد والإجراءات التي تصبح لاحقا جزءا من الشعائر أو الطقوس المتعارف عليها في المنظمة. أضف إلى ذلك أن إصرار بعضهم على نيل حقوقه كافة، والاستمتاع بالمكانة المرموقة التي يستمدونها من



## الإمام البخاري في فقه البيروقراطية

البيروقراطية، يعيق تقدم الاهتمامات الأخرى، ونموها، وتطورها، وتواجه المنظمات في مثل هذا الوضع موضوعاً خطيراً عندما تريد التغيير الذي يصبح مفروضاً رفضاً قطعياً، وتناصب البيروقراطية في الغالب اهتمام والأعمال البسيطة، والمتكررة التي تتجزأ باستمرار مع مرور الوقت. ولكن عندما تصبح المهام معقدة وخاضعة للتغيير، عندما سيئتم التحول عن البيروقراطية الكلاسيكية (ساكينا وبيش ١٩٩٥). وأورد الطنج (١٩٩٥) في السياق نفسه أن «الجمود الداخلي» الذي تعانيه البيروقراطية يجعل المنظمة مقسمة إلى إدارات وأقسام لكل منها تنظيم خاص به: فلكل بمعنى نحو تحقيق أهداف القسم أو الإدارة التي يعمل بها، وهذا يعني تجاهل الأهداف العامة، كما يعمل الأفراد على قصور القوانين والتعليمات بما يحقق لهم منافع شخصية. وثيقى: على الرغم من كل ذلك، أهمية اتخاذ القرار النهائي بيد الإدارة العليا، وتمثل مساوئ البيروقراطية من وجهة نظر سلطان (١٩٩٠) في قسرها «الجمود والاستاتيكية». وفيما الاهتمام «بالعلاقات الإنسانية غير الرسمية» التي تنشأ بين الأفراد، وينقل عن جيمس تومبسون James Thompson رأيه في أن البيروقراطية لا تأخذ في الحسبان أثر البيئة التنظيمية، مما يقصر قدرتها على رؤية المستقبل، أضف إلى ذلك عدم مرونتها مع مجريات الأمور. ويذكر سلطان (١٩٩٠، ٣٧) أن البيروقراطية ضيقة وليدة الحضارة، والمجتمعات المستعمرة الغربية، ومن ثم فهي لا تتناسب مع الأنماط المتغيرة في الدول النامية. ووجد سلطان أن الفشل في إدارة مشروع ما، والعلاقات اللائق به يكون أكثر بكثير من المكافآت والحوافز التي تقدم إلى العاملين في ظل البيروقراطية. وهذا يؤدي بدوره إلى انخفاض روح المبادرة، والمخاطرة، والقدرة على الابتكار والتجديد.

أما هليجسين Helgeson (١٩٩٥) فقد وصفت المنظمات البيروقراطية بأنها تضع عملية اتخاذ المعلومات من الأعلى إلى الأدنى ضمن حدود وأطر محددة، تمر عبر سلسلة من المستويات الإدارية؛ ومن الواضح أن الاتصال الأفقي غير مرغوب فيه. وينصب اهتمام الشخص في مثل هذه المؤسسات على المركز الذي يشغله بدلاً من إنجازاته. ويتصف الهيكل التنظيمي بالركوذية التي لا تُشعر الإنسان بقيمته، أو حتى يحلله في حرية التصرف ليصبح الشعور المعاكس هو شعور بالتصف.

وعندما لحاور براون Brown (١٩٩٤) مع جيفورد ونيشوت Gifford & Elizabeth Pinchot مؤلفي كتاب «نهاية البيروقراطية وبداية المنظمات العقلانية The End of Bureaucracy and The Rise of Intelligent Organizations»، ذكروا أن البيروقراطية تسلب الأفراد قدرتهم على التفكير المنطقي لأنها تعتمد على المركزية المطلقة، والالتزام بالقوانين، وتسلب القيادة، والتخصص، والقيام بالأعمال المعيارية، والتنسيق الذي تفرضه الإدارات العليا على الإدارات الأدنى. وتعتبر البيروقراطية عندما يتطلب الموقف من العاملين استخدام

إبداعهم، وحققهم، ومبادئهم هي أمر ما، إن استخدام البيروقراطية يتطلب كثيرا من الوقت لاتخاذ القرار، ونقل المعلومات مما يعد عنصرا أساسيا في فشل عدد كبير من المنظمات التي لا تستغل الوقت بالسرعة المناسبة، إن البيروقراطية كما رآها المؤلفان تعجب الرؤية عن مستقبل النشآت فيما يتعلق بالوسائل البديلة التي يمكن للعاملين أن ينظموا عملهم من خلالها بنجاح، ومن الملاحظ أن البيروقراطية تناسب الشركات متوسطة الحجم التي تكون أعمالها روتينية، وقليلها لا تتغير، وأصولها مستقرة.

ومن سلبيات البيروقراطية الأخرى التي أوردتها رجب (١٩٩٩) أنها تقوّل الفرد، وتضعه ضمن قوانين ولوائح مما يؤدي إلى إعطال كثير، وتأخيرات في اتخاذ قرارات مهمة، وشعور بالملل، وذكر الطعيم (١٩٩٥) في هذا الخصوص، أن البيروقراطية اعتمدت على مبدأ العقلانية، متجاهلة بذلك حقوق العاملين في الإدارات الدنيا وحاجاتهم.

إن البيروقراطية تخلق فجوة بين ما يجب القيام به وفقا للأنظمة والقوانين، وبين التجاوزات التي تكون في الغالب ضرورية نتيجة البيئة التي تعمل ضمنها المنظمة، أضف إلى ذلك زيادة في عدد المستويات الإدارية التي تشمل الإدارة الدنيا عن الإدارة العليا، مما يؤدي إلى هدر في الوقت، وزيادة في التعميدات، كما يظهر الضعف في المبادرة الشخصية للعاملين، ويتم تجاهل حاجاتهم، وخصائصهم الفردية، مما يسهم في انخفاض كفاءتهم، وغالبا ما يكون نظام الاتصال غير فعال تأهيك عن عدم قدرة المنظمات البيروقراطية على متابعة التغيرات الحاصلة في البيئة الخارجية من تطورات تكنولوجية، ومناخية، وتغير في حاجات المستهلكين (نور الله، ١٩٩٢).

وعلى صعيد الدول النامية، اعتبر طاهر (١٩٨٢) أن أهم أسباب المعجز في متابعة المشاريع التنموية يعود إلى الجهاز الإداري البيروقراطي الذي يتصف بالجمود، وتقصصه الفاعلية، والكفاءة، والتدريب، لذلك إذا رغبت هذه الدول في تجاوز أفتصادياتها القائمة فلابد من التغيير، مع الأخذ بعين الاعتبار التحديات المختلفة، وخصوصا الاجتماعية (من عادات وتقاليد) التي ستعرض التغيير، ولا يمكن أن يحصل هذا إلا بتغيير الجهاز الإداري البيروقراطي، والاستعانة بأجهزة تسهم في تعزيز عملية تعامل المنظمات والحكومات مع التغيرات الداخلية والخارجية.

إن الرقابة والإشراف اللذين تفرضهما البيروقراطية يعززان من انحراف السلوك الفردي عن القوانين والأنظمة، مما يتطلب زيادة في الرقابة، وهذا يؤثر بدوره سلبا في كفاءة التنظيم، ويظهر التناقض جليا في مبادئ النظرية البيروقراطية التقليدية بين مفهوم التدرج الهرمي للمستويات الإدارية، والاعتماد على الخبرة والتدريب في اختيار الموظفين كما رآه أحمد وآخرون (١٩٨٠)، ولدى دراستهم للبيروقراطية في المملكة العربية السعودية، وجد أحمد وآخرون (١٩٨٠) أن المفهوم السليم للمرافق البيروقراطية هو السائد بين موظفي الدولة، وأن

## الإدماج الإداري مع نهج البيروقراطية

الأجهزة الحكومية التي لا تقدم خدماتها مباشرة للمستهلكين هي أهل بيروقراطية من غيرها من المنظمات. وتبين للمباحثين أن الفئة الكبيرة من الموظفين العموميين المشاركين في المراسلة، لا تشارك في اتخاذ القرارات، وإن شاركت فإنها تتخذ القرارات الروتينية. لذلك فإن القرارات المتعلقة بالتغيير وتطوير العمل لتتخذها الإدارات العليا.

## التحديات الحديثة للبيروقراطية

أشار رجب (١٩٩٩) إلى أن النظرية التقليدية للبيروقراطية قد أخذت منحى متناقضاً إلى أن جاء الباحث مستشكوكم، وحاول أن يعيد البيروقراطية أبعاداً جديدة تركز فيها النظم الإدارية على

التخصص، وكفاءة اليد العاملة كأساس لتوزيع العمل، وأن يكون هناك جزاء في مقابل كل عمل يقوم به الفرد، مع ضرورة وجود أهداف واضحة، ويمكن للبيروقراطية أن تبقى على مبادئها الأساسية، وتعمل على تطبيق القوانين واللوائح، وتعتمد على الاعتبارات الشخصية، يُعيّن العاملون كل حسب مؤهلاته وشهادته وخبراته. ويكون الفصل بين الإدارة والملكية. أما الاتصال فينبغي أن يكون رسمياً بين الأقسام تلاقياً للتوضيح، مع ضرورة الالتزام بالتسلسل الهرمي فيتخذ كل مستوى القرارات الخاصة به.

أورد كل من المؤلف (١٩٩٩) والسليمي (١٩٨٧) وعلي (١٩٨٩) عدداً من النظريات الحديثة التي تنتقد البيروقراطية التقليدية التي كان أبرز روادها روبرت ميرتون Meriton، وسانزليك Selznick، وجولدسر Gouldner، وكروزير Crozier، وداونز Downs، وباركسون Parkinson، وبيتر Peter، وجامون Gamon، وبلو Blau، وبينيس Bennis، وبراكار Drucker. ركز الأول على ضرورة إشراك العنصر البشري في السلوك البيروقراطي، وحسن على أهمية رقابة ذلك السلوك، ورأى أن سلوك الفرد في ظل البيروقراطية التقليدية محكوم بالأنظمة والتشريعات والقوانين، لذلك يبقى ثابتاً وجامداً، وأن السبب الحقيقي لفشل البيروقراطية هو التعميم الذي انتهجه ذلك النموذج؛ فما يصلح في موقف ما ليس من الضروري أن يناسب المواقف والحالات كافة. وإن الإدارة العليا تعمل على تحديد الواجبات، والمسؤوليات، وسلطات العاملين، وتعرض عليهم الرقابة الدقيقة مما يضعهم موضع الاتهام، أو حتى المدافع عن النفس مما يبعدهم أكثر فأكثر عن الهدف الحقيقي. وإن درجة العلاقات الشخصية بين العاملين في المنظمة الواحدة تتضاءل، بناء على ما سبق، لتبقى محصورة في نطاق العلاقات بين المكاتب فقط، ولتحكمها القوانين واللوائح التي تصبح أمراً طبيعياً وهذا يساعد طبعاً في جمود السلوك الإنساني الذي يخدم أهداف التنظيم البيروقراطي.

أما «سولزليك» فيرى أن الرقابة التي تفرضها الإدارة العليا تتطلب مزيداً من تفويض بعض السلطات والمسؤوليات، مما يترتب عليه زيادة خبرة العاملين في التنظيم، ويقلص هذا بدوره من التباعد بين الأهداف والإنجازات المحققة فعلاً، ومع ذلك فإن التفويض يساعد في ظهور التخصصات، والتخصصات الضرورية، والصراع بين الأجزاء، مما يعمق حجم الهوية بين الأقسام والفروع، وهذا يعزز بدوره الاعتماد عن الهدف للشود، فموضاً عن تحقيق التعاون والتنسيق يهتم كل قسم بتحقيق نجاحه، ويبلغ أهدافه بغض النظر عن الاتجاهات العامة للمنظمة وأهدافها.

إن اعتماد البيروقراطية التقليدية، في رأي «جولدنتر»، على القواعد والنرائج، وعلى الرقابة، يساعد في تحديد إجراءات العمل، وإمداد الأفراد بمصاعون إلى هذه اللوائح والتعليمات، فمن المتوقع أن تقل حدة التوتر والصراع بينهم، على الرغم من أن هذه التوائن توضح العداائني من العمل المطلوب إنجاز، وإذا رفض أحد العاملين تحمل المسؤوليات، والقيام بتنفيذ أهداف المنظمة، فإن هذا موجود نوعاً من عدم التوازن، وستعمق الفجوة بين هدف المنظمة في زيادة الإنتاج، وما هو محقق فعلاً، وهذا يكون غالباً دون المستوى المطلوب. إن زيادة مستوى الرقابة يجعل الأفراد يعتقدون أنهم موضع استغلال، ويولد هذا ضريباً من ضروب التوتر والصراع المستمر بين أعضاء التنظيم.

يشعر العاملون في ظل البيروقراطية أن مواهبهم وقدراتهم مكرثة، ويملون من الروتين، ولا يتحملون المسؤولية، وليس لديهم أي انتماء، وهو نوع البؤس، فضلاً عن أن السلطة متمركزة في يد فئة قليلة من الإداريين؛ وكل هذا يقلل من الإنتاجية. إن مصدر الروتين كما يراء «كروزيير» هو تأثير جماعة العمل في الفرد. تلك الجماعة التي تفرض تقاليداً على أي عضو جديد فيها، فالروتين والتعقيد في النموذج البيروقراطي من العناصر للثباتية التي تدور في «حلقة مفرغة»، أو هي «حلقة جهنمية»، وأشار كروزيير إلى أن الذين تتمركز بأيديهم المعلومات يحتفظون بها غالباً لأنفسهم، ولا يعمرونها إلى الإدارة العليا مما يجعلها تتخذ قرارات غير مناسبة، ويعيدة عن الواقع، ومما يزيد المشكلات والتعقيدات أكثر هو انكاث البيروقراطيين على القوانين واللوائح والأنظمة بشكل يعيق تنفيذ أي عملية إنتاجية.

إن الاتجاه الحديث للبيروقراطية، كما حددته «وانز» قد ابتعد عن النموذج الأصلي لها عندما أدخل فيه العلاقات الإنسانية، والاتصالات غير الرسمية؛ مما نجم عنه تحريف للمعلومات التي تصل إلى الإدارة العليا التي لا يصلها إلا النجاح، والإنجازات الباهرة التي حققها الإدارات الدنيا بعد غريبة المعلومات تبقى مصفاة خالية من الشوائب والإخفاقات؛ ونتج عن ذلك بقاء القدر الوثير من الموارد غير مستغل، وانخفاض في القدرة على وضع رقابة على السلوك البيروقراطي، وتؤدي فاعلية الرقابة والتنسيق بين الفروع، وازدياد حجم النشاط، وتعتمد الأجهزة البيروقراطية وتشعبها، ورأى أن الأسباب الكامنة وراء نجاح التنظيم

## الإمام الأمام مع طي البيروقراطية

البيروقراطي أو فئله تركز على عوامل خارجية، وتحتل داخلية، ولا تملك أيضا أن تتطامن البيروقراطية تسعى إلى التوسع والنمو، لذلك تملك بعض الوظائف، وتستحدث وظائف أخرى (أحمد وآخرون ١٩٨٠).

وضع دوائر فرضيات ثلاثة تمحورت أولاها على أن الشخص البيروقراطي يحاول أن ينجح أكبر مصلحة ذاتية ممكنة لنفسه مادام يقوم بأدوار عدة في كل يوم، وكل دور يولد لديه طموحات وحاجات أكثر، وينبغي في رأيه، وبذلك على ما سبق، أن تكون المصالح الهامشية المحققة أعلى من تكاليفها. والفرضية الثانية تقول إن لدى البيروقراطي أهدافا عامة وخاصة، يسعى إلى تحقيقها جنبا إلى جنب مع مصالح المنظمة التي يعمل فيها؛ لذلك يحاول أن يشكل شبكة من المعارف عبر الاتصالات المتعددة لدمج حتى بعد انتقاله من وظيفته الحالية، فيحقق بذلك مصالحه الذاتية عن طريق توظيف التنظيم غير الرسمي لخدمته. لذلك رأى الخفيف أن الأشخاص البيروقراطيين أنواع: «المنساق» الذي يسعى إلى تحقيق مكانة عالية، وأجر مرتفع، ويهتم بتحقيق مصالحه الشخصية، وأخر «مقاوم التغيير» يكون ضد أي تغيير محتمل، و«الغيور» الذي تكون الغيرة دافعه إلى تحقيق أهدافه وأهداف التنظيم، و«الدفاعي» الذي يعمل على تحقيق أهداف اجتماعية لا علاقة لها بالمنظمة التي يعمل فيها، ومرجل الدولة المثالي، الذي يتحمل المسؤولية العامة، ويعمل على تحقيق ما فيه خير المجتمع، وقد يكون البيروقراطيون ذوي «خوافر مختلفة»، أي أنهم يتفاوتون في تحقيق الأهداف المرتبطة بالمصلحة العامة لأن اتجاههم وإخلاصهم شامل لخدمة الغير، (الخفيف ١٩٩٥، ١١٥). أما السلي (١٩٨٠: ٦٠) فيذكر أن للبيروقراطيين خمسة أنواع هي: «المنساقون»، «المحافظون»، و«المتمسكون»، و«المتوسلون»، و«السياسيون».

أما الفرضية الثالثة فتتعلق بطريقة تأثير العلاقة المتبادلة بين ما تقدمه المنظمة من منتجات وخدمات إلى المجتمع، وبين تصميم هيكلها التنظيمي الذي ينعكس على سلوك الموظفين. فمن أهداف المؤسسات البقاء في السوق، أو التوسع فيه مع زيادة الموارد، ويسعى الموظفون إلى تحقيق مكانة اجتماعية، فبما أنهم من نجاح المنظمة، والعكس صحيح، إن الأفراد بعبارة أخرى يحققون مصالحهم الذاتية (كالأجر، الوظيفة أو المرتبة الأعلى، والحوافز...) عن طريق تقديم خدماتهم إلى المنظمة التي يعملون فيها.

إن الزيادة حجم المنظمة وأعمالها يزيد العبء على مديريها، مما يدفعهم إلى تعيين نواب لهم؛ وهؤلاء بدورهم يعيرون نوابا، وهكذا دواليك، حتى يصبح هدف المدير الرئيسي هو توجيه النصيح والإرشاد إلى مساعديه، علما بأن الشخص البيروقراطي يفضل أن يكون لديه عدد كبير من المرؤوسين، ولكن ما يحدث حسب «باركسون»، عند الإشراف على عدد مرتفع من العاملين هو أنهم يقومون بأعمال لا علاقة بها بالهدف الأصلي للمنظمة، وقد أكد «بركار»

(١٩٩٨) أنه من الطبيعي، مع توسع المنظمات وكبر حجمها، أن يزداد عدد الإدارات فيها؛ مما يؤدي إلى ظهور التناقض في الأهداف بين الإدارات الفرعية التي تزاوّل أعمالها بطابع شخصي لإبراز تفوقها على الإدارات الأخرى، وبين أهداف المنظمة العامة.

أما «بيتر» فيعتقد أن كل شخص في التنظيم يمتلك حداً معيناً من الكفاية والفاعلية عند تربيته. فالوظف يترقى إليها في ظل البيروقراطية التقليدية، ولكن ذلك لا يعني أنه على قدر من الفاعلية أو الكفاية. وذكر المليف (١٩٩٥، ١٢٠) أن «الترقية حسب الترشيح البيروقراطي ترتبط بانقضاء مدة قانونية أكثر مما ترتبط بدراسة عملية لمستوى الكفاية أو الفعالية عند الإداري لمراد تربيته، والذي يناقض دائماً أنه قد أنهى المدة القانونية للترقية من دون النظر إلى كفايته».

وقد توصل خامسون إلى نتيجة مفادها أن البيروقراطية تزيد من التناقضات، وهذا يقلل بدوره من الإنتاج، وأن «العمل غير المجدي» يقتضي على «العمل المجدي» هي ظل البيروقراطية التقليدية. إن التزام الموظف بالقوانين واللوائح والتعليمات يضعف روح المبادرة والإبداع لديه. وهذا يقلل بدوره من إنتاجيته. ويرى نور الله (١٩٩٢) نقلاً عن بلو أن رفع أداء المنظمة لا يتم إلا باختيار موظفين على قدر من الكفاية، والعمل على تدريبهم، وتعهدهم، وتوحيدهم على تحمل مسؤوليات صعلهم من دون الخضوع إلى قواعد ثابتة، كما استعرض نور الله (١٩٩٢) آراء «بينيس» في الأسباب المؤدية إلى زوال البيروقراطية، وأرجعها بأنها نتاج التقدم التقني، ولزيادة المشاكل الإنسانية، بما هي ذلك الارتقاء على عهد التكنولوجيا، واتساع الحاجات المنظمة وأهدافها من جهة، وحاجات العاملين من جهة ثانية. إن التحول إلى نظام جديد أصبح أمراً ضرورياً لأنه يسهم في إشباع رغبات العاملين، والاعتماد على الرقابة الذاتية، والتعاون. ويستلزم هذا هيكلاً تنظيمياً أكثر مرونة، واستصبح القواعد والفرائض معدودة كي لا تعيق بلوغ الهدف، أما الاتصالات فتتكون في كافة الاتجاهات. وتستحظى نظم المعلومات باهتمام المنظمات بشكل أكبر، وسيشجع النظام الحديث على تحمل العاملين مسؤولياتهم الفردية، ومبادراتهم في حل المشاكل.

## الإبداع والإبداع الإداري

الإبداع عبارة عن تقديم شيء جديد لتعدد ماهيته تبعاً لفرع المعرفة التي ينتمي إليها؛ أي أنه القيام بشيء ما بطريقة جديدة غير مأهولة (المطبخ، ١٩٨٨). ولعله من اللزم الإشارة إلى ما أورده رودس في حديثه

عن الإبداع بقوله إنه مكون من: الشخص Person، والعملية Process، والضغط الاجتماعي Pressure على الشخص Pressure، والنتج Product، (عبد الحميد، ١٩٩٥). أما روبنز (Robbins، ١٩٩٨: ١٠٥) فيعرف الإبداع بأنه «القدرة على جمع الأفكار بطريقة فريدة لإيجاد ارتباط غير عادي بينها»، وعرفه كل من شرميرون Schermehorn، وهنت Hust، وأوسبورن Osborn

## الإبداع الإداري في ظل البيروقراطية

(١٩٩٧: ٢٦٥) الإبداع الإداري بأنه «القدرة على تقديم إجابات فريدة لمشكلات مطروحة، واستغلال الفرص المتاحة». إذن فالإبداع ليس إلا رؤية الفرد لظاهرة ما بطريقة جديدة. لذلك يمكن القول إن الإبداع يتطلب القدرة على الإحساس بوجود مشكلة تتطلب المعالجة، ومن ثم القدرة على التفكير بشكل مختلف ومبدع، ومن ثم إيجاد الحل المناسب.

وفي هذا السياق أورد ذياب وآخرون (١٩٩٥) أربعة مداخل للإبداع التنظيمي (أو الإداري) هي: من وجهة نظر علم النفس الذي يتمحور الإبداع فيه حول تغيير سلوك العاملين واتجاهاتهم. ومدى توافر بعض السمات الشخصية فيهم. أما الإبداع من وجهة نظر اقتصادية فيتركز في المنافسة بكفاءة وفعالية أكبر، وفي توافر المواد، مع العمل ضمن هيكل تنظيمي مناسب. أما بالنسبة إلى علم الاجتماع، فتتخلص عناصر الإبداع في خصائص الهيكل التنظيمي. والبيئة التنظيمية، وإن الإبداع في خاتمة المطاف محصلة للصرع والمساومة من وجهة نظر الباحثين في مجال السياسة.

إن الإبداع قد يكون نتاج تقديم فكرة، أو عملية، أو اكتشاف، أو أي قيم مضافة، أو منتج، أو خدمة جديدة، ويُعنى الإبداع الإداري بإحداث التغيير والتحديث على سعيد المنظمة، وينجم عن ذلك تغيير في الأنشطة وأداء الأعمال، واستعراض ذياب وآخرون (١٩٩٥) من خلال مراجعتهم للأبحاث السابقة وجود عدد كبير من أنواع الإبداع فعلمها المبرمج، وغير المبرمج، ومنها ما يتعلق بالعملية، وآخر بالنتج، ومنها الوثني، وغير وثني، ومنها البيئي، والسرعي، ومنها ما يتطلب تغييرات سريعة - شاملة أو بطيئة - هامشية، ومنها فني، وآخر إداري، ومنها ما يشمل الأهداف والهيكل التنظيمي، وخدمة الزبائن. ولكن أهم أبعاد الإبداع التنظيمي قدرته على حل المشكلات، واتخاذ القرارات، وتقبل التغيير، وحس المخاطرة، وتشجيع المنظمة للمبدعين.

وذكر كل من عيسى (١٩٧٩) وإبراهيم (١٩٧٨)، نقلاً عن هاريس، أن عملية الإبداع تتألف من ست مراحل تبدأ في تعريف المشكلة، ثم جمع المعلومات عنها، والتفكير العميق فيها، ووضع عدد من الحلول البديلة، فالعمل على التحقق منها، ثم تطبيقها، ويظهر العمل الإبداعي جلياً في سرعة الانتقال من المرحلة الأولى إلى الرابعة. أما عبد الحميد (١٩٩٥) فياقتبس من «والاس» مراحل مشابهة للإبداع، ولكن بتسميات مختلفة: الإعداد، والاعتماد أو الاحتضان، والإشراق (النشأ أفكار جديدة)، والتحقيق، ولكن عدداً من الباحثين لا يعتقدون بوجود مثل تلك المراحل، فالإبداع ليس تعظيماً، بل إنه عملية تداخلية تتبثق في أوقات ومراحل مختلفة.

قسم «تاييلور» الإبداع إلى مستويات مختلفة: الأول الإبداع التعبيري Expressive Creativity، وتكون فيه الأصالة والكفاءة على قدر قليل من الأهمية، والإبداع الإنشائي Productive Creativity، وهو الذي يرتبط بتطوير آلة أو منتج أو خدمة، والإبداع الاختراعي Inventive Creativity، ويتعلق بتقديم أساليب جديدة، أما الإبداع الابتكاري Innovative Creativity

فيشير إلى التطوير المستمر للأفكار والنظريات الموجودة سابقاً، وينجم عنه اكتساب مهارات جديدة. والنوع الأخير من الإبداع ما يسمى بإبداع الانبثاق Emergence Creativity النادر الحدوث لما يتطلبه من وضع أفكار واقتراحات جديدة كل الجدة (عبد الحميد، ١٩٩٥).

إن الإبداع ظاهرة متعددة الجوانب لم يتفق الباحثون في إعطائها تعريفاً عاماً وشاملاً (الحقياني، ١٩٩٧). ولكن دواكار (١٩٩٨) استطاع أن يحدد نوعين للإبداع والابتكار: الأول يشمل تجديد المنتجات أو الخدمات، والثاني يتناول المهارات المطلوبة لتقديم تلك المنتجات؛ فالنموذج التقني لأي منظمة هو أمر في غاية الأهمية. لذلك فإنه من الصعوبة بمكان تحديد أهداف الابتكار لأن بعض الشركات قد تحقق مبالغ طائلة في منتج ما ثم يرفضه المستهلكون أو لا يستحسنونه. ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه ينبغي على الشركات التوقف عن العملية الإبداعية؛ لأن سمعة المنظمة ونموها يتوقفان إلى حد كبير على المنتجات التي تقدمها.

### السمات الإبداعية

ذكر هيمس (١٩٧٩) أن هناك بعض السمات الشخصية التي يكتسبها الباحثون، وقالوا إنها تؤثر في الإبداع وهي: أن يكون الشخص ذا ثقة عالية بالذات، والاندفاع نحو العمل، وأكثر تقبلاً للمخوض.

وأقل التزاماً بالقوانين والأنظمة. وإن ذلك الشخص لديه بعض سمات طويلة في عمل متواصل، ويتصف بدرجة عالية من الدافعية، والرسالة والرزق، والسيطرة على المشكلات، والاستقلالية، والتفاني. وأضاف الطيب (١٩٨٨) إلى هذه السمات القدرة على تكوين ترابطات، واكتشاف علاقات جديدة. لذلك فإن وجود بيئة تنظيمية مناسبة للإبداع مبرهن بالإصلاحات الإدارية، وشواطر الإمكانيات والقدرات. ومن ثم الوقت.

وقد أورد كل من الحقياني (١٩٩٧) وسلامة (١٩٩١) وإبراهيم (١٩٧٨) أهم العوامل المساعدة على القدرة الإبداعية وهي: الطلاقة: أي القدرة على تقديم أكبر قدر ممكن من الأفكار الخلاقة، والمرونة: وتشير إلى تمديد الحالة الذهنية حسبما يتطلبه الموقف، والحياسية للمشكلات، ويرتبط ذلك برويتها في موقف معين. والأسالة في التفكير وخروجها عن المألوف. ورأى إبراهيم (١٩٧٨) أن الإبداع يظهر بدرجات مختلفة عند الأفراد. لذلك تدعو الحاجة إلى الأخذ في الاعتبار الفروق الفردية بين الأشخاص. وذكر أيضاً أن الفواضع اقرا في العملية الإبداعية: فمنها ما يكون متأثراً بعوامل خارجية كالحواجز والمكافآت المادية، وإن كان للعامل الذاتي أثر ثانوي لدى بعضهم فإنه يساعد، على الأقل، في تأمين احتياجات العمل ومتطلباته: ومنها ما هو شخصي يسهم في استمرار الشخص في البحث والتجريب بغية الوصول إلى تفسير منطقي للظواهر التي تتطلب تفسيراً منطقياً. ويرفض المبدعون واقعهم،



## الإبداع الإداري مع طه البيرقراطية

والسلطة الاستبدادية أو «السلطوية» التي يُحكمون بها. وتتولد لديهم حاجات لاكتساب المعارف والخبرات. وتحقيق التوازن بين التوتر وضيق الذات. إن سبب نجاح المبدعين في عملهم هو تحقيق التوازن بين مخالفة الأنظمة والقوانين التي يفرضها عليهم المجتمع، وبين مجاراة الواقع والالتصياح له.

ومن الملاحظ أن الإبداع نعمة مكتسبة وليست مورثة من الآباء. تؤثر فيها التربية المنزلية، والمتابعة، والتجارب، والاستقرار، والرغبة في التغيير، والعمل على التخلص من قيود الزمان والمكان (عيسوي).

ورأي رويترز (١٩٩٨) أن لدى معظم الأفراد قدرات إبداعية كاملة يمكن استغلالها عند مواجهة أزمة ما، ولكن عليهم أولاً التخلص من العقد النفسية، والروايات الذي أحاطوا أنفسهم به، ثم إن عليهم أن يتعلموا كيفية التفكير في المشكلة، وحلها بطرق مختلفة. وقد أشار الباحثة إلى دراسة خلصت إلى القول إن أقل من (٢١٪) من بين (١٦١) رجلاً وسيدة لديهم قدرات إبداعية غير عادية، وأن (٢١٠٪) كانوا مرتفعين في الإبداع، و (٢١٠٪) كانوا نوعاً ما مبدعين.

## تعريف الإبداع

يشير الإبداع الإداري أو الإبداع التنظيمي «إلى قدرة عقلية تظهر على مستوى الفرد، أو الجماعة، أو المؤسسة، وهو عبارة عن عملية ذات مراحل متعددة ينتج عنها فكرة أو عمل يتميز بقدر كبير من

<http://Archivebeta.Sakhrk.com>

الطلاقة، والروية، والأصالة، والحساسية للمشكلات. ويمكن تطوير هذه القدرة الإبداعية وتعليمها حسب خبرات الأفراد، والجماعات، والمنظمات، وإمكاناتهم» (الهيجان، ١٩٩٩: ٤). ومن المفارقة أن نتائج دراسة الذهاب وآخرون (١٩٩٥) أشارت إلى أن ارتفاع درجة الرسمية، والبيروقراطية، والمركزية، تؤدي إلى ارتفاع مستوى الإبداع.

وإن ما يشجع على الإبداع هو وجود بيئة اجتماعية مناسبة تسهل تعاون الأفراد، وتتميز من الناحية البنائية، وينبغي أن يتوافق كل ذلك مع وجود نظام فعال للمحاضرات والتكافآت. وإن العلاقة بين العامل والمُشرف في المنظمة تؤثر في درجة إنتاجية الأول وإبداعه، ولا بد من أن يكون المناخ التنظيمي مناسباً ليمسح بوجود «خطأ التزييه» من دون أن يرافقه نقد أو تأنيب. وقد يساعد الجو الديمقراطي، والابتعاد عن الاتصال الرسمي القيد بين المستويات الإدارية المختلفة، على الإبداع والابتكار (سلامة، ١٩٨١، وإبراهيم، ١٩٧٨). إن تشجيع المنظمة لمعاملها على الإبداع يكون بطرح أسئلة جديدة، وتفسير قنوات الاتصال بين المستويات الإدارية، ومشاركة الأفراد كافة في تحديد المشكلات، واتخاذ الحلول المناسبة. والبحث عن المخاطر، وتقديم القادة الدعم الكافي لمؤيديهم، (كلين Klein، ١٩٩٠).

وإن تقديم القادة الدعم الكافي لموظفي منظمة ما ليقدموا أفكارهم الجديدة، لا يتم إلا عبر وجود إجراءات، وممارسات، وقيم تتناسب مع التغييرات الحاصلة في البيئة الخارجية والداخلية. فالإبداع يتطلب التعلم، والتعلم يعني الإبداع (كار Cam, 1996). وينبغي على القائد أن يتحمل مسؤولية إبداع مرؤوسيه وتعليمهم، ولا يمكن له أن يوكل هذه المسؤولية لآخرين. إن الإبداع مطلب ضروري كي تحافظ المنظمة على مزاياها التنافسية، وهذا يحتم عليها التغيير. وإن الشركات التي تشجع عاملها على المشاركة في العملية الإبداعية سواء في تطوير المنتج أو في تقديم أفكار تسويقية، أو في وضع إجراءات وقواعد تسهل تدفق العمل، أو في تطوير أساليب جديدة لتقديم أداء العاملين، أو في وضع حلول تناسب المشاكل القائمة، إذا تواهر كل ذلك، فإنه يمكن للمنظمة المنافسة بفعالية وكفاءة أكبر.

ويمكن للعلاقات الإنسانية التي تربط بين الأفراد أن تعزز من الإبداع طالما أنها مشاركة للظواهر والعلاقات بين الناس؛ فقد يروج أحدهم لشخص آخر بفكرة ما تتطور لتصبح شيئاً قريباً؛ كما أن للاتصال دوراً أساسياً في العملية الإبداعية بما في ذلك الاستماع الفعال، وتقديم التقنية القادرة باستمرار (رسل - Russell، وإيفانز - Evans، 1999).



## موقف الإبداع

ينبغي علينا العربي منذ القرن العشرين أن نحري جهودنا في التفكير تعود لسياسة إلى المراكز العسكرية والاستعمارية، وأدى ذلك إلى الاستسلام للمعتقدات والأفكار المثقولة البالية، وأعطتها طابع القداسة (صالح، 1999).

وقد قام الهييجان (1999) بدراسة أجراها على (٦٨) منظمة حكومية سعودية وجد من خلالها أن الإبداع الإداري لا يمكن أن يأخذ مجراه ما لم يكن هناك بيئة تنظيمية تساعد في ذلك.

وقال إن من أحد معوقات التي تواجهها المنظمات هي البيروقراطية بألياتها وأشكالها المختلفة وما يرافقها من جمود، وتعقيدات، والبياع مرهقي للوائح والقوانين، أضف إلى ذلك عدم وضوح الأهداف، إن كل هذا يقف عائقاً في وجه الإبداع والابتكار. ومن خلال استعراض البحوث لدراسات والبحوث سابقة على مستوى بعض الدول العربية كمصر، والأردن، والسعودية والعراق، تبين أن أهم معوقات الإبداع في عالمنا العربي هي: الخوف من الفشل، وتجنب المخاطر، والاعتماد على الأمور، وعدم توافر الحرية، ومقاومة التغيير، وجمود القوانين، وانخفاض الدعم الجماعي، وفقدان التحفيز، والتوبيخ العلني، والعقاب في حال الفشل. كما أن للإبداع قيمة ضئيلة من وجهة نظر البيروقراطيين، وقد ورد أيضاً في دراسة سلامة (1986) أن من أهم معوقات الإبداع الخوف من الفشل، والالتزام المطلق بتنفيذ القوانين، وشكائهم.

## الإبداع الإداري ودوره في التطوير

وقد أشار عيسى (١٩٧٩ : ٣٠٥) في حديثه عن العلاقة بين الانتماء أو المماراة، والقدرة على الإبداع إلى أن «الانتماء سمة تُكتسب من خلال التفاعل الاجتماعي الذي يمر به الفرد ابتداء من عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة ويستمر معه بعد ذلك طوال حياته في المجتمع الذي يعيش فيه، والمجتمع يقوم بعملية ضبط مستمرة على أفراد لكي ينصاعوا لقيمه ومعاييره وأساليبه في التفكير والسلوك، حتى يكون هناك درجة من التجانس بين أفراد المجتمع الواحد، وهو أمر لازم لعملية التواصل الاجتماعي، ولكن هذه العملية المهمة التي يقوم بها المجتمع تعمل في عكس الاتجاه المرغوب فيه، والمفهد لتنمية التفكير الإبداعي».

إن قد يضمر المجتمع، والمنظمة باعتبارها جزءا من المجتمع، بالتفكير الإبداعي لدى الأفراد العاملين، وذلك بالزامهم بالقوانين واللوائح الجامدة. تاهيك عن أن الفرد المبدع قد يضطر، في كثير من الأوقات، إلى التخلي عن أفكاره لينصاع للأوامر الصادرة إليه، مما يخلق لديه نوعا من التوتر والقلق، الذي قد يكون بدوره مفهدا وضروريا في المراحل الأولى من الإبداع على أن يصاحبه وجود بيئة تساعد على الإبداع.

تحدث الطبيب (١٩٨٨) عن دور السلطة الإدارية في إعاقة الإبداع لدى الأفراد، خصوصا عندما يستبعدون عن المشاركة في إيجاد الحلول، واتخاذ القرار، عندها لا يكون أمامهم إلا أحد حلين، إما أن ينحسروا إلى أشخاص لا مبالين، وإما أن يدخلوا في صراع مع الإدارة العليا، وإن ثقافة الإدارة بأهمية إشراكهم فهذا ذكر ضمن التغير الإيجابية، والانتفاء، والإبداع. وإن من عوائق الإبداع ما سجد إبراهيم (١٩٨٨) أنه «المنظمة التسلسلية، هي تعطيل القدرات الإبداعية لدى الأفراد، كذلك أثر التنظيمات الهرمية التسلسلية، التي تقيد الأفراد، وتشعرهم بضعفهم، وسلبيةهم، وتُمنّي لديهم الشعور بالمسؤولية، وهذا ما أكدته الحقباني (١٩٩٧) عندما قال إن مجموعة العمل، والانتفاءات، ونمط القيادة، والتدريب، والحوافز، والأنظمة والإجراءات، والاتصالات، والمعلومات أثرا كبيرا في العملية الإبداعية.

## أعاليب التفكير الإبداعي الجماعي

إن هناك عددا من أساليب الإبداع التي يمكن للمنظمات اختيار أحدها بما يتلاءم مع طبيعتها للمشكلة المراد حلها. ابتكر الأسلوب الأول أوسبورن Osborn ويسمى بالعصف الذهني Brainstorming عند إبراهيم (١٩٨٨).

إن الشروط الأساسية للزام توافرها لنجاح هذا الأسلوب هي: تجنب نقد أي فكرة، وتشجيع استعراض أكبر قدر من الأفكار، والعمل على تجميعها، لأن كل فكرة تولد فكرة أخرى، ويتطلب هذا الأسلوب أن تجتمع مجموعة ما من الأفراد، ويطلب رئيس الجلسة تقديم أكبر عدد ممكن من الأفكار الغريبة واللاواقعية مع تجنب النقد، ومن ثم تكون الأفكار فكرة فكرة ليختار الأنسب منها.

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب المجموعات الشكلية أو الصورية Nominal Groups الذي أوجده ديليبك Delbecq و فان دو فان Van de Van (هيجنز Higgins, 1999). يعتمد هذا الأسلوب على تناول العلاقات بين أفراد المجموعة، وإن الهدف الأساسي منه هو التخفيف من حدة سيطرة أفكار أحد أفراد المجموعة على أفكار الآخرين، وأهم الخطوات المتبعة: (١) أن يسجل كل فرد على حدة أفكاره على قصاصة من الورق حول المشكلة التراد مصالحتها، (٢) ثم يعرض أفكاره التي يدونها رئيس الجلسة، ولا تناقش الأفكار حتى ينتهي أفراد المجموعة كافة من سرد أفكارهم، (٣) ثم ينتج النقاش ويمنع النقد، (٤) بعدها يقوم كل فرد سراً بتقييم الأفكار المقروضة، ومن ثم يستعرض رئيس الجلسة الأفكار التي استحوذت على الاهتمام الأكبر ليعاد التصويت مرة ثانية للوصول إلى قرار نهائي (النجار، 1998).

أما أسلوب دلفي Delphi الذي أوجده دالكي Dalkey (هيجنز، 1991) فلا يتطلب أن يكون الأعضاء في مكان واحد وهو عبارة عن سلسلة من الأسئلة تُرسل إلى عدد من الخبراء لينبؤوا بأهم هي مشكلة ما، كل على حدة، ثم تعاد الإجابات لتصنف، وترتب حسب توافق الآراء والأفكار، وتعاد مرة أخرى إلى المشاركين، وتكرر الخطوات السابقة حتى يتفق الجميع على الحلول المقترحة.

وهناك أساليب أخرى تشجع على الإبداع والتفكير الجماعي منها: حلقات الجودة Quality Circles، وإدارة الجودة الكلية Total Quality Management، تقوم الأولى على اجتماع مجموعة من العمال المتطوعين لمعالجة مشكلة ما، ويوسوا باتخاذ الإجراءات المناسبة لحلها، أما الثانية فهي عبارة عن فلسفة إدارية تهتم بتحسين المنتج باستمرار من خلال فحص الإجراءات التنظيمية لتكون الهدف الأساسي إرضاء المستهلك، ويصبح جميع الأفراد العاملين في المنظمة الواحد مسؤولين عن تحقيقه (روبنز 1998).

### العلاقة بين البيروقراطية والإبداع الإداري

تحدث النقيب (1976) عن العلاقة بين الإبداع والمبادرة والبيروقراطية في لبنان، فربى أنه من الضروري الاعتماد على التجربة في محاولة إيجاد بدائل وحلول، وأن قلة الإبداع سيمرر من

الجمود والبيروقراطية وعدم القدرة على مواجهة التحديات، وأورد محمد (1983، ٧٠) أن فيبر جاء على ذكر «الصراع بين الإلهام، الذي يشير إلى ابتكار أو تجديد نهضة قوى ثقافية تظهر في المجتمع، وتتحكم في مساره، وبين الروتين أو النظام الدقيق القائم على أسس معروفة، وخطة محددة من قبل»، وأكد فيبر أهمية دور القادة في العمل على التغيير، والشخص من الجمود، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن يتفوق الابتكار أو التجديد على

«التخطيط العقلي» - خصوصاً عندما يرحل القائد فيعمل خلفاً له على تطبيق النظام والقواعد التي فرضها، وهنا تتعمق جذور البيروقراطية التي هي أحد مظاهر النزعة العقلية. إن الإبداع يتطلب غياب الرقابة، والقدرة على الشيء، وركوب المخاطر، بينما تسعى المنظمات البيروقراطية إلى ضبط الأنشطة، وتعريف الأدوار والإجراءات، وتجنب الأخطاء بغية الوصول إلى النتائج المرجوة. وإن مما يؤسف له أن الإبداع يعاقب في بعض الأحيان، ويكافأ الابتعاد عنه (كلين، 1٩٩٠). وعندما تصبح الإجراءات البيروقراطية المطبقة في إنتاج منتج هي الغاية النهائية التي يلتزم بها الأفراد، فإن هذا يشكل حيزاً عثرة في وجه الإبداع، وعندما يقاس نجاح العاملين بقدرتهم على إكمال المهمة المعبود بها إليهم، فإن ذلك يشكل عائقاً طرأ للإبداع، وعندما تصدر من الرئيس إشارات معيقة تدل على أنه دائماً على صواب، وأن طريقته هي المثلى، حينئذ سيتوقف أكثر الناس إبداعاً عن تقديم الأفكار الجديدة حتى لا يخسروا وظائفهم.

تعمل البيروقراطية على تشجيع اتباع طرق مختلفة في التفكير انطلاقاً من مقولة إن «كثرة العقول، تعطي نتائج أفضل» (كلين ١٩٩٠). وإتاه لمن المعروف أن البيروقراطية تتسبب في تكوين صفوف عريضة من القوي العاملة، والجموعات، والمستويات الإدارية التي تعمل على تقييم أعمال المستويات الأدنى منها وأفكارها، لذلك من المتوقع أن تكون النتائج أكثر عقلانية. مع العلم بأن الفكر الناقب، حسب وجهة نظر البيروقراطية، لا يعمل وحده، ولا يمكن أن يكتب له النجاح مهما كان مبدعاً. لذلك يسعى البيروقراطيون في شتى جهات تحقيق ما يريهم الخاصة، إلى إيجاد وظائف، أو أساليب، أو مهام جديدة يتمكنون من خلالها من تحقيق مصالحهم الذاتية فيلجأون إلى الإبداع والابتكار (النهدي، ١٩٩٤).

إن الإبداع ليس بالشئ، العسير، وهو لا يعرف الحدود، بل يخترق القوانين والقواعد، ويهدد نفوذ البيروقراطيين الذين يضمون حدوداً لقبول الإبداع من خلال فرض سيطرتهم على المنظمة وحضارتها. إن الإبداع والخضوع مصطلحان متضادان، فلا يمكن تقبيل الإبداع أو تنظيمه. وإن البيروقراطيين ينادون مبدئياً بأهمية الإبداع، وبضرورة، ولكنهم في الواقع أشد الناس رفضاً لأي فكرة جديدة، أو تغيير مرافق، وإن الشغف البدع سيواجه الكثير من العوائق، وعدم الموافقة إذا لم تكن البيئة مناسبة (ستراوس Strauss، ١٩٨٨).

يبدأ الإبداع من قسم الإنتاج في رأي بيل Bell وبرنهام Burnham (١٩٨٩)، لأن تقديم منتج جديد يتطلب هيكلًا تنظيميًا جديدًا لا يمت بأي صلة إلى التنظيم الهرمي التقليدي الذي فرضته البيروقراطية، ويتطلب هذا بالطبع مشاركة كافة العاملين من مستويات مختلفة في الإبداع، مما يقتضي تغييراً عاماً، وشاملاً، ومقبولاً من الجميع. ويلغي أيضاً أن تكون هناك ممارسات معينة لاستقطاب العاملين، ومكافأتهم بما يناسب إبداعاتهم وابتكاراتهم، ولا يخفى على أحد أهمية التزام الإدارة العليا بكل ذلك، وضرورة إعداد جميع الأفراد للتغيرات

الجديدة والتحديات، ولا يكون ذلك ممكناً إلا بإشراكهم في العمل وهي التخلّي للقرار؛ علماً بأن التغيير يتطلب التدريب والتعليم، ويتطلب الإبداع والتغيير، على صعيد المنظمة، القليل من التنظيم الراسي، والقليل جداً من ممارسة السلطة والقوة، والابتعاد عن التخصص، وتعددية المواهب، والكفاءات، مع الاعتماد على الجدارة والمعرفة التقنية، ومرونة الأنظمة والخطط. وما ينبغي أن يبقى ثابتاً هو الثقة بين الإدارة والعمال، والتركيز على ضرورة التغيير المرافق للإبداع وأهميته.

### الإبداع في فلسفة البيروقراطية - دعوة مستفاد من التجربة اليابانية

إن إنشاء نظرة على تجربة الصناعات اليابانية للمشروعات تساعدنا في فهم آلية إدخال الإبداع والتغيير إلى المنظمات البيروقراطية، فلكي تستطيع تلك المنظمات إدخال الإبداع في ظل

البيروقراطية المتأصلة في المجتمع، وبين صفوف الإداريين والعمال، أوجدت إدارتها العليا في المقام الأول موقفاً داعماً عاماً وشاملاً للتغيير، ودعم الإبداع والابتكار على مستوى إنشاء ككل، وقامت في الوقت نفسه بتقديم منتجات (مشروعات) جديدة للمستهلكين. ما كان لكل ذلك أن يتم عن طريق تصميم أنظمة أفضل أو إعادة تشكيل الهياكل التنظيمية، ولكنه ترافق مع إعدادات ومراسم تصويبية مسبقة، فليس من أي منظمة تحتاج إلى الموارد، كالعلوم، والأفكار، والمواد الأولية، والثالية، والبشرية المشتركة بين الهيئات الإدارية كافة. وقد كان من الضروري في المرحلة الثانية تغيير مواقف العاملين في المنظمات لجعلها أكثر إيجابية، وخصوصاً مواقف متعدي القرار تجاه الأفكار الجديدة ومبدأ التغيير؛ وكان هدف كل ذلك تقديم دعم للمنتجات الجديدة. وعمدت تلك الشركات إلى تشجيع التعاون بين مختلف الأجزاء والصروح في المنظمة الواحدة ليشمل العاملين في إدارة الإنتاج، والتوزيع، والتسويق، وهلم جرا... إن مثل هذا الدعم الواسع واجه صعوبات عدة، خصوصاً أن الحضارة التنظيمية - المكونة من المعتقدات والقيم والأعراف - ذات الجذور العميقة عززت وجود الحواجز والصعوبات في مواجهة مثل هذا التغيير؛ فلم يكن تغيير المواقف، متصاحباً بمشاركة في الموارد، وتعاون بين الأقسام والصروح فحسب، وإنما ترافق أيضاً مع وجود نظرة إيجابية نحو التغيير ومخاطرها؛ علماً فقط يمكن تقديم أفكار ومنتجات جديدة، (كريبج Craig، 1996).

أما العبرة الأخرى التي يمكن الاستفادة منها في التجربة اليابانية، فهي تساعد في فهم آلية الإبداع والبيروقراطية؛ لقد وجدت هذه المؤسسات أنه ليس من الضروري أن تقف البيروقراطية حجر عثرة أمام الإبداع والتغيير، بل يمكن توظيفها بفاعلية لتعزيز عملية الإبداع، وهذا ما قامت به فعلاً، فلكثيراً ما يقال إن البيروقراطية تزيد من التكاليف،

## الديناميكية الخارجية مع دولة البيروقراطية

وهي ضمنية للوقت، ولكن تجربة الصناعات اليابانية للمعشروبات أثبتت عكس ذلك؛ فقد طوّرت البيروقراطية فأصبحت وسيلة رسمية لتنظيم العمل، ووضع الإجراءات والأنظمة بغية بلوغ الأهداف، وتحقيق الاستجابة للإبداعية والتغيير، وعمدت تلك الشركات - عندما نجحت في تقديم منتجاتها المبتكرة - إلى تحديد متطلبات المواد الأولية، (المدخلات)، وتحديد حاجات المستهلكين ورضائهم في الحصول على المعلومات حول المنتجات، بالإضافة إلى تطوير المعرفة التقنية في صفوف العاملين، وتشجيع الأفكار الخلاقة، مع إيجاد بيئة مناسبة، وأنظمة عمل تُسهّم في تعزيز الترابط بين المتغيرات السابق ذكرها. إن مثل هذا التصميم والتنفيذ لا يمكن أن يحدث فجأة، بل لابد من الترتيب والتهيئة لحدوثه؛ لذلك أوجدت المنظمات اليابانية مقاييس تأخذ في الحسبان تحقيق السيطرة البيروقراطية: أي استخدام القواعد والإجراءات من أجل توجيه الأعمال وسلوك الوحدات التنظيمية والأفراد (كريف، 1995).

إن مثل هذه الوسائل البيروقراطية، التي كانت وما زالت تستخدمها المنظمات اليابانية لمعشروبات، تعتبر مفيدة ليس في التغلب على نقاط ضعفها فحسب، وإنما في تعزيز استقرارها، وانتشار المعرفة بأجزاء المنتج المطور على نطاق المنظمة ككل. (إن يمكن التفكير في التجديد والإبداع على أنهما مفتاح لحل مشاكل كثيرة تعترض المنظمات؛ خصوصاً عندما توظف الإجراءات والقواعد، كما أنه في عملية تحويل المدخلات إلى أفكار إلى منتج.

أما دو روساريو De Rosario (1992) فأوردت تجارب عدد من الشركات اليابانية المختلفة وهي: شركة نيبون للبرق والهاتف Nippon Telegraph & Telephone، وشركة التبغ اليابانية Japan Tobacco، وشركة سكك الحديد اليابانية Japan Railways التي كانت ملكيتها مشتركة بين القطاع العام والخاص، والتي وقعت ضحية البيروقراطية؛ لأن إسهام الحكومة في رأس مال الشركات جعلها تتدخل في اتخاذ القرارات المهمة، وكانت إدارة تلك الشركات في أزمة بين الجهات الحكومية التي لا تريد التخلي عن سلطاتها وأحققتها في اتخاذ القرار، وبين مطالب المساهمين الذين أرادوا تحقيق الأرباح، ومطالبة الزبائن بتقديم خدمات أفضل. ومع تغيير فلسفة الحكومة واتجاهها نحو الخصخصة، كان المستهلكون هم المستفيد الأول من هذا التحول. خصوصاً أن الأسعار أصبحت أقل، والخدمات أفضل، والمنتجات أكثر تنوعاً، إلا أن تلك الشركات واجهت منافسة حادة بعد أن كانت تتمتع بسلطة احتكار السوق، وأصبح التغيير في الاستراتيجيات ضرورياً؛ فأغلقت وحدات أعمال غير رابحة، وبُعث عن موظفين يقدمون مبيعات ومواد أولية بسعر أقل. وقد كان ذلك مستحيلاً عندما كانت الشركات تحت سيطرة القطاع العام، وبعد أن كانت الشركات مفيدة هي شراء موادها الأولية ومعداتها من المنتج أو المورد المحلي، أصبحت تبحث عن موردين في قطاع مختلفة من العالم، وتحقق بذلك وفراً في

التكاليف، وزيادة هي الأرباح. كما غيرت تلك الشركات من إستراتيجياتها مواردها البشرية، فتخلصت من العمالة الفائضة التي تشكل غالباً مصدراً من مصادر البطالة المفقدة، وجمعت التجهيز، وحولت الفائض من العاملين إلى وظائف استحدثت لاحقاً، كل ذلك ساعد في تحسين أوضاع الشركات المالية.

## نقداً ونوصي

إنه لمن المعروف أن تطوير أي منتج يختلف من منظمة إلى أخرى، إلا أن العديد من الخطوات الشائعة هي سبيل تطوير أي منتج. كجمع المعلومات الأولية عن حاجة المستهلك، والتصميم، وتسميته، وتطوير

شكله الخارجي، وتجربته، والتخطيط للترويج، والتسويق. تكون مشتركة بين المنتجات. ويتطلب كل ذلك السرعة، والتأكد من الوقت المناسب للإطلاق. بعد مراجعة الإدارة العليا وموافقتها بالطبع. إن الإجراءات معقدة، ولكن يمكن جعلها أكثر فاعلية عن طريق التعليم، والتجربة والخطأ، واستخدام مناهج مختلفة، ليسار فيما بعد إلى تصنيفها ضمن إجراءات معيارية توجه في سبيل تطوير منتج آخر: وهذا لا يعني على الإطلاق أن الإبداع معياري. ولكن هناك بعض الأطر المعيارية يمكن للإبداع أن يأخذ مجراها وفقاً. ويكون دائماً بتقديم منتج جديد هو هدف في حد ذاته، ولا يحصل ببعض المصادفة، وإن كان للمصادفة أحياناً دور في تقديم منتج جديد. لكل ذلك ينبغي على المنظمات الاستفادة من هذه المصادفات واستغلالها أفضل استغلال.

إن الهياكل التنظيمية الرسمية، والأنشطة، والإجراءات كلها تقدم على التوافق التنظيمي العام الثابت الذي تحتاج إليه المنظمات. خصوصاً عندما تكون الجهود المبذولة في تغيير مواقف العاملين، والحضارة التنظيمية جوهرية (كريع، ١٩٩٥). ولكن التحدي الصعب بالنسبة إلى المنظمات يكمن في تشجيع الإبداع والتغيير، والحفاظ في الوقت نفسه على استقرار المنظمة، ويكون ذلك الاستقرار ضرورياً لمنع تحول التغيير إلى فوضى، لذلك ينبغي على الإدارات العليا في المنظمات أن تشجع الإبداع، والتغيير الوجهة والرقيب باتجاه معقد. وعليها أيضاً أن تحدد بدقة نوع التغيير التنظيمي الذي تحتاج إليه، ومن ثم توظيف البيروقراطية بأساليبها المختلفة لبلوغ ما تصبو إليه.

أورد العلي (١٩٩٥) عدداً من البدائل للتنظيم البيروقراطي أهمها: التنظيم المفتوح الذي يقوم على تشجيع القدرات الإبداعية والابتكارية Innovative - Creative Abilities. وعلى التكيف أو التكيف Adaptation المرتبط بالكفاءة ويعتمد هذا التنظيم الجديد من الترويض، ويهتم أكثر بتلبية مواهب العاملين وقدراتهم ليفقد العامل صاحب مهارات متعددة عوضاً عن تخصصه في مجال واحد، ويسهم في تحقيق التفاعل بين الأفراد، لتصبح العلاقات أكثر



## الإبداع الإداري مع شبكات البيروقراطية

شخصية وإنسانية من سابقاتها، ستتولد مع سرعة التغيير الحاصل الحاجة إلى كثرة هدد اللجان، والاجتماعات، التي تحتاج إلى قدر من التنسيق والتعاون بينها ... لأن تلك المجموعات تعمل على أساس متناسق الأجزاء (عضوي) Organic بدلا من العمل بصورة روتينية طالية من التفكير (آلية) Mechanical (الطبيب ١٩٩٥ : ٥٩). وأضاف الباحث نقلا عن لورنس ولورش Lawrence & Lorsch أن حاجة للمنظمات الحديثة إلى النظام المفتوح يأتي من الحاجة إلى الاستجابة للتغيرات الحاصلة في البيئة الداخلية والخارجية للمنظمة، ومن ضرورة إيجاد إستراتيجيات تستطيع أن تتوافق مع حالة عدم التأكد الحاصل في البيئة.

واقترح كاسون Cason (١٩٩٧) في السياق نفسه أسلوبا جديدا يساعد المنظمات في تحقيق أكبر قدر من المزايا التنافسية، والمحافظة في الوقت نفسه على الرونة المطلوبة تجاه التغييرات الحاصلة في السوق، ويكون ذلك من خلال تصميم هيكل تنظيمي يحتوي على العدد المناسب من المستويات الإدارية لطبيعة أعمال المنظمة، وتعرف فيه الخطوط الفاصلة للسلطة، والمسؤولية بين هذه المستويات، بما في ذلك العلاقات الرأسية والأفقية، ويوجد نظام رقابة يسهم في تطوير مهارات العاملين، ويضبط العملية الإنتاجية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إن التنسيق بين قدرات الفرد ومؤهلاته، ومطالبات العمل الخاص بكل مستوى أمر ضروري، ولا يمكن لكل ذلك أن يتحقق ما لم يتم الاستعانة بمبدأ الفرق التي تدار ذاتيا، وإعطائها الحرية في التخطيط والتفكير.

أما فيما يتعلق بالحدود التنظيمية، فيمكن أن توجد فيها مجموعة من القيم والمبادئ التي تحض على الإبداع، وعلى تحسين مستوى الأداء (الطبيب، ١٩٩٨). ونبغي أيضا تعميق آلية الإبداع باتباع منهجية تتجزأ وفقها الأنشطة الوظيفية كلها، ويتطبيق المنهج الديمقراطي اللامركزي، ولشجيع العلاقات الإنسانية، وإعطاء أولوية للبحث والتجريب، وإيجاد التكامل والتفاعل العضوي بين الأجزاء المختلفة في المنظمة، وإعطاء أهمية للقيادة في تشجيع الإبداع. وقد يتطلب هذا وجود الثقة بين الإدارات المختلفة، وتبني النظام المفتوح الذي يضمن التفاعل الإيجابي بين البيئة الداخلية والخارجية للمنظمة، ومن ثم ضرورة استعمار مراجعة الهياكل التنظيمية وتحديثها.

وهذا حل آخر يسهم في تغيير واقع المنظمات البيروقراطية؛ إنه التحول إلى شركات صفائية كما ذكر جيفرورد وإليزابيث بينشوت في حوارهما مع براون (١٩٩٦)؛ فعلى سبيل المثال يوجد في الشركات العاملة في مجال الحواسيب Computers شبكة من العمليات تشجع على الإبداع، وعلى تقديم خدمات أفضل للمستهلك؛ ويتم كل ذلك من خلال التعاون بين العاملين في جو من المنافسة الهادئة، إن وجود البيروقراطية في مثل تلك الشركات سيحضر بالعمليّة الإدارية، والانتقال السريع للمعلومات، خصوصا أن بطء العمليات الذي تتطلبه

البيروقراطية سيسمح بدخول شركات أخرى منافسة. ولكي تشجع المنظمات العقلانية، ينبغي أن يفتح عاملوها حرية اتخاذ الإجراء المناسب، وهذا يتطلب بالطبع معارف جديدة، بما في ذلك رؤية موحدة وخيارات متعددة، ودعم للمجموعات التي تدار ذاتياً، ويسمح كل هذا لأعضاء المجموعات بالتواصل مع بعضهم بحرية، ويدفعهم إلى مزيد من الإبداع والابتكار.

أما الحل الذي تقترحه مور (1988) للتعلب على بيروقراطية الأشخاص، فيكون بمشاركة البيروقراطيين في برنامج تدريبي يشرح عنه ارتفاع في مستوى التعلم من خلال التجربة. ويكون أحد أهداف البرنامج التركيز على التعاون بين المديرين والعاملين، والعمل معاً على إيجاد حل مشترك للمشكلات، وتقديم الأفكار الخلاقة التي تناقش جماعياً. وإذ إن المتوقع أن يتبنى البيروقراطيون، نتيجة ذلك التدريب، سلوكيات جديدة تسهم في تحقيق التفاعل مع الآخرين، وتشجعهم على الابتكار والإبداع. أما جولدبرج (Goldberg) (1997) فتفتقر أن المنظمات ذات النظام الثرن هي وحدها التي تحفز على الإبداع، وتشجعه، وتشجع الأفكار الجديدة بتقديم مكافآت لتعمل المخاطر.

إن تنفيذ الحلول التي سبق ذكرها يقتضي استخدام وسائل تغيير ممكنة التطبيق؛ كتخفيض عدد المستويات الإدارية، خصوصاً الإدارات الوسطى، مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانية فقدان السيطرة في بعض الأحيان، وإن تجاوز بعض الرؤساء الذين يمثلون حلقة وصل بين الإدارات العليا ومطوري المنتج، لا ينبغي أن يحل المشكلات في سطحها بطور تفهيم، وينبغي إجراء تعديلات تنظيمية، ليكون الدورين مشجعاً على التعاون الوثيق، ولكي تكافئ الأنظمة العمل المبدع. ومن الواضح أن الخطر سيزول عندما تصبح القواعد والإجراءات أكثر مرونة، مع الإبقاء على المراجعة والتغيير مستمرين؛ لذلك فإنه من المفترض أن تعدل القواعد والإجراءات وتراجع، وذلك هي الطريقة المثلى لتحفيز الأشخاص والشركات على الإبداع.

وهناك وسيلة أخرى تتم عن طريق تحويل البيروقراطية الشخصية إلى بيروقراطية ألية، يقوم بها الحاسوب، كما أشار إلى ذلك هاراري (Harari) (1996)، أي تحويل البيروقراطية إلى أنظمة معلوماتية ليحل الحاسوب محل الشخص البيروقراطي. فبإمكان الحاسوب أن يقوم بعمليات عدة من نسخ، وتطبيق، ويحدث، ومراجعة، وإخراج، وتلفيح، وتجميع، وتصنيف وإرسال... أرخص وأسرع بكثير مما يقوم به العنصر البشري؛ لذلك فإن الاعتماد على الحاسوب سيحرر العاملين من البيروقراطية التقليدية، ويفرغهم لعملية الإبداع والابتكار، وخدمة المستهلك بشكل أفضل.

إن مشاركة المستويات الدنيا في اتخاذ القرار هي أحد اتجاهات الإدارة الحديثة، لما لها من تأثير جوهري في فعالية إدارة المنشأة؛ والسبب الواضح لذلك، كما أشار هيكشر (Heckscher) (1995)، هو أن البيروقراطية وصلت إلى طريق مسدود، ولكن ينبغي الاستفادة من التجربة

الواقعية التي أثبتت أن تطبيق المشاركة لم يحقق الشيء الكثير. وهذا ما افترضه عدد من الباحثين والإداريين؛ فنادوا ما نجحت المشاركة في اختراق جدران البيروقراطية، وقد كان لتخفيض العمالة وإعادة هيكلة المنشآت آثار عكسية. إن التغييرات، من وجهة نظر مديري الإدارات الوسطى، زادت من حدة البيروقراطية، كما أن السياسات التنظيمية، على الرغم من قلة التكاليف الناجمة عن تخفيض العمالة وإعادة الهيكلة، أسهمت مؤقلاً في تحقيق التوافق والانسجام بين الإستراتيجيات والهيكل التنظيمية، فإنها لم تعزز في الوقت ذاته مرونة الأنظمة، وإن ما حصل هو العكس تماماً؛ إذ ارتفعت الحواجز بين الأفراد، لذلك اقترح هيكشر (1996) ضرورة بناء مجموعات قادرة على إدارة نفسها ذاتياً، وتشجيع التفاعل والاتصال بين الأفراد، وإعطائهم حرية التصرف؛ لذلك كان لابد من التركيز على الهدف، والتحدث بصديق وأمانة عما يحدث من أخطاء ونجاحات على صعيد الاستراتيجيات التنظيمية كلها، وإقامة علاقات جيدة مبنية على أسس وروابط مثبته بين الأفراد.

إن التغيير والإبداع لا يمكن أن يحدثا إلا إذا اقتنع متخذو القرار بأن هناك خطراً خارجياً في الأفق. وهذا يتطلب تغييراً داخلياً، خصوصاً أن شركات الغد ستتمحور حول العمليات عوضاً عن الوظائف، وكثيراً ما يكون الاعتماد على قيادة شخص واحد، وعلى رؤيته، وشجاعته ضرورياً لإحداث التغيير؛ هؤلاء القادة الكارزماتيون هم ومندوبهم الذين يستطيعون تقديم طرق وأساليب مختلفة يقتنع بها الأفراد (رودريجز Rodriguez، 1988، ستراوس، 1988).

إن يمكن للمنظمات ابتكار الممثل الواحد الأكثرية الذي ينظر، والضمآن المستقل، لا بد من ضبط الحاضر، والاستفادة من مغيراته الجارية، ولا يمكن تحقيق الإبداع إلا من خلال تأمين بيئة مناسبة تسهم في التغيير من الذات بغيره؛ وأنهم هو لتشجيع الأفراد على تقديم أفكار جديدة، ووضع ضمانات لإجراء التغيير من دون إلحاق أي أذى، وبث جو من الطمأنينة للقد البناء، والنحس على التعاون، وتقدير الحقيقة والمعرفة، في ظل أنظمة وإجراءات مرنة.

### هذبة البيروقراطية في المنظمات العربية:

إن، ما التحل المقترح الذي يتناسب بيئة المنظمات العربية في ظل التغييرات العالمية الخارجية والداخلية؟ بعد التعرف على سبلات البيروقراطية التقليدية، نجد أن العديد من المنظمات في

ظل ظروف، وتعديات خارجية عديدة، مستضطر إلى إعادة هندسة نفسها من دون التحلي كلياً عن إطار البيروقراطية هي الوقت القريب أي أنها مستعدت لتغييرات جذرية هي أدائها التنظيمي، وهي عملياتها الإدارية، و... تستخدم وسائل تقنية جديدة، وتستغير منهجها الإداري، وإستراتيجياتها، وسياساتها بما يحقق تخفيض التكلفة، وتحسين الأداء، وتقديم منتج أو خدمة أفضل للمستهلكين. وهناك وسائل عديدة يمكن استغلالها في إعادة البناء

مثل تغيير الخريطة التنظيمية عن طريق إعادة هيكلة الاتصال بين الخطوط والمستويات الإدارية لجعلها أكثر سهولة، كما يمكنها الاستعانة بمبدأ المجموعات ذات الإدارة الذاتية التي ينبغي أن يكون لها دور فعال في الهيكل التنظيمي، وخصوصاً عندما تصمم المجموعات جيداً، فإنه من المتوقع أن تتفوق في أعمالها، ولابد من أن تزود بقدرة على إشراك الأقسام الأخرى، والعمل على تشجيع الأفكار والخطط لدى الأفراد العاملين في فروع وإدارات متنوعة، وذلك باستخدام الأساليب الإبداعية المناسبة لتكرارها، إن مشاركة البيروقراطيين في المجموعات سيساعد على توسيع أفقهم، ومداركهم، ويجعلهم أكثر ولاءاً للمنظمة، وليس لمجموعة عملهم فقط، وإن تطبيق القرارات اللامركزية، وتوضيح السلطات والمسؤوليات للمستويات الأدنى، واستبدال المركزية الإلكترونية بالمركزية الشخصية عن طريق استخدام الحاسوب، وذلك لمراقبة الأداء الذي كان يقوم به البيروقراطي، كل ذلك من وسائل إعادة هيكلة بيروقراطية منظمات الأعمال.

وينبغي أيضاً أن تعمل شبكة المعلومات التي تربط بين كافة الإدارات والأقسام والفروع على تسهيل تفاعل الأشخاص، والعمل على رفع مستوى أدائهم بفاعلية وكفاءة أكبر، ولتجانب كل ذلك لابد له من أن يترافق مع إعادة تقييم الشواهد والقوانين ومراجعتها باستمرار، إن كل هذا لا يتحقق ما لم تدعمه الإدارة العليا وتلتزم به، وما لم يرافقه وجود حضارة تنظيمية تساعد على التغيير والإبداع، إن مجتمعنا العربي لا يقبل التغيير التلقائية، بل هو في حاجة إلى تدرج في التغيير، لذلك كان التخطيط من البيروقراطية نهجاً في مراحل الأولى من التغيير أمراً يكاد يكون مستحيلًا، لهذا ينبغي أن نسلم بوجود عقبات كثيرة تواجه المديرين والقادة، ويبقى هناك سؤالان أساسيان يحتاجان إلى إجابة وهما: هل يمكن للمنظمات أن تعيش بعد عملية الإصلاح؟ وهل ستغير الهندرة من حياة المنظمة الاعتيادية؟

والعمل مما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن عدداً لا بأس به من الأقطار العربية بدأ يستمد فعلياً لمواجهة المنافسة العالمية، فقد صدر، على سبيل المثال، من رئيس مجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية قرار بتشكيل لجنة تضم عدداً من الأعضاء للدراسة واقع الاستثمار، وهناك لجنة وزارية تعمل على تعديل القانون (قانون الاستثمار رقم ١٠ لعام ١٩٩١) لتراعي كل المتغيرات التي تحدث من التوقعات الخارجية سواء كانت بيروقراطية أو مالية أو قانونية، (أزمثلي، ١٩٩٩). وقد أشارت صحيفة الحياة في عددها رقم ١٢٢١٦ بتاريخ ١٨/٨/١٩٩٩ إلى حصول إحدى شركات القطاع العام في سورية على شهادة «أيزو» للجودة، وهي شركة «سبروتكس» لجمع أجهزة الرائي بعدما التزمت بمعايير الجودة العالمية، وأضافت أن هناك ما يعادل ٥٤ شركة حصلت مسبقاً على شهادة «أيزو». وقالت إن حدة المنافسة التي ستواجهها شركات القطاع العام والخاص السورية ستزاد

## الإصلاح الإداري في الجمهورية العربية السورية

خصوصاً بعد الاتفاق الذي تم مع لبنان على إزالة الرسوم الجمركية بالتدريج، والبدء بتطبيق منطقة التجارة الحرة العربية، ويعد أن يُوَفَّق الاتفاق مع الاتحاد الأوروبي على خفض الرسوم الجمركية.

ونختتم بالقول إن الشركات العربية ستضطر إلى تقديم بعض التسهيلات والتنازلات لكي تبقى في السوق، فالمنتجات الأجنبية ستفرض أسواقها العربية قريباً، إذا لم تسع مؤسساتنا منذ الآن إلى تحسين جودة المنتجات والخدمات، وتنويعها، وتخفيض الأسعار، فلن يمكنها الصمود في وجه المنافسين الأقوياء. إن التحديات التي تواجهها مضاعفة أهميتها، تحديات داخلية؛ وتتطور في لبس الجوانب السلبية من البيروقراطية، وتحديات خارجية مفروضة على واقعنا. ولكن الحل الأمثل في هذه المواجهة يكمن في دعم الشركات للإبداع، وتحفيز العاملين، وتوجيههم بهذا الاتجاه، ولن يتم ذلك ما لم ترافقه إعادة هندسة للمنظمات لإجراءاتها، وإن كان هذا يناقض مفهوم البيروقراطية، إلا أنه على المدى القصير يمكن تعديل بعض الإجراءات، والمواضع، والأنظمة، والهياكل التنظيمية، والاتصالات لجعلها أكثر مرونة، ومن ثم لتعاد هندستها عندما يتفق الجميع على أهمية ذلك.



## أولاً : باللغة العربية

- ١- إبراهيم، عبد الستار (١٩٥٥) أفاق جديدة في دراسة الإبداع . وكالة المطبوعات - الكويت.
- ٢- أحمد، محمد فهمي، وأشد، لطفي: عبد الهادي، عبد السلام حسن (١٩٨٠) الجوانب التطبيقية للبيروقراطية في المملكة العربية السعودية، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.
- ٣- لزمخشري، سمير (١٩٩٩) سورية، لجنة بولاقية لدراس واقع الاستثمار، الجهاد، العدد ١٢٦٨٢، ٢١ يونيو، ص ١٠.
- ٤- بري، محمد بن عبد الله، لويحي، محمد بن إبراهيم (١٩٩٢) معجم المصطلحات الإدارية، مكتبة العبيكان، الرياض.
- ٥- الحقياني، تركي بن عبد الرحمن (١٩٩٢) أثر المفاهيم التنظيمية في الإبداع الإداري - رسالة ماجستير في الإدارة العامة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- ٦- مراكش، بيتر (١٩٩٨) ممارسة الإدارة، ترجمة مكتبة جرير، الرياض.
- ٧- ذياب، عثمان تايه، طحيسر، نعمة عباس، ذياب، صلاح تايه (١٩٩٩)، التوافق بين فلسفة الإدارة وكل من المكون التنظيمي والتركيب التنظيمي، والمرد في الإبداع، مجلة العربية للإدارة، العدد السابع عشر، العدد الأول، ص ٨٦ - ١١٨.
- ٨- ربيع، مصطفى (١٩٩٩) البيروقراطية... مفهومها وسبلها لها، مجلة القوم السعودية، مارس، ص ٥٠٠ - ١٠٢.
- ٩- سلامة، محمد أحمد (١٩٩٥) مشكلة هو الجوانب الإدارية في عهد الأحكام، دراسة كلية الدراسات والعلوم الاجتماعية في جامعة شرق، العدد السابع من ١٩٩٥ - ١٩٩٦.
- ١٠- السلطان، فهد بن صالح (١٩٩٠) البيروقراطية وإدارة التنمية، الناشر: المؤلف.
- ١١- السلطان، فهد بن صالح (١٩٩٥) إعادة هندسة العمليات الإدارية (الهدرة)، نقلة جوية في مفاهيم وثقافة الإدارة، الناشر: المؤلف، الرياض.
- ١٢- السلمي، علي (١٩٨٠) تطور الفكر التنظيمي - وكالة المطبوعات، الكويت، الكويت، الطبعة الثانية.
- ١٣- شامان، أمل بنت سلامة (١٩٩٨) البيروقراطية... هل هي السبيل القوي، العدد ٢٦٦، أغسطس، ص ٢١.
- ١٤- صالح، أحمد عباس (١٩٩٩) مشكلة التفكير في العالم العربي، الشرق الأوسط، عدد ٧٠٨ - ٧١٨، يونيو، ص ٩.
- ١٥- الطيبي، عبد الله بن عبد القوي (١٩٩٥) التطوير التنظيمي، دار التوافق للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى.
- ١٦- الطيبي، حسن أنيس (١٩٩٨) معجم لخصائص التجارب الإدارية في إدارات الهيئات الإصلاح والتطوير الإداري، مجلة معهد الإدارة العامة في الرياض، عدد ٥٩، السنة الثالثة والعشرون، سبتمبر ص ٧ - ٢٦.
- ١٧- طاهر، أحمد جمال (١٩٩٨) البيروقراطية في الخليج، دار السلطان، الكويت.
- ١٨- عبد الحميد، شاذكر (١٩٩٥) علم نفس الإبداع، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- ١٩- علي، علي عبد الأمير (١٩٩٢) البيروقراطية والإبداع الاجتماعي في العراق، منشورات وزارة الإعلام، العراق.
- ٢٠- نعيم، حسن أحمد (١٩٩٩) الإبداع في الفن والعلوم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم ٩١، يناير.
- ٢١- عيسى، عبد الرحمن (١٩٩٩) سيكولوجية الإبداع... دراسة في تنمية السمات الإبداعية، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٢٢- محمد، محمد علي (١٩٩٢) البيروقراطية الحديثة - دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- ٢٣- المنيف، إبراهيم عبد الله (١٩٩٥) تطور الفكر الإداري المعاصر - الناشر: المؤلف، الطبعة الثانية.
- ٢٤- مؤسس، أحمد جمال الدين (١٩٩٥) البيروقراطية... إلى أين؟ العربي الكويتية، العدد ١١١، السنة الثامنة

والثلاثون، المصطفى، ص 166 - 167.

نجار، محمد عثمان (1998) إدارة الموارد البشرية والسلوك التنظيمي، منشورات جامعة دمشق، دمشق.

الطيب، خليل (1996) البيروقراطية والقيادة، معهد الإنماء العربي، طرابلس- لبنان.

نور الله، كمال (1996) البيروقراطية والتغيير، دار خلدن للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى.

هاسر، مايكل (1999) نتائج إعادة الهندسة، الكيفية التي تظهر بها المنظمة المتمركزة حول العمليات العمل

والحيات، دار الخلق للإبداع للنشر والإعلام، سلسلة الخلق للإدارة والأعمال، الرياض.

هيبتان، عبد الرحمن بن أحمد، محمد (1999) معوقات الإبداع في المنظمات السعودية، مجلة معهد الإدارة

العامة في الرياض، العدد الأول، المجلد التاسع والثلاثون، أبريل، ص 1 - 22.



## ثانياً : باللغة الإنجليزية

- Bell, R. R.; Burnham, J. M. (1989). The paradox of manufacturing productivity and innovation. *Business Horizons*, Vol. 32, No. 3, September-October, pp. 58-64.
- Brown, T. (1994). The rise of intelligent organization. *Industry Week*, Vol. 243, No. 3, March (7), pp. 16-21.
- Can, C. (1994). Empowered organizations, empowering leaders. *Training & Development*, Vol. 48, No. 3, March, pp. 39-44.
- Casen, K. (1997). Creating the requisite organization. *CMA magazine*, Vol. 71, No. 8, October, pp. 24-26.
- Craig, T. (1995). Achieving innovation through bureaucracy: Lessons from the Japanese brewing industry. *California Management Review*, Vol. 38, No. 1, Fall, pp. 8-36.
- De Rosario, L. (1992). Private Libsons, Japan's former state officials are weighed down by bureaucratic control. *Far Eastern Economic Review*, Vol. 153, No. 30, July, pp. 50-51.
- Goldberg, B. (1997). Paths of development - Executive Excellence, vol. 14, No. 2, February, pp. 12.
- Hamel, G. (1996). Can the computers be the bureaucrats. *Management Review*, Vol. 85, No. 9, September - October, pp. 57-60.
- Hockstet, C. (1995). The failure of participatory management. *Across The Board*, Vol. 32, No. 10, November- December, pp. 16-21.
- Holgren, S. (1995). Beyond teams. *Across The Board*, Vol. 32, No. 8, September, pp. 43-48.
- Higgins, J. A. (1991). *The Management Challenge*. McMillan publishing company: New York.
- Klein, A. R. (1990). Organizational barriers to creativity... and how to knock them down. *The Journal of Services Marketing*, Vol. 4, No. 4, Fall, pp. 69-70.
- McKenna, E. Bosch, N. (1995). *The Essence of Human Resource Management*. Prentice Hall International (UK) Ltd, London.
- Moore, E. D. (1988). Internal consulting makes bureaucrats creative. *Management Review*, Vol. 77, No. 5, May, pp. 43-45.
- Robbins, S. P. (1998). *Organizational Behavior*. Prentice Hall International, Inc.: New Jersey.
- Rodrigues, C. A. (1988). Identifying the right leader for the right situation. *Personnel*, Vol. 66, No. 9, September, pp. 43-46.
- Russell, P.; Evans, R. (1989). *The Creative Manager*. Unwin Hyman, London.



- Sanders, R. L. (1997). The future of bureaucracy. *Records Management Quarterly*, Vol. 31, No. 1, January, pp. 44-52.
- Schermerhorn, J. R.; Hunt, J. G.; Osborn, R. N. (1997). *Organizational Behavior*. John Wiley & Sons, Inc.: New York.
- Simons, M. (1988). Turning conformity into creativity. *Director*, Vol. 43, No. 5, December, pp. 47.
- Zeffia, M. (1997). Coping with red tape lovers. *Getting Results... For the hands-on Managers (SRPM)*, Vol. 42, No. 2, February, pp. 6-7.



## قوة العلم العربي : بعد الوبود العربي الفانم

د. عبدلأن مصطفى

قال الله عز وجل:

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَغْلَبَكُمْ فَكَفِّرُوا  
مِنْ أَغْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْكَرُوا لَا تَتَّبِعُوا  
إِلَّا مِثْقَلَةَ ذَرَّةٍ فَنِيَالُهَا ۚ إِنَّكُمْ بِعَاقِبَتِكُمْ لَدُونَ  
(الفرقان: ٣٢-٣٤)﴾

تقديم

ظن الكثير من أعم الأرض، والستمنعة منها خاصة، أن انحصار غيوم الحرب الباردة  
المفنية (the cold war)، التي دأبت حدثها على الصاعد بين العسكريين الاشتراكي والرأسمالي  
خلال معظم عقود القرن العشرين الأخيرة، سيفتح أمامها أفق نماء وقدم جديدة. ولقد  
اتبقت هذا الظن من حقيقة أن آليات صراعات القوة بين الاتحاد السوفييتي الفارط وحلفائه  
من جهة، والولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من جهة أخرى، استمدت طاقة تحركها ليس  
من مصادر العسكريين المتصارعين فحسب، بل من مصادر بقاء ونماء البشرية جمعاء على  
كوكب الأرض. ونظرا لأن آلية التحكم في مسيرة هذا الصراع كانت بيد قوة العلم والتقنية  
المتاحة لدى المتصارعين، كما كانت الحال دوما في أمر كل الصراعات التي سجلها التاريخ  
على هذا الكوكب، منذ أن خلق الله عز وجل السماوات والأرض، فقد اتبقت الاعتقاد ألف  
الذكر من الأمل بأن الكثير من المصادر الموقوفة لتعزيز قوة البحث والتطوير العلمي في العالم  
المتقدم (عالم الشمال) سيتم ترشيده قدره ووجهة صرفة بما يقدم إنقاذ الإنسان وبيئته على  
هذا الكوكب من عواقب الحرب الباردة الفارطة، وإا أسفاه، لم تفرح أعم الجنوب كثيرا بهذا  
الحلم. فلتند :

(ط) استاذ في الفيزياء، وزير النفط والثروة المعدنية الأسبق (سورية) دمشق - ١٩٩٩.

(أ) فاجأها غضب شيخ النظام العالمي الجديد، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وهي مؤتمر قمة الأرض الثانية (ريوني جنانيرو، ١٩٩٢) خاصة، وفيما هو يفتح نار ممت جديدة عليها، باتت اليوم تعرف بالحرب العالمية الدافئة (the warm war) (مصطفى، ١٩٩٢ و ١٩٩٢ - أ).

(ب) أميها هتج مخازن السلاح المكس لدى مواقع المتصارعين في الحرب الباردة، ويبيع محتوياتها بشكل مكشوف للمتصارعين الجدد في الحروب الإقليمية الدائرة اليوم في إطار الحرب الدافئة (حروب البلقان العربية، حروب أمريكا اللاتينية، حروب أفغانستان، الحروب الأفريقية، وحروب البلقان).

(ج) وأثقلها استمرار اسم الأرض القوية، أعضاء النظام العالمي الجديد، في البحث والتطوير بهدف ابتكار أسلحة نووية جديدة تتفق وطبيعة الحرب الدافئة، ويأتي في مقدمتها ما يمكنها مثلا من:

(١) إسباغ نفوذها على الأسواق التنموية العالمية، وإيضاحها لهذه الحقيقة: يقول تقرير نادي روما الأخير، «تواجه فكرة السيادة التي أعلنتها الحكومات كافة، كفكرة مقدسة، تحديا مهما لا يعود فقط إلى نمو التجمعات الإقليمية. والحقيقة أن كثيرا من الدول الصغرى لا تمتلك بالفعل سوى قدر ضئيل للغاية من سيطرتها على شواطئها، وذلك نتيجة قرارات يتم تخطي خارج أراضيها، مثل تحديد أسعار السلع أو أسعار الفائدة، أو نتيجة اضطرابها إلى تعديل سياساتها الاقتصادية للحصول على تمويل من جانب صندوق النقد الدولي» (نادي روما، ١٩٩٢ - أ).

(٢) تغيير البنية الدولية للعالم بما يتواءم مع هذا العالم حسب توجهات لنفوذها (POWER) السياسية والاقتصادية، وفي هذا الصدد، يقول تقرير نادي روما الأخير أيضا، «ولعله من الأهمية بمكان أن نؤكد هنا أن السلام لا يكتسب مجرد غياب الحروب، وأنه حتى من دون الحروب فإن النزاعات سوف تستمر وإن تغيرت طبيعتها. فهناك على سبيل المثال، الحروب التجارية وأنظمة الحكم الشمولية والاستعمار الاقتصادي، ومن لذلك أن عدم التكافؤ في توزيع الموارد يعد من أقوى الأسباب التي تؤدي إلى إشعال النزاعات وأكثرها خطاء» (نادي روما، ١٩٩٢ - ب).

(٣) استبدال الأصول الحضارية لأهم الأرض، وخاصة تلك العتيدة والمبصرة منها بقوتها ومصاديقها الإنسانية كالحضارة العربية - الإسلامية مثلا. ويؤكد تقرير نادي روما ذاته هذه الحقيقة بقوله: «من الواضح أن هناك غيبا دائما للقيم التي كفلت في الماضي تواجا من التماسك للمجتمع والتناسق والتسليم بين أفرادها، وقد حدث ذلك في بعض الأحيان نتيجة انعدام الثقة في النظام السياسي وهي العناصر عليه، ويبدو أن دولة الرفاهية، بالرغم مما حققته من مزايا اجتماعية وأمن اجتماعي، قد أدت إلى تنافس الشعور بالشمولية والاعتماد على الذات لدى العديد من الأفراد ...» (نادي روما، ١٩٩٢ - ج).

وفي مناخ عاصف كهذا، لا مناص لأمم الجنوب عامة والأمة العربية خاصة من المبادرة للدفاع عن وجودها، والسعي الجاد لتعزيز بقائها ولعائها بشئ الوسائل الفاعلة، التي يأتي في مقدمتها:

البحث عن أبعاد وجودها الضائعة. كلوة العلم لديها، وتلفى وعطاء التخلف عن مكونات هذه القوة وإنهاض بنائها المعرفية التحتية من التنامي والبناء (مصطفى، 1995). وعلى هذا الاعتقاد سيهتم البحث هذا بإثارة هذا الواجب من خلال أبعاد ثلاثة: (1) تقويم قوة العلم في عالم الشمال وفتح العين على سبيل تعزيز قوة العلم العربي (2) مضاهاة الجوانب الرئيسة لعقيدة البحث والتطوير لدى مدارس العلم الشمالية مع تلك التي سادت في مدرسة العلم العربية القاصرة (3) إيلاء تطبيقات عصرية حول تفعيل كليات البحث والتطوير في الوطن العربي (عالم الفكر، 1995).

## أولاً: البحث والتطوير المتقدم : ملامح مراجعة

### ١-١ : مدخل

عند قياس شدة قوة العلم لدى أمة من الأمم، لا بد من اللجوء إلى فعل هذه القوة في مسيرة الأمة الحضارية. ولا ريب في أن هذا الفعل

قابل للكشف حقا من خلال تقويم عطاء البحث والتطوير ضمن أفق التنمية الوطنية لهذه الأمة. وعملية الكشف ليست صعبة تماما، بل يمكن تحقيقها بشكل مبني من خلال التعرف على رأي الحزم الجامعي الوطني الناجي (Surviving university) في شأن إستراتيجية البحث والتطوير قابلة للتحقيق في إطار معطيات وجود المجتمع من حوله. ويمكن البدء بعملية الكشف هذه من خلال طرح تساؤلين. يقول أولهما:

- «هل بمقدور العلم والتقنية اللذان يساهمان في توفير الكفاية من الماء والغذاء والصحة والطاقة والرفاه والتعليم والمعرفة الدينية والتربية الحضارية؟» هي حين يقول ثانيهما:
- «هل البحث العلمي والتطوير التقني المستهدفا التحقيق في الإستراتيجية المنشودة قادران بينهما على التنحية المتاحة أو المنشورة حقا على لعب دورهما في مواجهة حاجات الأمة الأساسية؟».

وعلى رغم الدور المعقد الحساس للعلم والتقنية في التنمية، تشير حقائق التنمية العلمية والتقنية في العالم المتقدم (أي عالم الشمال) إلى الرد على هذين السؤالين بالإيجاب حتما. وهذا يعني حقا أن البحث والتطوير يشكلان في هذا العالم مصدرا ثرا للثروة الوطنية التي لا يملأها التنوب الذي نشهده في حال مصادر الطاقة التقليدية (كالمصادر الهيدروكربونية عموما، والبترول والغاز الطبيعي خصوصا). وإزاء هذا الإدراك، يبدو من المفيد عملية القياس المثارة آنفا التحدث من الملامح الرئيسة لموطن قوة العلم في التطبيق.

### ٢-١ : البحث والتطوير وموطن إنتاج الثروة (Source of Wealth)

عند التساؤل في القرن العاشر الميلادي عن طبيعة العلم المنشود في مدرسة العلم العربية، قال المعلم الثاني أبو النصر محمد الفارابي: «نحن بحاجة إلى علم يتعامل ضمليا مع التغيرات

الجارية في الطبيعة، علم يظهر كيف جاءت هذه التغيرات وأسبابها، مما يمكننا من استخدامه في تيسر التغيرات الضارة، وهي تحقيق رغبتنا بإحضارها: أي علم للفعل والأنفعال...» (تورنبايك، ١٩٩٠). ولا ريب في أن مقصود الفارابي من الانفعال هو الانشغال المخلص بالبحث عن الحقيقة وفق نواظم السلوك (code of conduct) للتعلم اليوم في البحث العلمي ضمن الحرم الأكاديمي الشمالي أو خارجه (مصطفى، ١٩٩٦ - أ). في حال أن المظهر العصري لمقصود العلم الثاني من الفعل هو الإفادة من البحث العلمي والتطوير التقني في توفير مصادر قوة هذا الفعل. وأذكر هنا لحظة مميزة من تاريخ حياتي، هي لحظة وداعي جدي عبد مقري لمتابعة بحثي العلمي في بريطانيا، حينما توجهت جدي إلى الله داعية وقائلة:

«استمكك ليد الله، سائلة إياه بعت قدرته، أن يلقب التراب في يدك ذهباً، فتوكل عليه، وكنت اتصال مع رفاق بعثي البريطانيين وقتئذٍ عما أهتم جدي، وهي البدوية الصوفية الصرفة، أن التراب - بل السليكون مثلاً - رقيق البدوي في الصحراء، يمكن أن يتحول بالبحث المخلص عن المعرفة إلى ذهب مالي، بل يمكن أن يتحول هذا إلى ترانزستورات وشرائح إلكترونية ودارت إلكترونية متكاملة وحواسب إلكترونية قادرة لتقوم قيمتها الذهب الصرفة وربما كان هذا الإلهام الصوفي الحق هو ملهم مجلس إدارة شركة بيل للهاتف (Bell Telephone Laboratories) في الولايات المتحدة (وهو مجلس علماء حكماء كبار) بتبني بحث جون باردن ووالتر برنتان وويليام شوكلي حول تقصي حقيقة الأثر الترانزستوري، الذي توج في عام ١٩٥٦ بمكثف ملايين هذا الأثر، ففتح باب التطور التقني المعصري على مصراعيه. وعلى هذا القاع المبدع تلياري معظم الشركات الدولية في الإنفاق على البحث والتطوير العظيم أرباحها، كما فعلت شركة بيل للهاتف الأمريكية، وبإلقاء نظرة على الجدول الأول، نتبين قدر الثروات الطائلة التي تقوم الشركات العالمية الرائدة باجتنائها اليوم عبر إنفاقها المناسب على البحث والتطوير. ويذكر أن الصناعات البترولية للبول أعضاء - منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول - O.A.P.E.C، بلغت عام ١٩٩٤ حدود (٥٢) بليون دولار أمريكي، نجد أن شركة جنرال موتورز الأمريكية قد صدرت ما قيمته (٢١، ١١٠ بليون دولار أمريكي)، ومن هذه الحقيقة، نتبين أن عوائد البترول العربية جميعها تعادل تقريباً (٦، ٢٥٩) من عوائد شركة جنرال موتورز الأمريكية، حيث تولد الموائد الأخيرة ليس من مكان طبيعي ناضبة كالالبترول والغاز الطبيعي، بل من مكان البحث والتطوير المتجددة والمتعاظمة العطاء ضمن هذه الشركة. ولو فسنا ثلثة عوائد الصناعات البترولية لدول الأوابيك مع مبيعات أدنى الشركات العالمية المنتجة للتقنية، وهي شركة فوجيسكو اليابانية مثلاً (التي بلغت العام ١٩٩٤ حدود ٢١، ٥ بليون دولار، نجد أن نسبة مبيعات فوجيسكو تعادل (٢٨) من مبيعات الدول العربية الأعضاء في أوابيك، ومع أن عائدات الأقطار العربية الأعضاء في منظمة الأوابيك تنمو مع الزمن منقزمة بذلك قدر الاحتياطي العربي البترولي المؤكد - فإن عائدات الشركات العالمية العشر الأولى مثلاً (التي بلغت

العام 1991 حدود 61.62 بليون دولار) تتنامي سريعاً، معظمها في الوقت ذاته قدر الاحتياطي التقني لدى عالم الشمال، وباعتبار أن هذا البحث قد أمد جزء منه ضمن القطر العربي السوري، نجد من المفيد مقارنة ميزانية القطر الإجمالية (بشقيها التموي والاستثماري) للعام 1992 (وهي تقريبا هي حدود 1.8 بليون دولار أمريكي) مع قدر إنفاق شركة فوجيسنتو اليابانية على البحث والتطوير (وهو 2.52 بليون دولار أمريكي)، فنجد أنه يعادل (19.72) : 1 (الأشكال 1، 2، 3)

الجدول الأول: بيان إنفاق الشركات الدولية العشر الأولى على البحث والتطوير - 1991

الشركة	الإنفاق على البحث والتطوير (بليون جنيه إسترليني)	مبيعات الشركة (بليون جنيه إسترليني)
جنرال موتورز (الولايات المتحدة الأمريكية)	1.08	43.14
دايمر - بنز (ألمانيا)	2.52	28.05
فورد موتورز (الولايات المتحدة الأمريكية)	2.29	72.31
هيتاشي (اليابان)	2.01	18.71
سيمنز (ألمانيا)	2.00	21.77
إي بي إم (الولايات المتحدة الأمريكية)	2.00	12.39
ماسوشيتا (اليابان)	2.12	12.72
فوجيسنتو (اليابان)	2.52	20.96
إي تي وبي (الولايات المتحدة الأمريكية)	2.07	10.2
كوشيبا (اليابان)	1.89	28.01

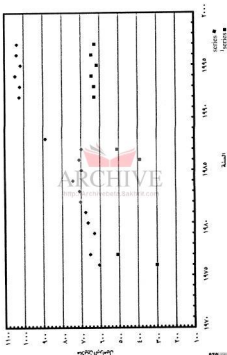
(المصدر: (Competitive Edge, London, U.K, 1994)

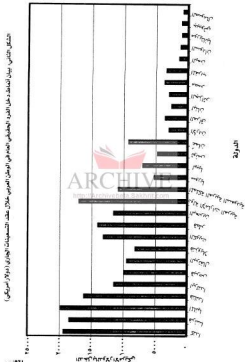
### ٣-١: البحث والتطوير مصدر للقوة (Source of Power)

إذا كان منطق القومس الذي اعتمدناه في الفقرة قد أخذ يعين الاعتبار الطبيعة الاقتصادية للبحث والتطوير، وذلك لتسهيل رؤية عطاء البحث العلمي في مسارات بقاء ونماء البلدان القوية على هذا الكوكب، فإن منطق قوة وتقود أمم الشمال ظالم أصلاً على: (أ) امتلاكها زمام مسيرة تقدم البحث والتطوير عموماً.

(ب) الحؤول دون فلاح أمم الجنوب في صنع تقدم ما ضمن بعض مسارات خاصة بها في البحث والتطوير خصوصاً، وخير مثال يمكن إيراد هنا هو أمر البحث والتطوير في مجال الطاقة النووية، بشقيها التموي (الكهرولوي) والعسكري (السلاح النووي). وفي هذا السند، لم يعد

الشكل الأول: بيان لمعدلات البطالة العربية والعالمية حتى عام 2000 (بالمليون المراهق)

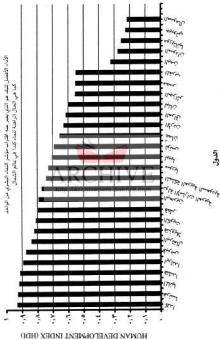






الشكل: الترتيب حسب مؤشر التنمية البشرية في الوطن العربي مع المقارنة مع دول العالم  
خلال الفصل الأخير من عقد التسعينيات الهجرية

الأردن الأعلى البند هو الذي يجر منه الطراب مؤشر البند البشري من الوارد  
كما هي الحال الرافعة البند كما في عالم الشمال



خالفها بعد، أنه منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين، شكلت الأمم المتحدة من امثلاكه كيان كامل ومقدم وأمين وسالم للصناعة الكهرونيوية، لكنها حالت بشتي التطويق من تفسير حيلاته من قبل الأمم النامية، والعربية منها بشكل خاص (مصطفى، 1998، 1) متذرة بمنطق لساقي يقول: (١) إن الأمم النامية غير قادرة على إدارة مثل هذه الصناعات، وإن تبنى لبعضها المقدرة المادية والعلمية والتقنية في هذا الشأن فهي (٢) غير قادرة على التقيد بتطوير استدامها سلميا، الأمر الذي يخالف عقيدة انتشار السلاح النووي، و(٣) إن شكلت دول محيطية لدى عالم الشمال، مثل إسرائيل، من حيازة التقنية النووية وشطبها الشريز خاصة، فهذا أمر مبرور بل ضروري للدفاع عن النفس، وليس ثمة من لم يتابع اليوم آخر مجريات إشكالية التسليح النووي في عالم الجنوب غير المحظي، وكيف تقوم الدول المصنعة بالصناعة النظام العالمي الجديد بتشغيل الأبعاد المؤثرة لهذه الإشكالية بهدف تغيير طبيعة الأشياء في بنية وجود أمم الجنوب المستضعفة (كالفند والباكستان) لتصبح طبيعة بشكل مطلق إزاء خطة التغيير الجوسياسية التي رسمها نظام الطلام هذا، وهي هذا الشأن، أمشاء لا يمكن البتة إفضال حقيقة أن النظام العالمي الجديد راضب اليوم في نشر سلاح التطرف الديني - العرقي، الذي ألق في تكوينه بهيئة دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربية المحتلة، عبر القارة الآسيوية، ولأنه بعد أن حوسست هذه القارة الشعبية - وعبر تاريخ البشرية الحديث - على دفع هذه الظاهرة الأخطار بالاشكال شجاعة شتى، وليس ثمة حاجة للتفكير كثيرا لمعرفة الغرض الكامن وراء هذا القوس، فهو يهدف إلى وضع هذه القارة على هاوية عدم استقرار سياسي متجدد، وذلك بعد أن شكلت الأمم الآسيوية من استعجاب معظم اضطرابات الضيم الاقتصادي، الذي بات يحقق بها من كل جانب نتيجة فعل الاستعمارين القديم والحديث في بناها التنموية والحضارية - وربما يعزي توجه النظام العالمي الجديد المشار لنا إلى:

- القوة الاقتصادية الكبيرة التي حققتها الصين واليابان والنمور الآسيوية.

- القوة الحضارية التي أبدتها الأمم الآسيوية أعضاء مؤتمر القمة الإسلامية الثامنة.

- الصحوة العربية الأصيلة في إطار أقطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية، بمبادرة

عربية معيزة من قبل القيادات السياسية والحضارية لأقطار هذا المجلس، على ما ينالها من عدوان ومكائد ومؤامرات (هي أعقاب عدوان نظام صدام الفاشم على الكويت) لأنها من توحيدها الحق من جهة، وإنشغالها ليتمكن العدو الصهيوني في الأراضي العربية المحتلة من الانطلاق في تنفيذ برنامج إسرائيل الكبرى من جهة أخرى.

وبمساعدة ما من قبل أجهزة النظام العالمي الجديد، تم إيصال التطرف الديني - العرقي في الهند إلى سدة الحكم ليهذا بتنفيذ التوجه المشار إليه أعلاه، وقد أراد التطرف الديني - العرقي الصهيوني قلب الطاولة في وجه الراضين بتحقيق ما يعرف اليوم بالسلام العادل والشامل (١) في منطقة الشرق العربي، وتخليصا للحكومة الإسرائيلية المتطرفة من الالتزامات الدولية ومن

قرارات الشرعية الدولية (3)، ومن أي حرج دولي في هذا السبيل، وجهت الحكومة الهندية المطرقة لتقوم أخيراً بتنفيذ التلجيرات النووية من جهة، ومن جهة أخرى أعطت إسرائيل ذريعة كي تقوم بضرب باكستان جنوباً دون رحمة، وباسترجاع الأتباء التي نضرت خلال الأيام التي تلت التفجيرات النووية الهندية. نتيجتها أن ضرب باكستان حاصل بشكل ما وذلك كما يجري الصراع في منطقة كشمير اليوم. فلقد صور إعلام النظام العالي الجديد الباكستان على أنها دولة إسلامية شريفة، تقوم بإنتاج قنبلة نووية إسلامية بدعم وتمويل من العديد من الدول الإسلامية والعربية، وبأنها في مقدمها المملكة العربية السعودية. كما يتمكّن الإعلام على تبرير محاصرة إيران وهي تسعى لاستكمال برنامجها النووي، وهو برنامج خاضع لكل القيود النظامية الدولية المفروضة اليوم على الصناعات الكهرونيوية، وخاضع لإشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية... إلخ. في حال شريك دولة النازية الجديدة (إسرائيل) تفعل ما تشاء بشأن إنتاج التناوب النووي التقليدي والكهرونيوية والصواريخ بعيدة المدى العاملة لها، والأفكار الصناعية الرشيدة لمسهرات تلك الصواريخ، وذلك بفرض إبداء القوقها الإستراتيجي التام على الوطن العربي. وليس ثمة من ينس كيث استندعت الولايات المتحدة الأمريكية نتائج البحث والتطوير التقني النووي لديها لإخضاع اليابان العام ١٩٤٥. علماً بأنه وفقاً لتقويم مركز ستوكهولم الدولي لبحوث السلام (SIPRI)، قامت صناعة السلاح النووي في عالم الشمال حتى اليوم بتطوير وإنتاج ونشر ما لا يقل عن (٢٩٧٠٥) قنبلة نووية مختلفة النوع وقوة التدمير، حيث لا تقل طاقة تدميرها عن (٥٤.٧ ميجا إلكترون فولت) والمعاد بالهـ.

#### ١-١ : البحث والتطوير في قوة نووية عظمى

انطلاقاً من بريقه بأثر قوة العلم والمعرفة في مد محور نداء الأمة في ضمير المستقبل. عمد الرئيس الأمريكي جون كينيدي في الستينيات إلى الاستعانة بصنف عالٍ من الباحثين والمطورين، يحملون بصيرة بعيدة في مختلف تشعبات فعل قوة العلم الأمريكي، وجاء في مقدم هؤلاء الدكتور جبروم وايزنر (مستشاره العلمي)، وأثناء متابعات الدكتور وايزنر الأخيرة لمسيرة البحث والتطوير داخل الصناعات الأمريكية شجّع له تعثر مسيرة البحث والتطوير داخل صناعة الحديد والصلب الأمريكية. وعندما أفصح عن هذه الحقيقة، صبّ قادة هذه الصناعة جام غضبهم على تدخل الإدارة الأمريكية في الشؤون الداخلية لصناعاتهم. عندها تصدى الرئيس كينيدي لهؤلاء، مبيّناً عدم مبادرة صناعات الحديد والصلب الأمريكية إلى تعزيز خططها البحثية وبلغ فلاحات تطوير تقنية متقدمة، أو حتى تبني التحسينات التي ابتكرها منافسهم في كل من أوروبا واليابان. ولو لم تستجب إدارات صناعة الحديد والصلب الأمريكية لتوجيه الرئيس كينيدي، فلتد، لخسرت هذه الصناعات مكانها الرئيسي في الأسواق العالمية وتعرضت لسخرية ونخب الأمة الأمريكية جميعاً. والجدير ذكره هنا، أنه لدى تقويم برامج البحث والتطوير في صناعات الحديد والصلب الأمريكية،

على ضوء مثيلاتها في أقطار العالم المتقدم، صنع الجميع في كل من الإدارة الأمريكية وإدارة صناعات الحديد والصلب الأمريكية بما يجري خارج الولايات المتحدة الأمريكية؛ فلقد تبين لهم الحقائق المرة التالية:

(١) إن جميع الشركات الأمريكية المصابة بالانحسار الاقتصادي (ECONOMIC DEPRESSION) التي تدهورت في ميدان التنافس الدولية، كانت مقصورة في إعفاء برامج البحث والتطوير لديها.

(٢) تركّز ما لا يقل عن (٢٦٠٪) من الإنفاق على البحث والتطوير على المسائل العسكرية.

(٣) انصبت بحوث الشركات الأمريكية على تحسين منتجاتها المتاحة في الأسواق، وذلك بدلا من تعزيز الجهود البحثية الرامية إلى ابتكار سلع متقدمة جديدة.

(٤) أولى الجميع اهتماما بالبحث والتطوير الهادفين إلى النجاح في ميدان الأسواق الداخلية وليس العالمية.

وبناء على هذه الحقائق، تبين للحكومة الأمريكية ضرورة القيام بالخطوات الثلاث التالية:

- (١) المبادرة إلى تثقيف الشركات بأبرز توجهات التقنية العالية.
- (٢) باعتبار أن الحكومة تلزم ببناء وصيانة البنى التحتية للبحث العلمي المتقدم، لا بد لها من أن تبادر ببناء أنفاق رياح (wind tunnels) ووسائل اختبار متقدمة لا يمكن للشركات القيام بإنشائها منفردة.
- (٣) دعم البحث والتطوير في أبرز التقنيات الناشئة للأسواق كالأتمتة والروبوتيات والمواد الصناعية الجديدة... إلخ.

ولتحقيق لهذه الضرورة، اتفقت الحكومة الأمريكية:

- (٨٠٠ مليون دولار) على تطوير الحواسيب الإلكترونية وشبكات المعلومات رفيدة الأداء.
- لتحقيق ربط الجامعات بمخابر البحث لدى الحكومة والشركات الأمريكية.
- (٢٠٠٠ ملايين دولار) على مشاريع التقنية الحيوية.
- (١٠٨٠ مليون دولار) في بحوث المواد.
- (٣٠٠ مليون دولار) على اللصنيع المتقدم.

وتقديرا لهذه الخطوة، صرح وقتئذ مدير شركة موتورولا الإلكترونية قائلا: «لقد ارتفعت الإدارة الأمريكية والكونجرس لمستوى المسؤولية الآن... ذلك لأن مثل هذا التوجه قادر مستقبلا على تجنب الأمة الأمريكية هزات الانحسار الاقتصادي التي طالت هزت بين حين وآخر وجود هذه الأمة».

وحول منظور البحث والتطوير في القرن الحادي والعشرين، وهي كتابته الشهير بعنوان «كوفته هينريشيا شميزا»، أضح الأستاذ الدكتور فيكتور وايسكوف لزميله الأستاذ الدكتور فريمان دايسون (وهما كما تعلم من عظماء مجتمع العلم العالمي الحديث) فرصة التعبير عن حقيقة أن البحث



«لوفسني في الإدراك وقال لي (أي الله عز وجل): قف، بين يدي لذي العلم، واترى طريق العلم. وقال لي: العمل طرقيات تنفذ إلى حقائق العلم، وحقائق العلم عزائمه، وعزائم العلم مبلغة، ويبلغ العلم حده، وحد العلم موقفه. وقال لي: إن تعبط بعصبة كلية من شيء، فذلك لي وإحاطتي. وقال لي: كل ما عملت بعلم أسفر لك عن صفة من صفاته... وقال لي: العلم كله طرقيات، طريق عمل ففطنة، طريق فكر، طريق تدبير، طريق تعلم، طريق تفهم، طريق إدراك، طريق تبصرة. طريقة تنفذ، طريق توقف، طريق مؤلفه وطريق مختلفة...» (النفري، ١٩٢٤).

والمالم الذي ملك هذا الإدراك قلبه بعد عقله في مدرسة العلم العربية - الإسلامية هذه أوتي الحكمة، ومن يأت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وهي مدرسة الحكمة العربية، أم الحزم الجامعي الحديث، جرى تدريباً مريدي العلم انطلاقاً من حقيقة أن الحكمة، كما يقول الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي (القرن الخامس الهجري):

«الحكمة اسم لأحكام وضع الشيء في موضعه وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تجعله وقته.

الدرجة الثانية: أن تشهد نظر الله في وعيد، وتعرف عدله في حكمه، وتلعب بره في منعه.

الدرجة الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة، وفي إشارتك الغاية

(الأنصاري الهروي، ٤٨٩ هجري).

والنزاما بمعنى فكر هذه الفكرة العامة (ethics) (ideas, customs, or practices of a people, ethos = the spirit that motivates the)، تشكل البحث العلمي العربي - الإسلامي منذ ألف ونيف خلت من الأعوام، لمعطي البشرية جمعاء أبرز وأعرق وأثمن مساهمات الحضارة والعطاء المعرفي (مصطفى، ١٩٩٦ - ب). فالبحث العلمي العربي - الإسلامي كان تعبيراً عن تجاهد الصفوة (elite's endeavour) لتبيل معرفة الحقيقة، لهذا قال الشيخ أبو بكر محمد الوراق الترمذي (القرن الثالث الهجري):

«المعرفة معرفة الأشياء بصورها وسماتها، والعلم علم الأشياء بحقائقها،

(الكلاياني، ٢٨٠ هجري)

أما نهج بلوغ المعرفة فهيناً، وفقاً لأصول هذا التجاهد، برفع الجهل عبر علم جلي، يقع بينان أو استفاضة مسجحة أو مسحة تجربة قديمة، أما معرفة الحق فلا سبيل إليها لا امتناخ الصمدية وتحقق الربوبية عن الإحاطة، فلقد قاله الله تعالى:

﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ ظَنًّا﴾ (القرآن الكريم، طه - ١١٠).

ومن جهة أخرى، ثبت العلم بالمعرفة، والعقل ثبت بالعلم، وأما المعرفة فإنها تثبت بذاتها، والجدير ذكره، أنه منذ فجر عصر التنوير في أوروبا وتشوه أول بواكير الأنماط الجامعية (مصطفى، ١٩٩٦ - ب) وحسب اليوم، لم يجر بعد رسم صورة كاملة الأوصاف لتعابير ومضامين

العلم والبحث العلمي والمعرفة، تتوق الصور شبه القدسية الألف ذكرها، ولعل طهر شاهد على حقيقة الأمر قول أحد أبرز المعاصرين، من صانعي فلسفة العلم ونظري إستراتيجيات البحث العلمي في عالم الشمال، وهو الأستاذ الدكتور جون زايغان (جميل الجمعية العلمية للكية البريطانية وأستاذ الفيزياء النظرية بجامعة برينستون البريطانية)، إذ قال في كتابه الشهير بعنوان: «قوة المعرفة، The Force of Knowledge»، ما يلي:

«بصورة عامة، اتخذ تغيير العلم الثلاثة على فن المعرفة (The Art of Knowledge) وهو مثل البحث (research)، الذي يقصد به انظار المعرفة عبر الملاحظة للنهجة (systematic observation) والتجربة المثالية، المثلية (deliberate) والتطوير المنطقي. لكن هذا النشاط متصل بشكل وثيق بالفنون العملية (practical arts) أو التقنيات (techniques) من جهة، وبالجمال الروحي أو المعتقد الديني (religion) من جهة أخرى، ولترابط هذه جميعها مع بعضها ضمن الحضارة الثانية للمجتمع (material culture) لنقوم بتوفير حاجات الإنسان للطعام والصحة والرضا النفسي، وليس ثمة حدود مميزة بين مختلف جوانب الطرف البشري، فكل نشاط يشترك ويختلط مع جواره، ولا تطفي عليهما جميعا المصعوبة العملية في رسم خط فاصل بين العلم والتقنية (Science & Technology)، حيث يعني بالأخير: فن المعرفة كيف (art of knowing how) لدى تطبيق العلم فعلا في الهندسة الميكانيكية أو في الزراعة مثلا» (زايغان، ١٩٧٦).

لذا فأي مضاعفة، مهمة فلولت جميعها، بين كلا الوجهين الحضاريين، ولأمر البحث العلمي خاصة، سيفقدنا دون تردّد إلى القول بأن الأول هو الذي تغلّب، ناهيك من وهي، على أي حال، عند متابعة تحقيق هذا البحث العلمي، سنتعامل مع أفكار مصعوبة وأمثلة تعابشنا تظنّس بأمر البحث العلمي، مستمتعين بعد الله بوعينا العربي، الإسلامي في تكوين سماته وعندها، ومبتداه، مع إبراز ظروفه وحدود صنوفه، فلعلنا من خلال ذلك نستحدث رأيا متواضعا في مسيرة الحوار الداخلي العربي الهادف إلى لقيا حلويات (resolutique) لإشكالية (probelmatique) وجود مدرسة العلم العربي المعاصرة، ومن ثم الأمل بإخراج البحث العلمي العربي من ترديه الراهن (مصطفى، ١٩٩١، ب و ١٩٩٢).

## ٢ - ٢ : البحث العلمي : هبة أم عقوبة

إن شكّل البحث العلمي هبة أم عقوبة وادي طلب شهود الحقيقة في الوجود، فإن تبين الأشياء على الظاهر علم، وتبينها على استكشاف بواطنها معرفة. وفي الحالين، لابد للباحث ذي الهمة من أن يمي واقع وادي الطلب هذا: فهو واد مليء بالتعب، يتطلب التقدم فيه تعظيرا ولا مبالاة بمخاطوف الطريق مع مراعاة صداقة لإشارات هذا الطريق، إضافة إلى التحلي بالصبر وعدم التواني لحظة من الطلب، ولا وقع الباحث في عقبة اليأس والارتداد. ووهنا تتباين سلوك الباحث وتبدل منظوره للأشياء التي يسعى إلى تبين معاليلها، إضافة إلى انفعالاته مع مؤثرات

المحيط، بخيرها وشرها، تتفاير هيئات البحث العلمي وتباين توجهاته حتى تعدد أصوله بين أعلى الخير وأدنى الشر. وتسهيلاً لإدراكه أبرز أنماط هذه الهيئات، يمكن تصور المعرفة صوماً والعلم خصوصاً على شكل دائرة تضم في محيطها التوجهات الرئيسة الخمسة التالية:

١ - ١ - ٢ : التوجه التربوي للمعرفة

### The Vocational Aspect of Knowledge Requisition:

وهو سعي لتحقيق فريضته على أيدي علماء تنجلى همهم في النزول إلى العمل والشفقة بالأمل، واستغفروا في لوائح المشاهدة واستشارة ضياء الطريق واستجماع قوى الاستقامة، في حال أن طالب العلم، أي المتدرب، كي يفيد من مدرسته يجب أن يظن صبره قيساً من نور استلاد وفيضة من آثاره، وإن يتم له هذا ما لم يكن في حضرة مدرسه كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه، فتعلمه إلى الاستماع وما يورق عن طريق الملاحظة، يمكن أن يحقق إرادته واستزادته من فضل الله. واذكر في هذا الصدد، ما حدثني به أخي في الفيزياء والإسلام، الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام (رحمة الله عليه)، عن اتباعه الآداب أنظمة الذكر في حضور استلاد الكبير الدكتور بول دبراك، وعزا نصر الله له في حياته جلتة نوبل عام ١٩٧٩ لإدراكه أسس الحفاظ في الفكر الإسلامي الجيد، وإلى اتباعه سلوك الصوفي الزيد مع شيخه، وكان هذا الشيخ بالنسبة للمريد محمد عبد السلام (صاحب النظرية الموحدة العظمى في الفيزياء) هو الأستاذ دبراك (أبو ميكائيل الكم القديم)، ومما سئل، تدبر أنه لتقويم تقدم التوجه التربوي هذا، لابد من استيعاب الفهم على واقع مسؤولية المتدرب والمتدرب على حد سواء. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور هيثم خيرودج:

«في الوقت الراهن، يمكن تبيين ثلاثة تقاليد فكرية رئيسة تتألف من خلالها مسؤوليات العلماء هي: التقليد الأول: وهو واسع الانتشار بين العلماء، على رغم أنه لم يصغ بشكل منهجي بعد، وقد تم استقاؤه من الحرص على سمو حيادية العلم. التقليد الثاني: وهو لم يصغ أيضاً بشكل منهجي، ومع ذلك، فهو قيد الاعتقاد الواسع، وهو الإدراك العلمي للبعثات المعرفة العلمية الاجتماعية أو الأخلاقية. التقليد الثالث: وهو تقليد حديث ذو تكوين معتد، أطلق عليه تسمير (وجهة النظر الحديثة، Critical - Interactive View لمسؤوليات العلماء... (خيرودج، ١٩٩١).

ووفق التقليد الأول، ساد اعتقاد يقول بأن ثمة هدفاً واحداً للمجتمع العلمي يتركز في حيازة المعرفة الخاصة، وعلى رغم أن العلم يملك قيمة ذاتية، فهو غير مطلق، ولذا عوالم أخرى من الحياة الحضارية (cultural life) ثمينة أيضاً. ونتيجة لتنهجه، يبقى العلم معادلاً بالتمدية للقيم الدينية والعائلية والسياسية والفنية. وبناء على ذلك، يصل هذا الاعتقاد الشائع إلى أن المعرفة العلمية لا تطوي على أي تعليمات أخلاقية (وتلصق بالعلم هنا، العلم وفق الفهم الغربي في حالة انتشار مفهوم جديد للعلم يشمل جميع أنواع المعرفة الإنسانية) (مصطفى، ١٩٩١ - ١) من جهة،



كما أن العالمَ (scientist) ملزم بالتقيد بمعايير العلم (scientific norms) المنهجية، وخاصية المؤسسات التي يحقق فيها بحثه العلمي. أما التزامه أمام المجتمع العلمي فيتركز في التمسك بمعايير العمل والفراسل العلمية. ولعل أفضل تعبير عن التقليد الثاني ما جاء في بيان حلقة فيينا (Vienna Circle) المسافر عام 1929 بعنوان: «Wissenschaftliche Weltauffassung» التي أكدت فيه قناعتها بوجود رابطة لا يمكن إهمالها البتة تصل بين وجهة النظر العلمية العالمية. أنفة الذكر، وتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وتوحيد البشرية وإصلاح التعليم من جهة أخرى. أما التقليد الثالث، أي التقليد الخاص بمسؤولية العلماء الاجتماعية (social responsibility) فهو يؤكد على أن للتعلق الأخلاقي يقتضي بشكل صارم أن يعكس البحث العلمي عطاءه على النظام الاجتماعي الذي يمد هذا البحث بمقومات حياته وتطوره. ووفقا للمثل الأرسططالية، التي قام عليها فكر هذا التقليد، ومن ثم عملية إصلاح الجامعات في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر، فإن ترشيد (rationality) استخدام المعرفة العلمية يقتضي المبادرة إلى إزالة معاناة الإنسان ووفقا لمثل المجتمع الديمقراطي. ولا تشكل هذه العقلانية قلب النشاط العلمي في هذا التقليد، فإنه من الضرورة بمكان تطبيق البحث العلمي وطرائقه من خلال معايير وقائية أخلاقية، على الإنسان والمجتمع والبيئة التي تحيط بهما. وبذلك يكون التناول المتجمل في:

- (١) إن المعرفة العلمية لم تعد ادخرا للعواهر الطبيعية ولا تملأت أفلاطونية مجردة فيها، لكنها تشكل نشاطا إنسانيا حرا مرابطا بمسؤولية انسانية.
- (٢) إن العالم، أي الباحث، سواء كان مسؤولا أو غير مسؤول عن نتائج علمه، ليس فقط بمعنى أنه مسؤول عن توليد حقيقة وعقلية عطاء بحثه، بل عن قيمة عطاء بحثه الاجتماعية (كانتور، ١٩٧٧)، وذلك على النحو الصافي الذي سبق أن رسمته مدرسة العلم العربية - الإسلامية قبل ألف عام، وذلك على النحو الذي هي مستهل هذا الجزء من البحث.

٢-٢-٢: التوجه الطرائقي للبحث العلمي

### The Methodological Aspect of Scientific Research

ينطلق هذا التوجه من حقيقة أن اليقين العلمي لا يمكن بلوغه إلا من خلال ارتقاع الشك، ولا تتجلى الحقيقة إلا مع إزالة الحجب عنها بالكشف التجريبي، فيما يخص حقائق الوجود الطبيعية وبالكاشفة للمعاني الغريبة. وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف بن إبراهيم المصري:

«كل ما رأته العينون نسب إلى العلم، وما علمته القلوب نسب إلى اليقين».

(الكلاياني، القرن الرابع الهجري)

فالعينون هنا التعبير عن وسائل الملاحظة الحسية سواء كانت مباشرة أو عن طريق الأجهزة التجريبية للتقدمة. ومن ثم فتلويح الكشف التجريبي، موضع العلم هنا، سبيل إلى توحيد رؤية العلم للوجود الذي يحدهونا. ومن خلال التوجه الطرائقي لمبادرة المعرفة، يملك البحث العلمي

أسلوبين: ففي الأسلوب الأول يخاطر الباحث للوصول إلى المعرفة، بينما يسعى في الأسلوب الثاني إلى حماية المعرفة بشكل مسؤول ومثالي، متمسكا بمعايير دقيقة لحماية معرفة جديدة. ولقد بات من المسلم به أن كلا الأسلوبين مفيد لاستقاء المعرفة، لذا فإن الأفكار الفاعلة الجديدة والمعايير الصارمة الناطقة للتوجه الطراقي مطلوبة حقا، ومن جهة أخرى نجد أنه في الوقت الذي يتطلب فيه الأسلوب الأول مخاطرة، ومن ثم قبول حقيقة أن الفشل سمة رئيسية من سمات البحث العلمي، يعتبر الأسلوب الثاني المخاطرة مخالفة للمسؤولية. والعالم الخاطر - الذي لا يكون عتريا بالضرورة - يسعى، على رغم التعديلات والصعاب، إلى تحقيق ابتكارات، فهو يمارس مخاطرة فكرية تبدو فيها تضميناته غير قادرة على حل المسائل التي يسعى إلى حلها، وهذا أمر قد لا يقبله المجتمع عامة، وربما يقوده هذا الأمر إلى مواقع صراع لا يحسد عليها من السلطات الإدارية العلمية أو السياسية، ويذكر سير البحث العلمي لدى جميع الأمم للتقدم حضاريا، نجد أن الأسلوب الأول كان ولم يزل (كون، 1962) يوسد سمة معظم أبطال العلم مثل جاليليو في بدء عصر النهضة، فالعلماء المخاطرون والمغامرون، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور جون ويتهيرست: «يطرق العلماء المخاطرون للمعيار السائدة ضالعا، الأمر الذي قد أسفدتا كتابا مثل الأستاذ الدكتور كون (professor Thomas Kuhn) إلى بيان أن التغييرات الثورية تكمن وراء المعايير. فهي أسلوب جديد في العلم، وفيها لهذه النظرة، فإنه نادرا ما يجري لتفسير قبول أو رفض المنظر الجديد على أساس عقلانية» (ويتهيرست، 1985).

2-2-2، تبادل المعرفة العلمية <http://Archivebeta.Sakhrif.com>

### Communication of Scientific Knowledge

ويجسد تعبيرا عن إدراك المجتمع العلمي لحقيقة كون العلم معرفة ملطمة مرساة على التوثيق، «لهذا تركز الجهد في فجر العمل العلمي العربي (مثلا) على نقل إبداع مدرسة العقل اليونانية، وبدء مسيرة الكتابة العلمية العربية وتوثيقها وتوزيعها لمصلحة البحث العلمي، عبر إنشاء المكتبات ونور الحكمة. وعلى هذا العمود قام جهد البحث العلمي والتقني حتى تحسور الانعطاف العربية» (مصطفى، 1991 - أ). وفي الزمن الراهن، أخذ هذا التواصل نهجا متقدما يمكن رؤية أبعاده في الملاحق التالية:

● أدبيات الفكر العلمي: وتتمثل تحقيقا لهذا يقول: «إن عطاء البحث العلمي والأكاديمي منه خاصة، يجب نشره ليتم تواصل جهد التفاعل المبرقي مع المجتمع العلمي، المحلي والعالمي، بشكل خاص من جهة، ولإطلاع الجمهور (public) بشكل مبسط ومعمق على جدوى ما قدمه هذا الجمهور من دعم مادي ومعنوي للباحث وبعثته، فالجمهرة وسيلة فعالة من وسائل تعزيز بقاء البحث العلمي من جهة أخرى. ولا جدال في أن ثمة من يعمل في الجانب المظلم من البحث، فلا يتوقع منهم نشر ما يتوصلون إليه، وإن تحرك ضمير البعض منهم يوما من الأيام، وسعى إلى البوح

بما توصل إليه، فإن الجهات المستفيدة من هذا الإنتاج الضخم لن تدعه يفعل ذلك بأي شكل من أشكال. وبالتالي للأمر الأخير نجد في تجربة الأستاذ الدكتور روبرت أوبنهايمر هي مقاومته متابعة الولايات المتحدة الأمريكية للفتيلة الهيدروجينية عبر عقد التخصصيات من القرن الماضي، خير مثال على ذلك. فقد اتهم أوبنهايمر - مدير مختبر لوس الألبوس أثناء إنشاء الفتيلة الذرية الأمريكية - بعدم ولائه لوطئه لموقفه المعارض لتابعة إنشاء الفتيلة الذرية. وفيما مضى وبعض زملائه العلماء بنشر رأيهم وإطلاع الناس على الشر الذي يحمله البحث الجاري لتطوير الفتيلة الذرية (ليبي، 1979). وبناء على ذلك أُلحق أوبنهايمر لمحاكمة قاسية في النصف الأول من عام 1955، لم يلق معه فيها سوى القلة من زملائه العلماء، بل شهد العديد من الناقين من فتلة زملائه ضده مؤكدين عدم ولائه أوبنهايمر لوطئه. وفي كتابها الشهير بعنوان «The Uranium People»، ذكرت الدكتورة ليونا مارشال ليبي ما يلي: «إن قراءة لشهادة دافيد جريجسز تظهر عدم تقديم أي معلومات حول إخلاص أوبنهايمر للولايات المتحدة، بل أبدى شعورا عميقا بأن استمرار مجلس أوبنهايمر (أي مجموعة العلماء المؤيدين لأوبنهايمر في توظيف مشروع لوس الألبوس الضخم) وأثره أعضائه على هوانهم سيجعل من مجلسهم هذا مصدر خطر على دفاع وأمن الولايات المتحدة الأمريكية. وغير من أن تكراره نشر نصيحة أوبنهايمر، هو ضد المصلحة العامة...» (ليبي، 1979). والجدير ذكره، أن أوبنهايمر قد أدين على رغم وضوح موقفه القائل: «إذا بنينا الفتيلة الهيدروجينية، فسيقوم الروس ببناء مثلها في حال لم نعمل على هذه الفتيلة. فإن الروس سيهدون جنوبنا...» (ليبي، 1979). وبذلك اعتبر روبرت أوبنهايمر، جاليليو جاليلي هذا العصر الذي قدم رأسه العلمي مقابل إقصائه عن حقبة الشر للمستطير الكامن في السلاح النووي. على أي حال تنظم أدبيات العلم والمعرفة عموما في إطار نظم توثيقية (archival systems) يمكن الباحث من خلالها معرفة ما تم التوصل إليه في الإدراك المعرفي. ويجري استواء أدبيات العلم الأولية (المعطيات البحثية الخام، primary literature) وتقارير بحثية (research papers) وورائق ذات أشكال تقليدية (conventional) مختلفة تعود إلى مصادر العلم الحديث منذ بدايته في القرن السابع عشر. والاتصال العلمي الأولي (primary communications) هو مساهمة أصيلة في المعرفة تحمل اسم مؤلف أو أكثر يجري نشره في صورة ورقة أو مقالة ذات طر محدودة (أي حتى 50 صفحة) في دورية (periodical) أو مجلة (journal) معنية بموضوع علمي معين. وتشكل هذه الوثائق جميعا سجلا توثيقيا (archive) يمكن من خلاله استقاء (retrieve) أنماط متقدمة من المعرفة العلمية المصنعة المختصة بأبرز مسائل وتحديات العلم. وتشكل ملأا لكل عالم يبحث عن نواحي المعرفة. وبدا من القرن التاسع عشر، جرى تنظيم هذه المعرفة المصنعة في إطار مصادر (bibliographies) ومجلات الخلاصات (abstract journals) ومجموعات المعطيات لمعطيات (data compilations) والمقالات الاستمرارية (review articles) وأشكال متنوعة من الدوريات

العلمية المتقدمة التي تكشف (cataloging) وتسمح (surveying) معظم الأدب المعرفي الخيل. وصير الربع الأخير من القرن العشرين- أدخل الحاسب الإلكتروني في كيان التوثيق المعرفي الذي مكن من تسريع التواصل الأدبي المعرفي من جهة، وإجراء تصنيف أكثر تقدما للعلماء المعرفي. بات يشكل اليوم أفقا مشرقا لتقدم الإنسان باتجاه شمس الحفيلة (مصطفى ومصطفى، 1997). وثمة قواعد وأصول يجري الاقتداء بها أثناء تأليف أي مقالة أو ورقة علمية، التمسد منها هو: (١) ضبط جودة ما تتحدث عنه الأدبية، (٢) التأكد من أصالة البحث الذي تتحدث عنه من جهة أخرى. وتشكل هذه الأعمال جميعها تعبيراً عن عطاء البحث العلمي، الذي هو في واقع الحال تجسيد مميز لأبرز محاور التقدم والتطور في المجتمع. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأدبيات جميعاً تطضع قبل نشرها إلى تحكيم تخصصي صارم ورفيع المستوى وإلى تحرير (علمي ولغوي وإلاقي وفني و...) إلخ) يعطي الأدبية سمة حداثة وأصالتها.

• التواصل المباشر بين العلماء، ويتم عادة دون أي نظام لا يخضع لأي قيد رسمي، ويجري عادة - على سبيل المثال لا الحصر - عبر: (١) الالتقاء المباشر بين العلماء، (٢) عن طريق الاتصال الهاتفي أو عبر شبكات المعلومات، (٣) الزيارات الخاصة في الجامعات ومطابخ الأبحاث، (٤) المحاضرات الأكاديمية، (٥) تبادل أدبيات الأعمال العلمية، عند قبولها للنشر وبعدة... إلخ. والجدير ذكره أن ثمة مؤسسات علمية مستقلة مثل أكاديمية العالم الثالث للعلوم (TWAS) تقوم حالياً بتحفيز مثل هذا التواصل وتقديم بعض النظم المادي المحدود لتزاور علماء الجنوب وتعزيز تواصلهم العلمي (أخضر، 1999).  
<http://UArchiv.org>

• التواصل الإقليمي والدولي بين العلماء، وهو تعاطب شبه رسمي يتم أحياناً عبر ملتقيات العمل (workshops) وضمن الندوات (seminars) والمؤتمرات (conferences)، ويشكل بمجمل نشاطه هذه أو غيرها وسيلة فعالة لدى أبناء المجتمعات العلمية المحلية والإقليمية والدولية، نشر أبرز عطاءاتهم البحثية والإعلام عن الملامح الرئيسة لجدوى أعمالهم مع التمهيد أو التصريح بشكل ما إلى ضرورة دعم برامجهم المستقبلية أو الجهر بأرائهم العلمية الفاعلة حول أبرز إشكاليات الإنسانية والبيئة المحيطة. ولقد بدا لعظم مجتمعات العلم الجنوبية والعربية منها أخيراً ثمة حاجة لإبداء آرائهم الشجاعة حول أبرز إلهامات العولة على بلدانهم وذلك بصورة إعلانات جوية معيزة، لعل أبرزها - على سبيل المثال لا الحصر - ما يلي: (١) إعلان تريميتي حول العلم والتقنية كأداة نماء أقطار الجنوب (محمد عبد السلام، 1997)، الذي صدر في ٦ أكتوبر 1988، لدى ختام أعمال الاجتماع الإناسيمي لشبكة منظمات العالم الثالث (TWNTO) وحضره 1٥ وزيرا للعلم والتقنية و١٢ رئيس أكاديمية علوم و١٧ رئيس مجلس بحث وطني، مثلاً جميعاً 3٦ بلداً من بلدان الجنوب المستضيفة. (٢) إعلان طرابلس حول توحيد الجهود العلمية والتنظية العربية كمقوم للبقاء القومي والتغير الاجتماعي والاقتصادي والتقدم الحضاري العربي، الذي

حضره نخبة من العلماء العرب وأصدقاءهم من علماء الشمال والجنوب، وأند صدر هذا الإعلان في ختام المؤتمر العربي الأول للعلوم الأساسية ( سبتمبر ١٩٨٩ ) وكلل بإشهار الأكاديمية العربية للعلوم، كوسيلة عملية لتوثيق مدى التواصل العلمي العربي وتوحيد المجتمع العلمي العربي المحيط. (٣) نداء دمشق العربي الداعي إلى مبادرة عربية تزيل إرهاب الثقوب الحيوي من الوطن العربي، ولعمل على تعزيز بقاء الإنسان العربي، الذي صدر عن المؤتمر الدولي للبحث العلمي ونوره في حماية البيئة من الثقوب عام ١٩٩٢ (مصطفى، ١٩٩٢ - ب). (٤) نداء بشار الطافوي، الذي صدر في ختام المؤتمر الدولي لتقوية الطفولة الطافوية، الذي عُقد بالمركز الجامعي بشار (ولاية بشار الجزائرية) عام ١٩٩١، ودعا إلى توحيد الجهد العربي في مجال الطفولة.

### ٢-٢-٤ : التوجه الواسطي للبحث العلمي

#### The Instrumental Aspect of Scientific Research:

بالعودة إلى تعبير الضيق محمد بن عبد الجبار التفردي، الذي أوردها في مستهل هذا الجزء، من البحث الذي يمر بشكل ملمس القلب من إدراك سمات العلم في مدرسة العلم العربية - الإسلامية، نجد قوله: «العلم كله طرقا» و «العلم طريق تميز، لتخليص الإنسان والبيئة الأرضية من إشكالاتهما». ومن هذا المنطلق ينشأ التوجه الواسطي للبحث العلمي، وهي الاتجاه نفسه نجد مثلا الأستاذ جون زايمان يقول:

«... إذا عرفنا العلم كوسيلة لحل المشاكل، فقد اكتمل على الجانب الواسطي (instrumental aspect)».

لذا عندما ينظر للعلم عن كثبه يبدو اتصاله الوثيق بالتقنية (technology)، ومن

ثم فهو موضوع مناسب للبحث الاقتصادي والسياسي. (زايمان، ١٩٨٤).

وتظهر استطلاعات الرأي العام الشجاعة في عالم الشمال خلال العقود القليلة الماضية إلى أن الجمهور يرى في التوجه الواسطي للبحث العلمي لها تفضي إلى إزالة معاناة الإنسان والمجتمع من عديد المعضلات الاقتصادية والصحية والبيئية والاجتماعية وربما السياسية. ومن بين أبرز هذه الاستطلاعات ذلك الذي أجرته مجلة (New Scientist) البريطانية عام ١٩٩٥. ونشرت نتائجه تحت عنوان: «ماذا يفكر الناس بشأن العلم؟». ونعتقد أنه لو أعيد هذا الاستطلاع اليوم لأكد مجددا الآراء نفسها. ومن بين أبرز الأسئلة التي تناولتها الاستطلاع سؤال يقول: «ما افتراض أنك الشخص الذي يقرر توزيع المال الناتج لدعم البحث العلمي، لأي الوسائل البحثية يملك الأفضلية لديك في هذا التوزيع؟». فكان أن بدأ إجماع على إعطاء الأولوية في التمويل للبحوث الطبية، ومن ثم أشكال الطاقة الجديدة، وبعث التطوير الدوائي والبحوث الصيدلانية (العالم الجديد، ١٩٩٥). وذلك على النحو المبين في الجدول الثاني. ويجدر التنويه بأن رأي الجمهور يفضل حقا بتأثير أفراد أقرباء النخوة في المجتمع كالسياسيين ومدراء الشركات والمؤسسات التجارية والاقتصادية، كالشركات الخاصة والعامه، وذلك لصناعة رأي الأقوى أثرا.

وبذلك تتغير أولويات تمويل البحث دون ريب، على أي حال، يبقى التوجه الأساسي للبحث العلمي يمثل التكلفة الفضلى لدى الجمهور باعتباره أداة (instrument) لتحقيق أنواع من الأهداف غير حيلولة المعرفة التي تشغل بال الأكاديميين.

وفي تقريره الشهير بعنوان: «انطباعات حول العلم والتقنية وتعليم العلوم في تنمية أقطار الجنوب» (الذي أعد لاجتماع مفوضية الجنوب الخامس ١٩٨٩، واجتماع رؤساء دول عدم الانحياز ١٩٨٩) قال الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام (رحمه الله):

«وأخيرا نملك هذه التقنية (أي التقنية الرطيفة المرساة على العلم) خمسة مجالات تطوي وفق ظروف العصر الراهن على التالي:

- (١) المواد الجديدة، ومن بينها المواد المركبة، والنواقل مضبوطة الطاقة لدى الدرجات المرفوعة.
- (٢) علوم الاتصال التي تتألف من مستفي من الأنظمة الفرعية والعلمية:
- الإلكترونيات الدقيقة ومن ضمنها تطوير البرامج الإلكترونية، الحواسيب الإلكترونية
- دقيقة التصميم باستخدام الحاسب الإلكتروني وربما تصنيع الوحدات الإلكترونية الدقيقة.
- الضوئيات الإلكترونية ومن ضمنها الليزر والألياف الضوئية.
- (٣) علوم الفضاء.
- (٤) العلوم الصيدلانية والكيميائية المتقدمة الدقيقة.

الجدول التالي:

الأولوية المقابلة	رأي الرجال	رأي النساء	الإجمالي
البحوث الطبية	٧٠	٧٥	٧٢
البحوث الصيدلانية	١١	٣٩	١١
التحكم في التلوث وخفضه	٢٦	٣٧	٣٢
علوم النبات والزراعة	٣٠	٢٤	٢٧
تقنية المعلومات والحواسيب الإلكترونية	٢٢	١٧	١٩
التقنية الحيوية والهندسة الوراثية	١٤	١٠	١٢
الطاقة النووية	١٤	٨	١١
الدفاع الوطني والتسلح	١٣	١١	١١
استكشاف الفضاء	٨	٣	٥
ابتكارات الإنسان الآلي	٧	٢	٤
لا نعلم	١	٤	٣
علم التحميم	٢	١	١

(٥) وأخيراً، علم القرن ٢١، ألا وهو التقنية الحيوية وتشطير الموراثات، وهو علم حافل بأمل صنع ثورة حقة في الطرق الزراعية والطب والطاقة (عبد السلام، ١٩٩٢).

وبغني عن البيان القول إن ترجمة البحث العلمي الإسلامي قد اكتشفت أفاقاً تقدمية اليوم وانتقلت قيادته المغموم منذ أن صممت مداخل الحرب الباردة، وخمدت عواطف السياسات العلمية، وشجعت أصول دعم البحث العلمي عامة. ومع اندلاع «الحرب العالمية الدافئة» The Warm War، أشاء انعقاد مؤتمرات قمة الأرض في ريو دي جانيرو (يونيو، ١٩٩٢) «التيع نطاق التحول عن دعم البحث العلمي الأساسي عامة، وعن التقنية ذات الأساس العلمي (Science-based Technology)، كما حُرِكت عناصر إعلامية معينة في الشمال لتبدأ هجومها على العلم ككل، باعتباره ميّداً للمال العام والوقت دون تقديم نتائج حاسمة للعديد من المسائل العلمية والحياتية والسياسية الراهنة... إلخ (مصطفى، ١٩٩٢). الأمر الذي حفز قيادتي العلم في الشمال والجنوب - على حد سواء - للتشعر للأمر والمبادرة لردع هذه المجموعة المعادية قبل طوات الأوان، وإضمام الجمهور أولاً والسياسيين ثانياً أن البحث العلمي الحربي، وفي ظل الحرب الباردة الفارطة، هو الذي حظي بحصة الأسد من التمويل العام وليس البحث الأكاديمي - التنموي - فبقى عاش النمط الأخير من البحث على حدود الكفاف، وفي عالم الجنوب خاصة (المركز الدولي لتغييرات النظرية، ١٩٩٠).

## ٢-٢-٥: الظاهر الإنساني للبحث العلمي

### The Humane Aspect of Scientific Research:

كان الحرم الجامعي، في شمالى الأرض وجنوبيها، مؤثلاً بيمانيا لكل بحث علمي يهدف إلى:

(١) تعزيز مقام المعرفة الإنسانية .

(٢) حل إشكاليات بقاء ونماء البشرية.

فالجامعة هي النظام الراسي لشمس الخير في سماء البحث العلمي، ومن يتقنس عطاء البحث العلمي الأكاديمي، يصير حقاً قييده بما جاء في وصف العلم الذي رسمته مدرسة العلم العربية - الإسلامية، وجثا على يده على لسان الشيخ محمد بن عبد الجبار القفري في مستهل هذا الجزء من البحث. وعلى رغم تغاير هيئات الحرم الجامعي العالمية، لقدما أو تقديراً، صمعة أو اعتدالاً، خموداً أو إشراقاً في العطاء العرفي وهي إطار التوجه التربوي لحيازة المعرفة خاصة، فإنها تلبس في أقطار الشمال فوق الحد الحرج، بينما يمكن أن تتحدّر في أقطار الجنوب إلى ما دون هذا الحد، حتى تكاد تصل الجامعات إلى حال القبور الحية، على النحو الذي جثا على وصفه في عدد مجلة عالم الفكر الخاص بالتعليم العالي في الوطن العربي - ١٩٩٥ (مصطفى، ١٩٩٥). هذا وقد شهد عقد الثمانينيات الفارط، ومع انحصار ضيق الحرب الباردة، وجود بعض السياسيين في السلطة - مثل السيدة مارجريت تاتشر في بريطانيا - بداية لتزيريم لدعم النادي الواجب لتقديمه للبحث العلمي في الجامعات. وفي الوقت ذاته، تطلع الكثير من مجتمعات العلم

العالمية، التي ساعدت في إعداد بحوث ولطيف مؤتمر قمة الأرض الثانية (١٩٩٢) إلى اعتماد البرنامج - ٢١ لتقديم القمة هذه. والانطلاق منه ببحوث علمية تعمد البحث العلمي إلى توجّهه الإنساني الخبير - على أي حال، ربما تتمكن مجتمعات العلم الشمالية من الإفادة من المناخ الديمقراطي المتزايد لديها وفي جامعاتها بشكل خاص، للحصول على التطوير المناسب في توجيهها البحثي في هذا الجانب المميز لحوازة المعرفة، مما يساعدها على متابعة تعيضا الأكاديمي. أما في الجنوب، حيث لا نملك مثل هذا الحظ الناجح لدى علماء الشمال، فلا نتوقع - إلا بقدره الله - خروجنا من هيورنا الأكاديمية لتتابع رسالة مدرسة أجدادنا العظام، رسالة مدرسة العلم العربية المجيدة «ومن يتق الله يجعل له مخرجا».

### ثالثاً: نحو إستراتيجية عربية للبحث والتطوير

٢ - ١ : مقدمة

ليس معنى العلم نفي الجهل فقط، ولا معنى القدرة نفي العجز. ولكن إثبات العلم والقدرة: تلك هي الإستراتيجية البحث والتطوير في العالم المتقدم اليوم. وكانت في الأصل معلماً بارزاً من معالم تعييز مدرسة العلم العربية - الإسلامية قبل ما ينوف عن ألف عام خلت (مصطفى، ١٩٩١)، إن القارة هي مدرسة العلم العربية اليوم، المدركة حقا لهذه العقيدة، لا تمتلك - مع مزيد الأسس - سوى أن تحير العلم الحديث من دون أن تقدر على إظهاره بصورة إبداع حضاري - تقني، يعيد إلى الأمة العربية بُعد وجودها الحضاري في هذا الزمن الصعب وذلك كما قدر لأبناء مدارس علم الشمال أن يقدموه لشعوبهم منذ نهوض زمن العصر الحديث حتى اليوم. وينطبق على الكثرة من أبناء مدرسة العلم العربية ما قاله بعض كبار المفكرين لأبي القاسم الجليل (رحموان الله عليهما) وهو يتكلم في الناس:

«يا أبا القاسم: إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجد في العلم.

فإن كنت في العلم قائم مكانك ولا فانزل، (الكلاياني، ٢٨٠ هجرية).

فمنهم من نزل مُجِلاً شهادة علمه الأكاديمية، يبدل منتهى جهده في قراءة ما تلقى لديه من علم على الشباب، فيبكيهم تارة على جهدهم وراء علم بات لا ينفع لدى الحاكمين في رقاب العباد، ويصر عبداً سدى أن يرجع، ويضعهم تارة أخرى: على حالهم في مستقبل قائم حافل بداء الكبد المروع (مصطفى، ١٩٩٨). ومنهم من زال يجاهد وهو قابض على جمره من نار، مدافعاً عن مثله الأكاديمية الحقة من جهة، ومحتلماً من جهة أخرى عزم العلماء الشباب للتمسك بهذا لثقل إزاء رياح التشريب عن الأصول الحضارية العربية - الإسلامية، وهي رياح لزاد حدة هبوبها على مدرسة العلم العربية الموهنة في مناخ الفوضى العالمية الجديدة. لهذا عند التفكير في صنع قومة مدرسة العلم العربية، لابد لنا في البدء من الإجابة عن تساؤل عدل حول السبب الكامن وراء



هذا الإحباط الشامل لإرادة هذه المدرسة. ولئن نجد في الأمر هذا صموية لتذكر: فليس ثمة من يذكر اليوم حقيقة كون زمن الأمة العربية الراهن أرباً أزمنة حيلها عبر التاريخ. مود ذلك إلى أن هذه الأمة لم تراقب حق الله في وجودها من جهة. ولم تعظم حرمانها عز وجل في بقائها من جهة أخرى. فأنطبق عليها قوله تعالى:

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (القرآن الكريم، الحديد، ٢٧).

وإن حان للعرب أن يبحثوا عن النجاة من هذا العصر الرمادي ودخولهم العصر المقبل على نحو عزيز، فلا بد لهم من أن يُخلصوا لأجيالهم القادمة، فيخلصوا وإياهم من الدل الذي بات يفساهم اليوم. ولا ريب في أن الإخلاص لا يستقيم ما لم يعزموا صادقين على بناء ذلهم، ذاكرين قول الله عز وجل:

﴿فَلَا وَرَيْدَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ فِيمَا شِجَرَ بَيْنَهُمْ. ثُمَّ لَا يَحْدُوا فِي

اتِّسَابِهِمْ حَرْجًا مِمَّا قُضِيَكَ وَيَسْلُمُوا أَسْلَمًا﴾ (القرآن الكريم، النساء، ٦٥).

والتسليم بحقيقة أن «قوتهم تكمن في وحدتهم» هي بداية التمكن من كشف طريق بقائهم التقييم. ويبدو جلياً مما مرشناه آنفاً أن أوضح أبعاد التمكن للشود متجسد في عزيمهم على تعزيز جهودهم المشتركة في مجال البحث والتطوير، أي المبادأة إلى الكشف عن بعد وجودهم الضائع من خلال المبادأة إلى رسم وتنفيذ «استراتيجية عربية للبحث والتطوير» وجلائها لتحقيق هذه المبادأة، وينبغي أن في الواجب بيان بعض أفكار رئيسة حقة يمكن عليها إرساء الاستراتيجية المنظورة.

<http://Archivebeta.Sakhra.com>

## ٢ - ٢: أعمدة الإستراتيجية الجديدة

### • العمود الأول:

في البدء، لابد من التذكير مجدداً بأنه على رغم توجه مركب البحث والتطوير الإنساني نحو حيازة المعرفة بشقيها «معرفة الحق والحقيقة» عبر المصور (وتعزز هذا التوجه بتطلعه خلال معظم القرن العشرين الأقل اليوم إلى إمارة الثام عن حقيقة الوجود الفيزيائي الذي يحتويه وذلك بوجهيه الجهري والجهري). فقد انحصر سمو هذا التوجه بشكل مفرد في عالم الجنوب، مما أفقد مدارس العلم الحضارية الموجودة، هي أمم الجنوب عامة والأمة العربية خاصة، أبرز مقومات إبداعها، وجعل مجتمعات علم الجنوب المتخلفة لا تملك حتى نفسها لقها. وبذلك انطبق على العالم في هذه المجتمعات المستضفة قول أبي القاسم الجنيد رضوان الله عليه: «عندما سئل عن العارف فقال:

«لون الماء، لون الإناء» (الكلايادي، القرن الرابع الهجري).

وباستخدام معيار قياس الجنيد آنف الذكر، يمكن رد أمر انحسار سمو مدرسة العلم العربية الراهن مثلاً إلى فقد توجه المجتمع العلمي العربي لون معرفة الحق ليأخذ ماء حياة

سمو العلم العربي كون إياه من رماد (مصطفى، ١٩٩٦ - أ). ولكي يتمكن العرب من التحرك في اتجاه تلمس رماد التخلّف والمهانة الذي يشاهم اليوم يبدو أن خيارهم الوحيد في هذا الشأن هو تمكين مجتمعهم العلمي من ذاته بداية، كي يحقق له ربط معرفة الحق بمعرفة الحقيقة، وذلك في اعتقادنا - هي بداية سمو النشود - والتمكن - كما تعلم - فوق الطمأنينة، يمكن بلوغه عبر ثلاث درجات (مصطفى، ١٩٩١ - ب و ١٩٩٦ - ب):

(١) أن المجتمع لأبناء المجتمع العلمي مسحة قصد تسيره وسعة طريق تروحه عندها تحمله قديما لم شهود بداية الطريق الحق.

(٢) أن المجتمع للسالك في سبيل البحث الأصيل مسحة القطاع وصفاء حال كي يرى الكشف النشود.

(٣) أن يحصل في حضرة الحق على نور الوجود فيرتقي حجب الطلبة.

ولا ريب في أن إرساء أمر التمكن هذا واقع من دون ريب على كامل ذوي المهمة، السالكين في دروب المعرفة، من أبناء المجتمع العلمي العربي القادرين على تصعيد كل من: (١) وعي المجتمع العربي من حولهم (٢) إدراك أصحاب القرار العربي الأعلى لبيادروا جميعها بشدّة أثر العلماء، القادة السالكين، الكافحين بشكل خالص لتوجيه المجتمع العلمي العربي وصنع سموه.

ومن خلال جلاء نظام واقعي لتساوٍ علمي، يمكن للمجتمع العلمي العربي توطيد أبعاد عصرية جديدة لمسؤولية العلماء في تمكين مؤسساتهم التربوية والبحث والتطوير العربية من تفعيل دور العلم العربي في إصلاحات أساس العرب تحت الشمس، وفي بحث سابق نشر لنا عام ١٩٩٢ بعنوان: «مسؤولية المجتمع العلمي العربي».

«أن المجتمع العلمي قطاع خاص في أي مجتمع بشري، تتجلى خصوصيته في تميزه عن بقية قطاعات هذا المجتمع الإنساني بتركيزه في نشاطاته على غايات فريدة محددة من نشاط الإنسان، ويوشّح قواعد سلوكه، وبالإجماع الذي يمسوده حول نظم البحث عن الحقيقة والتدريب على قدرات فكرية وتجريبية، للكشف عنه، وبالإخلاص ذاتي المبحث الذي ينظم أفراده، ومن ثم فهم (السلطة) العشائرية الفريدة و (التأطية) و (الرائدة) لأبرز وأسمى توجهات المجتمع البشري نحو المستقبل» (مصطفى، ١٩٩٢ - ب).

ويأتي في مقدم أبعاد هذه السلطة حقيقة كون:

- المجتمع العلمي نافعا لمسيرة العلم والتقنية.
- المجتمع العلمي موحها للرأي العام الحضاري.

● المجتمع العلمي رائد الاعتماد التتوي المتبادل بين الأمم (interdependence).

هذا إذا أدركت قيادة المجتمع السياسية في عمق ذاتها أن هذا التكيان الإنساني - الحضاري - التميز، عندما يحفل بمسكة وفق الأبعاد أصلاء، يبقى هو الأقدر بين مختلف بني المجتمع الحضارية - التنموية على إمداد قراراتها الوطنية جميعها بعناصر القوة التي ترفع من شأن التفوذ الوطني.

وهي حال عدم تحقق هذا الإذعان، تتركز مسؤولية قيادة المجتمع العلمي الرئيسة في إيقاظ الفاعلين، وإلهام المجتمع عموماً من ورطة الفترة هذه، ومن ثم ينهض فأولئك هم الفضلاء (مصطفى، ١٩٩٦ - ب)، وانسجاماً مع هذه المسؤولية، جاء في التوصية الأولى لـ ندوة الجامعة اليوم وأفاق المستقبل، كلية الآداب بجامعة الكويت، ١٩٩٦، ما يلي:

«التأكيد على الدور القيادي والريادي لجامعة الكويت في تطوير المجتمع، فالجامعة هي المؤسسة الاجتماعية التي يتحقق من خلالها أداء رسالة متميزة في مجالات الفكر والمعرفة... وهي تكوين الطلائع القيادية، وتنمية الموارد البشرية، بما يتواءم مع روح الأمة الحضارية، والولاء للوطن، والرضا في الانتفاع على العالم، لتتمكّنهم - حاضراً ومستقبلاً - من خدمة المجتمع، والوفاء باحتياجاته العلمية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والثقافية، بصورة إبداعية، تسهم في إغناء الحضارة الوطنية والعربية والإنسانية» (جامعة الكويت، كلية الآداب، ١٩٩٦).

#### ● العمود الثاني

ينطلق العامل المؤثر الرئيس في اختيار سمو سلطنة العلم العربية من: عجب العلماء السالكين عن صحة مبريدي لمعرفة فيها. ويتم العجب بوسائل شتى لعل أقسامها تلك الثلاثة من:

## ARCHIVE

<http://Archive> - خاصية

(١) المناخ السياسي -

(٢) توسع البنية الأكاديمية -

(٣) انعدام التودد في المجتمع العلمي - خاصية

(٤) انحسار الأخلاق في المجتمع عامة (مصطفى، ١٩٩٥).

وعبر سيادة هذه التوسّلات، يسهل على السلطات السياسية أن تضع على رأس المؤسسة العلمية إدارات - من داخل المؤسسة هي أحسن الأحوال - تعمل وهي واضحة أصول نواظم السلوك (ethos) الأكاديمية جانباً، بحيث ينطبق عليهم في كثير من الأحوال قول نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم):

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً مما ينزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤساء جهلاً، فاهتوا بغير علم فضلوا واحلوا» (صحيح البخاري، الحديث CD-ROM-Hadith 98).

وهي هذا جاء في كشف المحجوب للجمهوري ما يلي:

«إذا صاحب طالب العلم الخيار فهو خير وإن يكن شريراً، لأن تلك الصحبة تجعله خيراً. وإذا صاحب الأشرار فهو شريراً وإن يكن خيراً، لأنه يرضى بما فيههم، فإذا رضي بالشرك فإنه يصير شريكاً، وإن يكن خيراً، فقد جاء في الحكايات: أن رجلاً كان يطوف بالكعبة ويقول: اللهم أسلح إخوتي، ففيل له! لم تدع لك في هذا المقام؟ فقال رحمه الله: إن لي إخواناً أرجع إليهم، فإن

صلحوا صلحت معهم، وإن ضلوا ضلوا معهم، فلما كان أساس صلاحي هو صحة الصالحين  
هذه أمرو لإخواني ليتعلق مقصودهم إن شاء الله (الجهنوري، القرن الخامس الهجري).

والقد خلصنا في بحثنا بعنوان: «مسألة الجامعات العربية - منظور القيور الحية»، المنشور  
عام ١٩٩٥، إلى أن ثودي حال العديد من مؤسسات العلم العربية عائد لانتقال قيادين للبحث  
والتطوير فيها، فغير مناصرين البتة لصنع سموها. وذلك على النحو الذي نشأ به نهينا  
المصطفى عليه السلام في حديثه آنف الذكر أصلاً. لهذا لابد من المبادرة بشكل ما لإزالة  
مقومات هذه الحجب في مدرسة العلم العربية كي يصبح استواء عمود النمو فيها.

#### ■ العمود الثالث:

في الوقت الذي يمزو فيه - الكثير من مفكري الأمة العربية - أمر إشكالية  
(problematique) سمو مدرسة العلم العربية إلى أطراد خلق الحرية الأكاديمية  
(choking of academic freedom)، وهو جوهر ما سنتحدث عنه لاحقاً في العمود الرابع  
لهذه الإستراتيجية، نجتمع النخبة الحضارية العربية اليوم (the Arab elite) على أن هذه  
الإشكالية منفرسة عميقاً في واقع طبيعة طالب التربية، وليس الحرية الأكاديمية المطلوبة  
فحسب، لهذا فإن أي إستراتيجية ليد، إقلاص مسيرة نمو البحث والتطوير العربية لا يمكن أن  
تتسم بالواقعية ما لم تنظر في الإجابة المطلوبة عن التساؤلات التالية:

(١) أخذين بعين الاعتبار أن الجامعات في عالم الشمال - بشقيها الناجي (survival = أي  
الذي يحوز سموها معيذاً في التدريب المتقدم أو المطاء المعرفي الأصيل)، و الثاني (saling = أي  
الذي يعيش على هامش التقدم المعرفي وهي أدنى التواصفات الأكاديمية) لا تمتع مواطنيها  
الأكاديمية (academic citizenship) إلا للمؤهل حقاً - أي المؤهل المتمرس معرفياً ولخصيصها  
وسلوها وأخلاقياً - لهذا الشرف من مدرسين وباحثين (مصطفى، ١٩٩٥).

- فهل طالب الحرية الأكاديمية من مواطني بعض الجامعات العربية الحالية يملك اليوم مثل هذا  
التأهيل؟ ولعمد مبرر قوي لإثارة هذا التساؤل لا يمكن إغفاله البتة، مرده الوفرة العالية بأشكال شتى  
من الشهادات العليا الشراء عن بعد، ولم تزل تصدر من قبل العديد من جامعات العالم الثانية في  
الشمال والجنوب، كما تتوافر عملية تصدير مرتبة - ربما سياسياً وأمنياً - ليسر لطالبي الأقطاب  
العلمية الرفيعة من منسقلي السلطة في العديد من عالم الجنوب، ويشهد حال العديد من جامعات  
الوطن العربي الثانية، نجد أن العديد من حملة هذه الأقطاب باتوا يحتلون صدارة الإدارة الأكاديمية،  
إن لم يملكو زمام قيادة البحث والتطوير في أكثر من حرم جامعي عربي مستضعف.

(٢) وثقاً الواقع الحرم الجامعي العربي الراهن، وباعتبار أن التدريب (أي: التعليم العملي  
والنظري) حققت هو السائد في الجامعات العربية، إضافة إلى أنه من السليم به أن يكون محوراً  
على أداء واجبه:

## نقطة العلم العربي

- هل يراعي المدرب عالماً (scientist) أو سالكا (scholar) التزاماته الأخلاقية في التدريب والبحث؟ علماً بأن هذا الأمر مستوجب حقاً لدى السالكون وإلا ما حازوا هذه المرتبة البتة. كما هو محقق في الجامعات الغربية الباقية (نتيجة علو مقام الإدارة الأكاديمية فيها). وليس في الجامعات المائية (نتيجة هيوط سوية الإدارة العليا فيها).

- هل يقوم المدرب بعمليات التدريب على نحو يتفق والمستوى الذي أرسيت عليه عملية التدريب الأكاديمية؟

- من المسلم به أن المعرفة حول بعض المواضيع المطروحة على بساط البحث المعرفي الأكاديمي ليست أكيدة دوماً. لهذا هل يقوم المدرب بتقديم هذه المواضيع بشكل يميز به بين ما هو مؤكد وغير مؤكد وبين المحتمل واللامحتمل؟

- هل يقوم المدرب ببذل منتهى إمكانياته ويضمهر حي الإكفاء السمو الفكري والعملية لدى المتدربين (أي الطلاب)؟

- هل يقوم المدرب بتطوير إمكانياته المعرفية من خلال مراقبة قادة العلم (أي السالكون) داخل الحرم الجامعي من حوله خصوصاً وعلى الصعيد العالي عمومها، وهم يبدعون في مجالات تخصصهم، ثم يبادرته بتوظيف هذه الإمكانيات المتطورة في دفع طلابه نحو التفكير العلمي والتقني المتقدم والعملية بمن يبدى توجهاً مميزاً للبحث في المعرفة.

- هل يتصرف الأكاديمي بشكل يلبي أهم المواضيع التي تفرها على طلابه لياس التحديث، فيضهم بذلك عند حدود المعرفة المتقدمة بليتها النظري والعملية؟

- هل يملك الأساتذة إرثاً كاملاً لمسؤوليتهم إزاء حرية ضميرهم وما يصدر عنه من أحكام. أو يقومون بالارتزاق والتسكع الفكري بعيداً عن النظام العلمي الذي ينعين عليهم الإبداع فيه لمصلحة المعرفة والأجيال الشابة من حولهم؟

- ما مدى وهي أساتذة الجامعات العربية للحدود المميزة لحريرتهم الأكاديمية وتلك التي تجسد حريتهم المدنية (civil freedom)؟

### • العمود الرابع:

لدى بداية التفكير في إنشاء هذا البحث ومتابعة نهجنا في إنتاج مثل هذا النوع من العمل الفكري المهم. أجرينا بعض حوارات ديناميكية مباشرة - على المستويين الأفقي والعمودي - مع العديد من أصدقائنا وزملائنا المعتبرين الكرام في أكثر من حرم جامعي عربي، حول القضايا الساخنة في قلب هذا البحث، وبشكل خاص حول التساؤلات المثارة في العصور الثالث أتماً. فكان أن شب عدد لا يستهان به من العلماء (scientists) والسالكون (scholars) مثلاً - وومتي كان أبناء المجتمع الأكاديمي لا يشعرون بالمسؤولية إزاء مهامهم التدريسية ومراعاتهم مواطنيتهم الأكاديمية والالتزام بنواظم السلوك (code of conduct) في مدرسة العلم الغربية والعالية. وإن

كان في إثارة مثل هذا البحث من فائدة ضيكون مصدرها إثارة التساؤل الرئيس التالي: فهل تعكس سلطات الدولة الأعلى وسلطات المجتمع السياسية والدينية والاقتصادية وإدارات الحرم الأكاديمي الرئيسية وضوحاً فكرياً لمسألة الحرية الأكاديمية؟ وهل تعكس رؤية برامجية لإسباغ مناخ طيب تتطور من خلاله هذه الحرية كي تعطى أكفأ في كل حين. فتوسي بذلك أخافاً مشرفة لصنع سمو مدرسة العلم العربية؟ - في حال أن بعض إخواننا في البنى الأساسية العليا تعجب من إثارة التساؤلين الأخيرين قلنا مثلاً: «وهل ثمة حاجة بعد مزيد من الحرية الأكاديمية بعدما جاء من دعم لها في قوانين تنظيم الجامعات أو القوانين الحاكمة للبحث العلمي في معظم أقطار وطننا العربي؟» ومن هذه التساؤلات المتعاقبة، نتبين أن حال الحرية الأكاديمية العربية بات إشكالياً، ولابد لأي إستراتيجية عربية متقدمة للبحث والتطوير من أن ترسم بعضهم الوضوح هيئة هذه الحرية في المنظور العاجل، حيث يمثل علينا القرن الحادي والعشرين تحديات غامضة تستهدف بقاها العربي من المحيط إلى الخليج. وفي هذا الصدد، يمكن لنا إثارة الأفكار المتواضعة التالية:

(١) قبل ما يتوقف على ألف عام خلت، تجلت الحرية الأكاديمية في مدرسة العلم العربية عبر رعاية معاهدي (termine) الحرم الأكاديمي لنظراتهم في البحث عن المعرفة. فقد قال الله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (الفران الكريم: تتفاني: ١٦). وأصل التقوى - كما نعلم - يتجسد في محاربة النهي وميابة النفس، فعلى قدر ما قال مؤلفون مدرسة العلم العربية - علماء وسلكون - من حظوظ أنفسهم في رعايتهم لنزاهتهم بالغز أركوا المذبح. ولعلم أيضاً أن الرعاية صون بالعناية تتجلى في ثلاث درجات: الدرجة الأولى: رعاية الأصناف الثلاثة الثانية: رعاية الأحوال، والدرجة الثالثة: رعاية الأوقات. وحول الحرية الأكاديمية الراهنة في مدارس العلم الغربية الباقية، يقول الأستاذ الدكتور إدوارد شيلز: «على رغم أن الحرية الأكاديمية ليست كما الحرية المدنية (civil liberty) والحرية السياسية (political liberty). فقد انتفعت كثيراً من الصاع ورسوم الأهرتين في المجتمعات الحرة - الديمقراطية، ويعزى الكثير من التقدم في الحرية الأكاديمية الحالية (genuine) إلى إقرار الجمهور المتعلم المتزايد برخصة المعرفة. وثمة حاجة إلى حرية التعبير في التعليم والبحث والنشر، إن تعين على الجامعات تحقيل ما ترضى وما هو متوقع منها. وهذا ما يوفره الديمقراطية المتقاربة. ولم تكن لها ولادة هيئة، وربما جامعات هولندا (جامعات لايدن و أوترخت مثلاً) هي التي قادت الجميع. وكان ثمة تفاوت كبير في تخلف معظم البلدان في هذا الصدد - فجامعات فرنسا (ancient regime) كانت في هذا الشأن بين معظم الجامعات المنكوسة في أوروبا، والثورة الفرنسية التي بدأت في كسر الـ (ancient regime) لم تتمكن من تحسين الموقف، وكان عصر نابليون مجرد تحسين طفيف، كما كانت الأنظمة اللاحقة أفضل بقليل. ولقد أظهرت الجامعات الألمانية اقتراباً عملياً أكبر من الحرية الأكاديمية خلال القرن الثامن عشر، وربما كان من الأهمية بمكان، لتوطيد الحرية الأكاديمية، قيام فون هامبردت

## نحو العلم العربي

(von Humboldt) وبعض المفكرين الألمان بإشهار القمع السامي للحرية الأكاديمية، وبإنهاء القرن التاسع عشر، أصبحت حرية البحث والتعليم والنشر معياراً لتقويم الجامعات عبر العالم الغربي. ولا يعني هذا أن مراعاة هذه الحرية محقة دوماً (شيلز، ١٩٨٩). ومن كلمات شيلز، وهو واحد من أبرز قادة السالكين في فلسفة تنظيم وإدارة العمل الأكاديمي والبحث العلمي في الشمال اليوم، يبدو أن الحرية الأكاديمية الرافضة في الحرم الجامعي التقدم تقف عند المرجعتين الأوليين من الرهابة - المشار إليها أعلاه - التي وسعت مدرسة العلم الغربية أثناء صعودها المشهود في غابر الأيام (مصطفى، ١٩٩٥).

(ب) عبر مرحلة الانتقال الفاصلة بين بقايا القرن التجاري، التي تعيشها اليوم، وبداية القرن الواحد والعشرين، ثمة تغيير مطرد يأخذ مجراه في إطار المؤسسات الأكاديمية العالمية عامة والعربية خاصة، يتركز حول مفهوم ومبرر وجود الحرية الأكاديمية وتلخيص تجارب الربع الأخير من هذا العصر إلى أن ثمة شرحاً كبيراً بات يرمض مراد وجود الجامعات العربية خصوصاً، ويمكن رؤية معالمه من خلال الانقسام التجلي في طبيعة الجامعات، فلم (١) جامعات باقية (surviving) تسودها الرؤية الواقعية السبقية في البحث عن الحقيقة وفي سعيها لرؤية الحق مع مراعاة الأعمال والأحوال وربما الأوقاف، ورعايتها لمبادئ الحرية الأكاديمية المتقدمة التي تعمل بدورها على تأكيد قيام الجامعة بخدمة قضايا الكشف العلمي، ونقل الحقيقة العلمية والتطوير التقني المتقدم، كما أشرت إليه أيضاً، (٢) جامعات حديثة (new) تدور في سديم من العمل العلمي الخاص بنهزم التعليم والتدريب الألفية المعاصرة (التركيز على مهام المرحلة الجامعية النهائية بشكل رئيسي). وتعتقد كثيراً أطفاق متفحمة من الحرية الأكاديمية في التمييز والتفريق.

ومن بين أبرز مؤثرات التغيير وربما التطور في الحرية الأكاديمية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

## (أ) مؤثرات إدارة الحرم الأكاديمي:

- بعد أن كان المجتمع والنوالة ينظران إلى وجود العلماء والسالكين في إطار الحرم الأكاديمي، كطية سامية لا يمكن لمسها (unreachable élite) من طرف لو بعيد، جاءت القوانين الأخيرة السائدة اليوم والناتجة للعمل الأكاديمي في العالم كله، وليس في الوطن العربي فحسب، لتعتبر استناد الجامعة مؤلفاً أجبراً يؤدي وظيفة عادية، مزيلة بذلك عنه السمة الفريدة لهنمة الحضارية الأخلاقية البديعة ذات المعايير والالتزامات السامية، (أي: profession with its own proper moral and intellectual dignities and obligations)، وبذلك تساهل، على الإدارات الجامعية بشتى مستوياتها، أمر التحكم في طية المجتمع وفي جميع الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- وتأكيداً لإرهاص وجود العلماء والسالكين في الحرم الأكاديمي بمساهمة ضوابط «عمل الأجهز» نحوالت التحركات السائدة بالجامعات (Associations of University Professors)

(AUP) إلى نقابات عمالية (trade unions)، كالتي تصنعها السلطة لتحقيق نفوذها ضمن الطبقات العاملة في المجتمع وتحت مظلة الديمقراطية والتعددية السائدة في عالم الجنوب خصوصاً، لتقوم هذه الاتحادات بتزييت (lubricate) الآليات تحكم السلطات الإدارية الجامعية العليا في الحرم الجامعي لمصلحة الأنظمة السياسية والاقتصادية الحاكمة.

- وبإفراط تحكم الإدارة الجامعية، أصبح ممكناً وبشكل متفاداة استقلال نواظم السلوك الأكاديمية (academic code of conduct) وتجميل لوبها (twisting) لمصلحة التعميم غير الأسولي في هيئة التدريس والبحث والتطوير، والإيفاء عن العمل، والطرد من الوظيفة... إلخ. ليشكل هذا البعد السلطوي خلقاً للحرية الأكاديمية، المؤدي في أحسن الأحوال إلى تشي الأداء الأكاديمي الحق.

- وفي إطار هذه الترهصات الداخلية، يصبح من السهل صنع تشابك حدود الحرية الأكاديمية والحرية المدنية في أذهان العلماء والمساكين من جهة، وفي أطر المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية المختلفة من جهة أخرى. وبذلك يكون أمر تهيمش قوة النخبة لمصلحة تضخيم تقوى الطغم المتنافسة في المجتمع، ومن ثم دفع العلماء والمساكين إلى زاوية صفار مقامهم داخل الحرم الأكاديمي، وربما خارجه.

- ثمة تباين كبير في نوعية إنارة الحرية الأكاديمية كونه رؤساء الجامعات ومجالس العهدة (board of trustees) (أو مجالس الجامعة في الحرم الأكاديمي الغربي)، إذ يتراوح بين (١) الإيمان بسيادة هذه الحرية ورعايتها، باعتبار ذلك مؤثلاً لسمو كيان هذا الحرم من جهة، (٢) الكفر الضمني بالحرية الأكاديمية، لتكونها جذوة النار التي يمكن أن تذهب أي استقلال سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو ديني أو عرفي أو حضاري للحرم الأكاديمي، وبعبارة الحد الأول، تمكنت الجامعات الألمانية جميعاً، والجامعات البريطانية كجامعتي أكسفورد وكامبريدج والجامعات البريطانية المنشأة في مطلع عقد الستينيات مثل جامعتي ساوثمبتون وبرايتون، وجامعات جون هوبكنز وكالرك وشيكافو الأمريكية، من رعاية (observance) الحرية الأكاديمية فيها، مما جعلها تنبوا مقاماً سامياً بين جامعات العالم كلها. ولدى الاقتراب من ممارسة الحد الثاني، كما هي الحال لدى العديد من جامعات الجنوب عامة والوطن العربي خاصة، تطلبت هذه الممارسة قيام السلطات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو العرفية أو الحضارية، خارج الحرم الأكاديمي، بانتقاء نوعيات مناسبة من مجالس العهدة أو المجالس الجامعية العليا لتقوم بتنفيذ خطط قيادتها داخل الحرم الجامعي وخارجه، في توظيف النخبة في المجتمع لمصلحة أغراضها الخاصة. ومن خلال هذه الخطة يمكن رؤية إلم يقوم بعض رؤساء الجامعات بدور مدراء ثانوية خاصة، والتصرف بشكل غير لائق أكاديمياً (boastfulness) أحياناً وبمصلافة (arrogance) أحياناً أخرى وثمة رؤساء جامعات يجتنبون إبداء الملوك الأخير مباشرة - كي لا يثيروا الغيورين على



## نحو العلم الحر

المهنة الأكاديمية من جوانبهم - وتطبيقه بشكل ما عبر المجالس الأكاديمية الأدنى، حيث تقوم الأخيرة - تعبيرا عن ولائها لمن وضعها تجاوزا في السلطة الأكاديمية - بإلجاس ما يريد رؤساء الجامعات أو مجالس المهنة من عبارات شبه قانونية تناسب أغراضهم. وفي المقابل نجد بعض نظير رئيس الجامعة أو مجلس المهنة أو مجلس الجامعة عن انتهاكات المجالس الأدنى للقوانين وللحرية الأكاديمية، وبذلك يسود مبدأ تبادل حذك الظهور على حساب كرامة وفلاح وسمو الحرم الأكاديمي صومعا والحرية الأكاديمية بشكل خاص.

### (ب) مؤثرات مواطني الحرم الأكاديمي

لا ريب في أن المؤثرات - ألفة الذكر أعلاه - قد خلقت مقام جهاد (militancy) لدى النخبة من الساتكين جميعا في الحرم الأكاديمي، تركز مبدئيا على سلوك زملائهم أثناء قيامهم بتطوير إمكاناتهم الذاتية، وتحرير دروسهم على الطلاب، وحرصهم المطرد في البحث عن الحقيقة، وسمو تعاملهم فيما بينهم. فبمراعاة توافق السلوك الأكاديمية الحقة، لتربخ أصول الحرية الأكاديمية لتبقى معنية في محور اصطفاء الأنسب والأفضل من البحوث التقدمية التي تقدم المعرفة مباشرة والمجتمع لاحقا. لهذا بدا هؤلاء الساتكين وهم يقفون بوجه المتهاونين في أداء هذا الواجب من زملائهم ومريدوهم وطلابهم ليقولوا مثلا:

«لا حماية لمن يتسمرون في التزامهم بالبحث عن الحقيقة واحترامهم ليهوولهم وتدريبهم وفقا لأفكارهم وإمكاناتهم».

«لا بقاء لمن يزيف أو يتدخل بنتائج بحوث غيره في الحرم الجامعي».

«لا استمرار لمن لا يحترم واجبه إزاء طلابه، فالأمانة تقتضي منه الحرص على تدريب وتعليم وتربية طلابه في قاعة الدرس والتخبر ليس إلا».

«لا حماية للأستاذة الذين يسمحون إلى إكراه الطلاب على قبول وجهات نظرهم في المجالات السياسية والدينية والعرقية التي لا تنتمي البيئة لصلب مقرراتهم».

«لا تهاون مع من يستخدم الحرم الأكاديمي منطلقا للتدخل في الحكم أو التهام الناس ضمن المجتمع عامة أو الخلط بين الحرية الأكاديمية والحرية المدنية».

«لا استمرار لوجود من يرتزق في الحرم الجامعي بأي شكل من الأشكال».

فتهاون العلماء والساتكين من أبناء الحرم الأكاديمي في مثل هذه التزاحا سيقتود حتما إلى:

(١) هبوط مواطنية الحرم الأكاديمي.

(٢) انحسار السمو في البحث عن الحقيقة.

(٣) خيانة الأجيال الشابة المتوجهة لعبارة المعرفة.

(٤) وضع المجتمع العلمي في موقف صفر.

(٥) تمكين أعداء الحرية الأكاديمية من خسفها في الداخل والخارج... إلخ.

حيث تفعل هذه المؤثرات في تشويه طبيعة الحرم الأكاديمي، وإخضاعه لتسوانط مائكاتيه (McCarthyism) أو اكسيفيلية (Xenophobic) أو يوهيمية (Bohemian) أو فاشية (Fascism) ... إلخ. تعمل منفردة ومجموعة على تغيير وجود الجامعة لتتدرج في صفقات الطائيات والعياد باله. والجدير ذكره هنا أن تجاهد العلماء والمساكين لشعيرز اتحاد الأستاذة (AUP) كان ولم يزل إحدى أبرز قوى الحرم الجامعي القادرة على وقف أي أثر من الآثار أفة الذكر أعلاه وموقلاً عطفا للعلماء والمساكين في تجلدهم لإعلاء راية الحرية الأكاديمية والتفان عن مسيرة السمو في البحث والتطوير.

ومع تعدد وسائل الاتصالات، بات الحرم الجامعي في مجتمع ما جزءاً مميزاً من مجتمع المعرفة العلمي؛ لهذا لم تعد الحرية الأكاديمية حبيسة الأوطان ولا الأزمان ولا الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويجب أن تتفاعل بشكل متقدم مع تجارب الأمم الأكاديمية لتواكب مسيرة الحضارة.

ولقد أفلح الحرم الأكاديمي في الجامعات الباقية في حماية حرمة الأكاديمية من خلال تفعيل حوار الحرم الجامعي الداخلي، وبذلك ضمن مواطنو هذا الكيان الحضاري لذاتهم قوة الرأي في صنع تقدمهم نحو أهدافهم المسامية، وحصلوا - برؤيتهم التامسجة الموحدة المتجددة - مجتمعهم العلمي عامة من أي انتهاك، فالحوار يمارز علماء وساكين قلاية لايد من وجودهم للقرود على صعيد حرية تقدم المعرفة وصعيد تقدم المجتمع بشكل عام.

## داليا - استهداف الفقه : خطوة إلى الأمام

http://Archivebeta.Sa... ٤ - ٦

مع أطوار ولوج مركب الوجود العربي الحضاري (cultural) - المدني (civilized) الراهن في أعماق المجهول النظم، يثمر مشهد

انحسار الأمة العربية (وكانت أمة عزيزة، قادرة، ومبدعة حضارياً) كل الأصوات العربية الحرة الأصيلة، لتفصح جهاراً، وباشكال شتى، عن الغطر المحيق بالشعب العربي كله نتيجة الانطفاء للتصارخ في ذات الإنسان العربي (مصطفى، ١٩٩٧). ويتميز عقد التسعينيات الجاري من هذا الزمان، بأنه على رغم مخني الكثير مما نادت به تلك الأصوات الشجاعة في عمق البهداء (wilderness) وواقع بعض ما قالته على أذان أصحاب القرار التتموي العربي الصمادة، فقد دخل العديد من هذه الأصوات قلوب الأجيال العربية الشابة عامة، إضافة إلى عتول الشباب الذين تمكنوا من حيازة مواقع متقدمة في مختلف مناحي صناعة القرار العربي المسؤول خاصة، وتجمع مناهب (themes) هذه الأصوات على ضرورة قيام الشعب العربي من المحيط إلى الخليج عامة، والجمع العلمي العربي خاصة، بوقفه لله تنقذه من القت الذي يفشى وجوده من جهة، ووقفه للعلم لتخلصه من الصغار الذي يتناب مقامه تحت شمس الحضارة من

جهة أخرى، والواقعة الأخيرة المشهورة هنا، التي أطلقنا عليه اسم إستراتيجية استنهاض قوة العلم العربي في القسم الثالث من هذا العمل، لا يمكن القيام بها ما لم:

(أ) يوزم أبناء المجتمع العلمي العربي على لم شقاتهم، وحشد قواهم عملياً (إقامة جمعيات علمية مستقلة، أكاديميات غير حكومية، مراكز للحوار... إلخ) وإعلاء رأيهم بشأن الأشكال الممكنة فوق الآراء الرسمية منها خصوصاً، باعتبار أن الأخيرة كانت كثيراً بشأن نهوض العلم العربي وما فعلت سوى إنزال أهل العلم، وقت قلوبهم، خلال العقود الأخيرة من هذا الزمان. علماً بأن رأي العلماء والسالكين العرب، كان ولم يزل يقول: «ليخلص العرب في تعزيز مقام مدرسة علمهم الكبير اليوم، فيخلصوا من تقزم وجودهم السياسي، والتنموي، والدني، والحضاري» على النحو الذي أوضحناه من قبل، ولا يحتاج هذا الإخلاص في البدء سوى استغلال دعاوى السلطة العربية الفاشلة دوماً، «برعايتها للعلم والعطاء» ودعمها للجامعات الوطنية العربية، ولشد أزر الأبادي العاملة في البحث والتطوير الهادفين... إلخ، وربطها بثلاثة واجبات:

(١) منح الحرم الجامعي حريته التشريعية التي خلقتها له عقيدة مدرسة العلم العربية الجديدة قبل أن ينوف على عشرة قرون من الزمان (مصطفى، ١٩٩١ - أ).

(٢) إصدار تشريع وطني عام يحدد نسبة معينة من الدخل الوطني العام لتطوير الحرم الجامعي العربي.

(٣) التطلي - بشكل حضاري - من أية تعصب قنوي للبحث والتطوير الوطني الراعلة، لقوة الديموقراطية الأكاديمية الفاتحة - ورغم أنها شكلت ما هي جامعات الوطن العربي الناجية. أما الجامعات الغربية الفالقة فتحتاج أصلاً إلى قوة تغير متطورة لتطليها من قنرها الكاسع أولاً، ثم دفعها باتجاه يقاها وفق أصول مدرسة العلم العربية المبنية في القسم الأول من هذا العمل، فإن لم تساهم هذه الجهود المتجبة خلال فترة محددة من الزمان، يصبح من الأفضل إزالتها من بنية العلم العربية التحتية كي لا تُضاف إلى بؤر التلوث الدنية الأخرى التي تهدد الوجود الحضاري اليوم (مصطفى، ١٩٩٧).

(ب) يبادر أبناء المجتمع العلمي العربي إلى إثبات مسؤوليتهم الوطنية إزاء تعزيز تقدم ورفعة وسمو مدرسة العلم العربية (مصطفى، ١٩٩٦ - أ).

(ج) يجتهد أبناء المجتمع العلمي العربي في اصطفاء محاور بحث وتطوير جديدة ومتجددة الأفاق، تقوم مركب تطور الأمة العربية إلى حيازة مصادر جديدة معطاة للثروة العلمية التقنية على النحو الذي يبناء في القسم الأول من هذا البحث.

(د) يطرح المجتمع العلمي العربي في إصدار تشريع عربي (قرار قمة عربية مثلاً) يقضي بإقامة وتمويل مراكز عربية مستقلة متخصصة للبحث والتطوير، تكون مثابة لكل الباحثين العرب، والشباب منهم خاصة، الراغبين في دخول مسار البحث عما يخلص الوطن العربي من الخلفه

ويحقق نماء، وذلك كما تحقق فعلاً على الصعيد الأوروبي مثلاً، وتجدر الإشارة هنا إلى أننا وعلى مدى عقد الثمانينيات المنصرم، عشنا مع المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام على الاتصال بكل الجهات المسؤولة عربياً وإسلامياً ودولياً لإقامة مثل هذه المراكز في الدول الإسلامية عامة والوطن العربي خاصة، لكن الفكرة، على رغم اقتناع الكثير من أصحاب القرار النشيط الدولي بها، لم تتمكن - مع مزيد الأسف - من دخول مكاتب أصحاب القرار الأعلى، وتحظى باطلاعهم عليها في العديد من الأقطار العربية والإسلامية، ونظراً لعدم وجود قرار سياسي عربي أو إسلامي رفيع يدعم هذه الفكرة، لم تلجأ بعد في دفع الممولين الدوليين أو الإقليميين (البنك الدولي، البنك الإسلامي، الصناديق العربية... إلخ) كي يقوموا بتثبيت قضايتهم الطويلة نعوها.

## ٢ - ٣: خطا المجتمع العلمي العربي: حقائق مأساة

وثمة من يلحظ في ما ذكرناه أن استنهاض قوة العلم العربي مرتبط بكل من: عزيم، ومبادرة، واجتهاد، وفلاح مجتمع العلم العربي في عملية الاستنهاض هذه، ليقول: «ولكن دور بقية مؤسسات المجتمع العربي الدينية الأخرى في تحقيق هذا الواجب»، وإذا لتعلّق الإجابة عن هذا السؤال الكبير عملاً بحثياً كبيراً بذاته (مستطلى ١٩٩٥)، فإنه يمكن إثارة مثل هذا البحث وهذه الإجابة بكلمة واحدة تقول: «منذ تشكلت مؤسسات التعليم العالي ومراكز البحوث العربية وحتى اليوم، أمسكت الدولة بزمام إدارتها ورسم سياساتها وتقرير مصورها، وانفصلت عنها من دم قلب دافع الضريبة العربي. ولا مناص من التعليم بطريقة أن هذا العلم قد أجاد، والأسطر الجاهزة التي غشت معظم بني مدرسة العلم العربية، لم تشهد إلا القليل من الأضواء المتلعة هنا وهناك على مدى الصعيد الحضاري العربي الطويل، وقد بدأت غلاتهم زمن التثوير العربي الشامل بالتطور (مراكز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩)، يبدو أن لا مناص لنا لم نلجأ في قيادة مركب البحث والتطوير العربي - خلال العقود الخمسة الفارطة من هذا العصر - سوى أن نزل، ففسحها في الطريق للشارع أصلاً على صنع النجاح التلويح، وهو المجتمع العلمي العربي ذاته (انظر الأشكال ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧). وإن تسلي لمرشح القيادة الجديد ثولي مسؤولياته، فهو لابد من أن يكون حقاً: عازماً، ومبادراً، ومجتهداً، وتاجعاً في معرفة مبرط فرسه لينطلق نحو مستقبل واعد بالخير بإذن الله، كما يتعين عليه، أي المجتمع العلمي العربي، في البدء وهي كل آن، أن يبقى ذاكرة حبر مثل الآخرين في قيادة أقدار الحرم الجامعي العربي ومؤسسات البحث والتطوير العربية، وإن يكون حاضراً بكل ما لديه من وهي لشئ إلهامات أعداء مدرسة العلم العربية داخل الوطن العربي وخارجه (مستطلى، ١٩٩٩)، وإن يكون شاكراً لله في كل حال من أحوال نصرته (عالم الفكر، ١٩٩٥)، علي أي حال، إنه من الأمانة يمكن أن نرجح بشكل مركز ما سجله المجتمع العلمي العربي من منجزات علمية ثموية - علمية منذ منتصف هذا العصر، وحتى قبل أقره اليوم، فلقد تمكن من:

(١) إرساء وجود الجامعات العربية، بشكليها الباقي والقائي، على رغم أن النية في هذا الإلتواء الحضاري تركزت في البدء، على النوع الأول، لكن خضوع هذه الأمانة لتقلبات السلطة العربية،

وخضوع إدارات الحرم الجامعي لأهواء مناح هذه الثقافات - كما بينا آنفا - قد أوصل الكثير من جامعات الوطن العربي إلى بقاء لا صلة لها بالبحث والتطوير.

(٢) تكوين أجيال عربية علمية شجاعة، حملت - عبر سني التحرر من رقة الاستعمار، ومن ثم خلال العقود الأولى من بسط السيطرة الوطنية على البلاد - مهمة إعداد الأطر البشرية العلمية والتقنية لإدارة دولة التنمية الوطنية. ولم تنوغل هذه المسيرة لاحقا وحتى اليوم لتتابع تكوين أجيال شجاعة أخرى متقدمة المعرفة، تتسكك بزمام البحوث العلمية، وترسي الجسر المنطور على طريق ربط هذه البحوث ببرامج تطوير متقدمة.

وهذا لا يعني إنكارا لوجود الطاقة الكامنة وإعطاء العلماء والساكنين الشجعان الذين جتأ على وصفهم في مستهل هذا الكلام.

(٣) البدء بفتح آفاق شباب العلم على شتى وعاء سفر العرب عبر أزمان التخلّف، والمبادرة إلى استرجاع ملامح مدرسة العلم العربية المجيدة (مصطفى، ١٩٩٨) وسنح وقفة العصر الحضارية العربية المنشودة. وعلى رغم علو همة رواد العلم والتقنية العرب في هذا العصر، ومع لزومهم بإمكانات الإزالة الذاتية للإمبات، ونجاحها في شحذ هممهم كلما خيبتها الأحداث السياسية، بقي المجتمع العلمي مشتتاً، ولم يفلح في وضع رأي عام يطرح مصري عربي في موضع القوة بعد.

(٤) نقل المجتمع العربي لأزمة العصر الحديث، وتمكينه من إرساء تمدن (civilization) معظم أقطار الوطن العربي.

(٥) تفعيل وثائق التعامل العلمي والتقني بين أبناء المجتمع العلمي العربي مع أمثالهم في مجتمعات العلم الإقليمية والدولية.

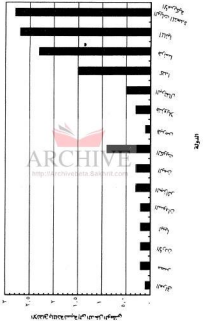
على أي حال، ثمة من يقرأ من أصحاب القرار التنموي العلمي هذا البحث وتستثمرونه الحقائق أنفة الذكر فيقول: «وهل بخلت الدولة العربية ماديا في أي مكان من الوطن العربي على المجتمع العلمي العربي كي يثقل في حظه ما قيل؟». ولا صوابنا الكثير من تعابير لفظ رسمية كهذه، فإطفاء اللمپ الأخير هذا يتم بكل يسر من خلال بيان الحقيقة المرة التالية:

«لو اتخذنا جدلا الأرقام المنشورة حول تمويل العلم والتقنية في الوطن العربي، واقتربنا جدلا أيضا أن (٢٨) منها يرصد لتمويل البحث العلمي (واللتطوير إن وجد)، تتبين أنه عند منتصف عقد التسعينيات ثم يرق هذا التمويل نظريا إلى حدود (٢.٦٥ بليون دولار أمريكي). وبمضاهة هذا الإنفاق كله مع ما أنشته شركة توشيبا اليابانية عام ١٩٩٥ على الهدف نفسه نجدّه يكافئ مثلا (٢٩٤).

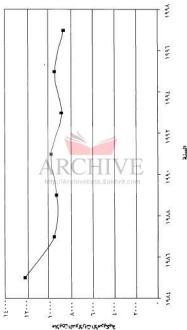
## ٤ - ٣ : استنهاض القوة : هذا كل شيء

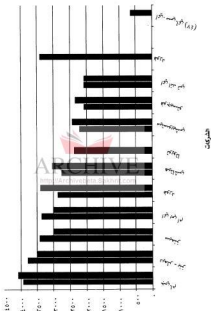
والآن يبقى ثمة سؤال يثار هو: «إذا كان العرب يربون العزة لأجيالهم المقبلة، باعتبار أن هذا الأمر واجب، فالعزة لله والرسوله والمؤمنين، فهذه العزة كما أوضحنا في مجمل سياق البحث لن تكون من دون استنهاض قوة العلم العربي، فهل إلى خروج من سبيل؟ وسهيلة

المشكل الرابع: يهين الإطباء العلمي على العلم والتربية في المقام مختلفاً من الوطن العربى خلال النصف الأول من عقد التسعينات الهجرى (الثلاثة من العقد الوطنى العام)



الشكل الخامس: بيان الانخفاض على محور الثقافة وتطورها في عالم الشمال (1997 - 1999)





الطائي، القلقوني، العشرة الأولى في العالم على البحث والتطوير (١٩٩١ - ١٩٩٤)





للإجابة عن هذا التساؤل الكبير، يبدو أنه من المفيد تكوين أية الوضعية العربية الصادقة اللازمة لتنفيذ الإستراتيجية المثبتة آنفاً. ويمكن أن ينجز هذا التكوين عبر مرحلتين: هاجلة، وتبدأ من اليوم وحتى منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. أجلة، ربما تتطلب زمناً لا يقل عن عقد كامل من الزمان المقبل.

وبتحقق المرحلة الأجلة، يمكن للعرب دخول مستقبل عزيمتهم الحقة من باب البحث والتطوير الواسع (كما بينا في القسم الأول من هذا العمل)، الذي يوفر للأجيال العربية القادمة مصادر الثروة والعطاء لتحل محل النفط الناضب مثلاً، ونعتقد أنه بإمكان العرب عامة، ومجتمع العلم العربي خاصة، اجتياز غيبات أمل الزمن العافل، والاتطلاق نحو المنشود من خلال المحاور التالية:

## • المحور الأول:

### تعزيز البنى الأساسية الوطنية للبحث والتطوير

على رغم التغيرات الكبيرة في منظور أنظمة الحكم العربية الراعنة لأمر البحث والتطوير لديها، ثمة تطابق دائم في الإفادة من العلم والعطاء، واستخدام آليات رعايتهم الرسمية (١) في تمويل مظهر تلك الأنظمة داخلياً وخارجياً. علماً بأن هذا التباين قد يتراوح بين الاعتقاد بأننا لسنا أمة بحث علمي، ومن الأنسب إعطاء الخبراء وإنباع التقنية لصلصة توجهات خطط التنمية الرسمية. وقد يصل هذا المنظور إلى حد الجهر بأن الوضع الدولي الجديد لا يسمح البتة بإجراء البحوث (وإنما يفتقر على بالذات النظام العالمي الجديد، ومجلس الأمن الدولي - وكثير من أنظمة الحكم العربية يعتقد كذلك - أن يعا وطناً ما (وليكن في مجال الليزر مثلاً) قد يقع في إطار الأعمال الخيرية والإرهابية (كإنشاء مداخل ليزرية، صيانة الصواريخ المتقدمة والأفكار الصناعية كما في برنامج حرب التجوّم النفذ في الولايات المتحدة الأمريكية وحظيبتها الإستراتيجية [إسرائيل] ويمكن أن يهدد مسيرة كذا وكذا... إلخ. لهذا ترى مثل هذه الأنظمة العربية أن لا حاجة لتبذير الدخل الوطني العام في أمر يوجع القلب ويعسر الدرب أمام عناصر الدولة وخطوطها. وهي ما بين هذين الحدين، ثمة أنظمة عربية مختلفة حقا في إنماء مقدرة البحث الوطنية، ونعتقد أن أبناء المجتمع العلمي العربي، في نظام وطني كهذا، محظوظون كي يتجاوزوا في:

(١) تطوير وجودهم الأكاديمي.

(٢) تفعيل تجمعاتهم الجماهيرية (جمعيات علمية، مشروبات... إلخ).

(٣) لتعديد حواراتهم مع الشباب ومنظماتهم الطلابية، بفرض دعم القرار السياسي الهادف إلى تعزيز مقام العلماء والمالكون بقرار جماهيري بدعم سعيهم لتوطيد مسيرة البحث والتطوير الوطنية (مصطفى، ١٩٩٥، ١٩٩٦، ب: ١٩٩٧).

ويبقى على أبناء المجتمع العلمي واجب آخر يتركز في:

(١) تعزيز سمو التدريب العلمي وتحديث كلياته الأكاديمية باستمرار، والعمل على تنسيق موارد البحوث الأكاديمية، بحيث يجري تركيز التمويل في ما لا يقل عن بحث كبير واحد في كل قسم من كليات الجامعة، وبذلك يتم تصعيد قوة كل جامعة من خلال البحوث المصطفاة والحفظة فيها.

(٢) متابعة تخصصاتهم واهتماماتهم العلمية بما يتصل بالمسائل الراهنة للمجتمع والبيئة والدفاع عن سيادة البلاد.

(٣) الاعتماد قدر المستطاع عن العلم الذي لا يتفع الوطن والإنسان والبيئة، علما بأن إمكانيات الأقطار العربية منفردة لا تسمح بإجراء بحوث تعاقب العديد من التي تخصص فيها الأكاديميون في الخارج. ويمكن أن يكون لنا في مركز البحوث النووية الأوروبية (CERN) خير مثال على حشد الإمكانيات الإقليمية لتحقيق البحوث الشاملة.

(٤) ابتكار آليات حوار في ما بين الحرم الجامعي ومؤسسات التنمية الوطنية للتعرف على المسائل التي تواجه هذه المؤسسات، والاجتهاد في ابتداء حلول متقدمة لهذه المسائل وبأقل ما يكون من المال، ومن دون أي مبالغة ضمن الأطر التنموية، ومن جهة أخرى، تكوين جسور للتفاعل المتبادل بين الجامعة والتنمية الوطنية عموما.

(٥) الإفادة من وسائل الإعلام الرسمية وغيرها في توعية الجمهور العربي بقوة العلم الصهيونية، وتصعيد إجماع الرأي الوطني العام على دعم جهود البحث والتطوير بما يتفق وروح هذه القوة العاشمة (مركز دراسات البحوث العربية ١٩٩٩).

(٦) تجسير الهوة التي قد تكون بين أطياف المجتمع العلمي في هذا القطر وذلك بما يخدم تكوين رأي علمي عربي عام.

<http://Archivebeta.Sakhri.com>

(٧) المبادرة بشكل ديموقراطي ما للمساهمة في صنع خطط التنمية الوطنية.

## ● المحور الثاني

### التجاهد في دعم أطر العلم العربية المشتركة

لا جدال في أن العمل العربي المشترك يمثل أحد أبرز الصيغ الرئيسية المؤدية إلى صنع وحدة عربية حقيقية، والإنسان المؤمن بهذه الحقيقة، الذي تنبئ له مثاقا العمل في قيادة إحدى مؤسسات العمل العربي المشترك (منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول - جامعة الدول العربية... إلخ) لابد من أنه على كثير من لعب (game) التنافس السياسي التطري ضمن هذه المؤسسات الوحدوية المجهدة، حيث تبين له مدى فعل هذه الأمور في حريف هذه المؤسسات عن برائها ومصداقيتها العربية في تحقيق برامجها الكبيرة الثيرة للتقدير والإعجاب، ومن نافذة هذا الواقع، يمكن رؤية تعثرات هذه المؤسسات الحضارية الوحدوية، وتغلبها عن أداء المطلوب منها نظريا، والمثير لأكثر الأسى في هذا الصدد، هو ما انعكس على البرامج المتقدمة التي هدفت منذ المؤتمر الثقافي العربي الأول في القاهرة منذ أقول هذه المستشفيات المصروع وحش اليوم، إلى بناء أرضية عربية صلبة لتعزيز سمو

العمل العلمي العربي والانطلاق نحو افق طيبة للبحث والتطوير. ولا يمكننا البتة هنا التحدث عن منجزات العمل العربي المشترك في هذا المجال، فهي تحتاج إلى مؤتمر عربي شامل يستفيد من حقائق هذه المنجزات في رسم صورة واقعية للبحث والتطوير العربي، بشقيه الفطري والعربي المشترك. وبغض النظر عن حال بعض مؤسسات العمل العربي، نعتقد أن تقديم الدعم المالي والسياسي والعلمي لأكثرها التزاماً بمسؤولية الإسهام في تنفيذ إستراتيجية البحث والتطوير الدولية أمراً، يمكن أن يجنب الأمة العربية طيبة أمل كاسحة في هذا الصدد. ويمكن أن يرد عن المجتمع العلمي العربي هزيمة جديدة قد تشنها عليه بعض قوى الظلام المعادية داخل الوطن العربي وخارجه. خصوصاً أن ثمة أنظمة سياسية عربية تؤمن خطأ بأن الأمة العربية ليست أمة بحث علمي. ولا نجد واحداً ممن يتفق معنا في هذا الاعتقاد بخالفه اختيارنا لكل من جامعة الدول العربية واتحاد مجالس البحث العلمي العربية لتزويدهما بالإمكانات المشار إليها أعلاه. ونحت مظلة القرار السياسي العربي المشترك، الممكن تنفيذه بشكل ما عبر أدوات جامعة الدول العربية واتحاد مجالس البحث العلمي العربية، يمكن مثلاً:

(١) رسم توجه عربي مشترك لتوحيد جهد المجتمع العلمي العربي باتجاه تنفيذ إستراتيجية شجاعة للبحث والتطوير.

(٢) إرساء رأي سياسي - علمي عربي يكون بمثابة ناظم لتطبيق وتطوير الإستراتيجية المشار إليها أعلاه.

(٣) دعم التوجهات الرئيسية للمجتمع العلمي العربي في الإفادة من المنظمات والمؤسسات والمصارف والصناديق الإقليمية والدولية في دعم مركز البحث والتطوير العربي.

(٤) تشجيع مؤسسات المجتمع العلمي العربي المستقلة، كالأكاديمية العربية للعلوم، متابعة فكرة إنشاء مراكز عربية حرة للبحث والتطوير، كالتي ضلنا من أجل قيامها مع المرحوم العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد السلام. هذا وتجدر الإشارة إلى أننا فعلاً بطرح هذه الفكرة على مؤتمر القمة الإسلامية الذي عُقد في طهران، وذلك على النحو الذي سبق أن طرحته به على مؤتمرات القمة العربية الأخيرة. ونعتقد أنه من واجب المؤسسات الفكرية والتنمية الحضارية العربية المتقدمة، أن تدعم بقوة تيشيرية، كبحشاً هذا من جهة، وأن تتعاون مع الأكاديمية العربية للعلوم على إصدار إعلان عربي - دولي تدعو فيه الأممين العربية والإسلامية لإقامة مراكز دولية عربية - إسلامية مستقلة للبحث والتطوير في عالم الجنوب عامة، والوطن العربي خاصة من جهة أخرى.

#### ● المحور الثالث:

#### تعزيز وحدة المجتمع العلمي العربي وصنع الواجهة العلمية العربية

وقد بلغنا الشوط الأخير من حوارنا الإشكالية قوة العلم العربي الراهنة، ولا نجد من بين أسباب تردّي وجودنا العربي اليوم سبباً يضاهي غياب وجود مدرسة العلم العربي النجدة. ونعتقد أن جعل هذا الغياب عائد لعمليات تقريب سافرة لهمة العلماء والمفكرين في المجتمع العلمي العربي، خصوصاً

في ميدان صنع قرارات التنمية العربية وهي شتى مجالات تنفيذها. وإن أرجع هذا التغييب لضعف في الإمكانيات الحضارية - للمضي لأهمية قوة العلم في صنع تقدم الأمم ونهوضها، أو نسب إلى توجه سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي غير مقصود - فهو في أكثر من بلد عربي عائد إلى رغبة النظام السياسي فيه لاستبعاد رأي المجتمع العلمي، التمس عادة بالموضوعية والصراحة والوطنية (المستقبل العربي، 1997 و 1998). وقد سبق أن أشرنا إلى مثل هذه الحقيقة في سياق هذا العمل، فليس ثمة ما يحول اليوم دون متابعتها الدعوة لعدم وجود المجتمع العلمي العربي وتهميز النوعيات الشعبية الحرة العاملة في هذا الاتجاه. وإن يقول قائل: ما الذي يمكن تحقيقه على يد المجتمع العلمي العربي المستضعف. بعد أن فشلت كل التكوينات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العربية - بشطبها العلم والعلوم - في تحريك محرك مركب البحث والتطوير العربي عبر زمن القرن العشرين؟ - ولا نحتاج هنا إلى كثير كلام. بعد الذي بيناه أيضاً في هذا العدد، تلود على هذا التساؤل - فليدنا مثال وقفة المجتمع العلمي البريطاني في وجه سياسة السيادة مارجريت ثاتشر، ومن ثم فلاح هذه الوقفة في إجراء التغيير السياسي اللاحق في السياسة البريطانية، فلولاً وحدة المجتمع العلمي البريطاني وقوة تأثيرها في الرأي العام البريطاني. ما كان ممكناً وجود مدرسة العلم البريطانية في الصف العلمي العالمي الأول، وما كان ممكناً للمملكة المتحدة أن تصير دولة رئيساً في لعب الأمم الاستراتيجية. وبناء على هذه الحقيقة، تجد من الواجب إعادة طرح التحديات التالية أمام أبناء المجتمع العلمي العربي:

- تسعير الجهود الرامية إلى استكمال بيان «الأكاديمية العربية للعلوم»، وذلك بعد الإعلان عن قيامها في التتبعات والتوترات العربية والتولية فيها لا يقل عن عقد من الزمان (مصطفى، 1996).

<http://Archivebeta.Sakhri.com>

- توسيع وجود شبكة الجامعات العربية لتتابع تواصل أبناء المجتمع العلمي العربي، خصوصاً بعد أن انحصر دور الشبكات والاتحادات الجامعية العربية الرسمية في هذا الشأن.

- تشييد الاتصالات مع رئاسات مؤتمر القمة العربية ومؤتمر القمة الإسلامية، وحلها على دعم فكرة إقامة مركز دولي إسلامي - عربي مستقل للبحث والتطوير في المنطقة العربية، وبشكل خاص في إطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية المتحد.

وإن نرجو الله جلت قدرته أن يجعلنا نرى تحقيق بعض ما توصلنا إليه من افتراضات في هذا البحث، لا نجد في اختتام سوى أن نذكر أنفسنا - نحن أبناء المجتمع العلمي المستضعف - بالوقفة لله وللعلم الذي أكرمنا الله به. وليس في التفكير من معنى سوى الدعوة للاعتصام بحيل الله، أي المحافظة على طاعته، وبراغماتية أمره، والترقي عن كل موهوب، والتخلص من كل تردد، وبخلاف اعتصام العلماء والسالكين عن اعتصام العامة بتميزه بالانقطاع: صوتاً للإرادة قبضاً، وإسميال الخلق على الخلق بسطاً، ورفض العلاقات عزمًا، وهو التمسك بالعروة الوثقى الذي كان معاد شدة بأس قوة العلم العربي، وشماع سمو مدرسة العلم العربي الجيدة قبل ألف عام، والله ولي التوفيق.

- نورلاندريك، جون، 1990، Vol. II, (80-81), Columbia: Thorndike, L., 1990, "A History of Magic and Experimental Sciences" University Press, New York & London.
- جامعة الكويت، 1996، «البيان المختصني لأعمال شعبة الجامعة وأفاق المستقبل» (20 - 27 نوفمبر 1996)، كلية الآداب، الكويت.
- حسن، محمد، حج، 1990، شبكة العالم الثالث المنظمات العلمية، إحصائيات حول العلم والتقنية وتعليم العلوم والعلوم الفطرية الجنوبية، تحرير الدكتور هسان مصطفى، منشورات أكاديمية العالم الثالث، العلوم (تريستي - إيطاليا).
- (إيمان، جون، 1976) Ziman, John, 1976, "The Force of Knowledge: The scientific dimension of society", Cambridge University Press, Cambridge, UK.
- (إيمان، جون، 1984) Ziman, John, 1984, "An introduction to science studies: The philosophical and social aspect of science and technology", Cambridge University Press, Cambridge, UK.
- شيلان، (إدوارد، 1988) Shils, E., 1989, "The Modern University and Liberal Democracy", Minerva, Vol. xxvii, No. 4, (444).
- العالم الجديد: 1988 (19، 17) The new Scientist, 21 February 1985, "What do people think of science?"
- عالم الفكر، 1996، عدد خاص حول «التعليم العالي في الوطن العربي»، تحرير الدكتور هسان مصطفى، العدد 76، العددان 1 و 2، يوليو / تموز - أكتوبر / ديسمبر 1996، مؤسسة العربية.
- عبد السلام، محمد، 1997، «إحصائيات حول العلم والتكنولوجيا وتعليم العلوم في تنمية الفطرية الجنوبية» المصغرة العربية، تحرير الدكتور هسان مصطفى، نشر في المجلات العالمية الثالث العلوم (تريستي - إيطاليا).
- فيروزج، هينك، 1981 Verbeeg, Henk, 1981, "The responsibility of scientists", 19, 362.
- كاتون، بي، 1977 Cantor, E., 1977, "Scientific man: The humanistic significance of science", Institute of Humanism, New York, USA.
- الكلابادبي، محمد بن إسحق، القرن الرابع الهجري، «التعرف لمذهب أهل التصوف»، (77)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- كون، لوماس، 1962 Kuhn, T.S., 1962, "The structure of scientific revolutions: Foundations of the Unity of science", Vol.: 1 + 2, The University of Chicago Press, USA.
- ليببي، لونا مارشال، 1979 Libby, L.M., 1979, "The Uranium People", Crane Russak, New York, USA.
- مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، «مطب المؤتمر القومي العربي التاسع» مجلة المستقبل العربي، العدد 217، (76، 77)، - بيروت، لبنان.
- المركز الدولي للعلوم الفطرية، 1990
- KTEP, 1990, "The General Report: Conference on cooperation in science, high technology and environment between North and South Mediterranean Countries - 1990", 12-13 Nov, 1990, Trieste, Italy.

- المستنقيل العربي: 1997 و 1998، «الطرق كتاباته: إراء الطلبة العربية» في الأعداد 224 و 227، بيروت: لبنان، مصطفى: عديان
- 1991، أ. د. سليم والفتية العربيان: بين مقام الرقابة ومقال الطلبة: شؤون عربية، العدد 76، يونيو 1991، (78 - 98).
- 1991، ب. د. أرملة البحث العلمي العربي: هل إلى خروج من سبيل، «شؤون عربية» العدد 78، أبريل 1991، (33-37).
- 1997، «مؤتمرات الوجود العربي في إطار حرب دافقة» قصة الأرض، «شؤون عربية» العدد 87، ديسمبر 1997، (20 - 21).
- 1997، أ. د. العرب وقصة الأرض: الرسالة الثقافية، المستنقيل العربي، العدد 177، يناير 1997، (107 - 111).
- 1997، ب. د. مسئولية التجميع العلمي العربي: التطبيقات حول البحث عن رؤية جديدة، المستنقيل العربي، السنة 19، العدد 281، أغسطس 1997، (267-28)
- 1997، ج. د. البحث والتطوير العلميان العربيان: حوارات مضيئة في زمن التفتت، المستنقيل العربي، العدد 87، ديسمبر 1997، (176 - 177)
- 1998، أ. د. ومن يغشى الرهب الكهولوني، مجلة العربي، العدد 198، 1998، (78 - 81).
- 1991، ب. د. تقرير حول أعمال المؤتمر الدولي للبحث العلمي و دورها في حماية البيئة من التلوث، المستنقيل العربي، العدد 181، مارس 1991، (181 - 197).
- 1998، «مسألة الجامعات العربية: منظور القيود الحياتية» مجلة عالم الفكر، المجلد 26، العددان 1 و 2، (18 - 32).
- 1996، أ. د. محمّد وساميات العلم والبحث العلمي: الرافعة، المستنقيل العربي، العدد 812، أكتوبر 1996، (87 - 94).
- 1996، ب. د. «مقدمة البحث العلمي» و «الفتح نواة الجامعة اليوم» و «نقل المستنقيل» الكويت، 25 - 29 نوفمبر 1996، كلية الآداب، جامعة الكويت، (207 - 228).
- 1997، «الأوضاع العربية في إطار وسائل تطوير الأرض» في «قصة العربية» (1) رأي الدكتور عديان مصطفى، المستنقيل العربي، العدد 78، يناير 1997، (110 - 111).
- 1998، «التطورات الجديدة» حول «مير البحث والتطوير في الوطن العربي» - نواة هيكلة البحث والتطوير ودورها في تنمية المجتمعات المتنامية، عمان، 1998، اتحاد مجالس البحث العلمي العربية.
- 1999، «مقابلة الدكتور عديان مصطفى على بحث: الإمكانيات البشرية والتعليمية - تطبيق الدكتور نايف فرجاتي، مدير مركز مشكلة البحث - القاهرة» نواة «العرب ومواجهة إسرائيل» احتمالات المستنقيل، 10 - 12 مارس 1999، بيروت، لبنان.
- مصطفى، عديان ومصطفى، هادي، 1997، «الشبكة العربية للمعلومات: تصور جديد» شؤون عربية، العدد 87، مارس 1997، (78 - 81).
- «نايف روماء» 1998، «الثروة المائية الأولى» من أجل مشروع عالمي جديد - «تقرير نايف روماء» تحرير الدكتور كمال وبرتراك شندو، النشطة العربية من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، (7) - صفحة 14 و ب - صفحة 17 و ج - 22.
- الفدوي، محمد بن عبد الجبار، القرن الرابع الهجري، «كتاب الحوافل والمطامير» - تحقيق أرثر يوحنا آريوي، 1971، دار الكتب المصرية بالقاهرة، (273).
- الفيديوي، أبو الحسن علي بن عثمان، 117 هجري، «كتاب المحبوب» - دراسة وترجمة وتحقيق الدكتور إسماعيل فتوح، 1988، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- الفيديوي، عبدالله الآساري، القرن الخامس الهجري، «كتاب منازل الصائرين» - (98) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، و«برهان» جون، 1988.
- "Minerva, 23:46). Weinman, J., 1985, "On conservation and adventure: Styles of scientific research"

# الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية

عبد الرحمن السليمان\*

يستمد الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية معانيه وإلهاماته من مصادر مختلفة، لعل من أهمها التراث والثقافة الشعبية للمملكة، والتراث الفني الإسلامي والمظاهر الاجتماعية والتغيرات في المجتمع السعودي المعاصر، كما استلهمت عدد من الفنانين من الإلهامات الفنية العالمية.

يعتبر الفنان عبد الحليم رشدي ١٩٦٩م صاحب أول معرض فني أقامه بعد عودته من دراسته الفن في إيطاليا عام ١٩٦٤م في جدة، وأقام الفنان محمد سليم ١٩٦٩ - ١٩٩٧م معرضه الأول عام ١٩٦٧ في الرياض، وأقامت صفية بن زهر معرضها الأول عام ١٩٦٨م في جدة، وبعد عام يقام ضياء عزيز معرضه الأول قبل أن يبعث لدراسة الفن في إيطاليا، وتشهد العاصمة الرياض أول معرض جماعي للطلبة الرئاسة العامة لدراسة الشباب عام ١٩٦٩م، ومع منتصف السبعينيات تبدأ حركة معارض نشطة انطلقت في معظم المدن السعودية، ومع هذا الاهتمام الذي أعطى للمساحة نشاطها كانت جمعية الثقافة والفنون بفرعها في بعض المدن بجانب مركزها الرئيسي في الرياض، وأسهمت بشكل كبير في إغناء المساحة التشكيلية في المملكة بالمعارض الفردية والمشاركة بجانب المعارض الجماعية.

ومع هذه البدايات كان البعض قد ابعث لدراسة الفن أو الديكور خارج المملكة، وخرج معهد التربية الفنية أولى دفعاته عام ١٩٦٨م، وافتتحت أقسام للتربية الفنية في بعض الكليات السعودية.

(\*) كاتب وباحث سعودي.



## أحد التفاعلات مع العلم

كان ابتعاث رضوي لدراسة الفن في إيطاليا الانطلاقة لإرسال بعثات أخرى لاحقة، ففي العام ١٩٥٩م يقبل عبدالعليم رضوي «أقيم أول معرض جماعي للمدارس الثانوية بالملكة» وفازت إحدى لوحاتي بالتركز الأول، هذا الفوز - يضيف رضوي - دفعني لدراسة الفنون الجميلة بدل الطب<sup>(١٠)</sup>، واختارت وزارة المعارف عام ١٩٦٠م رضوي مع اثنين من زملائه لدراسة الفنون بعد حصولهم على شهادة الثانوية العامة، وأبثت فيما بعد محمد الصنعبي ومحمد السليم وضياء عزيز ويكر شيوخون وخالد العبدان وكمال العلم إلى إيطاليا، وفواز مغريل ومحمد الرصيص إلى مصر، وعبدالحاميد البقشي وعبدالله المزروق وآخرون إلى الولايات المتحدة، وفهصل سمرة إلى فرنسا، وواصلت نبيلة البسام دراستها الفنية على حسابها الخاص، كما هي منيرة موصلي وصفية بن زاهر وعبدالمستار الموسى وغيرهم، وأبثت فيما بعد أعداد أخرى لتواصل دراساتها العليا في التربية الفنية على وجه الخصوص.

وعاد عبدالعليم رضوي مشغولاً بتطبيقات على مستوى المعمل السيكولوجي، فدرس بوهي (النموجات الفكرية والشحنات الانفعالية)، وقدم مؤلفاً في هذا الصدد. وكانت أعماله تستمد تعبيراتها من فلق (فان جوخ) الهولندي (١٨٥٣-١٨٩٠م)، لكن رضوي ما لبث أن تحول عن قناعته وهو يحاول توظيف المظاهر الحياتية في دينامية تحريكها عناصره المعشدة في ضياء لوحته، منازل لقائدية وشخصيات وطوبى وكتابات وإحاراف ولون زاه، خرج وضوء وإشراق صُبرت من حيوية الفنان، وتطاوله لحياتة لحياتية بفعل الإنسان وأثره. وكانت عودة محمد السليم إذا ما يعاقب مع رضوي التذلل من طيف الملاحظة التشكيلية في الملكة وقتها، وصار مهموماً بالأصالة وترسيخ بعض المفاهيم التي تؤكد انتفاء العقل الفني لأرض ومجتمع ووطن، عمق رؤيته للطبيعة والزرع والجمال والإنسان، عالج أعماله بانطباعية متأخرة، ضربيات أو لسات تنهين ألوانها وتتجاذب. لكن تلك التقييمات بدأت تخضع لأفكار ومستجدات حيث امتدادات صبراته بأعداد جرة ممكن الرسم، فزهد طهه اللون، وبدت لوحته تناقضات لونية يتحرك فيها شكل مجرد لحرف عربي أو منزل طيني أو خيمة.

ويعتبر عبدالجبار اليحيا ١٩٦١م من الرعيل الأول وإن بدأ نشاطه متأخراً، فقد أسهم بالكتابة في الصحافة منذ الستينيات، وأقام أول معارضه الفردية عام ١٩٧٢م في الرياض. وتطرح أعماله تعاطفه مع الإنسان في قضايا الحياتية والصبرية، كما تشكل المرأة عنده هاجساً. ويتناول اليحيا عناصره بكثير من التيسيط والانتقال. وكانت صفية بن زاهر مشغولة بمحيطها الاجتماعي، توثق وترصد العادات والتقاليد، وقلتها على المظاهر الاجتماعية خشية الانتثار. رسمت بكثير من المعنوية عن الأعراس والشخصيات والمنازل الحجازية والأفراح والشاظر المسرحية.

(١٠) الفن التشكيلي في السعودية بقلم عبدالعليم رضوي - مجلة الآداب - أيلول - بيروت.

وبالمثل اهتم سعد العبيد 1٩٩1م بتسجيل مظاهر المحيط الاجتماعي والمصعراء والريف ووجوده لشخص كبار السن والأواني المستخدمة، ويعالج أعماله بطرية وعفوية يستفيد فيها من بعض أعمال الانطباعيين التقطيلين.

أما محمد الصندل 1٩٩1م فيلتقي مع العبيد في تسجيل مظاهر البيئة والحياة الزراعية ويسترجع الصندل بعض القطا من مخزون بصري ثري باللون والمواضيع من بلدة الأحساء، كما يلتقي معهما عبدالرحمن الحافظ 1٩٩2م وأحمد المفلو 1٩٩٥م اللذان اهتمتا كثيرا بتسجيل عادات ومظاهر اجتماعية قديمة في الأحساء، وانطبعت أعمال علي الصفا 1٩٩2م بتسجيل وتوثيق مظاهر تقليدية في بلدة القطيف، مستفيدا من أعمال التأثيرين.

اتجه عند آخر من التشكيليين السعوديين نحو الظاهر الاجتماعية والطبيعة في الأرض العربية السعودية، فكانت أعمال فوزية عبد اللطيف التي رسمت من وحي القصص العربي والحكايات والرصد لعادات وتقاليد وحارات جدة... ويعقوبة، كذلك سليمان المفل وخاله العبدان وإبراهيم الفارس وإحسان برهان، الذي اهتم بدراسة المنظور والضوء واللون، ويستفيد إحسان من الأكاديمية ضياء عزيز وتجاروة التسجيل إلى التعبير. وانشغل عبدالرحمن الحواس بالمكان النجدي فاهتم بتفاصيله خاليا من أي كائن حي، ويظهر إبراهيم الزاكان عن قدرات في رصد مشهد بانورامي من المصعراء والحياة الزراعية، ومثله ملير الحججي الذي راح بين أعمال تسجيلية من الانطباعية وأخرى أقرب إلى الكاميرا، ويؤكد فارع الأثري على معطيات اللون وثراء المشهد به بقطعة الانطباعية، ومثله سعود الشحطاني وحسن عسيري، وتتميز أعمال عبداللہ الشلبي ببراء لوني وقدره على تحريك مشهد وفق رؤية انطباعية يشارك فيها اللون، مثيرا في المشاهد البحث عن شكل يقنصه أو موضوع يسهل مسكه لتفاصيله.

ونوع محمد اللوف على موضوعات محلية، مؤكدا على معطيات اللون وتأثيرات فرشاة الرسم، وتطرح أعمال ضياء عزيز تعاطفا إنسانيا حتى وهو يرسم موضوعا محليا، ويتجاوز ضياء انطباعية المشهد إلى التعبير عن الموضوع بكثير من الاستفادة من خبراته الأكاديمية: رسم عن فلسطين ولأمس ضياء إنسانيا، كما رسم التوجه ورصد المظاهر الاجتماعية المختلفة. رسم الأمير خالد الفيصل مواضيع إنسانية وطرح بعض أعماله علاقة بالشعر، وهو يتصور ويتخيل من بيت شعر أو قصيدة جاهلية، كما طرح في أعمال أخرى تعاطفا مع ضياء إسلامية.

استفادت مجموعة من الفنانين التشكيليين في المملكة العربية السعودية من الإنجازات الفنية الحديثة، ففي الاتجاه التكعبي اتضح اهتمام علي حسن هويدي وهؤلاء مغربل ومحمد سيام ومحمد الرميض: هؤلاء مغربل رسم ورصد موقعا للمدينة المنورة، حيث

## الفن التشكيل في العراق

الباني القديمة والحارات والجوامع وبعض مظاهر الحياة التقليدية فيها . ويحيل مقربل مساحات لوحته إلى تقطيعات هندسية أقرب إلى تكعيبية تحليلية، مؤكداً على الضوء ومعطيات اللون الواحد في بعض الأعمال. ويُذكر معظم أعماله بالأعمال الفسيفسائية الإسلامية في تراص قطعها. أما محمد سيام فله موضوع لديه يتحول من شكله الجاهز إلى سير أعمق له من خلال تأثيرات اللون، وحدة الخط وعلاقات المساحات. وهذه الاهتمامات لاحقاً به إلى ما توصل إليه المستقبلون في أعمال من ترديدات الخط وتناليه ليهوي بحركة ودينامية في الشكل.

أما علي حسن هويدي فكانت المساحة الهندسية حلاً لتجاوز الصورة المحاكية، ومن خلال قفالة شطافة على العنصر يطرح من سكونه، ولونه الجاهز إلى إمكان ونتيجة جديدة تمنح العمل ثراء ودينامية خاصة عندما يتعامل مع مجموعات متقاربة من الألوان.

أما محمد الرصيص ففي أعماله بساطة هندسية يستخدمها من إنجازات التكعيبين مع موضوع أقرب إليه، كما يتجاوز أحياناً الموضوع إلى دراسة علاقات مساحية ولونية يتأكد فيها تأثير اللون وتعبيرته أو دلالته، كما توجه واستناد من التكعيبية مبرزا الصالح الذي قرب الصورة إلى التمنمة الإسلامية، ويختلطها بالاشعاعية من تشكيلات مخزولة لأشكال آدمية أو نباتية أو حيوانية أو معمارية تفتّح بزواياها وزخرفتها.

والسوريالية وتأثيراتها هذا في بعض أعمال قليل من التشكيليين السعوديين: فعبداً الحميد البقشي ويوعي ميكر وفترات ومهارة كبيرة رسم مواضيع ذاتية واجتماعية وإنسانية وفق صياغات أقرب إلى أعمال السوراليين ورخاوة وتعبير عناصرهم، ويستمر البقشي المكان المحلي حيث القنزل أو العناصر الأخرى التي يحتويها، كذا الجبل أو الزرع أو قهرهما . وبشكل وصياغة مختلفة كانت أعمال خليل حسن خليل الذي طرح مواضيع مختلفة من التاريخ العربي والاجتماعي والذاتي، وما بين البقشي وخليل... مثلاً بين سلطانور دالي وماغريته.

هيبت أعمال عدد من الفنانين التشكيليين السعوديين عن الاهتمامات نفسها: خالد الأمير يطرح يعبر عن ذات قلقة، وبعض أعمال محمد سيام عن بحث في مجهول، وعبد العظيم شلي عن أعمال أقرب إلى التعبير عن ذات قلقة أيضاً، وحميدة سنان تعبيرا عن اجتماعي وتاريخي... وذاتي أيضاً. كذلك سامي الحسين للتعبير عن مهارات وتصورات تشد للعيان شكلاً أجمل. وعند عبد الحميد بوحمد الذي يطرح موضوعاً سوداويًا. وصالح خطاب الذي هو أشبه ما يكون بالذي يعبر عن أحلامه وخيالاته وخوفه، في أعمال لقهد الربيع محاولة لإيجاد علاقة جمالية بين عدة عناصر: امرأة وحصان وكائنات أخرى. كأنه يبحث عن مكان أجمل للعب.

## الفران في أعمال التشكيليين السعوديين

شكل التوجه نحو التورث العربي والشمعي المحلي في المملكة العربية السعودية تياراً قوياً ابتداء من إقامة العروض الجماعية الأولى. ولعل للشجيع الذي يجده التشكيليون من أهم الجهات

القائمة على الفن التشكيلي في المملكة وهي «الرئاسة العامة لرعاية الشباب» أثره في ظهور تجارب متنوعة ومتباينة في الوقت ذاته. كما أن هذا الاتجاه وجد صدى عند الفنانين، فمشاريع كمشاريع المطارات الثلاثة الكبرى<sup>(\*)</sup>... هي المملكة شكل التراث النسبية الأكبر في تلك الأعمال الجدارية... وحضور التشكيل في المهرجان الوطني للتراث والثقافة والجنادرية وغيرها.

الحروفية العربية: استغل التشكيلي السعودي الحرف العربي للتعبير عن جمالية من خلال توظيف مباشر أو غير مباشر. ظهر الحرف العربي في أعمال محمد الصقعي مقرباً، عبارة أو أية كريمة أو حديث شريف، وتكلم هذا إلى حضور فرداني للحرف فيما بعد، ويأخذ عند محمد السليم، الذي حاول أن يدمجه في استمالات مساحاته وأفاقيتها، فكتب العبارة أو الآية أو الحديث... كما أن عبد الحليم عديوي استلهم من الكتابة العربية في تكليف وإيصال فكرة لوحته.

عند ناصر الموسى يتشكل الحرف البعثر فن جمالية يكون الحرف فيها مقرباً تارفاً وموزعاً بشكل فرداني مكرراً تارة أخرى. واتجه الموسى إلى الكتابة الحروفية منذ ١٩٨٢ م. أما بكر شيخون فالحرف هو تلك الجمالية التي يعينها تراصه في إخراج ما وبكل مهارة وحرفية يتجاوز فيها الحرف شكله الاعتيادي ليظهر بصورة جديدة وضمن عناصر أخرى كوجود تسالية أو خيول أو منازل.

عند علي التريز كان الحرف متجاوزاً ومعمّاراً فيكتب عبارة دلالية كما يكتب علي الططيس في محاولاته النحتية الأولى. واهتم عبدالعزيز عاشور بالحرف العربي فاستغل مسطحة الحرف الواحد من خلال التأكيد على اتعناثه أو تدويره، تناول الحرف العربي أحمد السبت ويوسف جابها وسليمان الحلوة وفهد الربيع وأحمد منشي وأحمد عبد رب النبي وعلي عيسى الدوسري وتركبي الدوسري ويحيى شريطي وأسماء أخرى<sup>(\*\*)</sup>.

[\*] المطارات الكبرى هي التي أقيمت في جدة مطار الملك عبدالعزيز الدولي - وهي الرياض مطار الملك خالد الدولي - وهي المنطقة الشرقية مطار الملك فهد.

[\*\*] الفنانة السعودية العربية السعودية للثقافة والفنون بالدمام أول معرض لتعريف العربي الفنانين التشكيليين السعوديين ١٩٩٨-١٩٩٩ م. شارك فيه ١٢٩ فناناً تشكيلياً.

## العن التشكيل مع العمارة

برز الاهتمام بالعمار الشعبي في أعمال عدد من التشكيليين، اختلفت صياغاته بين فنان وآخر: عند عبداللطيف وضوي بيوت مكة المكرمة بازدهارها وشكلها المعماري التقليدي ضمن توليفة من العناصر للتعبير عن مظهر اجتماعي شعبي، عند عبدالله الشيخ من خلال تركيب يتألف فيه عنصر حي بأخر جامد وتبرز النوافذ والأبواب والنقوش الزخرفية، عند علي الرزياء في أعماله الأخيرة حيث البيت النجدي الطيفي المزخرف بذهبيات برفافة مع كثير من الحرفية، وهو كذلك في أعمال سليمان باجبع ضمن عناصر حية أخرى فيها الطيور والخيول... وغيرها. تناول المعمار إبراهيم بوقس باشغالات متأثرة استقادات من التكسية، ويصن خيالي تبدو معماريات أحمد الأصح وبإضافة كتابات عربية، وفي أعمال عبدالله الرزوقي دراسات مساحية للمعمار التقليدي، تلخيص شديد للعناصر «الأبواب، النوافذ» على وجه الخصوص وفق تجريد هندسي.

وقد تناول صديد من الفنانين التشكيليين السعوديين المعمار وفق رؤية مختلفة ضمن الحرف والزخرفة، أو بشكل مجرد أو بشكل يحاكي وينقل. ويشار إلى أعمال سمير الدمام، علي الطخيس، إبراهيم التيفثر، سيد السعري، عبدالله مهدي أحمد، صالح خطاب، مهدي راجح، علي الصفار، عبدالله نواوي، عبدالعزيز عاشر، إبراهيم عبده وآخرين<sup>(٩)</sup>.

وتطرح في التجربة التشكيلية في المملكة السعودية مسودة محاولات سعت إلى تحديث والاستفادة من الإيجاب التراثي وفق رؤية أكثر إشكالية على التوجهات الحديثة، فكانت أعمال عبدالله حماد الذي يستفيد من محيطه الفني بالعطيات البصرية هو بلدة (أبها)، جنوب المملكة، حيث اللون والشكل يتميزهما، ويترك حماس لنفسه مساحة كبيرة من الحرية وهو يعبر عن انفعالاته وشحناته العاطفية باللون والمساحة، وتطرح أعمال فيصل سمرة توظيفاً محدثاً للمعطي التراثي، تؤكد من خلال توظيفات حروفية أو استخدامات الخامة لتمنح الإحساس بالجلد أو بأثر آدمي، كما يتقل البدوي من مكان إلى آخر في صحراء مترامية - وتوظف منيرة موصلي خامات محلية، أبواباً قديمة أو قطعاً خشبية أو غيرها لتندمج ضمن فكرة تزاوج بين «الحديث - الآتي» والمنجز التراثي القديم، مؤكدة على مكانها، متضامنة مع إنسانه، وطرح سيد الخليوي تعاملاً حديثاً مع الخامة المستهلكة من الشعبي والبسيط مع كثير من التوسيع والإيجاء، ولأحسن طه صبان مشاعر وأحاسيس محيطه وهو يعاقب بميانيه وعناصره عنان قطاعات لوعته. ويوظف نائل ملا عناصر من زخارف وحروف في فضاءات ساكنة، كما كانت إنسانيات شاذية عالم وصياغاتها الحديثة.

(٩) أقامت الرئاسة العامة لرعاية الشباب عام ١٩٩٠ معرضها الثالث الفن السعودي المعاصر مقرونة بـ (عام التراث الإسلامي) وقد تبنت في هذا المعرض توجهات التشكيليين السعوديين وصياغاتهم للعطيات التراثية المشوة.

هي الفن التشكيلي بالمملكة العربية السعودية تتنوع الاهتمامات والتوجهات مثلما هي القدرات على الابتكار على ما هو أحدث... أو التعلق بما هو أقدم ضمن توجهات أو تيارات فنية محددة. ولعل أعمال أحمد قلعبان تؤكد اهتماماته البيئية وفق رؤية نقدية، وسياسة تستفيد من التجريب التأثيري. وعند كمال المعلم تعبر عن مفردة الحصان الذي يكون بديلاً عن الإنسان. وعند زمان محمد جاسم حلول لعلاقات مساحية يشغلها بتأثيرات الشكل والزخرف النعشجي التقليدي. أما عبدالعزيز الماجد فيعبر بكل صدق وعفوية ومن دون قيود في أثناء ذلك. أحمد السبيت تشفى المساحات والأشكال ليعبر عن شفافية ورهافة. عثمان الخزين يرسم القصيدة كما الوجود. محمد الحمد يلون بتعبيرية تجرد الأشكال وتكفي باللون. ياسر ازهر يتناول موضوعه بصياغة هندسية تجعد العناصر. هاشم سلطان يتناول موضوعه بتأثير تعبيري لوني. مثلما تتطرق معالجات وتكوينات محمد الصقفي ومشاهده البيئية تستفيد رضية برقايوي من إنجازات وأفكار سوريلية، كما ترسم بتعبيرية وشحن ذاتي نوال مصلي، ويكتسب من الرهافة رائدة عاشور وحميمية مع المحيط والتاريخ يرسم توفيق الحميدي. ويتطاولات لونية يرسم خالد المويش والتنوع على الخامة عند عبدالمعطي الضامن، ومحاولات لتجاوز المباشر عند عبدالله إدريس وتعبيرية إنسانية «الراحل علي الغامدي، وأسماء أخرى كمنروح السديري وحسن السديري والهام بالمرز ونبيل نجدي وصالح التقيدان وشريفة السديري وروبة الناصر. وتطوّل مساحة الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية بالأسماء التي اتبعت لها المشاركة في المعارض المركزية ومعارض المناطق أو المدن التي تعظمها مكاتب الرئاسة العامة لرعاية الشباب أو شروح جمعية الثقافة والفنون أو الصالات الخاصة.

وقد أسهمت الصحافة السعودية في دعم التشكيل السعودي بتخصيص صفحات للفنون التشكيلية، خصصتها جريدة اليوم التي تصدر في الدمام وجريدة الجزيرة التي تصدر في الرياض، كما خصصت صحف أخرى الصفحات نفسها في أوقات سابقة. وما زال بعضها يخصص مثل هذه الصفحات كصحف المدينة وعكاظ والبلاد والرياض، وصدر عن جمعية الثقافة والفنون عدد واحد من مجلة سميت بـ «الفن التشكيلي» كما صدرت عن مؤسسة روضان للفنون الجميلة مجلة (فن).

وعزيت الرئاسة العامة لرعاية الشباب بمشاركات محلية ودولية للفنان التشكيلي السعودي. كما نظمت مهرجانات وأسابيع ثقافية (ضمنها عروض تشكيلية) في الخارج. وتبدو التجمعات الفردية/التشكيلية محدودة، وقد قامت في الولايات المتحدة الأمريكية الجمعية العربية السعودية للتربية الفنية أنشأها مجموعة من دارسي التربية وأصدروا نشرات ومجلة تحت عنوان «التربية الفنية». وقد توقف نشاط هذه الجمعية بعد عودة

## النشكيل في المملكة

معظم القائلين عليها واتخاهاهم في سلك التعليم الجامعي. وحاول عدد من التشكيليين إنشاء جماعات هنية في بعض المدن السعودية، وبرزت (جماعة فتاني المدينة المنورة)، الذين عرضوا في معظم المدن السعودية والقاهرة منذ خمسة عشر عاماً تقريبا، وقامت الخطوط الجوية العربية السعودية بتنظيم مسابقة تحت مسمى (ملون السعودية) تمنح فيها جوائز مالية وتذاكر سفر لأربعين من المختارة أعمالهم. وتتاح المشاركة فيها لجميع التشكيليين السعوديين والقيمين في المملكة العربية السعودية، ولقيت هذه المسابقة نجاحا من خلال تنظيمها والحرص على استضافة فتانين وفنانه عرب يقومون بعملية تحكيمها وإقامة ندوات على هامشها.

ولعل أبرز الاشكاليات التي تواجه التشكيل في المملكة العربية السعودية هو عدم وجود جمعية أو اتحاد للفنانين التشكيليين السعوديين على غرار الجمعيات المختلفة أو الاتحادات الرياضية في السعودية، وكذلك عدم وجود إصدار (مؤلف) عن الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية، كما تواجه حركة التشكيل السعودي - مع كل ما تقوم به الرئاسة العامة لرعاية الشباب السعودية - محدودية انتشار التجربة التشكيلية في الخارج، خاصة على مستوى الوطن علما بأن عددا من التشكيليين السعوديين حققوا جوائز دولية وعربية أثناء مشاركتهم في مهرجانات أو فعاليات دولية، وينشرون إلى نكر شهيدون وظليل حمس وعلي الطحيس وإلهام بامعزز وشريفة العديري وسيد القريش السليمان وغيرهم.

يبقى حركة الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية واحدة من الحركات العربية الناهضة المتطلعة إلى آفاق أرحب ومستقبل أكثر إشراقا، مواكبة الحركات التشكيلية العربية، متميزة بتنوعها وإثرائها وحماس أبنائها.